

Columbia University
in the City of New York

THE LIBRARIES





39141

النص الإسلامي

في الأدب والأخلاق

بقلم

زكي مبارك

المفتش بوزارة المعارف العمومية

قدم هذا الكتاب الى الجامعة المصرية
ونوقش امام الجمهور في ٤ ابريل سنة ١٩٣٧
ونال به المؤلف
إجازة الدكتوراه في الفلسفة برتبة الشرف

الجزء الثاني

الطبعة الأولى سنة ١٣٥٧ هـ — ١٩٣٨ م

ALIBRARY
OF THE
UNIVERSITY OF
CAIRO
EGYPT

893.791

M88

v.2

45-35141

v.2

COLUMBIA
UNIVERSITY
LIBRARY

كيف نشأ التصوف في الإخلاق

قدم التصوف — الروحانية والضعف — الضعفاء هم الذين اهتمدوا الى الايمان وعرفوا قيمة النفس الانسانية — التصوف في سفر أيوب وفي القرآن — تصوف الرسول — حذيفة ابن اليمان — الحسن البصرى — أبو حمزة الصوفى — الزهد والتصوف — أهل الظاهر وأهل الباطن — أصل الخلاف — أعداء الصوفية — الصوفية يرون أنفسهم ورثة الأنبياء — فضل الفقه وفضل التصوف — أثر المسيحية في التصوف — محاوره بين صوفى وراهب — طبقات أهل الغيب — الصلة بين التشيع والتصوف — قيمة التصوف في الحياة الخلقية — نظام البحث .

١ — التصوف لون من الذوق عرفه العرب قبل الاسلام بأجيال طوال .
ومن خطأ رأى أن يقال إنه كان معدوما فخلقته النزعات الاسلامية .
واليكم البيان :

العرب أمة عريقة في التدين ، والتدين في ذاته تصوف ، لأنه نوع من الضعف ، والضعف باب الى التصوف : فان الانسان في الأصل حيوان شرسٌ يقاتل ويغالب ، ثم تأتى لحظات يصرعه فيها الضعف فيقف ويتأمل : من أين أتى ؟ وإلى أين يصير ؟ وينتهى به الفكر الى الاقتناع بأنه مخلوق ضعيف ، وعندئذ يكون التدين . والمتدينون فريقان : فريق لا يزال يحسّ القوة والعافية فيجدالد في ميادين الحياة ، وفريق ينتهى به الضعف الى التسليم المطلق فيرضى بالدون من العيش ويتوجه الى التفكير في ملكوت السماء .

وعند التأمل نرى الروحانيات لا تكثر الا في الأمم الضعيفة ، أما الأمم القوية فتوغل في الماديات ، وتحرص على امتلاك ما فوق الأرض من أصول المنافع ، وممثل الأمم في ذلك ممثل الأفراد ، فالرجل في دور العافية والشباب

تكون أطعمه في الأغلب مادية ، فيبنى المنازل ، وينظم المزارع والمتاجر والمصانع ، وفي دهر الضعف والشيخوخة يقف موقف المتأمل فيما كان وما سيكون . ويتحول الى قوة روحية يستر بها الضعف الذي رَمَتْه به أحداث الزمان .

والمتصوف يتصنّع في البداية ، ثم يصير صوفيا بالطبع ، حين تغلب عليه قوة الفكر والإشراق .

ولنواجه هذه المسألة بعزيمة وصراحة فنقول إن هناك شخصيتين : الشخصية الحيوانية والشخصية الانسانية ، أما الشخصية الحيوانية فهي الأصل ، والفضائل فيها تقوم على أساس الغلبة والعُنف ، وهي شخصية لا تزال محفوظة الملامح في كتب الأساطير ، والناس يحنون اليها حيننا شديدا ، حتى لنراهم في الكتب الروائية يتمنون أن لا ينهزم القوي وإن بغى وخان . وبفضل القوة وُجِدَ في القوانين الدولية ما يسمى حق الفتح ، وهو رجعة الى القانون الخُلقي في عالم الشخصية الحيوانية .

أما الشخصية الانسانية فهي شخصية مهذبة . والتهديب هنا يراد به معناه اللغوى الأول ، أى أن هذه الشخصية قُلِّمت أظافرها ، وقُطِّعت أشواكها ، وصُنِّع بها ما يُنَّع بالحيوان المفترس ، أو الشجرة الشائكة ، فأصبحت مصقولة الجوانب لا يُخَشَى منها بطش ولا عدوان مادامت محكومة بصوارم القوانين .

وهذه الشخصية الانسانية لم تُخلَقْ إلا بحكم الضعف ، وقد استطاع جان جاك روسو أن يتصور دقائق اللحظات التي خُلِّقت فيها هذه الشخصية ،

وفي زعمه أن الناس تجمّعوا وتعاقدوا ، واصطلحوا على أن يترك كل فرد منهم جزءاً من حريته ، ليتكوّن من مجموع ما يتنازل عنه الناس من حرياتهم قوة تنهض بها حكومة تحمى الضعفاء ، وتكف عدوان الأقوياء .

ثم عادت الشخصية الانسانية فانقسمت إلى شخصيتين : شخصية مادية وشخصية روحية . فالأولى هي الشخصية التي لا تتأدب إلا بفضل القانون ، أي بفضل السيف والسوط ، وهي شخصية سليمة إن نظرنا إليها من الوجهة الحيوانية ، والثانية هي الشخصية التي تتأدب بفضل الروح ، وهي شخصية سليمة إذا نظرنا إليها من الوجهة الانسانية .

وبهذا نرى أن العافية الخلقية ليست إلا مسألة اعتبارية ، فالعنف فضيلة عند قوم ، ورذيلة عند آخرين ، هو فضيلة عند من يعيشون على المبادئ الحيوانية ، وهو رذيلة عند من يعيشون على المبادئ الانسانية ، وكذلك يقال في اللين ، فهو ضعف في عالم الأقوياء ، وهو حلم في دنيا الضعفاء .

ولنسجّل هنا أن الضعف نفسه صار سلاحاً قوياً بفضل المهارة الانسانية فالإنسان حين ضَعُف اعتمد على فكره ولسانه في تقييح الرذائل الحيوانية وما زال يبدى ويعيد حتى أشاع في العالمين أن الظلم ملعونٌ في الأرض ملعونٌ في السماء .

وشواهد الحياة تؤيد رأى الضعفاء من الناس ، فهؤلاء الضعفاء هم الذين قالوا بوجود قوة قاهرة مُسَيِّطِرة هي قوة الله ، وهم الذين بسطوا ألسنتهم في الدنيا فرموها بالعدر وحكموا عليها بالفناء .

شواهد الحياة تؤيد رأى هؤلاء الضعفاء : لأن الدنيا حقاً فانية ، ولأن الانسان حقاً ضعيف ، ولا يمتري في هذه الحقائق أحد ، فالرجل الهائل الذى يأمر وينهى ويغنى ويستطيل ينقلب فى لحظة واحدة إلى مخلوق ذليل حين يدهمه المرض ، أو تلسعه حشرة حقيرة ، أو يهجم عليه كلب مسعور ، أو يتردى فى جب عميق .

وهو أذل وأحقر حين يصرعه الموت ، وما ظنكم بمخلوق تفارقه الروح فتعلوه صفرة بشعة ، وتهب منه ريح يعجز عن ملاقاتها أشجع الناس ؟

وما هى مصائر اللذات فى الدنيا ؟ أليس كل نعيم إلى زوال ؟ أين ذهب ملك الطغاة والمستبدين لعهد الفرس والعرب والرومان ؟ وأين ما بقى من الممتع الحسية التى رآها قصر فرساي ، وهو اليوم بلا فراش ولا أثاث ؟ أين لا أين ! إن كان فى العالم قصيدة إنسانية خالدة فهى التصوف ، هو وحده الأنشودة الباقية يوم تبيد الأناشيد ، ولو فنيت الدنيا دفعة واحدة وبقي إنسان واحد يفتش عما حق فيها من الكلمات لما وجد أصدق من كلمة الصوفية .

٢ — نشأ التصوف إذن فى ظلال الضعف ، أى نشأ فى ظلال الحق ، يوم عرف الانسان قيمة نفسه واطمأن إلى أنه مخلوق ضعيف إن تخلت عنه رعاية الله لحظة واحدة هلك وباد .

نشأ التصوف حين شك الانسان فى قيمة الحقائق الانسانية ، يوم رأى كل قوة إلى ضعف ، وكل وفاء إلى غدر ، وكل حياة إلى موت . وكل شُروق إلى غروب .

لا تسألوا متى اهتدى الانسان إلى قيمته الذاتية ، ويكفى أن تتذكروا

أن البيئات العربية عرفت كثيراً من الأنبياء الذين آثروا الزهد والفرار من
المذات ، وعرفت أن أطيب الناس ذكراً في العالم القديم هو إبراهيم الخليل
الذي حطّم الأصنام وأخلد إلى التوحيد .

ويمكن الحكم بأن أقدم الآثار الصوفية هو « سفر أيّوب » الذي شرح
البلايا الانسانية وصور حيرة المرء بين السعادة والشقاء ، والهدى والضلال .

وأقرب الآثار الصوفية إلى أذهان الناس هو القرآن ، ذلك الكتاب
الذي أطال القول في وصف الدنيا وذمها وثلبها وتحقيرها ، وقضى بأنها هُؤُ
ولعِبٌ ، وأنها في نضارتها ليست إلا مَتَاعُ الغُرور ، القرآن هو أقرب الآثار
الصوفية إلى أذهان الناس وإن جهلوا ذلك ، هم يعدّونه كتاب تشريع ونزاه
كتاب تصوّف . إن التشريع في القرآن ليس إلا تنظيماً للعلاقات الدنيوية ،
والعلاقات الدنيوية في نظر القرآن هي تمهيد للصلوات الروحية : صلوات الناس
بالله الكبير المتعال ، وكل مَغْنَمٍ لا يقرب المرء من ربه هو في نظر القرآن
ذُخْرٌ باطلٌ سَخيف .

والإنسان في نظر القرآن هو مخلوق مغرور تطغيه النعمة وتذله الباساء

« وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضرّاء مستهم إذا لهم مكر في آياتنا ،
قل الله أسرع مكرآ ، إن رسلنا يكتبون ما تمكرون . هو الذي يسيّركم
في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفُؤُك وجرين بهم يريخ طيبة فرحوا بها
جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا
الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين ، فلما أنجاهم
إذا هم يغيغون في الأرض بغير الحق ، يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع

الحياة الدنيا ، ثم إلينا مرجعكم فنبشركم بما كنتم تعملون . إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس ، كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون ^(١) .

والقرآن يذكر الناس بأن الأمر كله لله : فهو الذى يحيى وهو الذى يميت « نحن خلقناكم فلولا تصدقون ، أفأرأيتم ما تُؤْمِنُونَ ، أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ؟ نحن قدَرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين ، على أن نبذل أمثالكم وننشئكم فى ما لا تعلمون . ولقد علمت النشأة الأولى فلولا تذكرون أفأرأيتم ما تحرثون ، أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ، لو نشاء لجعلناه حطاماً فظلمت تفكَّهُون ، إنا لمغرمون ، بل نحن محرومون ، أفأرأيتم الماء الذى تشربون ، أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ؟ لو نشاء لجعلناه حجاجاً فلولا تشكرون . أفأرأيتم النار التى تورون ، أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون ؟ نحن جعلناها تذكرة ومتاعاً للبقوين ، فسبح باسم ربك العظيم ^(١) .

وسياق القول فى القرآن كله يتجه وجهة روحية ، ويذكر المرء بربه ، ويخوفه من بطشه ، ويطمعه فيما أعدّ للصالحين من جزيل الثواب .

٣ — وكان الرسول يتكشف تقشفاً صوفياً ، وقد دخل عليه عمر بن الخطاب فوجده على حصير قد أثر فى جنبه فكلمه فى ذلك فقال : مهلاً يا عمر ، أظنها كسروية ^(٢)

(١) سورة يونس ٢١ — ٢٤ (٢) سورة الواقعة ٥٧ — ٧٤ (٣) الكشكول ص ٢٩٣

وأتاه رجل بهديّة فذهب يلتمس وعاء يفرغها فيه فلم يجد ، فقال له :
فرّغها في الأرض ، ثم أكل منها وقال : آكل كما يأكل العبد ، وأشرب كما
يشرب العبد ، لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافراً
شربة ماء (٣) .

وفي كتب الشمائل أخبار كثيرة عن تقشف الرسول ، وهو نفسه قد
عاش في بيّنة صوفية ، يدل على ذلك نهيه عن الرهبانية وعن مواصلة الصوم ،
وهو لم يرغب في الزواج إلاّ لأنه رأى ناسا يتبتّلون ، ولم ينه عن وصل
الصيام إلاّ لأنه رأى ناسا يصلون الصيام ، وهذا وذاك من سمات التصوف .
والفرق بين تصوف الرسول وتصوف من عاصروه أنه كان يعتدل
وكانوا هم يسرفون .

- والقرآن يوصي الرسول بأن يَصْبِرَ نَفْسَهُ مع الذين يدعون ربهم بالغداة
والعشيّ يريدون وجهه ، وهذا تأديب للمؤمنين ، وفيه اعتراف بشخصية
من ينصرف عن زينة الحياة الدنيا وينقطع لذكر الله . وقد ورد اسم المؤمنين
في القرآن في سياق يعيّن نسبتهم إلى الروحانية إذ قال « إن الله اشترى من
المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة » ولا يسامح في مهجته إلاّ أجود الناس ،
وكان في شمائل الصحابة مصداق لهذه الروحانية ، فقد جاد أبو بكر بجميع
ماله ، وجاد عمر بشطرّ ماله ، فقال له الرسول : ما أبقيت لأهلك ؟ فقال :
مثله . وقال لأبي بكر : ما أبقيت لأهلك ؟ فقال : الله ورَسُولُهُ . فقال النَّبِيُّ
بينكما ما بين كلمتيكما . فالصدّيق وفّى بتمام الصدّق فلم يمسك سوى المحبوب

عنده وهو الله ورسوله (١) وذلك بالتأكيد تصوف وروحانية .

٤ — التصوف قديم عرفه العرب قبل الإسلام وتخلقوا به لعهد الرسول ، ولكن يظهر أنه لم يكن ملحوظا في كلام الناس ، ولم يختصوه بدرس ولا بيان ، وكانت الأعمال الروحية تندرج في الأعمال الدينية . وأول من تلفت الناس إلى كلامه في المعاني الوجدانية وأسرار القلوب هو حذيفة بن اليمان الصحابي الجليل ، وقد قيل له : نراك تتكلم في هذا العلم بكلام لا نسمعه من أحد من أصحاب رسول الله فمن أين أخذته ؟ فقال : خصني به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان الناس يسألونه عن الخير ، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن أقع فيه ، وعلمت أن الخير لا يسبقني . وقال مرة : فعلبت أن من لا يعرف الشر لا يعرف الخير . وفي لفظ آخر : كان الناس يقولون يا رسول الله ما لِمَنْ عمل كذا وكذا ، يسألونه عن فضائل الأعمال ، وكنت أقول : يا رسول الله ، ما يُفسد كذا وكذا . فلما رأني أسأل عن آفات الأعمال خصني بهذا العلم (٢) .

قال المكي : وكان حذيفة قد خُصَّ بعلم المنافقين وأُفردَ بمعرفة علم النفاق وبسرائر العلم ودقائق الفهم وخفايا اليقين من بين الصحابة ، فكان عمر وعثمان وأكابر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يسألونه عن الفتن العامة والفتن الخاصة ويرجعون إليه في العلم الذي خُصَّ به . وكان عمر يستكشفه عن نفسه هل يعلم فيه شيئا من النفاق فبرأه منه ، ثم يسأله عن علامات النفاق وآية المنافق فيخبر من ذلك بما يصلح مما أُذِنَ له فيه ،

ويستعفى مما لا يجوز له أن يخبر به فيُعذّر في ذلك (١) .
ومعنى هذا أن الرسول كان يكتُم أسرار التصوف ، ولا يمنحها غير
الخواص ، ومعناه أيضا أن التصوف هو البصر بأسرار القلوب ، وما يعزّض
لها من دقائق الرياء والنفاق .

وعن حذيفة بن اليمان تعلم الحسن البصرى ، وهو إمام الصوفية ، أثره
يقفون ، وسيله يتبعون ، ومن مشكاته يستضيئون (٢) وقد كان الحسن
البصرى أحد المذكّرّين ، وكانت مجالسه مجالس الذكر يخلو فيها مع إخوانه
وأتباعه من النساء والعباد مثل مالك بن دينار وثابت البناني وأيوب السخيتاني
ومحمد بن واسع وفرقد السنجي وعبد الواحد بن زيد ، وكان يحدث أصحابه
في خواطر القلوب ، وفساد الأعمال ، ووسواس النفوس ، وربما قسّع بعض
أصحاب الحديث رأسه فاختنق من ورائهم ليسمع ذلك . وكان من خيار
التابعين بإحسان . وقد لقي سبعين بدرياً ورأى ثلثمائة صحابي (٢) وكانت
أمه مولاة لأم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم ويقال إنها ألقيته ثديها
تعلله حين بكى فذرّ ثديها عليه (٢) وكان كلامه يشبه بكلام رسول الله صلى
الله عليه وسلم (٢) وكان أبو قتادة العدوي يقول : عليكم بهذا الشيخ ، فوالله
ما رأينا أحداً لم يصحب رسول الله صلى الله عليه وسلم أشبه بأصحاب رسول
الله صلى الله عليه وسلم منه (٢) وكانوا يقولون : كنا نشبهه بهدى إبراهيم
الخليل صلى الله عليه وسلم في حلمه وخشوعه ووقاره وسكنته ، فكان على
شماله (٢) ونذرت امرأة بالبصرة نذرا إن فعل الله تعالى ذلك بها أن تنسج من

غز لها ثوباً، وصفته، وتكسوه خير أهل البصرة، فرأت تمام نذرهما فوقت^١ بما نذرت^٢ ثم سألت : مَنْ خير أهل البصرة ؟ فقالوا : الحسن (١) .

قال المسكى : وكان الحسن رضى الله عنه أول من أنجح سبيل هذا العلم وفتق الألسنة به ، ونطق بمعانيه ، وأظهر أنواره ، وكشف قناعه ، وكان يتكلم فيه بكلام لم يسمعه من أحد من إخوانه ، ف قيل له : يا أبا سعيد ، إنك تتكلم فى هذا العلم بكلام لم نسمعه من أحد غيرك ، فمن أخذت هذا ؟ فقال : من حذيفة بن اليمان (٢)

والحسن البصرى شخصية جذابة ، ويقال إنه الشاب الذى أثنى عليه على ابن أبى طالب ، فقد دخل جامع البصرة وجعل يخرج القصاص ويقول القصص بدعة ، فانهى إلى حلقة شاب يتكلم على جماعه فاستمع إليه فأعجبه كلامه فقال : يا قى ، أسألك عن شيئين فان خرجت منهما تركتك تتكلم على على الناس وإلا أخرجتك كما أخرجت أصحابك . فقال : سل يا أمير المؤمنين ، فقال : أخبرنى ما صلاح الدين وما فساداه ؟ فقال صلاحه الورع وفساده الطمع . قال : صدقت ، تكلم ، فثلك يصلح أن يتكلم على الناس (٢) وكان شديد الخوف من الله ، ويقال إنه ما ضحك أربعين سنة ، وكان فى حزنه كأنه أسير قدّم ليضرب عنقه . وإذا تكلم حسبته يعاين الآخرة فيخبر عن مشاهدة ، وإذا سكنت ظننت النار تسعّر بين عينيه . وعوتب فى شدة حزنه فقال : ما يؤمنى أن يكون الله قد اطلع على فى بعض ما يكره فمقتنى فقال . اذهب فلا غفرت لك (٣) .

(٢) الفتوح ج ٢ ص ٨٨

(١) الفتوح ج ٢ ص ٢٣

(٣) ج ٤ ص ١٨٣

ومن كلامه وقد رأى هيئات الناس في أحد أيام رمضان : إن الله تبارك وتعالى جعل رمضان مضماراً لخلقهِ ، يستبقون فيه بطاعته إلى مرضاته ، فسبق قوم ففازوا ، وتخلف آخرون فخابوا ، فالعجب من الضاحك اللاعب في اليوم الذي يفوز فيه المحسنون ، ويخسر فيه المبطلون ، أما والله لو كشف الغطاء لُشِغِلَ مُحْسِنٌ باحسانه ، ومُسِيءٌ باسائه (١)

ونظر الى قوم منصرفين من صلاة الفطر يتدافعون ويتضاحكون فقال : الله المستعان ، إن كان هؤلاء قد تقرر عندهم أن صومهم قد يُقبلَ فما هذا محل الشاكرين ، وإن علموا أنه لم يقبل فما هذا محل الخائبين (٢) .

قال الحصري : ويقال إنه لم يكن تابعيً أفضل منه ، هذا قول أهل العراق جميعاً ، وأهل الحجاز يقدمون سعيد بن المسيب عليه . وكان سعيد أحسن من الحسن ورعاً ، وأشد الناس جزعاً ، وأقلهم كلاماً . وكان الحسن لا يدع أن يتكلم بما همجس في نفسه ، وجاش في صدره (٣)

ونحن نعرف لم كان الحسن كثير الكلام ، فقد كان معلماً ، والمعلمون أكثر الناس كلاماً . ولا سيما إذا كانوا أصحاب مذاهب . وكان الحسن يعلم الناس أسرار القلوب . وكان يعرف أنه صاحب مذهب وأن عليه أن يشرح ما فيه من دقائق وأسرار . وكذلك نجد اسمه في جميع مؤلفات الصوفية ، لأنه المعلم ، ولأن كلماته المأثورة تكاد تجعل عن الإحصاء .

هـ — والمفهوم من أحوال البصري أنه اهتم بشرح التصوف وتكلم عن آفات النفوس ، وقدمات سنة عشر ومائة ، وهو بذلك أقدم الأشياخ عند الصوفية .

ويليه في المنزلة أبو حمزة الصوفي ، وهو أستاذ البغداديين ، وأول من
تكلم ببغداد في مذاهب التصوف : من صفاء الذكر ، وجمع الهمة ، والمحبة ،
والشوق ، والقرب ، والأنس ، لم يسبقه إلى الكلام بهذا على رؤوس الناس
ببغداد أحد (١) .

وكان أبو حمزة من كبار القوم ، وهو الذي يقول :
نهاني حيائي منك أن أكشف الهوى
وأغنيتهني بالقرب منك عن الكشف
ترأيت لي بالغيب حتى كأنما
تبشرني بالغيب أنك بالكف
أراك وبني من هيتي لك وحشة
فتمونسني بالعطف منك وباللطف
وثخني محبا أنت في الحب حثفه
وذا عجب كون الحياة مع الحثف (٢)

وخرج جماعة من الصوفية يستقبلونه من مكة فإذا به قد شحب لونه فقال
الجريري : يا سيدي ، هل تتغير الأسرار إذا تغيرت الصفات ؟ قال معاذ الله
لو تغيرت الأسرار لتغير الصفات لهلك العالم ، ولكنه ساكن الأسرار
فخاها ، وأعرض عن الصفات فلا شأها .
ثم ولي وهو يقول :

كما ترى صيرني قطع قفار الدمن

شردني عن وطني كأتني لم أكن
إذا تغيت بدا وإن بدا غيبي
يقول لا تشهد ما يشهد أو تشهدي^(١)

٦ — تلك صورة تقريبية لنشأة التصوف في الأخلاق ، ولتذكر أن مؤرخي هذا العلم يجمعون على أن لفظ التصوف لم يُعرف مصحوباً بالرسوم إلا في القرن الثاني ، وإن كان منهم من أشار إلى أن اللفظ كان معروفاً في القرن الأول^(٢) وكانت حجة رسول الله أشرف الألقاب ، فاستغنوا بها عن الاتسام بالتصوف ، ثم قيل القراء والزهاد والنسك والعباد ، ثم قيل الصوفية^(٣) .

والظاهر أن النسك كانوا فريقين : أحدهما يتعبد في صمت ، وثانيهما يتعبد ويتفلسف ، فالذين اكتفوا بحسن الخلق والزهد في الدنيا والتأدب بأدب الشرع لقبوا بالنسك والقراء والزهاد والعباد ، والذين أقبلوا على دراسة النفوس وآفاتهما ، واهتموا بشرح ما يرد على القلب من الخواطر ، وحرصوا على أن تكون لهم صبغة مذهبية ، لقبوا بالصوفية .

وهؤلاء وأولئك كان لهم وجود محسوس ، وعُرِفَتْ لهم مقامات في وعظ الخلفاء والوزراء ، وكانت مذاهبهم بسيطة أول الأمر ، ثم تعقدت

(١) تاريخ بغداد ج ١ ص ٣٩٤ (٢) انظر اللع ص ٢٢ (٣) انظر اللع ص ٢٢ ومقدمة ابن خلدون ص ٤١١ . والياضي يرى أن أهل الصفة هم المصدر الأول من الصوفية ، ويقول نقلاً عن شهاب الدين السهروردي : وقيل كان منهم طائفة بخراسان يأوون إلى الكهوف والمغارات ولا يسكنون القرى والمدن فسموهم في خراسان شكنتية ، لأن شكنت اسم المغارة عندهم ، وأهل الشام يسمونهم جوعية (انظر ص ٣٤٤ و ٣٤٥ ج ٢ من كتاب نشر الحاسن الغالية) .

وَتَشَعَّبَتْ بعد أن كثرت اتصالهم بالناس. وطالت مجادلتهم لأهل الفقه والتوحيد.

٧ — ويمكن الحكم بأن أول مشكلة عقلية عَرَضَتْ لأولئك القوم هي الظاهر والباطن، أو الشرع والحقيقة، وساعد على وجود هذه المشكلة ورود آيات في القرآن تحتاج إلى تأويل، من هذا قوله تعالى «ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً»، قالتا أتينا طائعين» فالبليد يفتقر في فهمه إلى أن يقدر لهما حياة يخلقها الله للسماء والأرض، وعقلا وفهما للخطاب، وخطاباً هو صوت وحرف تسمعه السماء والأرض فتحيان بحرف وصوت وتقولان: أتينا طائعين، والبصير يعلم أن ذلك لسان الحال وأنه إنباء عن كونهما مسخرتين بالضرورة ومضطرتين إلى التسخير... ومنه أيضاً قوله تعالى «وإن من شيء إلا يسبح بحمده» فالبليد^(١) يفتقر فيه إلى أن يقدر للجادات حياة وعقلا ونطقا بصوت وحرف حتى يقول سبحان الله ليتحقق تسميحه، والبصير يعلم أنه ما أريد به نطق اللسان، بل كونه مسبحاً بوجوده ومقدساً بذاته، وشاهداً بوحدة الله سبحانه، كما يقال:

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

وكما يقال هذه الصنعة المحكمة تشهد لصانعها بحسن التدبير وكمال العلم لا بمعنى أنها تقول أشهد بالقول، ولكن بالذات والحال... فهي تشهد لحالها

(١) كلمة «البليد» هي تعبير الغزالي وهي تبين كيف يحتقر أهل الظواهر. وقد اتفق لبعض الصوفية أن يستبعد الهداية على الفقهاء، فقد جاء في جامع كرامات الأولياء ج ٢ ص ٣١٥ مانصه «ومن كرامات المرسى التي انفرد بها عن غالب الأولياء تسليكه لنحو ثلاثين قاضياً. وكان يقول للعرشي: ليس الشأن أن تسلك كل يوم ألفاً من العوام. بل أن تسلك فقيها واحداً في مائة عام»

« بالتقديس ، يدرك شهادتها ذوو البصائر دون الجاحدين ، ولذلك قال تعالى
« ولكن لا تفقهون تسبيحهم » ^(١)

قال الغزالي : وهذا الفن مما يتفاوت أرباب الظواهر وأرباب البصائر
في علمه ، وتظهر به مفارقة الباطن للظاهر ، وفي هذا المقام لأرباب
المقامات أسرار ^(١)

وكذلك يقال في قوله تعالى « وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم » وقوله :
« وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا ، قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء »
وكذلك المخاطبات التي تجري من منكر ونكير ، وفي الميزان والصراف
والحساب ومناظرات أهل النار وأهل الجنة في قولهم « أفيضوا علينا من الماء
أو مما رزقكم الله » ^(١)

فهذه وأمثالها مما اختلف فيه العلماء والصوفية ، ففريق يقول إن ذلك كله
بلسان الحال ، وفريق يحسم الباب ويمنع التأويل وقد غلا في ذلك أحمد
ابن حنبل حتى منع تأويل قوله « كن فيكون » وزعم هو وأصحابه أن ذلك
خطاب بحرف وصوت يوجد من الله تعالى في كل لحظة بعدد كون كل
مكون ^(١) وبلغ به الأمر أن منع تأويل قول الرسول « الحجر الأسود يمين
الله في أرضه » وقوله « قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن » وقوله
« إني لأجد نفس الرحمن من جانب اليمن » وعند الغزالي أن ابن حنبل لم يمنع
التأويل إلا رعاية لصالح الخلق ، فانه اذا فتح الباب اتسع الخرق وخرج الأمر
عن الضبط وجاوز حد الاقتصاد ، إذ حد الاقتصاد لا ينضبط ^(١)

(١) انظر الاحياء ج ٢ ص ١١١

٨ — وما زال الفقهاء يمشون في طريق والصوفية في طريق حتى بعدت بينهم شقة الخلاف ، واتفق أن كان العز بن عبد السلام يطعن على ابن عربي ويقول : هو زنديق ، فقال له بعض أصحابه : أريد أن ترينى القطب ، فأشار الى ابن عربي . فقال له : فأنت تطعن فيه ؟ فأجاب : أصون ظاهر الشرع^(١) ومعنى هذا أن ظاهر الشرع لا يعترف للصوفية بوجود صحيح . وقال بعض الصوفية لأحد المريدين : إن كنت تريد الجنة فسر الى ابن مدين ، وإن كنت تريد رب الجنة فسلم الى^(٢)

فالجنة طريقها الشرع ، أما السبيل الى الله فهو التصوف وكان ابن الكاتب اذا ذكر الرثوزبارى يقول : سيدنا أبو على . فقيل له فى ذلك فقال : لأنه ذهب من علم الشريعة الى علم الحقيقة . ونحن رجعنا من علم الحقيقة الى علم الشريعة^(٣) فالعلم الذى يسود صاحبه هو التصوف ، أما الفقه فمحصول العامة من الناس .

وقيل لبعض الصوفية : كم يجب من الزكاة فى مائتى درهم ؟ فقال : أما على العوام بحكم الشرع فخمسة دراهم . وأما نحن فيجب علينا بذل الجميع^(٤) وكانوا يقولون : أهل العلم على ضربين ، عالم عامة ، وعالم خاصة ، فاما عالم العامة فهو المفتى فى الحلال والحرام ، وهؤلاء أصحاب الأساطين^(٥) ، وأما عالم الخاصة فهو العالم بعلم التوحيد والمعرفة وهؤلاء أهل الزوايا وهم المنفردون^(٦) .

-
- | | |
|---------------------------------|-----------------------|
| (١) نفح الطيب ج ١ ص ٥٨١ | (٢) النفح ج ١ ص ٥٨٣ |
| (٣) تاريخ بغداد ج ١ ص ٣٣١ | (٤) الاحياء ج ١ ص ٢٢٥ |
| (٥) جمع أسطوانة وهى عمود المسجد | (٦) القوت ج ٢ ص ١١ |

ورفض المحاسبى أن يأخذ شيئاً من ميراث أبيه ، وكان ورث منه سبعين ألف درهم ، وكان أبوه يقول بالقَدَرِ فرأى من الورع أن لا يأخذ من ميراثه شيئاً . وقال صحت الرواية عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : لا يتوارث أهل ملتين شيئاً (١)

والشاهد فى هذا الخبر أن الصوفية كانوا يرون أنفسهم ملة ، ويرون مخالفيتهم فى رأى ملة أخرى .

وكان ابن العفيف يقول : اقتدوا بخمسة من شيوخنا ، والباقون سلبوا لهم حالهم (١)

والخمسة الذين ذكرهم ابن العفيف جمعوا بين العلم والحقائق ، فهم أهل للاقتداء ، أما الباقون فوقفوا عند الحقائق فينبغى أن يسلم لهم حالهم ، لأن لهم بدوات لا تعرفها الشريعة

٩ — وما زال الخلاف بين الفرقتين يقوى ويشد حتى رأينا من يقول : من لم يزن أفعاله وأحواله فى كل وقت بالكتاب والسنة ولم يهتم خواطره فلا تعده فى ديوان الرجال (٢)

ولو مضينا نستقصى ما كُتِبَ طعننا فى الصوفية لطال بنا القول ، ويكفى أن يعرف القارئ سر الخلاف ، فأهل الظاهر يرون الشريعة قوانين محدودة منظمة يسهل الرجوع إليها فى الفصل بين الناس ، ولا كذلك التصوف فان أهلهم يعتمدون على الخواطر ويستفتون القلوب ، وليس فى ذلك شيء مضبوط ، وما يدركه هذا قد يجهله ذاك . ولو أضيفت سلطة الحكومة

الى الصوفية لسادت الظنون ، وأصبح أمر الناس الى فساد ، واشتبهت
مسالك اليقين .

وقد وضع ابن القيم كتابا نفيسا سماه « تلبيس ابليس » عرض فيه لأحوال
الصوفية بالذم والتقريع ، وهو كتاب يقوم على أساس الشرع والعقل ، وقد
عاب عليهم أن يظنوا أن المراد من رياضة النفوس هو قمع ما في البواطن
من الصفات البشرية ، مثل قمع الشهوة والغضب وغير ذلك ، وليس هذا
مراد الشرع ، ولا يتصور إزالة ما في الطبع بالرياضة ، وإنما خلقت الشهوات
لفائدة ، فلو لا شهوة الطعام لهلك الانسان ، ولو لا شهوة النكاح لا ينقطع
النسل ، وكذلك حب المال مركز في الطباع لأنه يوصل الى الشهوات .
وإنما المراد كف النفس عما يؤذى من جميع ذلك وردّها الى الاعتدال فيه ^(١)

وبفضل اعتماد الصوفية على الخواطر وإهمال الشرع شاعت القالة بأنهم
مجانين ، ويروى عن الشافعي أنه قال : لو أن رجلا تصوف أول النهار لا يأتي
الظهر حتى يصير أحرق ، ^(٢) وأنه قال : ما لزم أحد الصوفية أربعين يوماً فعاد
عقله إليه أبداً ^(٣) ، وكان يونس بن عبد الأعلى يقول : صحبت الصوفية
ثلاثين سنة ما رأيت فيهم عاقلاً إلا مسلماً الخواص ^(٤) .

وعاب ابن القيم عليهم أن يقولوا (شريعة وحقيقة) وقال في
تفنيد ذلك :

« هذا قبيح ، لأن الشريعة ما وضعه الحق لمصالح الخلق ، فما الحقيقة
بعدها سوى ما وقع في النفوس من إلقاء الشياطين ، وكل من رام الحقيقة

(١) تلبيس ابليس ص ٣٦٦

(٢) التلبيس ص ٣٧٠

في غير الشريعة فمغرور مخدوع ، وإن سمعوا أحداً يروى حديثاً قالوا :
مساكين ، أخذوا عليهم ميتاً عن ميت ، وأخذنا علمنا عن الحى الذى لا يموت
فمن قال حدثنى أبى عن جدى قلت حدثنى قلبى عن ربى ، فهلكوا وأهلكوا
بهذه الخرافات قلوب الأغمار ، وأنفقت عليهم لأجلها الأموال ، لأن الفقهاء
كالأطباء والنفقة فى ثمن الدواء صعبة ، والنفقة على هؤلاء كالنفقة على المحتنيات ،
وبعضهم الفقهاء أكبر الزندقة لأن الفقهاء يحظر ونهم بفتاويهم عن ضلالهم وفسقهم
والحق يشغل كما تثقل الزكاة ، (١) إلى آخر ما وعت جعبة ابن القيم من النبأ .

١٠ - وابن القيم لم يفتّر شيئاً على الصوفية حين اتهمهم بازدراء أهل
الفقه والحديث ، فهم بالفعل يرون أنفسهم ورثة الأنبياء ، ويسمهم إخوان
الصفاء أولياء الله وعباده الصالحين ، ويذكرون من صفاتهم أنهم لا يذكرون
فى مجالسهم وخلواتهم أحداً إلا الله ، ولا يتفكرون إلا فى مصنوعاته ،
ولا ينظرون إلا إلى فنون إحسانه وعظيم إنعامه وجميل آلائه ، ولا يعملون
إلا لله ، ولا يخدمون إلا إياه ، ولا يرغبون إلا إليه ، ولا يرجون إلا منه ...
وذلك أنهم يرونه رؤية الحق فى جميع متصرفاتهم ، ويشاهدونه فى كل
حالاتهم ، لا يسمعون إلا منه ، ولا ينظرون إلا إليه ، ولا يرون غيره على
الحقيقة . فمن أجل ذلك انقطعوا إليه عن الخلق ، واشتغلوا بالخالق عن المخلوق
وبالرب عن المربوب (٢) .

ويذكر إخوان الصفا أن نعت هؤلاء القوم ورد فى آيات كثيرة من
القرآن ، وأن النبى أثنى عليهم فقال : « لا يزال فى هذه الأمة أربعون رجلاً »

من الصالحين على ملة ابراهيم الخليل (١) وأن هؤلاء الصالحين هم الذين سماهم الله في كتابه « أولى الألباب » و « أولى النهى » و « أولى الأبصار » فهم أولياء الله وأحباؤه ، وإليهم أشار بقوله لا بليس « إن عبادى ليس لك عليهم سلطان » وإليهم أشار الرسول فى وصيته لأبى هريرة بقوله : « عليك يا أبا هريرة بطريق أقوام إذا فزع الناس لم يفزعوا ، وإذا طلب الناس الأمان من النار لم يخافوا » قال : من هم يا رسول الله صفهم لى حتى أعرفهم قال : قوم من أمتى فى آخر الزمان يحشرون يوم القيامة محشر الأنبياء ، إذا نظر إليهم الخلائق ظنوهم أنبياء حتى أعرفهم أنا بسماهم فأقول : أمتى أمتى ، ليعرف الخلائق أنهم ليسوا بأنبياء ، ويمرون مثل البرق والريح ، يغشى أبصار الجميع نورهم . قال أبو هريرة : قلت يا رسول الله مرنى بمثل عملهم لعلى ألحق بهم . فقال الرسول : يا أبا هريرة ، إن القوم ارتكبوا طريقاً صعباً لحقوا بدرجة الأنبياء ، آثروا الجوع بعد ما أشبعهم الله ، والعرى بعد ما كساهم الله تركوا ذلك رجاء ما عند الله ، تركوا الحلال مخافة حسابه ، صحبوا الدنيا بأبدانهم من غير أن تعلق بشىء منها قلوبهم ، تعجسب الأنبياء والملائكة من طاعتهم لرهبهم ، فطوبى لهم ، وددت أن الله جمع بينى وبينهم... ثم بكى رسول الله شوقاً إلى رؤيتهم (٢) .

١١ — وهذا الكلام صريح فى أن الصوفية يرون أنفسهم ورثة الأنبياء بل هو صريح فى أنهم نظائر الأنبياء ، وليس فى هذا غرابة ، فالصوفية من أوائل المتمردين على التقاليد الشرعية ، وهذا التمرد فيه ضعف وفيه قوة ،

هو ضعف من حيث أنه يفتح باب الفوضى في عالم الأخلاق ، ويمكن من
لا يعرف من الخوض في الشؤون المعاشية والوجدانية بأحكام ما أنزل الله
بها من سلطان ، وهو قوة من حيث يدعو إلى قوة الشخصية والاحتكام
إلى الوجدان .

والصوفية يذكرون أن النبي قال « استفت قلبك ، وإن أفنك المفتون ^(١) »
وأنه قال « استفت قلبك ، وإن أفنك وأفنوك ^(١) » كأنهم يحتاجون إلى سند
من كلام الرسول !

وعند التأمل نرى الوقوف عند ظاهر الشريعة لا يليق إلا بالعوام من
الناس ، أما الخواص فلهم مجالات يدركها العارفون ، وما كان يمكن أن يستوى
الذى يعلمون والذين لا يعلمون في فهم دقائق الأشياء ، ففي العالم أسرار
يطلع على بعضها الخواص ، والشرع نفسه فيه دقائق كثيرة لا يفهمها العوام
من الفقهاء ... على أن رجال الظاهر أسرفوا في التزمت وبلغ بهم الحق أن
أقفلوا باب الاجتهاد ، كأن الدنيا انتهت إلى ما انتهى إليه أئمتهم ، وكأن
العالم ظهرت بواطنه وخوافيه فلم يبق فيه من المستورات ما يحتاج إلى شرح
أو تأويل .

ولكن هل يكفي هذا ليصبح الأمر كله إلى الصوفية ، ويصح للغزالي
أن يحكم بأن الاشتغال بعلم الظاهر بطلالة ؟
إن ضيق الذهن لحق بالفريقين فلم يتيسر لهما اتفاق ، ولو تأمل أهل
الظاهر لعرفوا أن النفس الانسانية أعمق من أن تُسَبَّر أغوارها في جيل

أو جيلين ، وأن وساوس الصوفية ليست إلا شواهد لعلم النفس ، وأن
الانسان لا يهذى ولا يسخف إلا وفقاً لقوانين مستورة يوجب العقل أن
نبحث عما لها من عناصر وأصول ، وما قد يبدو سخفاً وهذياناً له أحياناً
وجوه من الحق يعلمها الراسخون في علم النفس وعلم منافع الأعضاء .

فمن الفضول أن يتحكم الفقهاء في مصائر النفس الانسانية ، وأن يقضوا
بأن كل خروج على آفاقهم زيفٌ وضلال ، وأن نصوص القرآن والحديث
لا يجوز أن توجه إلى غير ما يقتضيه ظاهر الحروف .

ولو عقل الصوفية لعرفوا أن من الخرق أن تكون آراؤهم دستوراً يجب
احترامه في جميع البيئات ، وكيف يُفرض على الناس جميعاً أن يقضوا
أعمارهم في التفكير والتدبر ؟ إن الفكر شيء جميل ، ولكن فرضه على جميع
الناس سخف لا يعُدُّه سخف ، وكيف غاب عنهم أن الغفوات العقلية التي
يتمتع بها الجماهير هي أساس النظام في هذا الوجود ؟ وكيف كانت تصبح
الدنيا لو أن العوام تفلسفوا ، وادعوا الاتصال بالله ، كلما عرض لهم خاطر
جديد ؟

١٣ — وخلاصة القول أن العداوة بين أهل الظاهر وأهل الباطن لا تقوم
على أساس صحيح ، فأهل الظاهر وجودهم ضروريٌّ لأنهم يحمون الناس من
الاستسلام إلى الأوهام والأضاليل ، وأهل الباطن وجودهم ضروريٌّ لأنهم
يعطّرون الشريعة بعبير الروح ويسكبون عليها أنداء الخيال .

وأهل الظاهر هم الذين حفظوا العلوم الشرعية ، وصيروا الاسلام من
الشرائع المؤسسة على قواعد من الثقافة الفقهية .

وأهل الباطن هم الذين خلقوا العصبية الدينية ، وصوروا الرسول وأصحابه بصور روحية رائعة هي التي حفظت القوة المعنوية للدين الحنيف . ولا يمكن إغفال ما أفاد الاسلام من الثقافة الصوفية ، فالتصوف هو الذى ملأ الجوانب الخالية من قلوب المسلمين ، وهو الذى أنساهم الخشونة المادية التى أذاعتها الثقافة الفقهية ، وقد نشرت جريدة السياسة فى ٣ يونية سنة ١٩٣٢ نبذة من كتاب فلسفة الدين الذى ألفه بالانجليزية المستر ادوار روس (ص ١٢٤) جاء فيها قوله :

« إن كلمة الاسلام معناها الإذعان لارادة الله ، وأُخْلِقَ بذلك أن يفيض الى اعتبار الله قضاء متحكماً غير مفهوم ، من العبث التمرد عليه ، وليس من صفاته لا القداسة ولا الحب ، ومع ذلك فقد ظهر مسلمون لا يرتاحون إلى هذا الدين الجاف ، وإن فى ظهور الفرق الصوفية التى انتشرت فى الاسلام لشهادة بوجود الشوق الى اتصال يكون أوثق بالله حتى يفيض بالحب » .

وهذه الكلمة صحيحة ، لولا ما فيها من وصف الاسلام بالجفاف ، وليس من الضرورى أن تتصور الله رفيقاً عطوفاً فى جميع الأحيان ، فمن الجهل أن ننسى غضب الله على الأشقياء والظالمين ، ولكن من الجهل أيضاً أن لا تتمثل الله إلا وفى يده سوطٌ ، فالله لطيفٌ جداً ، وهو بالمؤمنين رؤوف رحيم .

والفقهاء سدّوا منافذ الرفق حين صوروا الله بالقسوة والعنف . والصوفية سدّوا منافذ الحزم حين وصفوا الله بالرفق المطلق . وحب الله لا يتوقف

على ما ينتظرون من الرفق ، فقد نحب الله ونحن نخافه أشد الخوف ، ومن لا يعرف الرهبة فليس بمحب ولا محبوب .

١٤ — وهنا تعرض مسألة جوهرية في نظام الأخلاق هي الفرق بين الزهد والتصوف ، فالزهد هو ترك الدنيا خوفاً من الحساب ، والتصوف ، هو الاقبال على صفاء النفس لتتصل بالله ، فغاية الزاهدين هي السلامة ، وغاية الصوفية هي الوصول ، فالزاهد يخاف الدنيا لأنها قد تبعده من الجنة ، والصوفي يخاف الدنيا لأنها قد تشغله عن الله ، وهذا الفرق فرضٌ صرف ، فليست هناك حدود واضحة تفصل الزهد عن التصوف ، وإنما أخذنا هذا الفرض من التاريخ ، فالعباد كانوا يسمون زهاداً ونساکاً في العهد الأول قبل أن يوجد التعمق في دراسة الأسرار النفسية ، ثم سموا صوفية في العهد الذي كثر فيه الاهتمام بدراس أسرار القلوب .

١٥ — الى هنا عرفنا صوراً من تطور التصوف . أفيستطيع القارىء أن يتصور أن الصلة لا تزال وثيقة بين ما ابتدأ به التصوف وما انتهى اليه؟ لقد قلنا إن التصوف قديم في البيئات العربية ، واتخذنا من القرآن شواهد للتصوف ، أفيمكن الحكم بأن الصوفية وقفوا عند روحانية القرآن؟ إنه لا مفر من الاعتراف بأن شخصية المسيح كان لها أثر في تلوين النزعات الصوفية ، فما تكاد كتب التصوف تخلو من الاستشهاد بكلام المسيح . وقد رأينا فيما سلف أن شخصية الراهب كانت محترمة ، وأن الصوفية كانوا ينقلون كلام الرهبان . وكان الناسك من المسلمين يذكر النصارى بالمسيح^(١)

فلنصف الى ما سلف أن الصوفية كان يسرهم أن يسجلوا أنهم أعرف
بربهم من الرهبان ، وأن التصوف الحق يرجع الى الحب المطلق الذى لا ينتظر
الجزاء ، ولا يخاف العقاب ، أو الثقة المطلقة التى لا يعرفها شك ولا يساورها
ارتياب .

وقد حدثوا أن أحد العارفين اجتاز يوماً فى بعض سياحته براهب فى صومعة
على رأس تل فوق فناء فناداه فأخرج الراهب رأسه من صومعته وجرت
بينهما المحاورة الآتية :

— الراهب : من هذا ؟

— الصوفى : رجل من أبناء جنسك الآدميين

— الراهب : وما الذى تريد ؟

— الصوفى : كيف الطريق الى الله ؟

— الراهب : فى خلاف الهوى

— الصوفى : فما خير الزاد ؟

— الراهب : خير الزاد التقوى

— الصوفى : لم تباعدت عن الناس وتحصنت فى هذه الصومعة ؟

— الراهب : مخافة على قلبى من فتنهم ، وحذراً على عقلى من الحيرة
من سوء عشرتهم ، فطلبت راحة نفسى من مقاساة مداراتهم ، وقبيح أفعالهم ،
وجعلت معاملتى مع ربى فاسترحت منهم

— الصوفى : أخبرنى كيف وجدتهم ؟

— الراهب : اسوأ قوم وشر أصحاب فقارقتهم

— الصوفي : كيف وجدتم يا أتباع المسيح معاملتكم مع ربكم ؟

— الراهب : — بعد تردد — اسوأ معاملة

— الصوفي : وكيف ذلك ؟

— الراهب : لأنه أمرنا بكّد الأبدان ، وجَهَد النفوس ، وصيام النهار وقيام الليل ، وترك الشهوات المركوزة في الجِسيّة ، ومخالفة الهوى الغالب ، ومجاهدة العدو المتسلط ، والرضا بخشونة العيش ، والصبر على الشدائد والبلوى ومع هذه كلها جعل الأجر نسيئة في الآخرة بعد الموت مع بعد الطريق والحيرة . فهذه حالنا في معاملتنا مع ربنا . فخبّرني عنكم ، يامعشر أتباع احمد ، كيف وجدتم معاملتكم مع ربكم ؟

— الصوفي : خير معاملة

— الراهب : صفها لي

— الصوفي : إنه أعطانا سُلُفا كثيرة قبل العمل ومواهب جزيلة لا تحصى فنون انواعها من النعم والإحسان والإِفضال قبل المعاملة : فنحن ليلنا ونهارنا تتقلب في أنواع من نعمه ، وفنون من آلائه ، ما بين سالف معتاد ، وآنف مستفاد ، وخالف منقاد .

— الراهب : كيف خُصصتم بهذه المعاملة دون غيركم والربّ واحد ؟

— الصوفي : أما النعمة والإحسان والإِفضال فعموم للجميع ، قد عمتنا ^(١) كلنا ، ولكن نحن خُصصنا بحسن الاعتقاد وصحة الرأى والإِقرار بالحق والايمان والتسليم ، فوققنا لمعرفة الحقائق لما أعطينا بالانقياد والايمان

(١) في الفتوحات المكية « غمرتنا »

والتسليم وصدق المعاملة من محاسبة النفس وملازمة الطريق ، وتفقد تصاريـف
الأحوال الطارئة من الغيب ومراعاة القلب بما يرد عليه من الخواطر والوحي
والإلهام ساعة بساعة .

— الراهب : زدنى فى البيان

— الصوفى : نعم ، اسمع ما أقوله وافهمه واعقل ما تفهم ، إن الله جل
ثناؤه خلق الإنسان خلقاً سوياً ، بنيةً صحيحةً تامةً وقامةً متصيبةً وحواسً
سالمة ، ثم رباه وأنشأه وأناماه بفنون من لطفه وغرائب من حكمته إلى أن بلغ
أشده واستوى ، ثم آتاه حُكماً وعِلماً ، وقلباً ذكياً ، وسمعاً دقيقاً ، وبصراً
حاداً ، ولساناً ناطقاً ، وعقلاً صحيحاً ، وفهماً جيداً ، ومشيةً واختياراً ،
وجوارح طائعة ، ثم علمه الفصاحة والبيان ، والصناعة والزراعة والتجارة ،
والتصرف فى المعاش وطلب العز والسلطان والأمر والرياسة والتدبير والسياسة
وسخر له ما فى الأرض جميعاً من الحيوان والنبات والمعادن فغداً متحكماً
عليها تحكم الأرباب ، ثم أراد الله أن يزيده من إحسانه وفضله وجوده وإنعامه
شيئاً آخر أجمل وأشرف ، وهو ما أكرم به الله ملائكته وخالص عباده وأهل
جنته من النعيم الذى لا يشوبه نقص ولا تنغيص ، وهو نعيم الفردوس ، فبعث
بلطفه أنبياءه ورسله يرغبونهم فى الجنة ويدلونهم على طريقها كما يطلبوها
ويكونوا لها مستعدين قبل الورد إليها ، ولكى يسئل عليهم مفارقة ما ألفوا
فى الدنيا من شهواتها ولذاتها ، وتحف عليهم شدائد الدنيا ومصايبها ، ويحذرونهم
أيضاً التوانى فى طلب الجنة كيلا يفوتهم ما وعدوا به ، فانه من فاتته فقد خسر
الدنيا والآخرة وضل ضلالاً بعيداً ... فهذا رأينا واعتقادنا ياراهب فى معاملتنا

مع ربنا ، وبهذا الاعتقاد طاب عيشنا في الدنيا ، وسهل علينا كدَّ العبادة فلا نحس بها ، بل نرى أن ذلك نعمة وكرامة وعز وشرف ، إذ جعلنا أهلاً أن نذكره ، وإذ هدى قلوبنا ، وشرح صدورنا ، ونور أبصارنا ، لما عرفنا من كثرة إنعامه ، وفنون ألطافه وإحسانه

— الراهب : جزاك الله خيراً من واعظ ما أبلغه ، وطبيب رفيق ما أحذقه ، وأخ ناصح ما أشفقه ^(١)

ومن الواضح أن هذه محاوره خيالية ، وليس من الضروري أن يرتاب الراهب في مصيره كل هذا الارتياب ، ولكن الشاهد يظهر بهذه المقارنة . فؤلف هذه المحاوره يعتقد أن المسيحية تصوّر لها شخصية الراهب ، وأن الإسلام الحق تصوّره شخصية المتصوف .

١٦ — ولم يكن المسيح بالصورة الوحيدة التي فتنت الصوفية ، فهناك عبّاد بني إسرائيل . وأولئك العباد لهم كلمات وأحوال حفظها الصوفية . وكذلك يمكن الحكم بأن التصوف هو مجموعة من الأفكار الإسلامية والنصرانية واليهودية ، أو هو الخلاصة الروحية من تلك الديانات الثلاث . وأغلب الظن أن الصوفية لم ينطبعوا على تلك الآراء طائعين ، وإنما سرت إليهم فأثّرت فيهم على غير وعى ، فلما استفحل أمرهم أخذوا يجهرون بأنهم ورثة ، الأنبياء ، وهذا القول فيه رجعة إلى كلمة قديمة عُرفت عن بعض فلاسفة اليونان الذين قالوا بأنهم ورثة الآلهة . والاستاذ الدكتور منصور

(١) لخصنا هذه المحاوره من رسائل اخوان الصفا ج ١ ص ٢٦٤ — ٢٦٧ وقد وردت بصورة قريبة من هذه الصورة في الفتوحات المكية ج ٤ ص ٦٦٣

فهى يرجع انسياق ذلك الخيال اليونانى إلى الصوفية ، وهو ترجيح تؤيده المشابهة بين القولين واتفاقهما فى المدلول .

والجيلانى يسمى العارفين رجال الغيب ، وهم عنده ستة أقسام :

« القسم الأول هم الصنف الأفضل ، والقوم الكامل ، هم أفراد الأولياء ، المقتفون آثار الأنبياء ، غابوا عن عالم الأكوان ، فى الغيب المسمى بمستوى الرحمن ، فلا يُعرفون ولا يوصفون ، وهم آدميون . القسم الثانى هم أهل المعانى ، وأرواح الآوانى ، يتصور الولى بصورهم ، فيكمل الناس فى الباطن والظاهر بخيرهم ، فهم أرواح ، وكأنهم أشباح ، سافروا من عالم الشهود ، فوصلوا إلى فضاء غيب الوجود ، فصار غيبهم شهادة ، وأنفاسهم عبادة ، وهؤلاء أوتاد الأرض ، القائمون لله بالسنة والفرض . القسم الثالث : ملائكة الالهام والبواعث . يطرقون الأولياء ، ويكلمون الأصفياء ، لا يبرزون الى عالم الاحساس ، ولا يتعرفون لعوام الناس . القسم الرابع رجال المناجاة .. يتصورون للناس ، فى عالم الاحساس ، وقد يدخل أهل الصفاء ، الى ذلك اللواء ، فيخبرونهم بالمغيبات ، وينبئونهم بالمسكتمات . القسم الخامس : رجال السباسب ، هم أهل الخطوة فى العالم ، وهم من أجناس بنى آدم ، يظهرون للناس ثم يغيبون ، ويكلمونهم فيجيبون ، أكثر سكنى هؤلاء فى الجبال والقفار ، والأودية وأطراف الأنهار (١) ... القسم السادس : يشبهون الخواطر لا الوسوس . هم المولدون من أبى الفكر وأم التصور ، لا يؤبه الى أقوالهم ، ولا يُتَشَوَّق الى أمثالهم ، فهم بين الخطأ والصواب ، وهم أهل الكشف والحجاب ، (٢) .

(٢) الانسان الكامل ص ٣٧ ج ٢

(١) فى الأصل (النهار) وهو تحريف

وهذا الكلام يدل على أن من الصوفية من نسى التعاليم الدينية وتسامى إلى الاتصال بعالم الأرواح ، وهم لا يذكرون الأنبياء الا اتقاءً لشر الناس ولو أعطيت لهم الحرية لصرحوا بأن ليس بينهم وبين الله وسيط . والاسلام لا يوجب وساطة بين العبد والرب ، ولكنه يحتم أن نعرف الله ونعبده في حدود ما أوصى به الأنبياء . على أن من الصوفية من فضل الولاية على النبوة وكانت حجته أن الأنبياء يوحى اليهم بواسطة ، وأن الأولياء يتلقون من الله بلا واسطة ، وهو كلام رفضه الأكثرون .

١٧ — وقد توغل الصوفية في الفروض فزعموا أن الرسول قال : لا يزال في هذه الأمة أربعون رجلاً من الصالحين على ملة ابراهيم الخليل ^(١) وزعموا أن من بين هؤلاء الأربعين أربعة هم الأبدال ، وانما سُمُّوا الأبدال لأنهم بدَّلوا خلقاً بعد خلق وصُفُّوا تصفية بعد تصفية ، وذلك أن هؤلاء الاربعين متتقون — في زعمهم — من جملة أربعائة من الزاهدين العارفين المحققين ؛ وهؤلاء الاربعائة منتقون من أربعة آلاف من المؤمنين التائبين المخلصين ، وكلما مضى شخص من الأربعة قام في رتبته شخص من الاربعين وإذا مضى شخص من الاربعين قام في رتبته شخص من الاربعائة ، وإذا مضى شخص من الاربعائة ارتقى إلى منزلته شخص من الاربعة آلاف فبلغ مرتبته وقام مقامه ، وكلما مضى شخص من الأربعة آلاف ارتقى مكانه بدلاً منه واحد من المؤمنين التائبين المخلصين فبلغ درجته وقام مقامه ^(١)

ومعنى هذا أن الجمعية الصوفية تؤلف وحدة قومية ، هي الصفوة المختارة من المؤمنين . والقارىء يذكر أننا أشرنا فى مقدمة الجزء الاول من هذا الكتاب الى طائفة من اصطلاحات الصوفية جاء فيها أن القطب وهو الغوث عبارة عن الواحد الذى هو موضع نظر الله من العالم فى كل زمان ، وأن الأوتاد عبارة عن أربعة رجال منازلهم على منازل أربعة من أركان العالم ، وأن البدلاء هم سبعة ، ومن سافر من القوم عن موضعه ترك جسداً على صورته حتى لا يعرف أحد أنه فقيد ، وأن النقباء هم الذين استخرجوا خبايا النفوس وهم ثلثمائة ، وأن النجباء أربعون ، وهم المشغولون بحمل أنقال الخلق ، وأن الامامين شخصان أحدهما عن يمين الغوث ونظره فى الملكوت والآخر عن يساره ونظره فى الملك ، وهو أعلا من صاحبه وهو الذى يخلف الغوث .

١٨ — فمن أين جاء الصوفية بهذا النظام الغريب ؟

يرى ابن خلدون أنهم نقلوه عن الشيعة « حتى أنهم لما أسندوا لباس خرقه التصوف ليجعلوه أصلاً لطريقتهم ونحلتهم رفعوه الى على رضى الله عنه » (١)

والواقع أن الصلة وثيقة بين التشيع والتصوف ، فعلى هو معبود الشيعة وهو إمام الصوفية ، أليس هو الذى أشار إلى العارفين حين قال لكميل بن زياد : أولئك الأقلون عدداً ، الأعظمون عند الله قدراً ، هجم بهم العلم على حقيقة الأمر فباشروا روح حقيقة اليقين (٢) أليس هو الذى أثنى على الحسن البصرى إمام الصوفية (٣) .

(٢) رسائل اخوان الصفا ج ١ ص ٢٩٨

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٤١٣

(٣) قوت القلوب ج ٢ ص ٨٨

وقد حدّثوا أن الجنيد أخذ الطريقة عن خاله سريّ السقطي ، وكان أخذها عن معروف الكرخي ، ومعروف الكرخي أخذها عن علي بن موسى الرضا (١) :

ونحن نعرف من علي بن موسى الرضا ، فهو من أقطاب أهل البيت .
والشيعة أنفسهم يعطفون على الصوفية أبلغ العطف ، وقد أثنى الشريف المرتضى في أماليه على الحسن البصري أطيب الثناء (٢)

والصوفية ينقلون فرحين ما روى عن عليّ أنه قال : علّمني رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعين باباً من العلم لم يعلمهم ذلك أحداً غيري (٣)

وقد أثنى عليّ على عمر بن الخطاب ، ونقل الطوسي ذلك الثناء وقال :
ولأهل الحقائق أسوة وتعلق بعمر رضي الله عنه ، ثم ذكر أنه اختار لبس المرقعة والخشونة وترك الشهوات واجتناب الشبهات وإظهار الكرامات وقلة المبالاة بمن لأمه من الخلق عند انتصاب الحق (٤)

ألا ترون كيف فسر الطوسي ثناء عليّ على عمر فأليس ابن الخطاب شمائل صوفية ؟

« وقام رجل إلى عليّ بن أبي طالب فسأله عن الإيمان فقال : الإيمان على أربع دعائم ، على الصبر واليقين والعدل والجهد ، ثم وصف الصبر على عشر مقامات ، وكذلك اليقين والعدل والجهد ، فوصف كل واحد منها على عشر مقامات (٥) » .

(١) النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٦٩ (٢) أمالي المرتضى ج ١ ص ١٠٦
(٣) اللمع ص ٤٩ (٤) اللمع ص ١٢٦ (٥) اللمع ص ١٣٠

قال الطوسي : فان صح ذلك عنه فهو أول من تكلم في الأحوال والمقامات .

١٨ — وطبيعة الأشياء توجب أن يقترب التشيع والتصوف ، فالشيعة انهزموا في ميدان السياسة ، والصوفية انهزموا في ميدان الحياة ، والاشترك في الهزيمة يقرب بين النفوس ، وقد مضت في هذا الكتاب فقرات كثيرة تبين أن المرء يتصوف حين ينهزم ، لأنه حين يفقد سنده في عالم المادة يذهب فيلتمس الغوث في عالم الروح .

ومما يقرب بين المذهبين أن الشيعة والصوفية يؤمنون بالأسرار ، ويبحثون عن النجاة في العوالم الغيبية ، ولذلك تشابهت أوهامهم وظنونهم وأمانهم ، وتقاربت مذاهبهم المعاشية والاجتماعية ، وصرت ترى لديهم شمائل مشتركة في تناول الأشياء ، وفهم الحياة والناس ، حتى أدبهم يتشابه ، فتقع أمامك القطعة من الشعر فتنسبها إلى من شئت فتمضي طائعة إلى من تضيفها إليه من الشيعة أو الصوفية . . . وأصدق دليل على اقتراب المذهبين أن أهل فارس هم أكثر الناس تصوفاً بين الأمم الإسلامية ، وإنما كانوا كذلك لأن التشيع ألقى رحاله هناك

ولو مضينا ندرس التصوف في مصر لرأينا عند الصوفية من المصريين ألفاظاً كثيرة كانت مما يستعمله الفاطميون . فليس من الغريب أن يحكم ابن خلدون بأن الصوفية نقلوا نظامهم عن التشيع .

١٩ — لم يبق بعد هذه التفاصيل إلا أن نقول إن الصوفية يمتازون من بين رجال الأخلاق بصفة أساسية هي التفلسف ، فأولئك قوم مسلمون يأبون

أن يقفوا عند حرفة النصوص فيمضون في الدرس والتأويل ، ثم يقبلون على النفس فيجعلونها محور الأخلاق .

فالمسلم يعمل في حدود الأوامر الشرعية ، وينزجر في حدود الزواجر الشرعية ، أما الصوفي فيتسامى الى إدراك المغيبات ، ويحرص على فهم الدقائق الخفية في حركات الخواطر والقلوب .

وخلاصة القول أن الصوفي يحترم الشخصية كل الاحترام فيستفتى قلبه وإن أفتاه المقتون ، وقد كان لذلك عيوب منها الاسراف في التصورات العقلية التي انتهت الى القول بوحدة الوجود ، أو بالحلول ، أو بتفضيل الأولياء على الأنبياء . وتلك عيوب في نظر من يقيسون الأخلاق بالمقاييس الشرعية ، أما الذين يقيسونها بالمقاييس الفلسفية فيرون عند الصوفية أصولاً من إجلال الفكر وإعزاز العقل . وليس ذلك بالفضل القليل .

أقول هذا وأنا أعرف أن ليس لي من عمل في هذا الكتاب إلا تأريخ هذا المذهب الفلسفي ، فليس من همي أن أحارب التصوف أو أن أدافع عنه فلا يظنّ قوم أني أتخرب للتصوف ، وإن كان من حقي أن أعطف عليه في حدود الاعتدال .

٢٠ — أما خطتنا في هذه الدراسات فهي عرض المسائل الأساسية التي تتكون بها الشخصية الخلقية ، ولن نهتم بالجزئيات ، لأن أمرها يطول ، ويكفي أن يعرف القارئ بهذه الدراسات خطر التصوف في الأخلاق . ولنقيد هنا أننا وقفنا عند المعاني ، فلم نهتم بالأشخاص ولا التاريخ ، وفي هذا التمهيد ما يكفي لبيان الأطوار التي مرت بها فكرة التصوف في العهود الإسلامية .

ومن الواضح أن لنا الحق في اختيار المنهج الذي نرتضيه لنظام الكتاب ولا يطلب منا إلا مسaire ما ارتضيناه في أسلوب التأليف . وقد لا يكون هذا الأسلوب خير الأساليب ، ولكنه يصل بنا على خير وجه الى تحقيق ما نريد .

هذا القسم خاص بالأخلاق ، ولكن القارئ سيرانا نبتدئه بالكلام عن الأدعية والأوراد ، وفيها ملامح أدبية خليقة بأن تجعلها من القسم الأول ، ولكننا رأينا بعد التأمل أن فصل الأدعية تغلب عليه النزعة الخلقية ، لأن فيه حديثاً عن إعداد النفس للدعاء ، ولأن الأدعية في ذاتها من وسائل الاتصال بالله ، والاتصال بالله هو الغاية الخلقية عند أهل التصوف .

ومن المؤكد أن الأوراد تمثل النظام الخلقى في حياة المريد ، فوضعها في قسم الأخلاق ليس من الفضول .

ونعترف ، مخلصين ، أن هذا البحث يحتاج إلى جهد أكبر مما نملك ، ولكن يعزينا أن القارئ سيذكر أن جهد المقل غير قليل .

الأدعية والأدوات

الدعاء في القرآن — أدعية الأنبياء — طبيعة الانسان — أدعية الرسول — اهتمام المسلمين بترجمة أدعية الأنبياء — أدعية المؤمن في مختلف الأحوال — أثر الأدعية في الأدب والاخلاق .

١ — الأدعية جمع دعاء ، وهو النداء ، ويرد أحياناً في القرآن بمعنى العبادة ، كقوله عز شأنه في سورة الأعراف « إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم ، فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين » وقوله في سورة الرعد « له دعوة الحق ، والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه ، وما دعاء الكافرين إلا في ضلال » وقوله في سورة الكهف « واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ، ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فُرطاً » وقوله في سورة الحج « ويعبدون من دون الله ما لم ينزل به سلطانا وما ليس لهم به علم وما للظالمين من نصير » وقوله في سورة فاطر « ذلکم الله ربکم له الملك ، والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير ، إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ، ولو سمعوا ما استجابوا لكم ، ويوم القيامة يكفرون بشرككم ، ولا ينسئک مثل خبير » وفي سورة الفرقان « والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق » .

وعند تأمل هذه الشواهد نجد الدعاء حين يرد بمعنى العبادة يتضمن أيضاً معنى النداء .

٢ — والدعاء مما يوصى به الأدب في الشريعة الإسلامية ، وفي القرآن الكريم « وقال ربكم ادعوني أستجب لكم » وفي سورة البقرة : « وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعان »

٣ — والدعاء قديم جداً في التقاليد الدينية ، وقد قص علينا القرآن نماذج من أدعية الأنبياء ، منها ما ورد في سورة البقرة على لسان إبراهيم « رب اجعل هذا البلد آمناً مطمئناً وارزق أهله من الثمرات ... ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم . ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم ، ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم » .

وروى القرآن دعوات إبراهيم بصورة أخرى في سورة إبراهيم فقال : « وإذا قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمناً واجنبني وبنى أن نعبد الأصنام ، رب إنهن أضللن كثيراً من الناس ، فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم ، ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ، ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء ، الحمد لله الذي وهب لي على السكبر إسماعيل وإسحق إن ربي لسميع الدعاء ، رب اجعلني مقيم الصلاة ومن

ذريتي ربنا وتقبل دعاء ، ربنا اغفر لي ولوالديّ وللمؤمنين يوم يقوم الحساب .

ومن دعاء موسى ما ورد في سورة طه « رب اشرح لي صدري ، ويسر لي أمري ، واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي ، واجعل لي وزيراً من أهلي هرون أخى ، أشدد به أزرى ، وأشركه في أمري ، كي نسبحك كثيراً ، ونذكرك كثيراً ، انك كنت بنا بصيراً » وفي سورة القصص « رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي » .

ومن دعاء أيوب ما ورد في سورة الأنبياء « إني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين » .

ومن دعاء نوح ما ورد في سورة القمر « إني مغلوب فانتصر » وما ورد في سورة نوح « رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً ، إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً ، رب اغفر لي ولوالديّ وللمن دخل بيتي مؤمناً وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين إلا تباراً » .

ومن دعاء زكريا ما ورد في سورة آل عمران « رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء »

وفي سورة آل عمران جعل الله قول الصديقين هذا الدعاء : « ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبّت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين » .

٤ — والله يوصي أنبياءه بالدعاء ، من ذلك ما جاء في سورة الاسراء وصية لنيه محمد « قل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق

واجعل لى من لدنك سلطانا نصيراً » وما جاء فى سورة (المؤمنون) وصية
لنبيه نوح « وقل رب أنزلنى منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين » وفى سورة
الكهف يوصى رسوله بتعليم أمتة اسلوب الدعاء « قل ادعوا الله أو ادعوا
الرحمن أيّاً مّا تدعوا فله الأسماء الحسنى ، ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت
بها واتبع بين ذلك سبيلاً »

وفى هذه الشواهد دلائل على أن الدعاء قديم جداً فى التقاليد الدينية . وأدعية
الأنبياء ذكرت فى القرآن تذكيراً للمؤمنين بما فيها من معنى العبودية والإيمان
بأن الأمر كله بيد الله ، وأن من التقي أن يدعو الإنسان ربه ، وأن يسأله
النصر والغفران .

٥ — والقرآن يحدثنا بأن الإنسان قد لا يعرف ربه الا عند البأساء ،
ففى سورة الزمر « وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منياً إليه ، ثم إذا خوّله
نعمة منه نسي ما كان يدعو إليه من قبل وجعل لله أنداداً ليضل عن سبيله »
وفى سورة السجدة « وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه ، وإذا
مسه الشر فذو دعاء عريض »

٦ — وقد عنى الرسول عليه السلام بترغيب أمتـه فى الدعاء . فقال :
« ليس شيء أكرم على الله من الدعاء » وقال : « إن الدعاء ينفع مما نزل وما
لم ينزل ، فعليكم — عباد الله — بالدعاء » وقال : « إن الله عز وجل حي كريم
يستحي إذا بسط الرجل اليه يديه أن يردهما صفراً ليس فيهما شيء » وقال :
« دعوة فى السر تعدل سبعين دعوة فى العلانية » وقال : « إن لله عز وجل
فى الليل والنهار عتقاء من النار ، ولكل مسلم ومسلمة فى كل يوم وليلة دعوة

مستجابة » وقال: « إن الله تعالى يقول: من ذا الذي دعاني فلم أجبه، وسألني فلم أعطه، واستغفرني فلم أغفر له، وأنا أرحم الراحمين » وقال: « إذا فتح الله على عبد باب الدعاء فليكثر فإن الله يستجيب له » وقال: « من لم يسأل الله يغضب عليه (١) »

٧ — وقد رويت عن رسول الله أدعية كثيرة، منها ما كان يقوله بعد ركعتي الفجر قبل صلاة الصبح:

« اللهم إني أسألك رحمة من عندك تهدي بها قلبي، وتجمع بها شملی، وتلم بها شعئی، وتردد بها ألقى، وتصلح بها دينی، وتحفظ بها غائبی، وترفع بها شاهدي، وتزكي بها عملي، وتبيض بها وجهي، وتلممني بها رشدی، وتعصمني بها من كل سوء. اللهم أعطني إيماناً صادقاً، ويقيناً ليس بعده كفر ورحمة أنال بها شرف كرامتك في الدنيا والآخرة، اللهم إني أسألك الفوز عند القضاء، ومنازل الشهداء، وعيش السعداء، والنصر على الأعداء، ومرافقة الأنبياء. اللهم إني أنزل بك حاجتي، وإن ضعف رأيي، وقلت حيلتي، وقصر عملي، وافتقرت إلى رحمتك، فأسألك يا قاضي الأمور، ويا شافي الصدور، كما تجيرني بين البحور، أن تجيرني من عذاب السعير، ومن دعوة الثبور، ومن فتنة القبور... الخ (٢) »

وفي بعض عبارات هذا الدعاء ضعف، ولا سيما هذه العبارة « أسألك كما تجيرني بين البحور، أن تجيرني من عذاب السعير » وقد يكون هذا الدعاء مما أضيف إلى كلام الرسول

(١) راجع أسانيد هذه الأحاديث في الجزء الخامس من نهاية الأرب ص ٢٨١ و ٢٨٢

(٢) الاحياء ج ١ ص ٣٢٢

وحدثنا الغزالي (١) عن دعاء قال إنه مأثور عن الرسول صلى الله عليه وسلم وعن السلف في يوم عرفة، وهو دعاء قصير هذا نصه :

« لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، يحيي ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير ، اللهم اجعل في قلبي نوراً ، وفي بصرى نوراً ، وفي سمعى نوراً ، وفي لساني نوراً . اللهم اشرح لي صدري ، ويسر لي أمري . »

وروى أنه كان يقول في سجوده : « أعوذ برضاك من سخطك ، وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك ، لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك (٢) »

وفي البخاري أنه كان يدعو في الصلاة « اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر ، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال ، وأعوذ بك من فتنة المحيا وفتنة الممات » (٣)

وفي كتاب الدعوات من صحيح البخاري أن النبي قال : سيد الاستغفار أن تقول :

« اللهم أنت ربى ، لا إله إلا أنت خلقتنى وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك على وأبوء بذنبي ، فاغفر لى فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت (٤) »

ومن الاستعاذات المأثورة عن النبي عليه السلام :

(٢) الاحياء ج ١ ص ٣٠٥

(٤) البخارى ج ٤ ص ٦٧

(١) فى الاحياء ج ١ ص ٢٦٥

(٣) البخارى ج ١ ص ١٠٥

«اللهم إني أعوذ بك من البخل، وأعوذ بك من الجبن، وأعوذ بك من أردّ إلى أرذل العمر، وأعوذ بك من فتنة الدنيا، وأعوذ بك من عذاب القبر، اللهم إني أعوذ بك من طمع يهدي إلى طبع، ومن طمع في غير مطمع، ومن طمع حيث لا مطمع. اللهم اني أعوذ بك من علم لا ينفع، وقلب لا يخشع ودعاء لا يُسمع، ونفس لا تشبع، وأعوذ بك من الجوع، فانه بئس الضجيع، ومن الخيانة، فانها بئس البطانة، ومن الكسل والبخل والجبن ومن الهرم ومن أن أردّ إلى أرذل العمر، ومن فتنة الدجال وعذاب القبر وفتنة المحيا والممات (١)»

والأدعية المأثورة عن رسول الله كثيرة جداً، وهي تشمل رجاءه في الله واعتماده عليه، وفناءه فيه

٨ — ومن مظاهر اهتمام المسلمين بالدعاء أنهم نقلوا ما وصل اليهم من أدعية الأنبياء، ومن غريب ذلك ما قالت عائشة (٢) «لما أراد الله عز وجل أن يتوب على آدم — صلى الله عليه وسلم — طاف بالبيت سبعاً، وهو يومئذ ليس بمبنيّ فجلس على ربوة حمراء ثم قام فصلى ركعتين ثم قال :

«اللهم انك تعلم سرى وعلايتي، فاقبل معذرتي؛ وتعلم حاجتي فأعطني سؤلي، وتعلم ما في نفسي فاغفر لي ذنوبي. اللهم اني أسألك ايماناً يابشّر قلبي، و يقيناً صادقاً حتى أعلم أنه لن يصيبني إلا ما كتبت عليّ والرضا بما قسمته لي يا ذا الجلال والاكرام»

ومن الواضح أنه من العسير نقل مادعا به آدم، ولكن المسلمين بفطرتهم

الصوفية اطمأنوا الى أنه لا بد لآدم من دعاء ، وكذلك اطمأنوا الى أن الله أوحى اليه « إني قد غفرت لك ، ولم يأتني أحد من ذريتك فيدعوني بمثل الذي دعوتني به إلا غفرت له وكشفت غمومه وهمومه ونزعت الفقر من بين عينيه ، واتجرت له من وراء كل تاجر وجاءته الدنيا وهي راغمة وإن كان لا يريدتها »

وإن صحت رواية هذا الكلام عن عائشة فهو دليل على إن العرب قبل الإسلام كانوا يحبون أن يكون (البيت) من مواضع الدعاء المقبول ، وأنه كان كذلك منذ آدم وقبل أن يبنى .

وحدثوا أيضاً أن ابراهيم كان يقول اذا أصبح :

« اللهم هذا خَلْقٌ جديد فافتحه عليّ بطاعتك ، واختمه لي بمغفرتك ورضوانك ، وارزقني فيه حسنة تقبلها مني ، وزكها وضعفها لي ، وما عملت من سيئة فاغفرها لي ، انك غفور رحيم ، ودود كريم »

وناقل هذا الكلام وهو الغزالي ^(١) يذكر أن ابراهيم قال : « ومن دعا بهذا الدعاء اذا أصبح فقد أدى شكر يومه » ومعنى ذلك أن « الأوراد » قديمة جدا في التقاليد الدينية

وحدثوا أن داود كان اذا دعا في جوف الليل قال :

« اللهم نامت العيون ، وغارت النجوم ، وأنت حيّ قيوم ، اغفر لي ذنبي العظيم ، انك عظيم ، وانما يغفر العظيم العظيم ، اليك رفعت رأسي ، عامر السماء ، نظر العبيد الى أربابها ، اللهم تساقطت القرى ، وأنت دائب الدهر

(١) في الاحياء ج ١ ص ٣٢٤

معدّ كرسىّ القضاء (١) »

وأن يوسف كان يدعو فيقول :

« يا عدّتي عند كربتي ، يا صاحبي في وحدتي ، ويا غيائي عند شدّتي ،
ومفرّعي عند فاقتي ، ورجائي اذا انقطعت حيلتي ، يا إلهي وإله آبائي ابراهيم
واسحق ويعقوب اجعل لي فرجاً ومخرجاً واقض حاجتي (٢) »

وأن « بكّاء بني اسرائيل » كان يقول :

« اللهم لا تؤدبني بعقوبتك ، ولا تمكربني في حيلتك ، ولا تؤاخذني
بتقصيري عن رضاك ، عظيم خطيئتي فاغفر ويسير عملي فتقبل ، كما شئت
تكون مشيئتك ، وإذا عزمت يمضي عزمك ، فلا الذي أحسن استغنى عنك
وعن عونك ، ولا الذي أساء استبد بشيء يخرج به من قدرتك ، فكيف لي
بالنجاة ولا توجد إلا من قبلك » .

وفي هذا الدعاء محاولة عقلية سنجد أمثالها في « أحزاب » الصوفية .
ونقلوا أدعية كثيرة منسوبة الى المسيح ، منها دعاؤه الذي كان يدعو
به للرضى والزّمنى والعميان والمجانين (٣) ودعاؤه حين أخذه اليهود
ليصلبوه (٣) وهذان الدعاءان يجريان مجرى التّحميد

ونقل الغزالي أنه كان يقول :

« اللهم إني أصبحت لا أستطيع دفع ما أكره ، ولا أملك نفع ما أرجو
وأصبح الأمر بيد غيري ، وأصبحت مرتها بعملي ، فلا فقير أفقر مني . اللهم

(١) عيون الأخبار ج ٣ ص ٢٨٣ (٢) عيون الأخبار ج ٣ ص ٢٨٤

(٣) تجده في عيون الأخبار ج ٣ ص ٢٨١

لا تشمت بى عدوى ، ولا تسوء بى صديقى ، ولا تجعل مصيبتى فى دينى ،
ولا تجعل الدنيا أكبر همى ، ولا تسلط علىّ من لا يرحمنى ، يا حىّ يا قيوم .
وأدعية عيسى وتحميداته كثيرة تزرعها مؤلفات الصوفية .

وفى نقله المتقدمون من أدعية الأنبياء ما يؤيد ما نريد إثباته ، وهو
شغف المسلمين بمأثور الدعوات ، ولا ننسى أن أدعية الأنبياء نقلت عن
لغات غير عربية ، فوضعها ناقلوها فى أسلوب غنائى يتراوح بين السجع
والازدواج .

٩ — وفى كتب الفقه والآداب الإسلامية أدعية مختلفة باختلاف
ما يباشر المؤمن من الأعمال ، وللمسلم الصالح فرص لا تنقطع للدعاء ، فيقول
حين يجلس للوضوء « أعوذ بك من همزات الشياطين ، وأعوذ بك رب أن
يحضروني » .

ويقول عند غسل يديه « اللهم إني أسألك اليمين والبركة ، وأعوذ بك
من الشؤم والهلكة » .

ويقول فى الاستنشاق « اللهم أوجد فىّ رائحة الجنة ، وأنت راض عني » .
وعند الاستنثار « اللهم إني أعوذ بك من روائح النار ، ومن سوء الدار » .
ويقول عند غسل كل عضو : « اللهم بيض وجهى بنورك يوم تبيضّ
وجوه أوليائك ، ولا تسود وجهى بظلماتك يوم تسودّ وجوه أعدائك » .
ويقول عند غسل اليمين « اللهم أعطني كتابي يميني ، وحاسبني حساباً
يسيراً » وعند غسل الشمال « اللهم إني أعوذ بك أن تعطيني كتابي بشمالى
أو من وراء ظهري » .

وعند مسح الرأس « اللهم غشني برحمتك ، وأنزل عليّ من بركاتك ، وأظاني تحت ظل عرشك يوم لا ظل الا ظلك » وعند مسح الأذنين « اللهم اجعلني من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، اللهم أسمعني منادى الجنة مع الأبرار » وعند مسح الرقبة « اللهم فك رقبتى من النار ، وأعوذ بك من السلاسل والأغلال » وعند غسل الرجل اليمنى « اللهم ثبت قدمي على الصراط المستقيم يوم تزل الأقدام فى النار » وعند غسل الرجل اليسرى « أعوذ بك أن تزل قدمي على الصراط يوم تزل أقدام المنافقين فى النار » .

ويقول عند ختام الوضوء :

« أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، سبحانك اللهم وبحمدك ، لا إله إلا أنت ، عملت سوءاً وظلمت نفسي ، أسئفرك اللهم وأتوب اليك ، فاغفر لى وتب علىّ إنك أنت التواب الرحيم ، اللهم اجعلنى من التوابين ، واجعلنى من المتطهرين ، واجعلنى من عبادك الصالحين ، واجعلنى عبداً صبوراً شكوراً ، واجعلنى أذكرك ذكراً كثيراً ، وأسبحك بكرة وأصيلاً »

وهناك أدعية تسبق الوضوء ، وأدعية تقال عند الأذان وفى أثناء الصلاة وبعد الصلاة ، وأدعية تقال قبل النوم وعند اليقظة وأدعية تقال فى الصوم والفطر وعند مناسك الحج . وفى ذلك كله ما يغمر المسلم بنفحة روحانية هى من أهم آثار التصوف فى الأخلاق .

وقد اهتم الغزالى بعرض طائفة من « الأدعية المأثورة عند كل حادث من الحوادث » فيقول المؤمن حين يخرج إلى المسجد « اللهم إني أسألك بحق

السائلين عليك ، وبحق ممشاى هذا اليك ، فاني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا رياءً ولا سمعة ، خرجت اتقاء سخطك ، وابتغاء مرضاتك ، فأسألك أن تنقذني من النار ، وأن تغفر لي ذنوبي ، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت .

ويقول حين يخرج من المنزل الحاجة « باسم الله . رب أعوذ بك أن أظلم أو أظلم ، أو أجهل أو يجهل عليّ » .

ويقول إذا دخل السوق « اللهم إني أسألك خير هذه السوق وخير ما فيها ، اللهم إني أعوذ بك من شرها وشر ما فيها ، اللهم إني أعوذ بك أن أصيب فيها يميناً فاجرة ، أو صفقة خاسرة » .

ويقول إن كان عليه دين « اللهم اكفني بحلالك عن حرامك ، وأغنني بفضلك عمن سواك »

ويقول عند لبس الثوب الجديد « اللهم كسوتني هذا الثوب فلك الحمد ، أسألك من خيره وخير ما صنع له ، وأعوذ بك من شره وشر ما صنع له » .
ويقول عند التطير « اللهم لا يأتني بالحسنات الا أنت ، ولا يذهب بالسيئات الا أنت ، لا حول ولا قوة الا بالله »

وعند رؤية الهلال « اللهم أهله علينا بالأمن والايمان ، والبر والسلامة والاسلام ، والتوفيق لما تحب وترضى ، والحفظ عما تسخط » .

وعند هبوب الريح « اللهم اني أسألك خير هذه الريح وخير ما فيها وخير ما أرسلت به ، ونعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به » .

ويقول حين تبلغه وفاة أحد الناس « اللهم اكثبه في المحسنين ، واجعل كتابه في عِلّين ، واخلفه على عَقِيهِ في الغابرين ، اللهم لا تحرمنا أجره ، ولا تفتنا بعده ، واغفر لنا وله » .

ويقول عند التصديق « ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم » .
وعند الخسارة « عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها إنا إلى ربنا راغبون » .
وعند ابتداء الأمور « ربنا آتينا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشداً .
رب اشرح لي صدري ، ويسر لي أمري » .

وعند النظر إلى السماء « ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانه فقمنا عذاب النار ، تبارك الذي جعل في السماء بروجا وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً » .
وعند رؤية الصواعق « اللهم لا تقتلنا بغضبك ، ولا تهلكنا بعذابك ، وعافنا قبل ذلك » .

وعند المطر « اللهم سقيا هنيئاً ، وصيباً نافعاً ، اللهم اجعله صيب رحمة ولا تجعله صيب عذاب » .
وعند الغضب « اللهم اغفر لي ذنبي ، وأذهب غيظ قلبي ، وأجرني من الشيطان الرجيم » .

وعند الغزو « اللهم أنت عضدي ونصيري وبك أقاتل »
وعند الهم « اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك . ناصيتي بيدك ،
ماض في حكمك ، عدل في قضاؤك ، أسألك بكل اسم هو لك سميت به
نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحداً من خلقك ، أو استأثرت به في
علم الغيب عندك ، أن تجعل القرآن ربيع قلبي ، ونور صدري ، وجلاء غمي ،
وذهب حزني وهمي » .

وعند النظر في المرأة « الحمد لله الذي سوى خلقه فدله ، وكرّم صورته
وجهي وحسنها وجعلني من المسلمين » .

وعند اشتراء خادم أو غلام أو دابة « اللهم انى أسألك خيره وخير ما جُبل عليه ، وأعوذ بك من شره وشر ما جُبل عليه »
وعند التهنة بالزواج : « بارك الله فيك وبارك عليك ، وجمع بينكما فى خير » .

وعند قضاء الدين يقول للمقضى له « بارك الله لك فى أهلك وفى مالك (١) » .

وقد عرض النويرى فى نهاية الأرب لأمثال هذه الأدعية فأفاض فيها القول ، وردّ أكثرها إلى رسول الله (ص) والمهم هو تذكير القارىء بآثرها فى الأدب والأخلاق ، أما من جهة الأدب فحسبه أن يتذكر أن المؤمن الذى يحفظ ما أثر من الأدعية فى مختلف الأحوال يظفر بثروة نفيسة من الألفاظ والتعابير ، لها سلطان خفى أو ملحوظ على كلامه وتفكيره ، وذلك مغنم ليس بالقليل . وأما من جهة الأخلاق فهى رياضة على حسن الأدب مع الله وتمثل قدرته ورحمته فى كل لحظة يهم فيها المرء بعمل حقير أو جليل . وشعور المؤمن بعظمة ربه هو أساس الخوف من الصغائر والكبائر ، والرغبة فى التقرب إليه بصالح الأعمال . يضاف الى ذلك أن هذه الأدعية تكرر وتعاد لأن أكثرها موصول بظروف تقع كل يوم ، وفى تكرارها ما يوجب طبعها فى النفس ، وذلك ضمان لتأثيرها البالغ فى الأدب والأخلاق .

(١) انظر الاحياء ج ١ ص ٣٣٠ — ٣٣٣ (٢) انظر الجزء الخامس ص ٣٠٢ — ٣٢٥

آداب الدّعاء

فهم الصوفية لأحوال النفس — السجع في الدعاء — إعداد النفس لتلقى النفحات الإلهية

وقد اهتم الصوفية بشرح ما تجب ملاحظته عند الدعاء ، فوضعوا لذلك عشرة آداب ، وتلك الآداب العشرة تدل على فهمهم للأحوال النفسية ، وبصرهم بتهيئة القلوب للدعاء

الأدب الأول — أن يترصد المؤمن لدعائه الأوقات الشريفة ، كيوم عرفة من السنة ، ورمضان من الأشهر ، ويوم الجمعة من الأسبوع ، ووقت السحر من ساعات الليل .

ونحن لانفهم قيمة هذا التخصيص ، ولا بدّ من الاعتراف بأنه من التقاليد الموسمية ، ولكن هذا لا يمنع من الموافقة على ما فيه من الفائدة من حيث توجيه النفس والقلب إلى أوقات يحترمها المسلمون لاتصالها بأكبر مواسم العبادات .

الثاني — أن يعتنم الأحوال الشريفة ، فيدعو عند زحف الصفوف في سبيل الله ، وعند نزول الغيث ، وعند إقامة الصلوات المكتوبة ، وعند الصوم ، وعند السجود

وفي هذا رياضة على تمجيد بعض الأحوال ، وخاصة زحف الصفوف في القتال المشروع

الثالث — أن يدعو مستقبل القبلة ويرفع يديه بحيث يبي يياض إبطيه
وقيمة هذا من الوجهة النفسية ترجع إلى الاهتمام بالدعاء ، وقد تحدث
عن هذا الأدب كثير من المؤلفين

الرابع — خفض الصوت بين المخافة والجهر

وذلك ليطمئن الداعي إلى أن الله ليس بأصم ولا غائب ، كما قال الرسول
حين رأى ناساً يرفعون أصواتهم بالدعاء .

الخامس — أن لا يتكلف السجع في الدعاء

وهذا أدب جميل يراد به تربية النفس على إثارة الطبع وترك التكلف ،
وقد روى أن النبي أنكر السجع في الدعاء وقال « إياكم والسجع في الدعاء ،
حسب أحدكم أن يقول : اللهم إني أسألك الجنة وما قرَّب إليها من قول وعمل
وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل » ومرَّ بعض السلف بقاص
يدعو بسجع فقال له « أعلَى الله تبالغ ؟ »

والمكروه هو تكلف السجع أما السجع المقبول فلا كراهة فيه ، فقد
أثرت عن رسول الله أدعية مسجوعة ، كقوله « أسألك الأمان يوم الوعيد ،
والجنة يوم الخلود ، مع المقربين الشهود ، والركع السجود ، الموفين بالعهود ،
إنك رحيم ودود ، وإنك تفعل ما تريد »

وأثر عن الرسول أنه قال « سيكون قوم من هذه الأمة يعتدون في الدعاء
والطهور » وفسر ابن الأثير الاعتداء في الدعاء بالخروج عن الوضع الشرعي
والسنة المأثورة ، وعرض له الغزالي في موطنين باب الوضوء ^(١) وباب

الدعاء عند الكلام عن السجع ، فكأنه فسر الاعتداء بالسجع ، وكذلك فسر الآية « ادعوا ربكم تضرعاً وخفية إنه لا يحب المعتدين » ولكن سياق الآية يعين أن المراد هو النهي عن رفع الصوت

ونقل النویری أن ابن عباس قال : « إياك والسجع في الدعاء ، فاني شهدت النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه لا يفعلون ذلك »^(١)

وفي منظومة الاستغفار للسيد البكري

أستغفر الله من نظم القوافي ومن نثروا قد جرى سجعاً على نسق^(٢)

وهو متأثر بما ورد من كراهة الشعر والسجع

ولكن ذلك كله لا ينقض ما ورد من السجع في القرآن والحديث ، فالمكروه هو السجع المتكلف ، لا مطلق السجع . وقد فصلنا هذه القضية في الجزء الأول من كتاب (النثر الفني)

السادس — التضرع والخشوع والرغبة والرهبة .

السابع — أن يوقن بالإجابة

وهذا أدب يراد به صدق اليقين بفضل الله عز وجل

الثامن — أن يلج في الدعاء ويكرره ولا يستبطن الإجابة

التاسع — أن يفتح الدعاء بذكر الله والصلاة على نبيه

العاشر — التوبة ورد المظالم ، وهو خير آداب الدعاء

ولهذه الآداب تفاصيل يجدها القارئ في الجزء الأول من الأحياء والجزء الخامس من نهاية الأرب ، وقد اهتم الغزالي بالأدب الباطن وقال

(٢) ص ٩١ من مجموع أوراد البكري

(١) نهاية الأرب ج ٥ ص ٢٨٥

« هو الأصل في الإجابة » ، وذكر أخباراً عن بنى إسرائيل ، وكيف استسقى موسى عليه السلام فلم يسق الله قومه ، وأوحى إليه « إني لا أستجيب لك ولا لمن معك وفيكم تمام »

وجملة هذه الآداب تبين كيف يحرص الصوفية على صفاء النفس وكيف يعدونها لتلقى النفحات الالهية ، وللقارىء أن يتصور حال النفس حين تراض على هذه الآداب ، فوصل النفس بالله ، واستحضار فقرها اليه ، ورهبتها منه ورغبتها فيه ، وانتظارها لفضله في ثقة ويقين ، كل أولئك من العوامل في صقل النفس ، وتطهير القلب ، وتربية الوجدان

وانتظار الخير كله من الله وتهيمة النفس لذلك باب أصيل في بناء الملكات الأخلاقية ، ولا سيما إذا لاحظنا مخلصين أن الأمر كله بيد الله ، وأن العبد لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً

فمن كان في ريب فليجرب الثقة بالله مرة واحدة ، وليدعه فانه عز شأنه لا يردُّ الدعاء

دَعَاءُ الْإِسْتِسْقَاءِ

الاستسقاء عند بني اسرائيل — الاهتمام به في كتب الفقه الاسلامي — نماذج من
أدعية الاستسقاء — فكاكة شعرية

١ — دعاء الاستسقاء من التقاليد القديمة في الديانات السامية ، وكان معروفاً عند بني اسرائيل ، قال سعيد بن جبير : قحط الناس في زمن ملك من ملوك بني اسرائيل فاستسقوا ، فقال الملك لبني اسرائيل : ليرسلن الله تعالى علينا السماء أو لنؤذنبه ، قيل له : وكيف تقدر أن تؤذيه ، وهو في السماء فقال : أقتل أوليائه وأهل طاعته فيكون ذلك أذى له (١)

وقال سفيان الثوري : بلغني أن بني اسرائيل قحطوا سبع سنين حتى أكلوا الميتة من المزابل ، وأكلوا الأطفال ، وكانوا كذلك يخرجون إلى الجبال يبكون ويتضرعون ، فأوحى الله عز وجل إلى أنبيائهم عليهم السلام لو مشيتم إلى بأقدامكم حتى تحفي ركبكم ، وتبلغ أيديكم عنان السماء ، وتكلّ ألسنتكم عن الدعاء ، فاني لا أجيب لكم داعياً ، ولا أرحم لكم باكياً ، حتى تردّوا المظالم إلى أهلها . ففعلوا فمطروا من يومهم (١)

وقال مالك بن دينار : أصاب الناس في بني اسرائيل قحط فخرجوا مراراً فأوحى الله عز وجل إلى نبيهم أن أخبرهم أنكم تخرجون إلى بأبدان نجسة

وترفعون الى أكفًا قد سفكتم بها الدماء ، وملأتم بطونكم من الحرام ،
الآن قد اشتد غضبي عليكم ولن تزدادوا مني إلا بُعداً (١)

وهذه الشواهد تدل على أنه كان مفهوماً عند بنى اسرائيل أن الدعاء انما
يقبل من التائبين .

٢ — وقد اهتمت كتب الفقه الاسلامى بصلاة الاستسقاء ، وبينت أنها
تكون « إذا غارت الأنهار . وانقطعت الأمطار ، أو انهارت قناة ، وأنه
يستحب للامام أن يأمر الناس أولاً بصيام ثلاثة أيام ، وما أطاقوا من
الصدقة ، والخروج من المظالم ، والتوبة من المعاصي ، وفي اليوم الرابع يخرج
بهم ويالعجائز والصبيان متنظفين في ثياب بذلة واستكانة متواضعين . وقيل
يستحب إخراج الدواب لمشاركتهم في الحاجة ولقوله صلى الله عليه وسلم
« لولا صبيان رضع ، ومشايخ رُكّع ، وبهائم رُتّع ، لصبّ عليكم العذاب
صبّاً » فاذا اجتمعوا في المصلّى الواسع من الصحراء نودى : الصلاة جامعة
فصلى بهم الامام ركعتين مثل صلاة العيد بغير تكبير ، ثم يخطب خطبتين ،
وبينهما جلسة خفيفة ، ويكون الاستغفار معظم الخطبتين . ويقول في الدعاء :
« اللهم إنك أمرتنا بدعائك ، ووعدتنا باجابتك ، فقد دعوناك كما أمرتنا
فأجبنا كما وعدتنا ، اللهم فامنن علينا بمغفرة ما قارفنا ، واجابتك في سقايانا
وسعة أرزاقنا » .

٣ — وصلاة الاستسقاء من أهم مظاهر التصوف ، فان المرء لا يقوم بها
إلا وقد آمن إيماناً صادقاً برحمة الله وفضله ، وكيف يطمع المرء في أن تتغير

القوانين الطبيعية فتمطر السماء لدعائه إلا إن وثق بأن الأمر كله لله ، وأنه
يجب السماء حين يشاء ، ويرسلها حين يشاء ؟

وانظر هذا الخبر وتأمل ما فيه من صدق اليقين :

قال عطاء السلمي : مُنِعْنَا الغيث فخرجنا نستسقي فإذا نحن بسعدون
المجنون في المقابر ، فنظر إلى فقال ، يا عطاء ! أهذا يوم النشور ، أو بعث
ما في القبور ؟ فقلت : لا ، ولكننا مُنِعْنَا الغيث ، فخرجنا نستسقي . فقال :
يا عطاء ! بقلوب أرضية ؟ أم بقلوب سماوية ؟ فقلت : بل بقلوب سماوية .
فقال : هيهات ! يا عطاء ، قل للمتبرجين لا تتبرجوا ، فإن الناقد بصير ! ثم
رمق السماء بطرفه وقال : إلهي وسيدى ومولاى ! لا تهلك بلادك ، بذنوب
عبادك ، ولكن بالمكسبون من أسمائك ، وما وارت الحجب من آلائك ،
إلا ما سقيتنا ماءً غَدَقًا فُرَاتًا تحي به العباد ، وتروى به البلاد ، يا من هو
على كل شيء قدير ! قال عطاء : فما استتم الكلام حتى أرعدت السماء وأبرقت
وجاءت بمطر كأفواه القرب ، فوثى وهو يقول :

أفلح الزاهدون والعابدون إذ لمولاهم أجاعوا البطونا
أسهروا الأعين العليلة حبًا فانقضى ليلهم وهم ساهرونا
شغلتهم عبادة الله حتى قيل في الناس إن فيهم جنونا^(١)

وفى عبارة « بقلوب أرضية ، أم بقلوب سماوية » ما يشعر بأدق المعاني
الروحية ، ولهذا أثره بالغ في تربية الأخلاق ، إذ يروض المرء على الإيمان
بأن الخير لا يصيب إلا المخلصين من الأتقياء .

٤ — لم يقتصر المسلمون على دعاء واحد في الاستسقاء ، كما اقتصرُوا على دعاء واحد في التشهد مثلاً ، وإنما انطلقت قرائحهم فافتنوا فيه افتناناً عظيماً . فكان الاستسقاء من أسباب الثروة الأدبية في الدعاء ، وكان يتفق أن تختلف الأدعية على لسان الرجل الواحد حين يتكرر الاستسقاء . كما وقع لعلي بن أبي طالب ، فقد خطب مرة فقال :

« اللهم قد انصاحت جبالنا ^(١) ، واغبرت أرضنا ، وهامت دوابنا ، وتحيرت في مرائبها ، وجمت عجيج الشكالى على أولادها ، وملت التردد في مراتعها ، والحنين الى مواردها ، اللهم فارحم أنين الآتة ، وحنين الحاتة ، اللهم فارحم حيرتها في مذاهبها ، وأنينها في موالجها . اللهم خرجنا إليك حين اعتسكرت علينا حدابير ^(٢) السنين ، وأخلفتنا مخايل الجود ، فكسنت الرجاء للبتئس والبلاغ للملتئس ، ندعوك حين قنط الأنام ، ومنع الغمام ، وهلك السوام ، أن لا تؤاخذنا بأعمالنا ، ولا تأخذنا بذنوبنا ، وانشر علينا رحمتك بالسحاب المنبثق ^(٣) ، والريبع المغدق ، والنبات المونق ، سحاً وإبلاً تحي به ما قد مات ، وترد به ما قد فات . اللهم سقيا منك محمية مروية ، تامة عامة طيبة مباركة ، زاكياً نبتها ، ثامراً فرعها ، ناضراً ورقها ، تنعش بها الضعيف من عبادك ، وتحى بها الميت من بلادك . اللهم سقيا منك تعشب بها نجادنا وتجري بها وهادنا ، وتخصب بها جنابنا ، وتقبل بها ثمارنا ، وتعيش بها مواشيننا ، وتندى بها أقاصينا ، وتستعين بها ضواحيننا ، من بركاتك الواسعة

(١) انصاحت : جفت ويست من الجذب

(٢) الحدابير جمع حدبار وحدبير وهى السنة المجدية

(٣) المنبثق : الذى انشق من ثقل الماء

وعطاياك الجزيلة ، على بريتك المرملة ، ووحشك المهمة ، وأنزل علينا سماء
مخضلة ^(١) مدراراً هائلة يدافع الودق منها الودق ، ^(٢) ويحفز القطر منها القطر
غير خائب برقاها ^(٣) ، ولا جهام عارضها ^(٤) ، ولا قزع ربابها ^(٥) ، ولا شقان
ذهابها ^(٦) ، حتى يخصب لأمراعها المجدبون ، ويحيى ببركتها المستنون ^(٧) ،
فانك تنزل الغيث بعد ما قنطوا وتنشر رحمتك وأنت الولي الحميد .

وخطب مرة أخرى فقال بعد التحميد :

« ألا وإن الأرض التي تحملكم ، والسماء التي تظلكم ، مطيعتان لربكم ،
وما أصبحتا تجودان لكم ببركتهما توجعا لكم ، ولا زلفة اليكم ، ولا لخير
ترجوانه منكم ، ولكن أمرتا بمنافعكم فأطاعتا ، وأقيمتا على حدود مصالحكم
فأقامتا .

« إن الله يتبلى عباده عند الأعمال السيئة بنقص الثمرات ، وحبس البركات
وإغلاق خزائن الخيرات ، ليتوب تائب . ويقلع مقلع ، ويتذكر متذكر ،
ويزدجر مزدجر ، وقد جعل الله الاستغفار سبباً لدرور الرزق ، ورحمة الخلق ،
فقال (استغفروا ربكم إنه كان غفاراً ، يرسل السماء عليكم مدراراً ، ويمددكم
بأموال وبنين) فرحم الله امرأ استقبل توبته ، واستقال خطيئته ، وبادر منيته .
« اللهم إنا خرجنا إليك من تحت الأستار والأكنان ، وبعد عجيح
البائس والولدان ، راغبين في رحمتك ، وراجين فضل نعمتك ، وخائفين من

(١) مخضلة : مبلة (٢) الودق : المطر

(٣) البرق الخلب : ما يطعم في المطر ولا مطر معه

(٤) العارض الجهام : السحاب لا مطر فيه (٥) الرباب السحاب الأبيض ، والقزع

الخفيف المنفرد (٦) الشقان الريح الباردة . والذهاب جمع ذهبة وهى الأمطار اللينة

(٧) المستنون الذين أصابهم القحط

عذابك ونقمتهك ، اللهم فاسقنا غيثك ولا تجعلنا من القانطين ، ولا تهلكنا بالسنين ، ولا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منا ، يا أرحم الراحمين . اللهم إنا خرجنا إليك ، نشكو إليك بما لا يخفى عليك ، حين ألجأتنا المضايق الوعرة وأجاءتنا المقاحط المجدبة ، وأعيتنا المطالب المتعسرة ، وتلاحمت علينا الفتن المستصعبة ، اللهم إنا نسألك أن لا تردنا خائبين ، ولا تقلبنا واجمين ، ولا تخاطبنا بذنوبنا ، ولا تقاسبنا بأعمالنا ، اللهم انشر علينا بركتك ، ورزقك ورحمتك ، واسقنا سقيا نافعة مروية معشبة تنبت بها ما قد فات ، وتحى بها ما قد مات ، نافعة الحيا ، كثيرة المجتنى ، تروى بها القيعان ، وتسيل البطنان ، وتستورق الأشجار ، وترخص الأسعار ، انك على ما تشاء قدير (١) .

وعند درس الخطبة الأولى نجد الخطيب ترفق في الدعاء حين اهتم بوصف خيرة الدواب في المراض ، وملاها من التردد في المراتع ، والحنين الى الموارد ، وعجيجها على أولادها التي أودى بها الظمأ القتال ، ونجده تلطف حين دعا الله أن لا يؤاخذهم بأعمالهم ، ولا يأخذهم بذنوبهم ، ثم نجده أغرق في وصف الغيث المرجو ، والخصب المأمول ، وكذلك كان صدر الخطبة نفحة وجدانية يتمثل فيها الجزع والاناة ، وكان شطرها الثانى باباً من الصنعة والافتنان في التخيل والتثيل .

وصدر الخطبة الثانية توحيداً صرف ، فالأرض والسماء من جنود الله ، تجودان حين يشاء ، وتمسكان حين يشاء . ثم يمضى الخطيب فيذكر أن نقص الثمرات ابتلاء من الله يصيب الناس حين تسوء أعمالهم ليتذكروا وينيبوا ،

وأن كشف الشر موقوف على الاستغفار . وهو بذلك يوجه قلوب المستسقين الى المتاب . ويختتم خطبته بدعاء طويل هو نموذج لركة التوسل والابتهال . والمعاني تختلف في هاتين الخطبتين بعض الاختلاف ، وذلك يدل على أن الخطيب كان له في كل موقف شعور خاص ، وأساس البلاغة أن يعبر المرء عما يساور نفسه عند الخطاب . ولا يعتمد على معانيه القديمة الا المجذبون في عالم البيان .

ه — وعند النظر فيما أنشأ أئمة المسلمين من أدعية الاستسقاء نجد الفن ظاهراً ظهوراً قوياً ، ولا كذلك المحفوظ من أدعية الرسول : فهي ادعية بسيطة قوامها الصدق ، والفن فيها قليل ، حدث الخطيب البغدادي بسنده قال : أتت النبی صلی الله علیه وسلم بواک فقال :

«اللهم اسقنا غيثاً مغيثاً مريئاً ، عاجلاً غير آجل ، نافعاً غير ضار» (١) .

ومن الملح المتصلة بدعاء الاستسقاء قول ابی علی بن المحسن بن علی خرجنا لنستسقى يمين دعائه وقد كاد هذب الغيم أن يبلغ الأرضاً فلما ابتدا يدعو تقشعت السما فما تم الا والغمام قد انفضا (٢)

إِعْيَازُ زَيْنِ الْعَابِدِينَ

١ - زين العابدين هو عليّ بن الحسين بن علي بن أبي طالب . وكانت ولادته يوم الجمعة في بعض شهور سنة ثمان وثلاثين ، وتوفي سنة أربع وتسعين وقليل اثنين وتسعين بالمدينة ودفن بالبقيع (١)

وكان يقال لزَيْنِ الْعَابِدِينَ ابنِ الْخَيْرَتَيْنِ لقول الرسول : لله تعالى من عباده خيرتان ، فخيرته من العرب قریش ومن العجم فارس (٢)
وذلك أن زين العابدين قرشيّ الأب فارسيّ الأم فأمه سلافة بنت يزدجرد آخر ملوك فارس (٣)

وكان كثير البر بأمه حتى قيل له : إنك أبر الناس بأُمك ولسنا نراك تأكل معها في صحفة . فقال : أخاف أن تسبق يدي إلى ما تسبق إليه عينيها فأكون قد عققتهما (١)

وكان كبير البر بالمعوزين ، البر الجميل الذي لا يطلع عليه الناس ، وقد أحصى بعد موته عدد من كان يقوتهم سرّاً فإذا هم نحو مئة بيت . قال محمد ابن اسحاق : كان ناس من أهل المدينة يعيشون لا يدرون من أين معاشهم وما كلهم ، فلما مات علي بن الحسين فقدوا ما كانوا يؤتون به ليلاً إلى منازلهم (٢) .

(٢) ص ٥٧٧

(١) وفیات الأعيان ج ١ ص ٥٧٨

(٣) الاعلام للزركلي ج ٢ ص ٦٦٥

وهذه شمائل لا تُستكثر على أهل البيت الذين بُعث جدهم ليتمم مكارم الأخلاق .

٢ — عاش زين العابدين في عصر كان يموج بالفتن والمكاره والختوف ، في العصر الذي كان يسعى فيه الأمويون لاستئصال شأقة أهل البيت ، ولذلك تفاصيل شرحناها في كتاب « المدائح النبوية » وبيننا أثرها في نهضة الشعر السياسي لعهد بني أمية . وقد بقيت تلك المكاره مرسومة في خيال زين العابدين حتى صح له أن يدعو على أهل الشام فيقول :

« اللهم وقد شملنا زيغ الفتن ، واستولت علينا عشوة الحيرة ، وقارعنا الذل والصغار ، وحكّم في عبادك غير المأمونين على دينك ، فابتز أموال آل محمد من نقض حكمك ، وسعى في تلف عبادك المؤمنين ، فجعل فينا مغنما وأمانتنا ميراثاً ، واشتريت الملاحى والمعازف والكبارات بسهم الأرملة واليتيم والمسكين فرتع في مالك من لا يرعى لك حرمة ، وحكم في أبشار المسلمين أهل الزمة ، فلا ذائد يزودهم عن هلكة ، ولا راحم ينظر إليهم بعين الرحمة . . . اللهم وقد استحصد زرع الباطل وبلغ نُهيته واستحكم عموده . . . الخ (١) . »

والمراد بأهل الشام هم الحاكمون من بني أمية الذين استطرد في الدعاء عليهم فقال :

« اللهم ولا تدع للجور دعامة إلا قصمتها ، ولا جنة إلا هكتها ، ولا كلمة مجتمعة إلا فرقها ، ولا قائمة إلا خفضتها ، ولا راية إلا نكستها وخططها ،

ولا علّموا إلا أسفله ، ولا خضراء إلا أبدتها ، اللهم وكوّر شمسك ، وأطفئ
نوره ، وأمّ بالحق رأسه (١) ، وفُض جيوشه ، وأرعب قلوب أهله ، وأرنا
أنصار الجور عبايد بعد الآلفة (٢) ، وشتّى بعد اجتماع الكلمة ، ومقمومي
الرءوس بعد الظهور على الأمة (٣) .

وقد أكثر من الدعاء على من خاصموه وحاربوه فدعا على حرمة بن
كاهلة وعبيد الله بن زياد وضمرة بن معبد وعبد الملك بن مروان .

ومراجعة تلك الأدعية تصوّر بعض جوانب المجتمع في ذلك الحين

٣ — وكان له دعاء خاص بساعته ، ويان ذلك أن في السالفين من افترض
أن النهار قُسم إلى اثنتي عشرة ساعة لينسجم مع عدد الأئمة الاثني عشر ،
وزين العابدين هو الرابع بين أولئك الأئمة فساعته من النهار هي الرابعة ،
وهي من ارتفاع النهار إلى وقت الزوال (٤) .

٤ — وأهم ما ينبغي النص عليه في هذا المقام هو الأدعية الانجيلية ، أو
المناجاة الانجيلية ، وهي أكبر مناجاة ظهرت من فيض الله على لسان
زين العابدين (٥) .

وسميت هذه المناجاة بالانجيلية لأن فقراتها تشبه أكثر فقرات الانجيل
النازل على عيسى عليه السلام لا الانجيل المتداول بين النصارى الآن (٥) .
وهنا بيت القصيد ، فقد أشرنا مرات كثيرة إلى أن الصوفية كانوا يرون
المسيح قدوة في الشؤون الروحية .

(٢) عبايد : متفرقين

(٤) انظر ص ١٤٦ و ١٤٩

(١) أم الرأس شجّه

(٣) الصحيفة السجادية الخامسة ص ٩٢ و ٩٣

(٥) انظر ص ١٦٦

والواقع أن المسلمين عرفوا الانجيل منذ زمن بعيد ، وقد ترجموه ترجمة فصيحة جداً ، ومن تلك الترجمة الفصيحة شواهد كثيرة في كتب الأدب والتصوف كالذى نراه في كتاب عيون الأخبار لابن قتيبة ، وكتاب الاحياء للغزالي .

والتشابه كبير جداً بين مذاهب النصارى ومذاهب الصوفية في التعبد ، فالنصراني المتبتل يدخل الكنيسة وفي جيبه كتاب يشتمل على طوائف من الأدعية والصلوات ، والصوفي المخلص يدخل المسجد وفي يده كتاب يشتمل على طوائف من الاستغاثات والأحزاب والأوراد .

وكتاب الصحيفة السجادية يشبه من نواح كثيرة كتاب الاقتداء بالمسيح والفرق الوحيد بين الكتابين أن الدعاء في كتاب الاقتداء بالمسيح يوجه إلى عيسى والدعاء في الصحيفة السجادية يوجه إلى الله ، ويتم التشابه حين نعرف أن النصارى يرون عيسى صورة الله .

والصحائف السجادية عند الشيعة تقابل مجموع الأوراد عند أهل السنة والمخاطب واحد وهو الله واجب الوجود .

وقد اهتم النصارى بكتاب الاقتداء بالمسيح Imitation de Jésus Christ فنقلوه من اللاتينية إلى الفرنسية نحو أربعين مرة وكتبوه بالذهب في كثير من الأحيان .

وأدعية زين العابدين كانت مما اهتم به الشيعة اهتماماً شديداً ، فصححوا رواياتها ونقدوها وكتبوها بالذهب في كثير من البلاد .

٥ — والمناجاة الانجيلية تفيض بالمعاني الروحية ، ولننظر كيف يقول
زين العابدين :

« اللهم لك قلبي ولساني ، وبك نجاتي وأمانى ، وأنت العالم بسرى وإعلانى
فأمت قلبي عن البغضاء ، وأصمت لسانى عن الفحشاء ، وأخلص سريرتى
وعلانيتى عن علائق الأهواء ، واكفى بأمانك عواقب الضراء ، واجعل
سرى معقوداً على مراقبتك ، وإعلانى موافقاً لطاعتك . وهبلى جسماً روحانياً
وقلباً سماوياً ، وهمة متصلة بك ، ويقيناً صادقاً فى حبك » (١) .

وكيف يقول :

« اللهم ارحم من اكتشفته سيئاته ، وأحاطت به خطيئاته ، وحققت به
جناياته . بعفوك ارحم من ليس له من عمله شافع ، ولا يمنعه من عذابك
مانع » (٢) .

٦ — ولزين العابدين أدعية تلين الجلاميد ، كأن يقول :

« سيدى ، حق لمن دعاك بالندم تذلل أن تجيبه بالكرم تفضلاً
سيدى ، أمن أهل الشقاء خلقتنى فأطيل بكأى ، أم من أهل السعادة
خلقتنى فأبشّر رجائى ؟

سيدى ، ألضرب المقامع خلقت أعضائى ، أم لشرب الخيم خلقت أمعائى ؟
سيدى ، لو أن عبداً استطاع الهرب من مولاه لكنت أول الهاربين
منك ، لكننى أعلم أنى لا أفوتك
سيدى ، لو أن عذابى يزيد فى ملكك لسألتك الصبر عليه ، غير أنى أعلم

أنه لا يزيد في ملكك طاعة المطيعين ، ولا ينقص منه معصية العاصين .
سیدی ، ما أنا وما خطري ؟ هب لي خطاياي بفضلک ، وجللني بسترک ،
واعف عن توبيخی بکرم وجهک .

إلهی وسیدی ، ارحمني مطروحاً على الفراش تقلبني أيدي أجنبي ،
وارحمني مطروحاً على المغتسل يغسلني صالح جيرتي ، وارحمني محمولاً قد
تناول الأقرباء أطراف جنازتي ، وارحم في ذلك البيت المظلم وحشتي وغرقي
ووحدي ، فما للعبد من يرحمه إلا مولاه (١) .

٧ — وزين العابدين يجعل الأيام والشهور مواسم روحية ، فله أدعية
لأيام الأسبوع ، ودعاء ليوم عرفة ودعاء لأول يوم رجب ، وأدعية لأيام
رمضان . وأول شهور السنة الهجرية عنده هو شهر رمضان (٢)

ولا تخلو أدعيته على كثرتها من فصاحة التعبير وقوة الروح
٨ — والصوفية يعتقدون أن زين العابدين كان من أهل الأسرار ،
ويروون أنه قال :

ياربَّ جوهر علم لو أبوح به لقليل لي أنت ممن يعبد الوثنا
ولاستحل رجال مسلمون دمي يرون أقبح ما يأتونه حسنا
إني لا أكرم من علمي جواهره كي لا يرى الحق ذو جهل فيفتتنا (٣)
ومعنى ذلك أنه كان يفرق بين ما يُلْقَى على العوام وما يلقي على
الخواص .

(٢) انظر ص ٣٧٨

(١) ص ٣٧٤ و ٣٧٥

(٣) شرح ابن عجيبة ص ١١٢

ادْعِ إِلَى التَّوْحِيدِ

١ - لم يكن التوحيدى صوفيا بالمعنى المصطلح عليه عند أهل التصوف ، فقد كان رجلا مشغولا بالادب والمنطق والتوحيد ، وكانت له فى حياته جولات هجائية لا تخلو من لؤم وطيش ، ولكنه حين انهزم فى حياته المعاشية بدأ يشعر بروح التصوف ، وأخذ يدعو بما دعا به بعض النساك : « اللهم صُنْ وجوهنا باليسار ، ولا تبذلها بالافتار ، فنسترزق أهل رزقك ونسأل شرَّ خلقك ، ونُبْتَلى بحمد من أعطى ، وذمَّ من منع ، وأنت من دونهم ولىُّ الاعطاء ، ويديك خزائن الأرض والسماء (١) » .

وتدلنا فقرات فيما وصل إلينا من مؤلفاته على أنه كان يعنى بتقيد ما يصل إليه من بليغ الدعاء ، كأن يحدثنا أنه سمع الخوارزمى أبا بكر محمد بن العباس الشاعر البليغ يقول « اللهم نفق سوق الوفاء فقد كسدت ، وأصلح قلوب الناس فقد فسدت ، ولا تمنى حتى يبور الجهل كما بار العقل ، ويموت النقص كما مات العلم (٢) » .

فهو يذكر الخوارزمى باسمه وكنيته ويصفه بالشاعر البليغ ، وفى هذا إشارة الى عطفه عليه بسبب الروح الذى تنسمه فى هذا الدعاء وهو نفسه كان يعطف على التصوف ويراه علما يدور بين إشارات

إلهية ، وأغراض علوية ، وأفعال دينية ، وأخلاق ملوكية ، ولم يمنعه هذا العطف من النص على أن الطريقة لحقها حيف لكثرة الدخلاء فيها كما لحق البلاغة لكثرة مدّعيها ، وذلك في رأيه لا نقراض الدنيا وقرب أشرار القيامة (١) .

فهو يمجّد التصوف ولا يمتق إلا الأدعياء .

٢ — والمرجح عندنا أن التوحيدى لم يكلف بصوغ الأدعية إلا في أخريات حياته حين « بلغت شمسهُ رأس الحائط (٢) » ولذلك رأيناه يفتح رسالة الصداقة والصديق بهذا الدعاء :

« اللهم خذ بأيدينا فقد عثرنا ، واستر علينا فقد أعورنا ، وارزقنا الألفة التى بها تصلح القلوب وتُنقى الجيوب ، حتى نعيش فى هذه الدار مصطلحين على الخير مؤثرين للتقوى عاملين بشرائط الدين ، آخذين بأطراف المروءة آنفين من ملابسة ما يقدر فى ذات البين ، متزودين للعاقبة التى لا بد من الشخوص إليها ، ولا محيد من الاطلاع عليها ، إنك توفى من تشاء ما تشاء . »
وقد يقال إن أكثر المؤلفين يبتدئون مؤلفاتهم بالدعاء . ونجيب بأن هنا نفحة صوفية لا نجد مثلها فيما دعا به الجاحظ فى فاتحة « البيان والتبيين »

٣ — على أن الجاحظ دعا مرة أو مرات ، أما التوحيدى فقد اتخذ الدعاء فناً من فنون البيان ، ولننظر هذا الدعاء :

« اللهم إني أبرأ من الثقة إلا بك ، ومن الأمل إلا فيك ، ومن التسليم

(١) من رسالة ثمرات العلوم الملحقه بالصداقة والصديق ص ١٩٦

(٢) عبارة التوحيدى فى ختام رسالة الصداقة والصديق

إلا لك ، ومن التفويض إلا إليك ، ومن التوكل إلا عليك ، ومن الطلب
إلا منك ، ومن الرضا إلا عنك ، ومن الذل إلا في طاعتك ، ومن الصبر
إلا على بلائك ، وأسألك أن تجعل الإيـ خلاص قرين عقيدتي ، والشكر على
نعيمك شعاري ، ودثاري ، والنظر إلى ملكوتك دأبي وديني ، والانقياد لك
شأني وشغلي ، والخوف منك أمني وإيماني ، واللياذ بذكرك بهجتي وسروري .
اللهم تتابع برُّك واتصل خيرك ، وعظم رفدك ، وتناهى إحسانك ، وصدق
وعدك ، وبرِّ قسمك ، وعمت فواضلك ، وتمت نوافلك . ولم تبق حاجة
إلا وقد قضيتها أو تكفلفت بقضائها ، فاختم ذلك كله بالرضا والمغفرة ، إنك
أهل ذلك والقادر عليه »

والقاريء مرجوٌّ أن ينظر براعة هذا الكاتب في تلوين الفواصل مع
حروف الخفض في صدر هذا الدعاء ، وما اتَّسق له بعد ذلك من المقابلة
والازدواج .

٤ — وهذا لون ثالث من الدعاء :

« اللهم إني أسألك خفايا لطفك ، وفوايح توفيقك ومألوف برك ،
وعوائد إحسانك ، وجاه المجتبيين من ملائكتك ، ومنزلة المصطفين من رسلك
ومكاثرة الأولياء من خلقك ، وعاقبة المتقين من عبادك ، وأسألك القناعة
برزقك ، والرضا بحكمك ، والنزاهة عن محظورك ، والورع في شبهاتك ،
والقيام بحججتك ، والاعتبار بما أبديت ، والتسليم لما أخفيت ، والإقبال على
ما أمرت ، والوقوف عما زجرت ، حتى آتخذ الحق حجة عند ما خفّ وثقل ،
والصدق سنة فيما عسر وسهل ، وحتى أرى أن شعار الزهد أعز شعار ، ومنظر

الباطل أشوه منظر ، فأبتخر في ملكوتك فضفاض الرداء بالدعاء اليك ،
وأبلغ الغاية القصوى بين خلقك بالثناء عليك »

وفي هذا الدعاء فنون من البديع لا تحفى على القارئ ، وموضوعه يخالف
موضوع الدعاء السالف .

٥ — وهذا لون رابع :

« اللهم إليك أرفع عَجْرِي وَبُجْرِي ^(١) وبك أستعين في عسرى ويسرى
وإليك أدعو رغباً ورهباً ، فانك العالم بتسويل النفس ، وفتنة الشيطان ،
وزينة الهوى وصرف الدهر وتلون الصديق ، وباتقة الثقة وقنوط القلب ،
وضعف المنة ، وسوء الجزع ، فقنى اللهم ذلك كله ، واجمع من أمرى شمله
وانظم من شأنى شمتيته ، واحرسنى عند الغنى من البطر ، وعند الفقر من الضجر
وعند الكفاية من الغفلة ، وعند الحاجة من الحسرة ، وعند الراحة من
الفسولة ، وعند الطلب من الخيبة ، وعند المنازلة من الطغيان ، وعند
البحث من الاعتراض عليك ، وعند التسليم من التهمة لك ، وأسألك أن
تجعل صدرى خزانة توحيدك ، ولسانى مفتاح تمجيدك ، وجوارحى خدام
طاعتك ، فانه لا عز إلا فى الذل لك ، ولا غنى إلا فى الفقر اليك ، ولا أمن
إلا فى الخوف منك ، ولا قرار إلا فى القلق نحوك ، ولا روح إلا فى الكرب
لوجهك ، ولا ثقة إلا فى تهمة خلقك ، ولا راحة إلا فى الرضا بقسمك ،
ولا عيش إلا فى جوار المقربين عندك . »

وهذا الدعاء على جانب عظيم من الأهمية ، وفى صدره بعض الضعف

(١) كناية عن الاحمال الثقيل

ولكن الشطر الأخير عاية في القوة ، وهو يمثل كثيراً من المعاني النفسية كالبطر عند الغنى ، والضجر عند الفقر ، والغفلة عند الكفاية ، والفسولة عند الراحة ، والطغيان عند المنازلة ، والاعتراض عند البحث .

ولا مفرّ من الشئ على هذه الفقرة إذ يخاطب الكاتب ربه فيقول :

« إنه لا عزّ إلا في الذل لك ، ولا غنى إلا في الفقر إليك ، ولا أمن إلا في الخوف منك ، ولا قرار إلا في القلق نحوك ، ولا روح إلا في السكرب لوجهك ، ولا ثقة إلا في تهمة خلقك »

والكلمة الأخيرة من وثبات الخيال

٦ — وهذا لون خامس :

« اللهم ببرهانك الصادع ، وبنور وجهك الساطع ، صلّ على محمد نبيك نبي الرحمة ، وقائد الأمة ، وإمام الأئمة ، واحرس على إيماني بك بالتسليم لك وخفف عني مؤونة الصبر على امتحانك ، وواصل لي أسباب المزيد عند الشكر على نعمتك ، واجعل بقية عمري في غنى عن خلقك ، ورضاً بالمقدم من رزقك . اللهم إنك إن أخذتنا بذنوبنا خسفت الأرض بنا ، وإن جازيتنا على ظلمنا قطعت دوابنا ، فانك قلت (فقطّع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين) اللهم اليك نشكو قسوة قلوبنا ، وغلّ صدورنا ، وفتنة أنفسنا ، وطموح أبصارنا ، ورفث ألسنتنا ، وسخف أحلامنا ، وسوء أعمالنا وفحش لجاجنا ، وقبح دعوانا ، وفتن أشرارنا ، وخبت أختيارنا ، وتلرز ظاهرننا ، وتمزق باطننا . اللهم فارحمنا ، وارأف بنا ، واعطف علينا ، وأحسن إلينا ، وتجاوز عنا ، واقبل الميسور منا ، فاننا أهل عقوبة وأنت أهل مغفرة »

وأنت بما وصفت به نفسك أحق منا بما وسمنّا به أنفسنا ، فإن في ذلك ما اقترن
بكرمك ، وأدى إلى عفوك الخ

وهذا الدعاء طويل يجد القارئ بقيته في شرح ابن أبي الحديد^(١) وهو
يذكر بما سيوضع من الأحزاب ، ففيه حديث عن قسوة القلوب ، وغل
الصدور ، وفتنة النفوس ، وطموح الأبصار ، ورفث الألسنة ، وسخف
الأحلام ، وسوء الأعمال ، وذلك يدل على بصر التوحيدى بعصف الفتن
في عالم الأخلاق .

ومن دقيق ما فيه الإشارة إلى قبح الدعوى ، وفحش اللجاج ، والنص
على نتن الأشرار وخبت الأخيار ، فهو يرى أن في الأخيار خبئاً ، وذلك من
جانبه إسراف في اتهام الطبيعة الانسانية ، إلا إن قدرنا أنه يشير إلى أن
الأخيار لا غنى لهم عن التحرز والخوف من سوء الخواتم .

٧ - هذا وللتوحيدى أدعية كثيرة فيها أدب وعقل وذكاء . ولا موجب
لعرض ما وصلنا إليه من أدعيته في هذا الفصل فلنكتف بهذه الفقرات :
« اللهم احجز بيننا وبين كل ما دلّ على غيرك ببيانك ، ودعا إلى سواك
ببرهانك » .

« اللهم قيض لنا فرجا من عندك ، وأتخ لنا مخلصاً إليك ، فانا قد تعبنا
بخلقك وعجزنا عن تقويمهم لك ، ونحن إلى مقاربهم في مخالفتك أقرب منا
إلى منابذتهم في موافقتك » .

« اللهم إليك المفر من دار منهومها لا يشيع ، وحائمها لا ينقع ، وطالبها

لا يربح ، وواجدها لا يقنع . . . اللهم كما ابتليت بحكمتك الخفية التي أشكت على العقول وحارت معها البصائر فعاف برحمتك اللطيفة التي تطاولت إليها الأعناق وتشوفت نحوها السرائر .

« اللهم إنا قربنا منك فلا تُبَيِّنَّا عنك ، وظهرنا لك فلا تُبْطِنَّا دونك ، ووجدناك بما ألقيت إلينا من غيب ملكوتك ، وعزفنا عن كل ما لوأنا عن 'بك' ، ووثقنا بكل ما وعدتنا في كتابك (١) »

٨ — وقد أهدى إلينا الأستاذ سليم قبعين نسخة مخطوطة من رسالة للتوحيدى اسمها «الاشارات الالهية» فنظرنا فى الفاتحة فاذا فيها دعاء يثير الدمع ويتفجر عند قراءته الحنان ، فان كان القارىء فى حاجة إلى بينة على صحة ما نقول فليقرأ هذا الدعاء :

« اللهم إنا نسألك ما نسأل لا عن ثقة ببياض وجوهنا عندك ، وأفعالنا معك ، وسوائف إحساننا قبلك ، ولكن عن ثقة بكرمك الفاض ، وطمعاً فى رحمتك الواسعة ، نعم ، وعن توحيد لا يشوبه إشراك ، ومعرفة لا يخالطها إنكار ، وإن كانت أعمارنا قاصرة عن غايات حقائق التوحيد والمعرفة ، نسألك أن لا ترد علينا هذه الثقة بك فتشمت بنا من لم تكن له هذه الوسيلة إليك » .

٩ — وقد رأينا فى هذه المخطوطة إشارة تسمو بالتوحيدى إلى درجة التصوف ولنتأمل كيف يقول

(حرامٌ على قلب استنار بنور الله أن يفكر فى غير عظمة الله .
حرامٌ على لسان تعود ذكر الله أن يذكر غير الله .

حرامٌ على نفس طهرت من أدناس الدنيا بطاعة الله أن تدنس بشيء
من مخالفة الله

حرامٌ على عين نظرت الى مملكة الله أن تحديق إلى غير الله ،
حرام على كبد ابتلّت بالثقة بالله أن تطمئن إلى غير الله ،
حرام على من لم ير الخير إلا من الله أن يجد طمعاً في غير الله ،
حرام على من شرف بخدمة الله أن يتضع بخدمة غير الله ،
حرام على من ألف فناء الله أن يعرج إلى غير الله ،
حرام على من تلذذ بمناجاة الله أن يناجى غير الله ،
حرام على من رتع في نعمة الله أن يعبد غير الله ،
حرام على من سكن حرّم الله أن يتعرض لحرّم الله ،
حرام على من دعا إلى الله أن يحب غير الله ،
حرام على عبد الله أن يتخذ مولى سوى الله ،
حرام على من أنس بالله أن يأنس بغير الله ،
حرام على من عرف قدرة الله أن يتعرض لسخط الله) .

وهذه قطعة طريفة تفيض بقوة الروح .

١٠ — والشاهد من كل ما سلف أن التوحيدى يرى الدعاء من الفنون
الادبية فهو يكتب الادعية ككتابة الأديب الفنان ، ويقصد إلى جعلها من
النماذج البارعة فى عالم البيان .

فمن أين جاءت هذه النزعة ؟ أترون هذا الفن من مبتكراته ؟ هيات !
لقد كان الرجل يزاحم ناساً ملأت أذعيتهم آفاق الأندية الأدبية ،

وهؤلاء الناس هم الزهاد والنساك والصوفية ، وكان لنصائحهم ووصاياهم
وأدعيتهم مكان مرموق في عالم الآداب

إن الفن الأدبي لا يزدهر إلا حين يجد نفساً تصبو اليه وتشهيه ، وكان
التوحيدى سبق بأجيال عرفت فضل البلاغة في كلام النساك ، وكان الجاحظ
قدوة التوحيدى ، والجاحظ كان يحرص على تعطير كتبه برواية أقوال
النساك والزهاد فليس غريباً أن يعتمد التوحيدى إلى ذلك الفن من البلاغة
الدينية فيحتذيه احتذاء يدل على ذكاء القلب ، وصفاء النفس ، وحياة الوجدان
١١ — فان سأل القارىء : وأين مظاهر هذا الفن في العصر الحديث ؟

فانا نجيب بأنه انقرض ولم تبق إلا روايته وإنشاده في مجالس الصوفية
وربما رأينا من أهل التصوف في مصر من ينظم الأدعية ولكنهم يتكلفون
متابعة القدماء . والصفاء في خواطرهم قليل . وأين الطرف المكحول من
الطرف الكحيل !

أما الخيامُ فانها كخيامهم وأرى نساء الحى غير نساها

الاستغاثات والأحزاب

استغاثة السهيلي — الفرق بين الأحزاب والأوراد — تحليل حزب البر للشافلي —
في الأحزاب اشارات لا يفهمها غير كبار الحكماء .

١ — رأينا نماذج من الأدعية والأوراد ، وعرفنا أن لذلك صلة وثيقة بالحياة الخلقية ، ورأى القارئ كيف آثرنا الإيجاز على الإطناب ، لأن الإشارة تكفي في هذا الباب ، ولأن الأطناب نفسه لا يطفئ الشوق إلى المزيد فليرجع القارئ إلى كتب التصوف ، ففيها أوراد تجلّ عن الإحصاء ، وحسبه أن يعرف أن لتلك الأوراد ملامح أدبية وخلقية : فهي باب من الأدب لأن مؤلفيها كانوا يتحرون دقة الأسلوب وروعة الخيال ، وهي من صميم الأخلاق لأنها رياضة على التقرب إلى الله ، والانقطاع إليه ، والفناء فيما يريد .

ولنأخذ الآن في الحديث عن الاستغاثات والأحزاب ، ولنوجز أيضاً لأنه يتعذر توفية هذا النوع ما يستحق من الدرس في فصل من كتاب .

٢ — ولنقف في الاستغاثات عند منظومة السهيلي المتوفى سنة ٥٨١ وكان يحدث أصحابه بأنه ما سأل الله بها إلا أعطاه

يا مَنْ يرى ما في الضمير ويسمعُ أنت المَعْدُّ لكل ما يُتوقع
يا مَنْ يُرجى للشّدائد كلها يا مَنْ إليه المشتكى والمفزعُ
يا مَنْ خزائن رزقه في قول كن امنن فان الخير عندك أجمع

مالى سوى فقري اليك وسيلةً وبالافتقار اليك فقري أدفع
مالى سوى فزعى لبابك حيلةً فلئن رددت فأى باب أقرع
ومن الذى أدعو وأهتف باسمه إن كان فضلك عن فقيرك يمنع
حاشا لجودك أن يقتط عاصياً الفضل أجزل والمواهب أوسع (١)

ولا تزال هذه الاستغاثه مما يتوسل به الصوفية وقد أثبتها مؤلفو مجموع
الأوراد وأضافوا إليها هذا البيت فى الصلاة على الرسول
ثم الصلاة على النبى وآله خير الآنام ومن به يتشفع
واهتم بتخميسها ثلاثة من أهل الفضل وتخاميسهم محفوظة بدار
الكتب المصرية .

٣ — أما الأحزاب فكثيرة جداً ، والفرق بين الورد والحزب أن الورد
يُقرأ فى أوقات منظمة فيقال أوراد النهار وأوراد الليل ، أما الحزب فليس
لقراءته وقت مخصوص ، وسنكتفى فى هذا الفصل بالكلام عن حزب البر
لأبى الحسن الشاذلى . وهو فى رأينا أفضل الأحزاب من حيث اللفظ والمعنى ،
فهو فى لفظه تحفة فنية قليلة النظائر ، وهو فى معناه قوة روحية وعقلية
نادرة المثال .

والشاذلى يبدأ حزب البر بالاستعاذه وبالسمة وآيات من القرآن كأكثر
من أنشأوا الأحزاب ثم يأخذ فى مخاطبة الله فيقول :

« اللهم إنك تعلم أنى بالجهالة معروف ، وأنت بالعلم موصوف ، وقد
وسعت كل شئ من جهالتى بعلمك ، فسع ذلك برحمتك كما وسعته بعلمك »

والمعنى فى هذه الفقرة فى غاية من القوة . فليتأمله القارىء . ثم يقول :

« اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فهنيئاً لمن عرفك فرضى بقضائك ، والويل لمن لا يعرفك ، بل الويل ثم الويل لمن أقرّ بوحدايتك ولم يرض بأحكامك . »
وهو فى هذه الفقرة يدعو إلى التفويض والامتثال . ثم يقول :

« اللهم إن القوم قد حكمت عليهم بالذل حتى عزوا ، وحكمت عليهم بالفقد حتى وجدوا ، فكل عزٍّ يمنع دونك فنسألك بدله ذلاً تصحبه لطائف رحمتك ، وكل وجدٍ يحجب عنك فنسألك عوضه فقدأً تصحبه أنوار محبتك . »

وهو فى هذه الفقرة يصرح بأن لا عزٍّ إلا بالله ، ولا غنى إلا بالله ، ويرجو الحرمان من كل عزٍّ يمنع دون الله ، وكل غنى يحجب عن الله ، ثم يقول :

« اللهم إنا قد عجزنا عن دفع الضر عن أنفسنا من حيث نعلم بما نعلم فكيف لا نعجز عن ذلك من حيث لا نعلم بما لا نعلم . »
وهذه الفقرة من خير ما أنتجت القرائح ، ولا يفنى ما فيها من قوة المعنى وطرافة الخيال .

والمؤلف يقول بعجز النفوس عن دفع الضر الذى تعرفه بما تعرف من وسائل الوقاية والمقاومة فكيف لا تعجز عن دفع ما لا تعرف بما لا تعرف . وهو بهذا يؤمن بالمخاوف الغيبية ويسأل الله السلامة من الظواهر والمستورات ، ثم يقول :

« وقد أمرتنا ونهيتنا ، والمدح والذم ألزمتنا ، فأخو الصلاح من أصلحته وأخو الفساد من أضلته ، والسعيد حقاً من أغنيته عن السؤال منك ، والشقي حقاً من حرمة مع كثرة السؤال لك ، فأغننا بفضلك عن سؤالنا منك ، ولا تحرمننا من رحمتك مع كثرة سؤالنا لك ، إنك على كل شيء قدير . »

و دقة المعنى في هذه الفقرة لا تحتاج إلى بيان . ثم يقول :

« يا شديد البطش يا جبار يا قهار يا حكيم نعوذ بك من شر ما خلقت ونعوذ بك من ظلمة ما أبدعت ، ونعوذ بك من كيد النفوس فيما قدّرت وأردت ، ونعوذ بك من شر الحسّاد على ما أنعمت ، ونسألك عزّ الدنيا والآخرة كما سألكه نبيك سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، عزّ الدنيا بالآيمان والمعرفة ، وعزّ الآخرة باللقاء والمشاهدة ، إنك سميع قريب مجيب . »

والمؤلف يكشف في هذه الفقرة عن معان نفسية تمثل الخوف من مكنونات الوجود والفرع من شر الناس ، ويفصح عن أمله في عز الدنيا والآخرة ، فعز الدنيا هو المعرفة والإيمان ، وعزّ الآخرة هو المشاهدة واللقاء . أما المال هنا والنعيم هناك فليس له حساب ، والمؤمن المتصوف لا يفكر في النعيم المحسوس ، وإنما يرجّهُ رغائبه إلى النعيم المعقول .

ثم يقول :

« يا سميع يا قريب يا مجيب يا ودود . حلّ بيننا وبين فتنة الدنيا والنساء والغفلة والشهوة وظلم العباد وسوء الخلق ، واغفر لنا ذنوبنا ، واقض عنا تبعاتنا ، واكشف عنا السوء ، ونجّنا من الغم واجعل لنا منه مخرجاً ، إنك على كل شيء قدير . »

والمؤلف يصور في هذه الفقرة ما يخشاه من الفتن والمكارة الدنيوية .
ومن جيد التصوير لضعف النفس قوله :

« وزحزحنا في الدنيا عن نار الشهوة ، وأدخلنا بفضلك في ميادين الرحمة
واكسنا من لدنك جلايب العصمة ، واجعل لنا ظهيرا من عقولنا ، ومهيمناً
من أرواحنا ، ومسخرًا من أنفسنا ، كي نسبحك كثيرا ، ونذكرك كثيرا ،
إنك كنت بنا بصيرا » .

والمهم في هذه الفقرة هو الرجاء في أن يجعل الله لنا ظهيرا من العقول ،
ومهيمناً من الأرواح ، ومسخرًا من النفوس .

ثم يقول :

« واذكرنا إذا غفلنا عنك بأحسن ما تذكرنا به إذا ذكرناك ، وارحمنا
إذا عصيناك بأتم ما ترحمنا به إذا أطعناك . واغفر لنا ذنوبنا ما تقدم منها
وما تأخر ، والطف بنا لطفاً يحجبنا عن غيرك ولا يحجبنا عنك ، إنك بكل
شيء عليم » .

وصدر هذه الفقرة في غاية من الحسن عند من يتأملون .

ولننظر قوله في الخوف من النفس ومن خطرات المعصية :

(اللهم إنا نسألك التوبة ودوامها ، ونعوذ بك من المعصية وأسبابها .
وذكرنا بالخوف منك قبل هجوم خطراتها ، واحملنا على النجاة منها ومن
التفكر في طرائقها ، واحم من قلوبنا حلاوة ما اجتنيناه منها ، واستبدلها
بالكراهة لها والطعم لما هو بضدها ، وأفض علينا من بحر كرمك وعفوك
حتى نخرج من الدنيا على السلامة من وبالها) .

والمؤلف في هذه الفقرة يصور ما تتعرض له النفس من الشوق إلى ما اجتنبت من اللذات : فقد تتلفت النفس إلى لذاتها الماضية فيفسد عليها روح المتاب ، وهو يرجو أن يذكره الله بالخوف منه قبل هجوم الخطرات ، خطرات المعاصي والذنوب

ثم يقول :

« واجعل سيئاتنا سيئات من أحببت ، ولا تجعل حسناتنا حسنات من من أبغضت ، فالاحسان لا ينفع مع البغض منك ، والاساءة لا تضر مع الحب فيك ، وقد أبهمت علينا الأمر لنرجو ونخاف : فأمن خوفنا ، ولا تخيب رجاءنا ، وأعطنا سؤالنا ، فقد أعطيتنا الايمان من قبل أن نسألك »

ولو مضينا لرأينا الشاذلي يدعو الله أن يهبه حقيقة الايمان حتى لا يخاف غيره ، ولا يرجو غيره ، ولا يحب غيره ، ولا يعبد شيئاً سواه ، ورأيناه يقول : « فهاأنذا عبدك إن تعذبنى بجميع ما علمت من عذابك فأنا به حقيق » .
فيعترف بأنه لا ينال الرحمة إلا بفضل من الله ، ثم يوفق كل التوفيق إذ يقول :

« فليس كرمك مخصوصاً بمن أطاعك وأقبل عليك ، بل هو مبذول بالسبق لمن شئت من خلقك وإن عصاك وأعرض عنك . وليس من الكرم أن لا تحسن إلا لمن أحسن إليك وأنت المفضل الغني ، بل الكرم أن تحسن إلى من أساء إليك وأنت الرحيم العلي ، كيف وقد أمرتنا أن نحسن إلى من أساء إلينا ، فانت أولى بذلك منا » .

تلك إشارات إلى ما في حزب البر من الآيات فليرجع إليه القارىء إن شاء . وليرجع إلى أمثاله من مختلف الأحزاب ففيها خُلق وفيها بيان . ومن موجبات الأسف أن لا يقرأ هذه الأحزاب غير العوام ، مع أن فيها من دقائق الاشارات ما لا يفهمه غير كبار الحكماء .

الْوَصَايَا وَالنَّصَائِحُ

في الوصايا ملامح من الأدب وأصول من الأخلاق — قدم هذا الفن في اللغة العربية —
خصائص النصيح عند الصوفية — نماذج من وصايا النساك — حرص الناس على وصايا
الصوفية — الروح الغالب على هذه الوصايا هو الدعوة الى تطهير القلب ، والتنفير من الدنيا
الفانية ، والتشويق الى دار البقاء .

١ — هذا الفن مزاج من الأدب والأخلاق : هو أدب لأن الناصحين
كانوا يحرصون في الأغلب على جمال الصورة ، فيسجعون ويزاوجون ،
كقول علقمة بن ليبد :

(يا بني ، اذا نزغتك الى صحبة الرجال حاجة فاصحب من إذا صحبته
زائلك ، وإن خدمته صانك ، وإن أصابتك خصاصة مانك ، وإن قلت صدق
قوالك ، وإن صلت شدّ صولك ، وإن مددت يدك بفضل مدها ، وإن رأى
منك حسنة عدها ، وإن سألته أعطاك . وإن سكنت عنه ابتداك ، وإن نزلت
بك احدى الملمات آماك (١))

وهو أخلاق لأن الناصحين كانوا يفكرون أولاً وقبل كل شيء في
المعاني الخلقية ، وكانت النصائح لا تصدر الا عن أناس عرفوا بالحكمة
وأصالة الرأي ، وكانت لا توجه الا إلى ناس يراد توجيههم الى صالح الأعمال ،
ومن أجل ذلك أضفنا هذا الفصل الى قسم الأخلاق .

٢ — والوصايا من أقدم الفنون التي عرقتها البيئات العربية ، والقرآن يتحدثنا أن لقمان قال لابنه وهو يعظه :

« يا بني ، لا تشرك بالله ، إن الشرك لظلم عظيم يا بني ، أقم الصلاة ، وأمر بالمعروف ، وانه عن المنكر ، واصبر على ما أصابك ، إن ذلك لمن عزم الأمور . ولا تصغرَّ خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحاً ، ان الله لا يحب كل مختال فخور . واقصد في مشيك ، واغضض من صوتك ، إن أنكر الأصوات لصوت الحمير (١) »

وهي كذلك من أقدم الفنون التي عرقتها البيئات الفارسية ، ومن أشهر ما أثر عن الفرس في هذا الباب كتاب أردشير بن بابك الى بنيه والملوك من بعده ، وهو كتاب طويل نقتبس منه هذه الفقرات :

« رشاد الوالى خير للرعية من خصب الزمان . الملك والدين توأمان لا قوام لأحدهما الا بصاحبه ... واعلموا أنه ليس ينبغي للملك أن يعرف للعباد والنسك بأن يكونوا أولى بالدين منه ... واعلموا أنكم ستبلون على الملك بالآزواج والأولاد والقرباء والوزراء والأخدان والأنصار والأعوان والمتقربين والندماء والمضحكين ، وكل هؤلاء الا قليلا أن يأخذ لنفسه أحب اليه من أن يعطى منها عمله ، وانما عمله سوق ليومه وذخيرة لغده . فنصيحته للبلوك فضل نصيحته لنفسه ، وغاية الصلاح عنده صلاح نفسه ، وغاية الفساد عنده فسادها ، يقيم للسلطان سوق المودة ما أقام له سوق الأرباح والمنافع .. واعلموا أن لكل ملك بطانة ، ولكل رجل من بطانته بطانة ، ثم إن لكل امرئ

من بطانة البطانة بطانة ، حتى يجتمع من ذلك أهل المملكة ، فاذا أقام الملك بطانته على حال الصواب فيهم أقام كل امرئ بطانته على مثل ذلك حتى يجتمع على الصلاح عامة الرعية (١)»

وقد ازدهر هذا الفن في اللغة العربية ، ودخل في أكثر أبواب الحياة ، فهناك وصايا الخلفاء والملوك وهي التي تسمى « العهود » ولكل طائفة وصايا ، ومن أشهر الوصايا الأدبية وصية عبد الحميد بن يحيى التي وجهها الى الكتاب ، وهناك وصايا الآباء للأبناء وقد كتبت عنها ثلاث مقالات نشرتها في البلاغ ، ثم تبينت أنها تحتاج الى درس أطول مما اشتملت عليه تلك المقالات الثلاث ... وقد انتقل هذا الفن الى الفكاهة ، فرأينا نماذج كثيرة من وصايا الطفيليين الى أبنائهم ، وكل أولئك يبين كيف صار هذا الفن مما يتبارى فيه الكتاب والشعراء .

٣ — وقد تعبنا في البحث عن الفروق الجوهرية التي يتميز بها هذا الفن في كلام الصوفية ، ثم رأينا أن الفروق على كثرتها ترجع الى باب واحد ، فالوصايا في الأغلب تدور حول الشؤون المعاشية ، وتطوف بالآصول من كرائم الخلال ، كقول الأوس بن حارثة :

« يا مالك ، المنية ولا الدنية ، والعتاب قبل العقاب ، والتجلد لا التبلد ، واعلم أن القبر خير من الفقر ، ومن كرم الكريم الدفاع عن الحریم ، وخير الغنى القناعة ، وشر الفقر الضراعة ، والدهر يومان : يوم لك ويوم عليك ،

(١) كتاب أردشير خلیق بأن یقرأ کله ، فلیرجع الیه الفاری فی شرح ابن ابی الحدید

فاذا كان لك فلا تبطر ، وإذا كان عليك فاصبر ^(١) .

ولكنها عند الصوفية تنصبّ على أمور ذوقية وروحية ، كأن يحدث
من يقول :

« أقبلنا قافلين من بلاد الروم نريد البصرة ، حتى إذا كنّا بين الرصافة
وحمص سمعنا صائحاً يصيح من بين تلك الرمال — سمعته الأذان ولم تره
العيون — يقول : يا مستور يا محفوظ ، اعقل في ستر من أنت ؟ فان كنت
لا تعقل من أنت في ستره فاتق الدنيا فانها حمى الله ، فان كنت لا تعقل كيف
تتقيها فصيرّها شوكا ثم انظر أين تضع قدميك منها ^(٢) » .

وكان يقول بعض الزهاد :

« لا تغترنّ بطول السلامة مع تضييع الشكر ، ولا تعملنّ نعمة الله في
معصيته ، فان أقل ما يجب لمهديها ألاّ تجعلها ذريعة إلى مخالفته ، واستدع
شارد النعم بالتوبة ، واستدم الراهن منها بكرم الجوار ، واستفتح باب المزيد
بحسن التوكل ^(٣) » .

وكان يقول غيلان :

« إن التراجع في المواعظ يوشك أن يُذهب يومها ويأتي يوم الصاخّة ،
كل الخلق يومئذ مصيخ يستمع ما يقال له ويقضى عليه ، وخشعت الأصوات
للرحمن فلا تسمع إلا همساً ، فاصمت اليوم عما يصمتك يومئذ ، وتعلّم ذلك
حتى تعلمه ، وابتغه حتى تجده ، وبادر قبل أن تفجأك دعوة الموت ، فانها

(٢) عيون الأخبار ج ٢ ص ٣٣٢

(١) الأمالي ج ١ ص ١٠٢

(٣) عيون الأخبار ج ٢ ص ٣٤٤

عنيفة إلا بمن رحم الله ، فيقحمك في دار تسمع فيها الأصوات بالحسرة والويل والشبور ، ثم لا يقالون ولا يستعتبون ، إنى رأيت قلوب العباد في الدنيا تحشع لأيسر من هذا وتقسو عند هذا ، فانظر إلى نفسك أعبد الله أنت أم عدوه ، فيارب متعبد لله بلسانه ، معاد له بفعله ، ذلول في الانسياق إلى عذاب السعير في أمنية أضغاث أحلام يعبرها بالأمان والظنون ، فاعرف نفسك ، وسل عنها الكتاب المنير ، سؤال من يحب أن يعلم ، وعلم من يحب أن يعمل ... ولا تكن كعلماء زمن الهرج إن وعظوا أنفوا ، وإن وعظوا عنفوا (١) .

فما الذى نراه فى أمثال هذه النصائح ؟ انها نفثات موجهة إلى غاية واحدة هى اصلاح القلوب ، والوسيلة هى التفكير . مقارنة الدنيا والترغيب فى الأعمال الصالحات ، فالزاهد حين ينصح لا يفكر فى المعاش على نحو ما يفكر المعنيون بالشؤون الدنيوية ، وإنما يفكر فى إعداد النفس ليوم الحساب .

٤ — وكان يتفق للصوفية أن يسلكوا فى نصائحهم مسلك التعليل والتحليل ، كأكثر رجال الأخلاق ، فترى منهم من يعجب حين يرى طالب الدنيا أجد من طالب الآخرة ، وخائفها أتعب من خائف الآخرة ، وهو يعلم يقيناً أنه رُبَّ مطلوب فى الدنيا قد صار حين نيل حتفاً لطالبه ، وأنه رب مخوف فيها قد لحق كرهاً بالهارب منه فصار خطاً له ، وأن المطلوب اليه من أهلها ضعيف عن نفسه ، محتاج إلى ربه ، مملوك عليه ماله ، مخزونة عنه

قدرته ، ثم يقضى بأن جماع ما يسعى له الطالب ويهرب منه الهارب أمران : أحدهما أجله والآخر رزقه ، ويعجب حين يرى الناس يختلفون في أمر الآخرة ولا يختلفون في أمر الدنيا ، وكيف لا يكون خائف الآخرة لربه كخائف الدنيا لسلطانها ، فيصبر على تجشم المكروه وتجرع غصص الغيظ ، ويتحفظ من أن يضر له على غش أو يهيم له بخلاف « فان ابتلى بالسخط من سلطانه فكيف حزنه ووحشته ، وإن أنس منه رضا عنه فكيف سروره واختياله ، وإن قارف ذنبا اليه فكيف تضعضعه واستخذاؤه ، وإن ندبه لأمر فكيف خفته ونشاطه ، وإن نهاه عنه فكيف حذره واتعاضه ، وهو يعلم أن خالقه ورازقه يعلم سره وجهره ، ويراه في متقلّبه ومشواه ، ويعاينه في فضائحه وعورته ، فلم يزعه عنها حياء منه ، ولا تقيّة له ، قد أمره فلم يأتمر ، وزجره فلم يزدجر ، وحذّره فلم يحذر ، ووعدّه فلم يرغب ، وأعطاه فلم يشكر ، وستره فلم يزدد بالستر إلا تعرضاً للفضائح ، وكفاه فلم يقنع بالكفاية ، وضمن له في رزقه ما هو في طلبه مُشيع ، ويقّظه من أجله لما هو عنه لاه ، وفرّغه من العمل لما هو عنه بغيره مشغول (١) » .

ولنذكر أن هذا نوع من النصيح الملفوف ، وهو من المذاهب التعليمية ، فقد كتب رجل من العباد خطاباً إلى صديق له يستفتيه في تلك الدقائق التي لخصناها في هذه الفقرة فأجابه الصديق بخطاب مطول بين فيه أن اليقين كالشجرة النابتة في القلب أغصانها العمل وثمرتها الثواب ، ثم قال :

«وأما قولك : كيف لم يكن خائف الآخرة لربه كخائف الدنيا لسلطانها ،

(١) انظر ص ٣٤٧ ، ٣٤٨ ج ٢ عيون الأخبار

فإن الله عزَّ وجلَّ خلق الإنسان ضعيفاً وجعله عَجُولاً ، فهو لضعفه موكلٌ
بخوف الأقرب فالأقرب مما يكره ، وهو بعجلته موكلٌ بحب الأجل فالأجل
مما يشتهى ، وزاده حرصاً على المخلص من المكروه ، وطلباً لل محبوب ،
حاجته إلى الاستمتاع بمتاع الدنيا الذى لولا ما طبع عليه القلب من حبه ،
وسهل على المخلوقين من طلبه ، لما انتفع بالدنيا منتفع ولا عاش فيها
عائش^(١) .

والخطاب والجواب يرجعان إلى أصل واحد هو تعليل ما يغلب على
النفس الإنسانية من الضعف

٥ — وأقدم النصائح الصوفية فى الإسلام نصائح على بن أبى طالب ،
وهى كثيرة جداً ، نكتفى منها بقوله :

(إن الدنيا قد ارتحلت مدبرة ، وإن الآخرة قد ارتحلت مقبلة ، ولكل
واحدة منهما بنون ، فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا .
ألا إن الزاهدين فى الدنيا اتخذوا الأرض بساطاً والتراب فراشاً والماء طيباً ،
ألا من اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات ، ومن أشفق من النار رجع عن
الحرمات ، ومن زهد فى الدنيا هانت عليه المصيبات)^(٢)

وللقارىء أن يرجع إلى الجزء الأول من نهج البلاغة فينظر فى الصفحات
٢٦٦ ٢٧٧ ٢٨٧ ٢٩٢ ٣٠٦ ٣٣٤ فان فيها صوراً مختلفة من وصايا ابن
أبى طالب ، وهى فى الأغلب ترمى إلى تطهير النفس ، وإصلاح القلب ،
والتنفير من الدنيا الفانية ، والتشويق إلى دار البقاء

٦ — واثرت عن الصوفية أجوبة تعليمية في مسائل كثيرة ، فقد قيل للحسن البصرى : قد أكثر الناس تعلم الآداب ، فما أنفعها عاجلا وأوصلها أجلا ؟ فقال : التفقه في الدين فانه يصرف اليك قلوب المتعلمين ، والزهد في الدنيا فانه يقربك من رب العالمين ، والمعرفة بما لله عليك يحويها كمال الايمان (١)

وسئل ابن سيرين : أى الآداب أقرب إلى الله تعالى وأزلف للعبد عنده ؟ فقال : معرفة ربوبيته ، وعمل بطاعته ، والحمد لله على السراء ، والصبر على الضراء (١)

وكتب يوسف بن الحسين إلى بعض الحكماء :
(أشكو ركونى إلى هذه الدنيا وما أجد فى طبعى من الأخلاق التى
لست أرضاها من نفسى لنفسى)
فكتب إليه

(بسم الله الرحمن الرحيم . وصل كتابك ، وفهمت ما ذكرت ، ومخاطبك
أكرمك الله شريكك فى شكواك ، ونظيرك فى بلواك . إن رأيت أن تديم
الدعاء وقرع الباب فانه من قرع الباب ولم يعجز عن القرع دخل ، وإن تهيناً
لك ما تريد من الصفاء والطهارة فدع ما أنت فيه من البلاء من اقتراف
مساوىء لا تجدى عليك منفعة فى دينك ولادنياك ، وتجنب قرب من لا تأمن
على نفسك فى مواصلة الغفلة والبطالة ، واستعن على ذلك كله بالقناعة
والتجزئ ، وسله أن يمن عليك بتوبة طهرى لا عملى ، والسلام (٢)) .

وكتب بعض اخوان سرى السقطى اليه

(يا أخى ، أوصيك بتقوى الله الذى يسعد بطاعته من أطاعه ، وينتقم بمعصيته من عصاه ، فلا تدعوك طاعته إلى الأمن من عذابه ، ولا تدعوك بمعصيته إلى الاياس من رحمته ، جعلنا الله واياكم حذرين من غير قنوط ، وله راجين من غير اغترار ، والسلام (١))

٧ — وقد نظرت فرأيت للصوفية رسائل كثيرة تجرى مجرى النصيح ، وتعين مقاصدهم فى الحياة ، وتبين إلى أى حد كانوا يهتمون بالأخلاق ، ولشئت هنا رسالة الجنيد إلى أبى بكر الكسائى ، ففيها كثير من الاشارات التى توضح كيف كانوا يتواصون بالأدب والرفق

(أخى ، أين محلك عند تعطيل العشار ، وأين دارك وقد خربت الديار ، وأين منزلك والمنازل قاع صفصف قفار ، وأين مكانك والأماكن عواف دوارس الآثار ، وماذا خبرك عند ذهاب جوامع الأخبار ، وفيما نظرك عند اصطدام محاضر النظر ، وفيما فكرك وليس بحين نظر ولا افتكار ، وكيف هدوءك على ممر الليل والنهار ، وكيف حذرک عند وقوع فواجع الأقدار ، وكيف صبرك ولا سبيل إلى عزاء ولا اضطبار ، فابك الآن إن وجدت سبيلا إلى البكاء ، بكاء الوالدة الحزينة الموجهة الشكى بفقد أعزة الألف ، وفناء أجلة الأخلاف ، وإبادة ما مضى من الاكتاف ، وذهاب مشايخ الاعتطاف ، وورود بداية الاختطاف ، وروادف عواصف الارتجاف وتتابع قواصف الانتساف ، وبواهر قواهر الاعتكاف ، وثواقب ملامح

الاعتراف ، فألى أين موثلك ، وإلام يبلغ مصدرك ، والأحلام متمزقة ،
والقلوب متصدعة ، والعقول منخلعة ، والأنباء كلها مرتفعة ، وأنت فى أوابد
مندمسة ، ونجوم منطمسة ، وسبل ملتبسة ، قد أضلّك فى اختلاف مناهجها
ظلماتها ، وانطبقت عليك أرضها وسماؤها . ثم أفضى بك ذلك إلى لجة
اللبج والبحر الزاخر الغامر المختلج ، الذى كل بحر دونه أو لجة ، فهو فيه
كتفلة أو محجة ، فقد قذف بك فى كشف أمواجه ، وتلاطم عليك بعظيم
هوله وارتجاجه ، فمن مستنقذك من متلفات المهالك ، أو مخرجك مما هنالك ؟
كتابى إليك ، أبا بكر ، وأنا أحمد الله حمداً كثيراً ، وأسأله العفو والعافية
فى الدنيا والآخرة ، وصل إلىّ منك كتب فهمت ما ذكرت فيها ولم يمنعنى
من إجابتك عليها ما وقع فى وهمك ، وشقّ علىّ ما ذكرت من غمك ، وليس
حالك عندى حال معتوب عليه ، بل حالك عندى حال معطوف عليه ، وبحسبك
من بلائك أن أكون سبباً للزيادة فى البلاء عليك ، وإنى عليك لمشفق ، وإنما
منعنى من مكاتبتك أنى حذرت أن يخرج ما فى كتابى إليك إلى غيرك بغير علمك ،
وذلك أنى كتبت منذ مدة كتاباً إلى أقوام من أهل أصبهان ففتح كتابى وأخذت
نسخته ، واستعجم بعض ما فيه على قوم فأتعبنى تخلصهم ، ولزمنى من ذلك
مؤونة عليهم ، وبالخلق حاجة إلى الرفق ، وليس من الرفق بالخلق ملاقاتهم
بما لا يعرفون ، ولا مخاطبتهم بما لا يفهمون ، وربما وقع ذلك من غير قصد
إليه ، ولا تعمده ، جعل الله عليك واقية وجنّة ، وسلمنا وإياك ، فعليك
رحمك الله بضبط لسانك ، ومعرفة أهل زمانك ، وخاطب الناس بما يعرفون
ودعهم بما لا يعرفون ، فقلّ من جهل شيئاً إلاّ عاداه ، وإنما الناس كالابل

المائة ليس فيها راحلة ، وقد جعل الله تعالى العلماء والحكماء رحمة من رحمته وبسطها على عباده ، فاعمل على أن تكون رحمة على غيرك إن كان الله قد جعلك بلاءً على نفسك ، واخرج إلى الخلق من حالك بأحوالهم ، وخاطبهم من قلبك على حسب مواضعهم ، فذلك أبلغ لك ولهم ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته (١) »

وانما نقلنا هذا الخطاب على طوله لأنه وثيقة صوفية ، والجنيد يبتدىء خطابه بالتذكير والتخويف ، ويشير إلى ما ينتظر المتخلفين من الهول والفرع ثم يترفق فيذكر أنه لم ينقطع عن مكاتبة رفيقه إلا خوفاً من أن يقع كتابه في يد أناس لا يفقهون ما يقول ، ويحكى أنه كتب مرة إلى أقوام من أهل أصبهان ففتح كتابه وأخذت نسخته واستعجم بعض ما فيه على قوم فأعجبه التخلص من ملاحقتهم بالقليل والقال ، وكثرة السؤال . وفي هذه النقطة يظهر شيء من أحوال الصوفية : فقد كانوا يتكاتبون بما يشق فهمه على عامة الناس .

ثم ينتقل الجنيد فينصح رفيقه بهذه الكلمات :

« فعليك رحمك الله بضبط لسانك ، ومعرفة أهل زمانك ، وخاطب الناس بما يعرفون ، ودعهم بما لا يعرفون ، فقل من جهل شيئاً إلا عاداه »
ونشهد بأن هذه هي السياسة العليا ، وهي تصلح للصوفية وغير الصوفية ولكن الصوفية إليها أحوج ، لأنهم يعيشون في أودية من المعاني لا يظن إليها إلا القليل .

وقد رأى الجنيد أن العلماء والحكماء رحمة من رحمة الله على عباده ، ثم توجه إلى رفيقه بهذا النصح الحصيف :

« فاعمل على أن تكون رحمة على غيرك ، إن كان الله قد جعلك بلاءً على نفسك »

وهو بذلك يوصيه أن يجمع بين حالين : حال الرفق مع الناس ، وحال العنف مع النفس

٨ — ولنقيد أن الوصية كانت تطلب كثيراً جداً من الصوفية ، فقد كان الناس يرونهم مظنة الخير والرشد ، وينتظرون منهم كل جميل . ومن أمثلة الشغف بنصائحهم ما وقع لبشر الحافي وقد ظفر برؤية على الجرجاني على عين ماء . قال بشر : فهرب مني وقال : بذنب مني رأيت اليوم انساناً ! فعدوت خلفه وقلت : أوصني ، فقال : عاتق الفقر ، وعاشر الصبر ، وعاد الهوى ، وعاق الشهوات (١)

وقد عقد الطوسي في كتاب اللع فصلاً لوصايا الصوفية ، وهو فصل جيد تكفيها منه الإشارة إلى قول أبي سعيد الخراز لبعض أصحابه :

« احفظ وصيتي ، أيها المريد ، وارغب في ثواب الله تعالى ، وهو أن ترجع إلى نفسك الخبيثة فتذيبها بالطاعة وتميتها بالمخالفة ، وتذبحها بالاياس فيما سوى الله ، وتقتلها بالحياء من الله عز وجل ، ويكون الله حسبك ، وتسارع إلى جميع الخيرات ، وتعمل في جميع المقامات وقلبك وجل أن لا يقبل منك (٢) »

وقول ذي النون :

« يا أخي ، اعلم انه لا شرف أعلا من الإسلام ، ولا كرم أعز من

التقى ، ولا عقل أحرز من الورع ، ولا شفيع أنجح من التوبة ، ولا لباس
أجل من العافية ، ولا وقاية أمتع من السلامة ، ولا كنز أغنى من القنوع ،
ولا مال أذهب للفاقة من الرضا بالقوت ، ومن اقتصر على بُلغة الكفاف
فقد انتظم الراحة ، والرغبة مفتاح التعب ، ومطية النصب ، والحرص داع
إلى التهجم فى الذنوب ، والشره جامع لمساوىء العيوب ، ورُب طمع كاذب ،
وأمل خائب ، ورجاء يؤدي إلى الحرمان ، وأرباح تؤول إلى الخسران ^(١) ،

(١) اللمع ص ٢٦٥

وصايا ذى النون المصري

حياة ذى النون — شواهد من وصاياه

١ — من الصوفية من غلب عليه هذا الفن ، وهو إسداء الوصايا والنصائح ، من هؤلاء ذو النون المصري ، وهو رجل نشأ في أخميم ، وتوفي بالجيزة سنة ٢٤٦ (١) ، وكان ذو النون من أهل العلم ، ولكن غلب عليه التصوف فشاعت عنه أمور دعت الناس إلى اتهامه بالزندقة ، وسعى به قوم إلى المتوكل فاستحضره من مصر إلى بغداد ، فسيق مقيداً مغلولاً ، وسافر معه جماعة من أهل مصر يشهدون عليه ، فلما دخل على المتوكل وعظه فبكي وردّه مكرماً ، وعاد خصومه خاسئين .

قال اسحق بن ابراهيم السرخسي : سمعت ذا النون وفي يده الغل ، وفي رجله القيد ، وهو يساق إلى المطبخ والناس يبكون حوله وهو يقول : هذا من مواهب الله تعالى ومن عطاياه ، وكل فعالة عذب حسن طيب ، ثم أنشد :

لك من قلبي المكان المصون كل لوم علىّ فيك يهون

لك عزم بأن أكون قتيلاً فيك والصبر عنك ما لا يكون (٢)

وكان ذو النون يهيج السماع ، فقد حدثوا أنه لما دخل بغداد اجتمع

(١) كذلك ذكر ياقوت في معجم البلدان عند الكلام على أخميم ، ويذكر صاحب وفيات الأعيان أنهم اختلفوا في موته فقبل سنة خمس وأربعين وقيل سنة ست وأربعين وقيل سنة ثمان وأربعين (ج ١ ص ١٨١) (٢) وفيات الأعيان ج ٢ ص ٢٧٩

إليه الصوفية ومعهم قَوَال فابتدأ ينشد :

صغير هواك عذبنى فكيف به إذا احتسكا
وأنت جمعت من قلبي هوى قد كان مشتركا
أما ترى لمكتئب إذا ضحك الخلى بكى

فقام ذو النون وسقط على وجهه والدم يقطر منه^(١)

ومن كلامه : الصوفية هم قوم آثروا الله على كل شيء فأثرهم على كل شيء
والكلام عن ذى النون كثير جداً ، ويكفي أن نحيل القارئ على ترجمته
في الجزء الثانى من كتاب (جامع كرامات الأولياء) للنابلسى فقد جمع
أكثر أخباره وكراماته ، وهو شخصية جذابة تستحق الدرس ، ولكن
منهج البحث لا يسمح بأكثر من هذه الفقرات .

٢ — ونصائح ذى النون كثيرة جداً ، وهى فى فنون مختلفة من الأخلاق
ونحن ذا كرون طائفة قليلة تبين مذهبه فى القول ، وطريقته فى إصلاح
القلوب .

الوصية الأولى

« ليس بذى لب من كاس^(٢) فى أمر دنياه ، وحق فى أمر آخرته ،
ولا من سفه فى مواطن حله ، وتكبر فى مواطن تواضعه ، ولا من فقد
منه الهوى فى مواضع طمعه ، ولا من غضب من حق إن قيل له ، ولا من
زهد فيما يرغب العاقل فى مثله ، ولا من رغب فيما يزهد الأكياس فى مثله ،
ولا من استقل الكثير من خالقه عز وجل ، واستكثر قليل الشكر من نفسه

(١) نشر المحاسن الغالية ج ٢ ص ٢٠٥ (٢) من الكياسة وهى العقل

ولا من طلب الانصاف من غيره لنفسه ولم ينصف من نفسه غيره ، ولا من نسى الله في موطن طاعته ، وذكر الله في موطن الحاجة إليه ، ولا من جمع العلم فعرف به ثم أثر عليه هواه عند متعلمه ، ولا من قلّ منه الحياء من الله على جميل ستره ، ولا من أغفل الشكر عن إظهار نعمته ، ولا من عجز عن مجاهدة عدوه لنجاته إذا صبر عدوه على مجاهدته ، ولا من جعل مروءته لباسه ، ولم يجعل أدبه وورعه وتقواه لباسه ، ولا من جعل علمه ومعرفته نظراً وتزييناً في مجلسه .

وهذه الوصية نقلها ابن عربي في الفتوحات ^(١) ويظهر أنه قالها في أحد المجالس ، بدليل قوله :

« ثم قال : أستغفر الله ، إن الكلام كثير ، وإن لم تقطعه لم ينقطع ، ثم قام وهو يقول : لا تخرجوا من ثلاثة : النظر في دينكم بايمانكم ، والتزود لآخرتكم من دنياكم ، والاستعانة بربكم فيما أمركم به ، ونهاكم عنه . »

الوصية الثانية

« من نظر في عيوب الناس عمى عن عيوب نفسه ، ومن اعتنى بالفردوس والنار شغل عن القيل والقال ، ومن هرب من الناس سلم من شرهم ، ومن شكر المزيد زيد له ^(٢) . »

الوصية الثالثة

واعتل رجل من اخوان ذي النون فكتب إليه أن يدعو له فكتب إليه ذو النون :

(٢) الفتوحات ج ٤ ص ٦٦٦

(١) ج ٤ ص ٦٦٥

« سألتني أن أدعو الله لك أن يزيل عنك النعم ، واعلم يا أخى أن العلة مجازاة يأنس بها أهل الصفاء والهمم والضياء . . . ومن لم يعدّ البلاء نعمة فليس من الحكماء ، ومن لم يأمن الشفيق على نفسه فقد أمن أهل التهم على أمره ، فليكن معك يا أخى حياء يمنعك عن الشكوى . والسلام ^(١) ،
ومن هذه الشواهد القليلة نعرف اتجاه ذى النون فى فهم الأخلاق .
فهو رجل يرى الخير كل الخير فى الأنس بطاعة الله ، ويرى المغمم الحق فى صفاء القلوب .

(١) الفتوحات ج ٤ ص ٦٩٠

الشجاعة عند الأديبة

حب الدنيا هو أصل الجبن — شجاعة بنان الحمال — أعرابي ينصح سليمان بن عبد الملك — شعيب بن حرب والرشيد — الفضيل بن عياض — العنبري — ابن السماك — صالح ابن عبد الجليل — عمرو بن عبيد — أحزاب المعارضين وسياساتهم في اختراع النصائح — شجاعة الاوزاعي في مواقف تحكمت فيها الاحقاد السياسية — خلاصة البحث .

١ - الشجاعة من أشرف مناقب الرجال ، وهي من أظهر شمائل الصوفية ، وإنما كان الصوفية من الشجعان لأنهم استهانوا بالدنيا ، وزهدوا في طيبات العيش . وحب الدنيا والعيش أصل الجبن والخضوع ، وما أحب رجل الدنيا إلا ذل ، ورأى السلامة في التملق والرياء .

وكيف لا يشجع من يتخلق بأدب أبي حازم إذ يقول : إنما بيني وبين الملوك يوم واحد ، أما أمس فلا يجدون لذته ، وأنا وهم من غد على وجل ، وإنما هو اليوم ، فما عسى أن يكون اليوم ؟ (١)

ولولا الشجاعة ما استطاع بنان الحمال أن يقدم على ما فعل يوم قام إلى وزير خمارويه فأنزله عن دابته ، وكان نصرانياً ، وقال : لا تركب الخيل ويلزمك ما هو مأخوذ عليكم في ملتكم (٢)

ولولا الاستهانة بالعواقب ما استطاع رجل أن يقول لسليمان بن عبد الملك :

« سأطلق لساني بما خرست عنه الألسن ، تأدية لحق الله تعالى ، إنه قد

اكتشفك رجال أساءوا الاختيار لأنفسهم، وابتاعوا دنياك بدينهم، ورضاك بسخط ربهم، وخافوك في الله ولم يخافوا الله فيك، فهم حرب للأخرة، وسلم للدينا، فلا تأمنهم على ما ائتمنتك الله عليه، فانهم لم يألو الأمانة تضييعاً، والأمة كسفاً وخسفاً، وأنت مسئول عما اجترموا، وليسوا مسئولين عما اجترمت، فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك، فإن أعظم الناس عند الله غبناً من باع آخرته بدنياه غيره^(١) .

٢ — وكان الصوفية يحسبون أنفسهم مسئولين عن تذكير الملوك، يدل على ذلك قول شعيب بن حرب :

« بينا أنا في طريق مكة إذ رأيت هرون الرشيد فقلت لنفسي : قد وجب عليك الأمر والنهي ، فقلت لى : لا تفعل ، فان هذا رجل جبار ، ومضى أمرته ضرب عنقك ، فقلت لنفسي : لا بد من ذلك ، فلما دنا منى صحت : يا هرون ! قد أتعبت الأمة ، وأتعبت البهائم ! فقال : خذوه ! فأدخلت عليه وهو على كرسي ويده عمود يلعب به ، فقال : بمن الرجل ؟ قلت : من أفاء الناس ، فقال : بمن ؟ ثكلتك أمك ! قلت : من الأبناء ، قال : فما حملك على أن تدعوني باسمي ؟ قال شعيب : فورد على قلبي كلمة ما خطرت لى قط على بال فقلت له : أنا أدعو الله باسمه فأقول : يا الله ، يا رحمن ، ولا أدعوك باسمك ؟ وما تنكر من دعائي باسمك ؟ وقد رأيت الله سمى فى كتابه أحب الخلق اليه محمداً ، وكنى أبغض الخلق اليه أبا لب فقال : تبّت يدا أبى لب ! فقال هرون أخرجه : فأخرجونى^(٢) »

وشعيب هذا صادق فيما حدّث به ، وهذا الصدق يرشدنا إلى ما كان يُعرف عن الصوفية أحياناً من الخدقة والتكلف ، وإلا فما معنى هذه التهمة الجوفاء : يا هرون ! قد أتعبت الأمة ، وأتعبت البهائم !

وقد اتفق أن خطب المنصور فحمد الله ومضى في كلامه ، فلما انتهى إلى (أشهد أن لا إله إلا الله) وثب رجل من أقصى المسجد فقال : أذكرك من تذكر ! فقال المنصور : سمعاً لمن فهم عن الله وذكره ، وأعوذ بالله أن أكون جباراً عصياً ، وأن تأخذني العزة بالائثم ، لقد ضللتُ إذن وما أنا من المهتدين ، وأنت والله أيها القائل ما أردت بها الله ، ولكن حاولت أن يقال قام فقال فعوقب فصبر ، وأهون بقائلها لو هممت ، فاهتبلها ويلك إذا عفوت . وإياكم معشر الناس وأختها ، فإن الموعدة علينا نزلت ، ومن عندنا انبثت ، فردّوا الأمر إلى أهله يُصدروه كما أوردوه (١)

وهذا الخبر يفهمنا أنه كانت هناك وثبات للواعظين ، وأن الخلفاء كانوا يعرفون ذلك ، وأنه كان من لذات بعض الناس أن يقال : قام فقال فعوقب فصبر .

والحق أنه يعسر الاطمئنان إلى صدق الشجاعة الأدبية في جميع الأحوال فهي في بعض الأحيان زهو وخيلاء ، والائثم فيها أكبر من النفع ، وهي كسائر الفضائل عرضة للرياء ، والرياء يمحى جلائل الأعمال .

٣ — ومن المؤكد أن الصوفية لم يكونوا جميعاً مرأئين ، فلاكثرهم مقامات جمعت بين الشجاعة والصدق ، ومن شواهد ذلك ما صنع الفضيل

ابن عياض مع الرشيد ، فقد ذهب الرشيد لزيارته ليلاً مع الفضل بن الربيع فلما وصلا إلى بابه سمعاه يقرأ (أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم . ساء ما يحكمون) فقال الرشيد للفضل : إن انتفعنا بشيء فهذا . فناداه الفضل : أجب أمير المؤمنين . فقال وما يعمل عندي أمير المؤمنين ؟ قال الفضل فقلت : سبحان الله ! أما له عليك طاعة ؟ فنزل ففتح الباب ثم ارتقى إلى الغرفة فأطفأ السراج ثم التجأ إلى زاوية من زوايا البيت ، فدخلنا فجعلنا نجول عليه بأيدينا ، فسبقت كف أمير المؤمنين قبلي إليه . فقال : يا لها من كف ما أليها إن نجت غداً من عذاب الله عز وجل ! فقلت في نفسي : ليكلمنَّه الليلة بكلام من قلب تقى . فقال له : خذ فيما جئناك له رحمك الله ! فقال له : إن عمر بن عبد العزيز لما ولي الخلافة دعا سالم بن عبد الله ومحمد بن كعب القرظي ورجاء بن حيوة فقال لهم : إني قد ابتليت بهذا البلاء فأشيروا عليّ ، فعدّ الخلافة بلاءً ، وعددها أنت وأصحابك نعمة . فقال له سالم بن عبد الله : إن أردت النجاة من عذاب الله فصم عن الدنيا وليكن فطرك منها الموت . وقال له محمد بن كعب : إن أردت النجاة من عذاب الله فليكن كبير المسلمين عندك أباً ، وأوسطهم عندك أخاً ، وأصغرهم عندك ابناً ، فوقر أباك ، وأكرم أخاك ، وتحن على ولدك . وقال له رجاء بن حيوة : إن أردت النجاة غداً من عذاب الله فأحب للمسلمين ما تحب لنفسك ، واكره لهم ما تكره لنفسك ، ثم مت إذا شئت وإني أقول لك يا هرون : إني أخاف عليك أشد الخوف يوماً تزل فيه الأقدام ، فهل معك رحمك الله من يشير بمثل هذا ؟ فبكى هرون بكاءً شديداً حتى غشى عليه

قال الفضل فقلت : ارفق بأمر المؤمنين ! فقال : تقتله أنت وأصحابك وأرفق به أنا ؟

ثم أفاق . فقال له : زدني رحمك الله . فقال له : يا أمير المؤمنين بلغني أن عاملاً لعمر بن عبد العزيز شكاً إليه ، فكتب إليه : يا أخى أذكرك بسهر أهل النار فى النار ، مع خلود الأبد . وإياك أن يُنصرف بك من عند الله عز وجل فيكون آخر العهد وانقطاع الرجاء . فلما قرأ الكتاب طوى البلاد حتى قدم دلى عمر بن عبد العزيز فقال له : ما أقدمك ؟ قال : خلعت قلبي بكتابك لا أعود إلى ولاية حتى ألقى الله عز وجل .

قال : فبكى هرون بكاءً شديداً ثم قال له : زدني رحمك الله ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن العباس عم المصطفى صلى الله عليه وسلم جاء إلى النبي فقال : يا رسول الله ، أمرني على إمارة ، فقال له : يا عم ، إن الإمارة حسرة وندامة يوم القيامة ، فإن استطعت أن لا تكون أميراً فافعل .

فبكى هرون بكاءً شديداً ، وقال له : زدني رحمك الله ، فقال : يا حسن الوجه ، أنت الذى يسألك الله عز وجل عن هذا الخلق يوم القيامة ، فإن استطعت أن تبقى هذا الوجه فافعل ، وإياك أن تصبح أو تمسى وفى قلبك غش لأحد من رعيتك .

فبكى هرون وقال له : هل عليك دين ؟ فقال : نعم ، دين لربى لم يحاسبني عليه ، فالويل لى إن سألنى والويل لى إن ناقشنى ، والويل لى إن لم ألهم حجتى . قال الرشيد : إنما أعنى دين العباد . فقال الفضيل : إن ربى لم يأمرنى بهذا ، وقد قال عز وجل : إن الله هو الرزاق . فقال له الرشيد : هذه ألف

دينار خذها وأنفقها على عيالك ، وتقوّ بها على عبادتك ، فقال : سبحان الله ! أنا أدلك على طريق النجاة وأنت تكافئني بمثل هذا (١) ؟
ومن طريف المواقف ما حدث به سعيد بن سليمان قال :

كنت بمكة وإلى جاني عبد الله بن عبد العزيز العمرى وقد حجج هرون الرشيد وقال له إنسان : يا أبا عبد الله ! هو ذا أمير المؤمنين يسعى ، وقد أخلى له المسعى ، قال العمرى للرجل : لا جزاك الله عنى خيراً ، كلفتنى أمراً كنت عنه غنياً . ثم قام فتبعه ، فأقبل هرون الرشيد من المروة يريد الصفا ، فصاح به : يا هرون ! فلما نظر إليه قال : لبيك يا عمرى ! قال : إرق الصفا ، فلما رقاها قال : إرم بطرفك الى البيت ، قال هرون : قد فعلت . قال : كم هم ؟ قال : ومن يحصيهم ؟ قال فكم فى الناس مثلهم ؟ قال : خلق لا يحصيهم إلا الله ! قال : اعلم أيها الرجل أن كل واحد منهم يُسأل عن خاصة نفسه ، وأنت وحدك تُسأل عنهم كلهم ، فانظر كيف تكون ! — فبكى هرون — فقال العمرى : وأخرى أقولها . قال : قل يا عم ! قال والله إن الرجل ليسرف فى ماله فيستحق الحجر عليه ، فكيف بمن أسرف فى مال المسلمين !

قال البغوى : فبلغنى أن هرون الرشيد كان يقول : إني لأحب أن أحج كل سنة ما يمنعنى إلا رجل من ولد عمر يسمعى ما أكره (٢)

(١) انظر الفتوحات المكية ج ٤ ص ٦٧٤ ولهذا الحديث بقية تصور العتاب بين الفضيل وبين زوجته ، فقد ساءها أن يرفض المال ، فقال لها : مثلى ومثلكم كمثلى قوم كان لهم بغير يأكلون من كسبه فلما كبر نحره وأكلوا لحمه

وقد ورد هذا المقام فى الكشكول ص ٢٣٥ بصورة تختلف عن هذه الصورة بعض الاختلاف

(١) الفتوحات المكية ج ٤ ص ٦٩٣

وقريب من هذا المقام في الخشونة والصدق ما كان بين أبي حازم وسليمان بن عبد الملك ، فقد حجّ سليمان وبعث الى أبي حازم حين قدم المدينة للزيارة ، فلما دخل قال : تكلم ، يا أبا حازم ، قال : فيم أتكلم ، يا أمير المؤمنين ؟ قال : في المخرج من هذا الأمر . قال : يسير ، إن فعلته ! قال : وما ذاك ؟ قال : لا تأخذ الأشياء الا من حلها ، ولا تضعها الا في أهلها . قال : ومن يقوى على ذلك ؟ قال : من قلده الله من أمر الرعية ما قلده ! قال : عظمي يا أبا حازم . قال : اعلم أن هذا الأمر لم يصبر اليك إلا بموت من كان قبلك ، وهو خارج من يديك ، بمثل ما صار اليك . قال : يا أبا حازم ، أشر عليّ ، قال : انما انت سوق ، فما تفق عندك حمل اليك من خير أو شر ، فاختر أيهما شئت ! قال : ما لك لا تأتينا ؟ قال : وما أصنع باتيانك ، يا أمير المؤمنين ، إن أدبنتي فتننتي ، وإن أقصيتني أخزيتني ، وليس عندك ما أرجوك له ، ولا عندي ما أخافك عليه ! قال : فارفع الينا حاجتك . قال : قد رفعتها الى من هو أقدر منك عليها ، فما أعطاني منها قبلت ، وما منعتني منها رضيت ^(١)

وكان في الزهاد من يُغرب في الوعظ حتى يصل الى الاسفاف في الصورة واللفظ ، فقد قال الرشيد لابن السماك : عظمي — وآتى بماء ليشر به — فقال : يا أمير المؤمنين ! لو حبست عنك هذه الشربة ، أكنت تفديها بملكك ؟ قال : نعم ! قال : فلو حبس عنك خروجها أكنت تفديها بملكك ؟ قال : نعم ! قال : فما خير في ملك لا يساوى شربة ولا بولة ^(١)

وهذه الغلظة أعقبت بكلمات أطيب من المسك ، فقد قال الرشيد : يا ابن السماك ، ما أحسن ما بلغنى عنك ! فقال : يا أمير المؤمنين ، إن لى عيوباً لو اطّلع الناس منها على عيب واحد ما ثبتت لى فى قلب واحد مودّة ، وإنى لخائف فى الكلام الفتنة ، وفى السر الغرة ، وإنى لخائف على نفسى من قلة خوفى عليها (١)

٤ — والواقع أن مقامات الزهاد عند الخلفاء والملوك تدل على أمرين : الأول شجاعة أولئك الزهاد ، وقدرتهم على الجهر بكلمة الحق ، والثانى صلاحية بعض الخلفاء والملوك لاستماع نصيح الناصحين من أهل البر والتقوى ، وإقبالهم على من ينههم عن المنكر ويأمرهم بالمعروف ، يدل على ذلك قول صالح بن عبد الجليل بين يدى المهدي :

« إنه لما سهل علينا ما توعدّ على غيرنا من الوصول إليك ، قمنا مقام الأداء عنهم وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم باظهار ما فى أعناقنا من فريضة الامر والنهى عند انقطاع عذر الكتمان ، ولا سيما حين اتسمت بميسم التواضع ، ووعدت الله وحملته كتابه إثثار الحق على ما سواه ، فجمعنا وإياك مشهد من مشاهد التمحيص لیتّم مؤدّينا على موعود الأداء ، وقابلنا على موعود القبول ، أو يزيدنا تمحيص الله إيانا فى اختلاف السر والعلانية ويحليّنا حلية الكذابين ، فقد كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون : من حجب الله عنه العلم عذبه على الجهل ، وأشد منه عذاباً من أقبل إليه العلم وأدبر عنه . ومن أهدى الله إليه علماً فلم يعمل به فقد رغب عن هدية

الله وقصّر بها ، فاقبل ما أهدى الله إليك من ألسنتنا قبول تحقيق وعمل لا قبول سمعة ورياء ، فانه لا يعدمك منا إعلام لما تجهل ، أو مواطاة على ما تعلم ، أو تذكير من غفلة . . . أطلع الله على قلبك ما ينوره من إيثار الحق ومنازمة الأهواء (١) ،

وكلام صالح هذا فيه تصريح بأن الزهاد كان يسهل عليهم ما يتوعر على غيرهم من الوصول الى الخلفاء ، وفيه كذلك تصريح بأن من المواعظ ما كان يقبله الخلفاء قبول سمعة ورياء ، ومعنى هذا أن تقريب الزهاد كان من السياسة قبل أن يكون من الدين ، أو هو مزاج من السياسة والدين ، وهذا الملحظ قد يخط من شجاعة الزهاد وإخلاص الخلفاء ، ولكن لا ريب في أن هذه المظاهر فيها خير ملموس ، والزهاد لا يصلون إلى هذه المواطن إلا بعد أن يكونوا استطاعوا تثبيت سلطتهم الروحية ، والخلفاء لا يستقدمون الزهاد ليسمعوا مواعظهم إلا وفي قلوبهم شيء من عناصر الرشد وأصول الاهتداء .

ه — غير أن هذه الوصولية السياسية لم تطرّد في جميع المقامات ، فقد كان المنصور يعرف عمرو بن عبيد قبل أن يتولى الخلافة ، وكان يعتقد أنه على جانب عظيم من الصدق والاخلاص ، فكان يستقدمه ليتفجع برأيه ، وإن كان ذلك لا يمنع أنه كان يسرّ بأن يقال إنه انتفع بمواعظ عمرو بن عبيد ، والضمائر لا يعرفها إلا علام الغيوب .

ولنسق حديث ابن عبيد مع المنصور ، فهو نموذج في الأدب وفي الاخلاق :

(١) انظر العقد الفريد ج ١ ص ٣٠٤ وعيون الاخبار ج ٢ ص ٣٣٣ وقد عدلنا الجملة الأخيرة بعض التعديل

حدث اسحق بن المفضل الهاشمي قال : إني لعلی باب المنصور يوماً
والی جنبي عُمارة بن حمزة إذ طلع عمرو بن عبید علی حمار ، فنزل عن حماره
ثم دفع البساط برجله وجلس دونه ، فالتفت إلى عُمارة وقال : لا تزال
بصرتكم ترمينا منها بأحق ! فما فصل كلامه من فيه حتى خرج الربيع وهو
يقول : أبو عثمان عمرو بن عبید ، قال : فوالله ما دل علی نفسه حتى أرشد
إليه ، فأتكأه يده ثم قال له : أجب أمير المؤمنين ، جعلت فداك ! فرمتكناً
عليه ، فالتفت إلى عُمارة فقلت له : ان الرجل الذي استحمقته قد أدخل
وثرکنا ، فقال : كثيراً ما يكون ذلك ، فأطال اللبث ، ثم خرج الربيع وهو
متوكئ عليه والربيع يقول : يا غلام ، حمار أبي عثمان ، فما برح حتى أتى
بالحمار ، فأقره علی سرجه ، وضم إليه نشر ثوبه ، واستودعه الله . فأقبل عُمارة
علی الربيع فقال : لقد فعلتم اليوم بهذا الرجل ما لو فعلتموه بولي عهدكم
لقضيتم ذمامه ! قال : فما غاب عنك مما فعل به أكثر وأعجب ! قال عُمارة :
فان اتسع لك الحديث فحدثنا ، فقال الربيع : ما هو إلا أن سمع الخليفة
بمكانه فما أمهل حتى أمر بمجلس ففرش لبوداً ، ثم انتقل إليه والمهدي معه عليه
سواده وسيفه ، ثم أذن له . فلما دخل عليه سلم بالخلافة فرد عليه ، وما زال
يدنيه حتى أتكأه فخذه وتحفى به ، ثم سأله عن نفسه وعن عياله يسميهم
رجلاً رجلاً وامرأة امرأة ، ثم قال : يا أبا عثمان ، عظنا . فقال : أعوذ بالله
السميع العليم من الشيطان الرجيم (والفجر وليال عشر ، والشفع والوتر ،
والليل اذا يسر) ومر فيها إلى آخرها وقال : إن ربك يا أبا جعفر لبالمرصاد .
قال : فبكى المنصور بكاءً شديداً كأنه لم يسمع تلك الآيات الا تلك الساعة .

ثم قال : زدنى . فقال : إن الله أعطاك الدنيا بأسرها فاشتر نفسك منه ببعضها ، واعلم أن هذا الأمر الذى صار اليك إنما كان فى يد من كان قبلك ثم أفضى اليك ، وكذلك يخرج منك الى من هو بعدك ، وإنى أحذرك ليلة تمخض صبيحتها عن يوم القيامة . قال : فبكى أشد من بكائه الأول حتى رجف جنباه . وفى رواية أخرى أنه لما انتهى الى آخر السورة قال : يا أمير المؤمنين ، إن ربك لبالمرصاد لمن عمل مثل عملهم أن ينزل به مثل ما نزل بهم ، فاتق الله فان من وراء بابك نيراناً تأجج من الجور ، ما يعمل فيها بكتاب الله ، ولا بسنة رسوله ، فقال : يا أبا عثمان ، إنا لنكتب اليهم فى الطوامير نأمرهم بالعمل بالكتاب ، فان لم يفعلوا فاعسى أن أصنع ؟ فقال له : مثل أذن الفأرة يجزيك من الطوامير ، الله ، أتكتب اليهم فى حاجة نفسك فينفذونها وتكتب اليهم فى حاجة الله فلا ينفذونها ؟ والله لو لم ترض من عمالك الا رضا الله إذن لتقرب اليك من لانية له فيه

وكان فى المجلس سليمان بن مجالد فقال : رفقا بأمر المؤمنين فقد اتعبته منذ اليوم

فقال له عمرو بن عبيد : بمثلك ضاع الأمر وانتشر ، لا أبالك ، وماذا على أمير المؤمنين أن بكى من خشية الله !

وفى رواية أخرى أن سليمان بن مجالد لما قال له ذلك رفع عمرو رأسه فقال له : من أنت ؟ فقال أبو جعفر : أولا تعرفه ، يا أبا عثمان ؟ قال : لا ، ولا أبالى أن لا أعرفه ! فقال له : هذا أخوك سليمان بن مجالد . فقال : هذا أخو الشيطان ! ويلك ، يا ابن مجالد ، خزنت نصيحتك عن أمير المؤمنين ،

ثم أردت أن تحول بينه وبين من أراد نصيحته . يا أمير المؤمنين ، إن هؤلاء اتخذوك سلباً لشهواتهم ، فأنت كالآخذ بالقرنين وغيرك يحلب ! فأتق الله فانك ميت وحدك ، ومحاسب وحدك ، ومبعوث وحدك ، ولن يغني عنك هؤلاء من ربك شيئاً .

فقال له المنصور : يا أبا عثمان ، أعنى بأصحابك أستغن بهم . فقال له : أظهر الحق يتبعك أهله :

ثم قال المنصور : بلغني أن محمد بن عبد الله بن الحسن كتب إليك كتاباً . فقال : قد جاءني كتاب يشبه أن يكون كتابه . قال : فبماذا أجبتة ؟ قال : أولست قد عرفت رأيي في السيف أيام كنت تختلف إلينا وأنا لا أراه ؟ قال : أجل . ولكن تحلف ليطمئن قلبي . قال : لئن كذبتك تقيّة لأحلفنّ لك تقيّة ! فقال المنصور : أنت الصادق البار ، وقد أمرت لك بعشرة آلاف درهم تستعين بها على زمانك . فقال : لا حاجة لي فيها ، فقال المنصور : والله لتأخذنها ، فقال عمرو : والله لا أخذنها ، فقال له المهدي : يحلف أمير المؤمنين وتحلف ؟ فأقبل عمرو على المنصور وقال : من هذا القتي ؟ فقال : هذا ابني محمد ، وهو المهدي وليّ العهد ، فقال : والله لقد سميتُه اسماً ما استحقه بعمله وألبسته لبوساً ما هو لبوس الأبرار . ولقد مهدت له أمراً أمتع ما يكون أشغل ما تكون عنه

ثم قال المنصور : يا أبا عثمان ، هل من حاجة ؟ قال : نعم ، يرفع هذا الطيلسان عني — وكان المنصور طرح عليه طيلساناً حين دخل عليه

ثم قال له المنصور : لا تدع إتياننا ، يا أبا عثمان

فقال : نعم ، لا يضمّنني وإياك بلد إلا دخلت إليك ، ولا بدت لي حاجة
إلا سألتك ، ولكن لا تعطني حتى أسألك ، ولا تدعني حتى آتيك !
فقال المنصور : إذن لا تأتينا أبداً !

ثم ودّع المنصور ونهض ، فلما ولىّ أتبعه بصره وأنشأ يقول
كلكم طالب صيد كلكم يمشي رؤيد
غير عمرو بن عبيد

ونحن مطمئنون إلى صدق ابن عبيد في النصيح وصدق المنصور
في الاستماع ، وللبلوك لحظات ينسون فيها الوصولية السياسية وينصتون إلى
صوت الوجدان (١)

٦ — والظاهر أن المنصور كان من الشخصيات المعروفة بالتسامح ، فقد
رأينا أنفا كيف يقف رجل فيذكره بالله وهو يخطب ، وقد ذكر ابن فتيبة أنه
سمع وهو يطوف ليلاً قائلاً يقول :

« اللهم إني أشكو إليك ظهور البغي والفساد في الأرض وما يحول بين
الحق وأهله من الطمع »

فخرج المنصور فجلس ناحية من المسجد وأرسل إلى الرجل يدعوه ، فصلى
الرجل ركعتين واستلم الركن وأقبل مع الرسول فسلم عليه بالخلافة فقال له
المنصور : ما الذي سمعتك تذكر من ظهور البغي والفساد في الأرض وما
يحول بين الحق وأهله من الطمع ، فوالله لقد حشوت مسامعي ما أرمضني (٢)

(١) ورد حديث عمرو بن عبيد مع المنصور بصيغ مختلفة في زهر الآداب ج ١ ص ٩٤
وعيون الأخبار ج ٢ ص ٢٣٧ وأمالى المرتضى ج ١ ص ١٢٠ — ٢٢٢ ووفيات الأعيان
ج ٢ ص ١٠١ والعقد الفريد ج ١ ص ٣٠٧ (٢) أرمضه : أوجهه وآله

فقال الرجل : يا أمير المؤمنين ، إن أمتّني على نفسي أنبأتك بالأمور من أصولها ، وإلا احتجرت منك واقتصرت على نفسي ففيها لى شاغل ، فقال المنصور : أنت آمن فقل ، فقال : ان الذى دخله الطمع حتى حال بينه وبين ما ظهر من البغى والفساد لانت !

فقال المنصور : ويحك ! وكيف يدخلنى الطمع والصفراء والبيضاء فى قبضتى والحلو والحامض عندى ؟

فقال الرجل : وهل دخل أحداً من الطمع ما دخلك ؟ إن الله تبارك وتعالى استرعاك المسلمين وأموالهم ، فأغفلت أمورهم واهتممت بجمع أموالهم ، وجعلت بينك وبينهم حجاباً من الجصّ والأجرّ وأبواباً من الحديد وحجبةً معهم السلاح ، ثم سجنّت نفسك فيها عنهم ، وبعثت عمالك فى جباية الأموال وجمعها وقويتهم بالرجال والسلاح والكراع ، وأمرت بأن لا يدخل عليك من الناس الا فلان وفلان ، نفر سميتهم ، ولم تأمر بإيصال المظلوم ، ولا الملهوف ولا الجائع العارى ، ولا الضعيف الفقير ، ولا أحد إلا وله فى هذا المال حق ، فلما رآك هؤلاء النفر الذين استخلصتهم لنفسك ، وآثرتهم على رعيتك ، وأمرت أن لا يحجبوا عنك ، تجي (١) الأموال وتجمعها ولا تقسمها ، قالوا : هذا قد خان الله ، فما بالنا لا نخونه ، وقد سجن لنا نفسه ؟ فاثمروا بأن لا يصل اليك من علم أخبار الناس شيء الا ما أرادوا ، ولا يخرج لك عامل فيخالف أمرهم إلا خونوه عندك ونفوه حتى تسقط منزلته ، ويصغر قدره . فلما انتشر ذلك عنك وعندهم أعظمهم

(١) جملة (تبي الأموال) معمول (رآك هؤلاء)

الناس وهابوهم فكان أول من صانعهم عمالك بالهدايا والأموال ليقووا بها على ظلم رعيتك . ثم فعل ذلك ذوو القدرة والثروة من رعيتك لينالوا به ظلم من دونهم فامتلأت بلاد الله بالطمع بغيا وفسادا ، وصار هؤلاء القوم شركاءك في سلطانك ، وأنت غافل . فان جاء متظلم حيل بينه وبين دخول مدينتك ، وإن أراد رفع قصته اليك عند ظهورك وجدك قد نهيت عن ذلك ، وأوقفت للناس رجلا ينظر في مظالمهم ، فان جاء ذلك الرجل فبلغ بطانتك خبره سألوا صاحب المظالم ألا يرفع مظلمته اليك ، فإن المتظلم منه له بهم حرمة ، فأجابهم خوفا منهم ، فلا يزال المظلوم يختلف اليه ويلوذ به ويشكو ويستغيث وهو يدفعه ويعتل عليه ، فاذا أجهد وأخرج وظهرت صرخ بين يديك فضرِب ضربا مبرحا ليكون نكالا لغيره ، وأنت تنظر فلا تتكر ، فما بقاء الاسلام على هذا ! وقد كنت يا أمير المؤمنين أسافر الى الصين فقدمتها مرة وقد أصيب ملكها بسمعه ، فبكى يوما بكاء شديداً ، فثته جلساؤه على الصبر فقال : أما إني لست أبكي للبلية النازلة بي ، ولكنني أبكي لمظلوم بالباب يصرخ ولا أسمع صوته ، ثم قال : أما إذ ذهب سمعي فان بصرى لم يذهب ، نادوا في الناس أن لا يلبس ثوبا أحمر الا متظلم ، ثم كان يركب الفيل طرفي نهاره ، وينظر : هل يرى مظلوماً ؟ فهذا يا أمير المؤمنين مشرك بالله غلبت رأفته بالمشركين شح نفسه ، وأنت مؤمن بالله ثم من أهل بيت النبي ولا تغلب رأفتك بالمسلمين على شح نفسك ! فان كنت انما تجمع المال لولدك فقد أراك الله عبراً في الطفل يسقط من بطن أمه ، وما له على الأرض مال ، وما من مال الا ودونه يد شحيحة تحويه ، فما يزال الله يلطف بذلك

الطفل حتى تعظم رغبة الناس اليه . ولست بالذى تعطى ، بل الله يعطى من يشاء ما يشاء . وإن قلت إنما أجمعُ المال لتشد يد السلطان فقد أراك الله عبداً في بني أمية : ما أغنى عنهم ما جمعوا من الذهب والفضة ، وأعدوا من الرجال والسلاح والكراع ، حين أراد الله بهم ما أراد ، وإن قلت إنما أجمع المال لطلب غاية هي أجسم من الغاية التي أنا فيها ، فوالله ما فوق ما أنت فيه الا منزلة لا تُدرك إلا بخلاف ما أنت عليه . يا أمير المؤمنين ، هل تعاقب من عصاك بأشد من القتل ؟ قال المنصور : لا . قال : فكيف تصنع بالمملك الذي خولك ملك الدنيا وهو لا يعاقب من عصاه بالقتل ، ولكن بالخلود في العذاب الأليم ، قد رأى ما قد عُقِد عليه قلبك ، وعلمته جوارحك ، ونظر اليه بصرك ، واجترحته يداك ، ومشيت اليه رجلاك ، هل يغنى عنك ما شححت عليه من الدنيا إذا انتزعه من يدك ، ودعاك الى الحساب ؟ فبكى المنصور وقال : يا ليتني لم أخلق ! ويحك ! فكيف أحتال لنفسي ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، إن للناس أعلاما يفزعون اليهم في دينهم ويرضون بهم ، فاجعلهم بطانتك يرشدوك ، وشاورهم في أمرك يسددوك ، قال : قد بعثت اليهم فهربوا مني ، قال : خافوا أن تحملهم على طريقتك ، ولكن افتح بابك ، وسهل حجابك ، وانصر المظلوم ، واقمع الظالم ، وخذ الفبيء والصدقات مما حل وطاب ، واقسمه بالحق والعدل على أهله ، وأنا الضامن عنهم أن يأتوك ويسعدوك على صلاح الأمة .

وجاء المؤذنون فسلموا عليه فصلى وعاد الى مجلسه وطلب الرجل فلم يوجد (١)

(١) عيون الأخبار ج ٢ ص ٣٣٣ — ٣٣٦ والعقد الفريد ج ١ ص ٣٦٥

٧ — ولكن أكان المنصور حقاً متسامحاً حتى يستمع مثل هذا الحساب ؟
أنا أستبعد أن يكون هذا الحديث صحيحاً ، وأرجح أنه وضع لغاية من
غايات المعارضين ، ودليل هذا الترجيح أن القائل مجهول : فهو أحد الزهاد ،
وأنه حَفِظَ بلغة قوية لا يُعقل أن تُسمع فتُحَفَظَ ، ولو كان حواراً طارئاً
طُلِبَ صاحبه فلم يوجد لما أمكن أن تحفظ منه هذه الصورة القوية .

والمعقول أن يكون هذا الحديث من وضع رجل ثائر كان يكره بنى أمية
وبنى العباس ، فإن التعمق في وصف حجاب المنصور وما كان يقع لعهد من
إغفال المظالم ومن سيطرة الوزراء لا يتفق إلا لرجل ثائر على تقاليد ذلك
العهد . والثورة على الاستبداد بالملك وتصريف أمور الناس كانت كثيرة
الوقوع في تلك الأيام ، وكانت التورية عن فساد النظام مما يطيب للكتاب
والشعراء . وقد كثر القول بأن ابن المقفع لم يترجم كيلة ودمنة إلا ليحارب
به ما كان يراه من ظلم الخلفاء ، فليس من المستبعد أن توضع الأحاديث على
أسنة الزهاد ليكون في أذاعتها تنديد بالسياسة الظالمة التي يرتكبها خلفاء بنى
العباس في بعض الأحيان .

ولنتذكر أن شخصية « الوزير » ملحوظة في هذا الحديث ، والوزير كان
في تلك العهود نموذجاً من نماذج الغطرسة والعنف والاجحاف ، وكان لا بد
أن يحاربه الناس بسوء القالة إن عجزوا عن محاربته بالسلاح .

ومنشئ هذا الحديث جعل بطله من الزهاد ، وهذا يدلنا على أن
الصوفية في تلك الأيام كانت لهم سلطة روحية وخلقية ، وكان من المعروف
عنهم أن يجهروا بكلمة الحق ، وأن لا يبالوا غضب الخلفاء والوزراء ، فاختر

بطل الحديث من الصوفية هو الشاهد على ما كان يعرف عنهم من الشجاعة الأدبية .

ولسنا نعرف بالضبط من أى حزب كان منشئ هذا الحديث ، والظاهر أنه كان يميل إلى الصوفية ، فقد قال له المنصور : كيف أحتال لنفسى ؟ فأجاب : إن للناس أعلاماً يفرعون إليهم في دينهم ، ويرضون بهم ، فاجعلهم بطانتك يرشدوك ، وشاورهم في أمرك يسددوك .

ولم يكتف بهذا في تمجيد أصحابه من أهل الزهد ، بل ادعى أن المنصور قال : قد بعثت إليهم فهربوا منى ، وهو بذلك يجعلهم أصلح الناس لولاية الأمر وأخوفهم من الاتصال بأهل الدنيا وأقدرهم على احتقار المناصب البراقة : مناصب الوزراء .

وجملة القول أن هذا الحديث يشهد بأن أحزاب المعارضين كانت تستتر باسم الزهاد والصوفية ، ومعنى ذلك أن الزهاد والصوفية كانوا معروفين بالجرأة والشجاعة في الدفاع عن الحق ، وكان ما ينشر باسمهم خليقاً بأن يتلقاه كبار الناس بالقبول . وبعض ذلك كاف للاقتناع بأنهم كانوا قوة خلقية في ذلك الحين .

٨ — ويمثل هذا المقام مقام الأوزاعى بين يدى المنصور ، ذكره عبد الله بن المبارك عن رجل من أهل الشام قال : دخلت عليه فقال : ما الذى أبطأ بك عنى ؟ قلت : يا أمير المؤمنين ، وما الذى تريد منى ؟ فقال : الاقتباس منك . قلت انظر ما تقول فان مكحولا حدثنى عن عطية بن بشير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من بلغه عن الله نصيحة فى دينه فهى رحمة

من الله سيقت اليه ، فان قبلها من الله بشكر وإلا كانت حجة من الله عليه ،
ليزداد إثماً وليزداد الله عليه غضباً ، وإن بلغه شيء من الحق فرضى فله الرضا ،
وإن سخط فله السخط ، ومن كرهه فقد كره الله ، لأن الله هو الحق المبين ،
فلا تجهلن . قال : وكيف أجهل ؟ قال : تسمع ولا تعمل بما تسمع !

قال الأوزاعي : فسئل على الربيع السيف وقال : تقول لأمر المؤمنين
هذا ؟ فاتهره المنصور وقال : أمسيك . ثم كلبه الأوزاعي وكان في كلامه أن
قال : إنك قد أصبحت من هذه الخلافة بالذي أصبحت به ، والله سائلك عن
صغيرها وكبيرها وفيلها ونقيرها ، ولقد حدثني عروة بن رويم أن رسول
الله صلى الله عليه وسلم قال « ما من راع يبيت غاشاً لرعيته إلا حرّم الله عليه
رائحة الجنة » فحقيق على الوالى أن يكون لرعيته ناظراً ، ولما استطاع من
عوراتهم ساتراً ، وبالقسط فيما بينهم قائماً ، لا يتخوف محسنهم منه رهقاً ،
ولا مسيئهم عدواناً ، فقد كانت بيد رسول الله جريدة يستاك بها ويردع عنه
المنافقين فأتاه جبريل فقال : « يا محمد ، ما هذه الجريدة بيدك ؟ اقذفها لا تملأ
قلوبهم رعباً » فكيف من سفك دماءهم ، وشقق أبقارهم ، وأنهب أموالهم !
يا أمير المؤمنين ! إن المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر دعا إلى القصاص
من نفسه بخدش خدشه أعرابياً لم يتعمده فهبط جبريل فقال : يا محمد ، إن
الله لم يبعثك جباراً تكسر قرون أمتك . . . إن الدنيا تنقطع ويزول نعيمها ،
ولو بقى الملك لمن قبلك لم يصل اليك يا أمير المؤمنين ، ولو أن ثوباً من
ثياب أهل النار علّق بين السماء والأرض لآذاهم ، فكيف من يتقمصه ؟

ولو أن ذنوباً (١) من صديد أهل النار صبّ على ماء لآجنه (٢) . فكيف بمن يتجرعه ، ولو أن حلقة من سلاسل جهنم وضعت على جبل لذاب ، فكيف من سلك فيها ويردّ فضلها على عاتقه !

واعلم أن السلطان أربعة : أمير يظلف نفسه وعماله ، فذلك له أجر المجاهد في سبيل الله ، وصلاته سبعون ألف صلاة ، ويد الله بالرحمة على رأسه ترفرف ، وأمير رتع ورtec عماله ، فذاك يحمل أثقاله وأثقالاً مع أثقاله وأمير يظلف نفسه (٣) ويرtec عماله ، فذاك الذي باع آخرته بدنياه غيره ، وأمير يرتع ويظلف عماله فذاك شر الأكياس (٤) .

ولهذا الحديث بقية ، وما سلف منه يبين مسلك الأوزاعي في النصيح ، وجرأته في مصارحة الخلفاء . والشجاعة من أخص صفات الزاهدين والصالحين .

وللأوزاعي موقف مع عبد الله بن عليّ يعدّ من أخطر المواقف ، لأنه يمسّ الأحقاد السياسية ، وللسياسة أحقاد سود تذهب بالحلم والعقل ، وكان ذلك الموقف بعد أن أجلى عبد الله بنى أمية عن الشام وأزال الله دولتهم على يديه ، فقد طلب الأوزاعي ليسأله رأيه فيما صنع ببنى أمية ، وكان ينتظر بالطبع أن يظفر منه بكلمات من الثناء يفلّ بها حدة من ينسكرون عليه . الاسراف في النهب والقتل ، ولكنّه فوجيء بما لم يكن في الحسبان ، وأراه

(١) الذنوب ، بالفتح ، الدلو التي دون الماء (٢) آجنه : غير طعمه ولونه

(٣) يظلف نفسه : يكفها

(٤) عيون الأخبار ج ٣ ص ٣٣٩

الأوزاعي أن في الدنيا ناساً يجهرون بكلمة الحق في أخرج المواقف والمقامات .

قال الأوزاعي : فدخلت عليه وهو على سرير ، والمسودة عن يمينه وشماله معهم السيوف مطلقة ، فسلمت عليه فلم يرد ، ونكت بتلك الخيزرانة التي بيده ثم قال : يا أوزاعي ، ماترى فيما صنعنا من إزالة أيدي أولئك الظلمة عن البلاد والعباد ، أجهاد هو ؟ قال : فقلت : أيها الأمير ، سمعت يحيى بن سعيد الأنصاري يقول : سمعت عمر بن الخطاب يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو إلى امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه » قال : فنكت بالخيزرانة أشد ما كان ينكت ، وجعل من حوله يقبضون أيديهم على قبضات سيوفهم ، ثم قال : يا أوزاعي ، ما تقول في دماء بني أمية ؟ فقلت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يحل دم امرئ مسلم إلا باحدى ثلاث : النفس بالنفس ، والثيب والزاني ، والتارك لدينه المفارق للجماعة » قال : فنكت بها أشد من ذلك ، ثم قال : ما تقول في أموالهم ؟ فقلت : إن كانت في أيديهم حراما فهي حرام عليك أيضاً ، وإن كانت لهم حلالا فلا تحل لك إلا بطريق شرعى ، قال : فنكت أشد ما كان ينكت قبل ذلك ، ثم قال : ألا نوليكَ القضاء ؟ فقلت : إن أسلافك لم يكونوا يشقون على في ذلك ، وإنى أحب أن تتم ما ابتدأوني به من الإحسان ، فقال : كأنتك تحب الانصراف ، فقلت : إن ورائي حرماً وهم محتاجون إلى القيام عليهن وسترهن

وقلوبهن مشغولة بسببي ، قال : وانتظرت رأسى يسقط بين يدي ، فأمرنى بالانصراف ، فلما خرجت إذا رسول من ورأى ، وإذا معه مائتا دينار فقال : يقول لك الأمير : استنفق بهذه ، قال : فتصدقت بها ، وإنما أخذتها خوفاً^(١)

٩ — وهذا المقام يدل على أمرين : الأول أن الأمراء والملوك كانوا منذ ذلك الزمان يشعرون بقوة أهل العلم والزهد والصلاح ، وكانوا يحبون أن يستظهروا بهم ، وكانوا كذلك يعرفون عنهم اللين في أغلب الأحيان ، ولولا ذلك لقلَّت الرغبة في استدعاء مثل الأوزاعي في مثل ذلك الموقف .

والثاني أن الزهاد كانوا استطاعوا أن يخلقوا لهم عصبية يحسب حسابها في الأزمات السياسية ، يؤيد هذا ما روى أن بعض الولاة هدد الأوزاعي مرة فقال له أصحابه : دعه ، فوالله لو أمر أهل الشام أن يقتلوك لقتلوك^(٢)

وطمعُ الولاة والأمراء في لين أهل التصوف لا ينقض ما عُرِفوا به من الشجاعة الأدبية ، فنحن لا نقول بأن تلك الشجاعة كانت من نصيب كل من تصوف ، وإنما نجزم بأنها كانت من أخلاق كل من صدق في التصوف ، والعصبية التي كانت تحميهم لا يمكن أن تغض من شجاعاتهم الأدبية ، لأنها في الأكثر عصبية عزلاء ، ولأنها على كل حال من مغائهم الأخلاقية ، لأنهم اكتسبوها بفضل الصلاح والتقوى ، وهو مكسب تُبذل في سبيله أثمان غالية يعرفها من يعانون رياضة النفس على التجميل بالآداب الدينية .

(١) حسن المساعي في مناقب الأوزاعي ص ٧٩ — ٨٢

(٢) حسن المساعي في مناقب الأوزاعي ص ٨٩

١٠ — وكان يتفق في أحيان كثيرة أن تقابل تلك الشجاعة باللطف ،
ومن طريف ذلك أن ابن هبيرة كتب إلى الحسن وابن سيرين والشعبي فقدم
بهم عليه ، فقال لهم : إن أمير المؤمنين يكتب إليّ في الأمر إن فعلته خفتُ على
ديني ، وإن لم أفعله خفت على نفسي ، فقال له ابن سيرين والشعبي قولا رقيقا
فيه ، وقال له الحسن : يا ابن هبيرة ! إن الله يمنعك من يزيد ، وإن يزيد
لا يمنعك من الله . يا ابن هبيرة ! خف الله في يزيد ، ولا تحف يزيد في الله !
يا ابن هبيرة ! إنه يوشك أن يبعث الله إليك ملكا فينزلك عن سريرك إلى
سعة قصرك ، ثم يخرجك عن سعة قصرك إلى ضيق قبرك ، ثم لا ينجيك
إلا عملك . يا ابن هبيرة ، إنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق (١)

والطريف في هذا الموقف أن ابن هبيرة أمر للحسن بأربعة آلاف درهم
وأمر لابن سيرين والشعبي بالفين ، فقالا : رققنا فرقق لنا !

١١ — وهناك مواقف لأبي حازم مع سليمان بن عبد الملك وابن السماك
مع الرشيد . والمقام يضيق عن الاستقصاء ، ولو مضينا نستقرى أخبار
الصوفية في مختلف العصور لرأينا لهم كثيراً من أمثال هذه المواقف ، والناس
في مصر وفي تركيا خاصة يذكرون حوادث جرت لأهل الورع والدين مع
الولاة والسلاطين ، ومناقب الصوفية تفيض بأمثال هذه الأخبار ، وأكثرها
صدق ، والمخترع منها له دلالة خلقية ، فهو شاهد بأن الناس كانوا يشهدون
للصوفية بالشهامة والجر بكملة الحق .

وقد رأينا أن تلك المواقف عادت بفوائد كثيرة على الأدب والخلق
فهي من حيث الصورة نماذج أدبية ، وهي من حيث المعنى لا تزال توحى
بالحرص على التخلق بأخلاق الرجال (١)

(١) في مسامرة الأبرار لابن عربي أنباء نفيسة من هذا النوع

الدُّنْيَا فِي ذَهَابِ الصُّوفِيَّةِ

ذم الصوفية للدنيا شاهد على تعلقهم بها — هل الدنيا قبيحة في جميع الأحوال ؟ —
حقائق الجمال في هذا الوجود — الدنيا في كلام الأنبياء — شخصية المسيح — دفاع المؤلف عن
الصوفية — ذم الدنيا وأثره في الأخلاق وفي الأدب — مشكلة خلقية — المحمود والمذموم
في الشؤون الدينية — النفس كالشجرة التي تحيا بالحرية في مكافحة الهواء .

١ — زارت رابعة أصحابها فذكروا الدنيا فأقبلوا على ذمها فقالت :
اسكتوا عن ذكرها . فلولاً موقعها من قلوبكم ما أكثرتم من ذكرها . ألا من
أحب شيئاً أكثر من ذكره (١)

وإني لأخشى أن تكون هذه النظرة مما يصدق في أكثر الصوفية : فهم
جميعاً يذمون الدنيا ، ويخافون شرها ، ويكثر من تقييحها والتنفير منها ،
ويندر أن يكتب في التصوف كتاب ولا تكون الدنيا شغل المؤلف وهمه
في أكثر الفصول . والواقع أن الدنيا شغلت الصوفية فلم تخل منها قلوبهم
طرفة عين ، ولو خلت منها قلوبهم لما طوقوها بقلائد الهجاء ، وإنما مثلها في
أنفسهم مثل المرأة المطلقة التي يحن إليها زوجها ويتمنى لو عادت لياليها
الملاح ، وكيف يخلص الناس من فتنة دنياهم وهم مقيدون بما فيها من هواء
وماء ؟ إن النفحة السماوية التي يتشوفون إليها لم تكن إلا لفحة فنية ، والتطلع
إلى السماء إنما هو كبر إنساني شريف ، ولكنه على ما فيه من شرف لا يخلو

من تهور واعتساف ، فالإنسان من الأرض خلق وإلى الأرض يعود ،
والنفس على ما فيها من رقة وصفاء قيدتها الإرادة الأزلية بأسباب العيش ،
وفرضت عليها الخضوع لسلطان الأمعاء ، فليصنع الصوفية ما يشاءون فسيظل
ابن آدم منسوباً إلى الطين والماء .

٢ — وإسراف الصوفية في ذم الدنيا لا يخلو من غفلة وجهل ، فللدنيا
فتنة روحية ، وفي الكفاح في مناكبها سحر وإشراق ، والعليل هو الذى
لا يدرك جمال هذا الوجود ، ولا يعرف أن القبح نفسه فيه شعر وجمال ،
وأن دمامة الأخلاق فيها فرص نورانية لمن يعرف على أى أساس بنيت هذه
الدنيا الفيحاء .

إن الرجل الذى يعود إلى بيته وهو مهدم الأعصاب يزعجه صراخ
الطفل ، أفيكون انزعاجه دليلاً على وجود البشاعة في صراخ الأطفال ؟
وكيف والرجل السليم يرى في بكاء الطفل ملامح شعرية ، ويتوسم في
انفعالاتهم بوارق من نور الوجود ؟

إن إسراف الصوفية في ذم الدنيا هو الشاهد على انحرافهم في فهم
الأخلاق ، وهو كذلك الشاهد على أن قواعد الأخلاق أقيمت في الأغلب
على الأهواء الذاتية ، فنحن رضى عن الدنيا ساعة ونغضب ساعات ، فتكون
لنا عند الرضى آراء ، وعند الغضب آراء ، والصوفية أولى الناس بالتهمة عند
الانحراف ، لأن التصوف يقع في أكثر الأحيان عند المرض والمشييب ،
والمريض المشيب ينظر إلى الدنيا نظرة الحقد والأزدراء

٣ — إن أشنع غلطة اقترفها الصوفية هي التنفير من الدنيا ، والدعوة إلى

هجر ما فيها من الطيبات ، وإصرارهم على إقناع الناس بأنهم يلدون للموت
ويبنون للخراب . والحق أن كل ميلاد الى موت ، وأن كل بناء الى خراب ،
ولكن بين الحالين مواسم للخير والبر والجهاد والصفاء ، ومن الحق أن يجهل
المرء أنه خلق لغاية نبيلة تتمثل في تطوره من حال الى حال ، وتنقله بين الحلم
والجهل ، والعقل والجنون . وكان الصوفية أجدر الناس بأن ينظروا هذه
النظرة ، وأن يتصوروا ما في قلب الطباع من رونق وبهاء ، ولكن خبز
الشعير ولباس الصوف والملح الجريش ، كل أولئك طبع أرواحهم بطابع
التلوم والاشفاق .

كيف غاب عنهم وجه الخير في هذه الهموم السود التي يعانها أشراف
الرجال ؟ وكيف غفلوا عن المغامم النفيسة التي يظفر بها من يحارب الخسة
والدناءة والاسفاف ؟ إن فرص الجهاد لا تتاح إلا لمن ينغمس في الدنيا ويشهد
ما يقع فيه الدينيون من محاربة الشرف والصدق والنبيل ، ولو استمع العالم
إلى نصائح الصوفية لضاعت أصول كثيرة من الخير والحق والجمال

إن العالم الباقي لم يتمثل لعشاقه إلا عن طريق العمران : فهو قصوو
وأنهار وحدائق ، وحوار عين كأمثال اللؤلؤ الممكنون . ولو كان النعيم يبغيض
لذاته لما رضى الصوفية أن يجعلوه نصيبهم في دار البقاء ، فلم يبق إلا أن يكون
الكدر في هذه الدنيا أثرا من الانحراف في أخلاق الناس ، وتكون النتيجة
أن الناس أعطوا ملكا فلم يحسنوا سياسته ، أعطاهم الله تلك الأنهار الجارية
والرياض الحالية ، وسخر لهم الشمس والقمر والنجوم ، فغفلوا عن مفاتيح
ذلك الملك الذي ينتظم محاسن الأرض والسماء ، وحولوا حياض الأزهار

إلى ميادين تسفك فيها الدماء ، وتزهق الأرواح

وكان الظن بالصوفية وهم من أهل البصائر والقلوب ، أن يعرفوا قيمة هذه الدنيا ، هذا الملك الذى ضيعه أهله ، كان الظن بهم أن يجاهدوا ما فيه من شهوات وأباطيل ، ولكنهم آثروا الهرب والانزواء ، وصاروا يعرفون من أنهار الجنة ما لا يعرفون من أنهار هذا العالم ، ويعلمون من أبواب جهنم ما لا يعلمون من أسباب انحطاط الأمم وضعف الشعوب ، ويدركون من نعيم الآخرة ما لا يدركون من معنى الملك والقوة فى هذا الوجود

إن الاعتصام بشواهد الجبال فراراً من ظلم الناس فيه ملامح شعرية ، ولكنه دليل على حب السلامة ، وذلك من أخلاق الضعفاء ، وأشرف منه أن تدخل المعركة ، وأن يخضب الدم وجهك وصدرك ويديك ، وأن تلقى الله بوجه شريف لم يعرف صاحبه الجبن ولا الرياء ولا الخداع

الدنيا جنة دانية القطوف ، وفى بعض أركانها أفاع وصال ، وما أفاعها إلا لثام الناس ، فكيف خانتكم الشجاعة أيها الصوفية فلم تقتلوا ما فى تلك الجنة من خبيث الحشرات ؟

أفى الحق أن الدنيا بنيت على الكيد والفتك والنفاق ؟ ليكن ذلك ، ولكن لا تنكروا أنها أعظم مما تتوهمون ، إن فى الدنيا جمالاً جذاباً يستهوى العقول والقلوب ، وهى صالحة كل الصلاحية لأن تكون من ميادين المجد فى عالم الأخلاق ، ولكن أين الصابرون ؟ وأين المحتسبون ؟ كل امرئ فى دنيانا يود أن يغنم المعركة فى لحظة واحدة ، والا ففى مهاوى الفرار متسع للجميع ،

وقد عجز الصوفية ثم تواصلوا بالتقهقر والانسحاب ، فلنُسجل عليهم هذه الخزية اللقاء .

٤ — اهتم الصوفية بنقل ما قال الرسول في ذم الدنيا ، فحدثونا أنه وقف على مزبلة وقال : هلموا الى الدنيا ، وأخذ خرقا قد بليت على تلك المزبلة وعظاما قد نخرت ، فقال : هذه الدنيا ^(١) وحدثونا أنه قال : ألهاكم التكاثر ، يقول ابن آدم مالى مالى ، وهل لك من مالك الا ما أكلت فأفنت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأبقيت ^(٢) ؟ وأنه قال : الدنيا دار من لا دار له ، ومال من لا مال له ، ولها يجمع من لا عقل له ، وعليها يعادى من لا علم له ، وعليها يحسد من لا فقه له ، ولها يسعى من لا يقين له ^(٣) وحدثوا أن أبا هريرة قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا أبا هريرة ، ألا أريك الدنيا جميعها بما فيها ؟ فقلت : بلى ، يا رسول الله ، فأخذ بيدي وأتى بى واديا من أودية المدينة فاذا مزبلة فيها رؤوس أناس وعذرات وخرق وعظام . ثم قال : يا أبا هريرة ، هذه الرؤوس كانت تحرص كحرصكم ، وتأمل كأملكم ، ثم هى اليوم عظام بلا جلد ، ثم هى صائرة رمادا ، وهذه العذرات هى ألوان أطعمتهم اكتسبوها من حيث اكتسبوها ثم قذفوها من بطونهم فأصبحت والناس يتحامونها ، وهذه الخرق البالية كانت رياشهم ولباسهم فأصبحت والرياح تصفقها . وهذه العظام عظام دوابهم التى كانوا ينتجعون عليها أطراف البلاد ، فمن كان باكيا على الدنيا فليبك ^(٤)

(١) الاحياء ج ٣ ص ٢٠٢

(٢) ص ٢٠٤

ولم يكتف الصوفية بكلام نبي المسلمين فنقلوا عن صحف ابراهيم هذه
الكلمات :

« يا دنيا ما أهونك على الأبرار الذين تصنّعت وتزينت لهم ، إني قدذت في
قلوبهم بغضك ، والصدود عنك ، وما خلقت خلقا أهون عليّ منك ، كل
شأنك صغير ، وإلى الفناء يصير ، قضيت عليك يوم خلقتك أن لا تدومى لأحد ،
وإن بخل بك صاحبك وشحّ عليك (١) .

ومضوا يقصون أخبار المسيح فرووا أنه اشتد عليه المطر والرعد والبرق
فجعل يطلب شيئاً يلجأ إليه فوقعت عينه على خيمة من بعيد ، فأتاها فاذا فيها
امرأة فحاد عنها ، فاذا هو بكهف في جبل فأتاه فاذا فيه أسد فوضع يده عليه
وقال : إلهي لكل شيء مأوى ، ولم تجعل لى مأوى ، فأوحى الله تعالى إليه :
مأواك في مستقر رحمتي ، لأزوجنك يوم القيامة مائة حوراء خلقتها بيدي ،
ولأطعمنّ في عرسك أربعة آلاف عام ، كل يوم منها كعمر الدنيا ، ولأمرنّ
مناديا ينادى : أين الزهاد في الدنيا ، زوروا عرس الزاهد في الدنيا عيسى
ابن مريم (١)

وحدثوا أنه مرّ بقرية فاذا أهلها موتى في الأفنية والطرق فقال : يا معشر
الحواريين ، إن هؤلاء ماتوا عن سخطة ، ولو ماتوا عن غير ذلك لتدافنوا ،
فقالوا : يا روح الله ، وددنا أننا علمنا خبرهم ، فسأل الله تعالى فأوحى إليه :
إذا كان الليل فنادهم يجيبوك ، فلما كان الليل أشرف على نشر شم نادى :
يا أهل القرية ، فأجابه مجيب : لبيك يا روح الله . فقال : ما حالكم وما قصتكم ؟

قال : بينا نحن في عافية أصبحنا في الهاوية . قال : وكيف ذلك ؟ قال : لحبنا الدنيا وطاعتنا أهل المعاصي ، قال : وكيف كان حبكم للدنيا ؟ قال : حب الصبيّ لأمه ، إذا أقبلت فرح بها وإذا أدبرت حزن وبكى عليها . قال : فما بال أصحابك لم يجيبوني ؟ قال : لأنهم ملجمون بلجم من نار بأيدي ملائكة غلاظ شداد . قال : فكيف أجبتني من بينهم ؟ قال : لأنني كنت فيهم ولم أكن منهم . فلما نزل بهم العذاب أصابني معهم ، فأنا معلق على شفير جهنم ، لا أدري أنجو منها أم أكبكب فيها . فقال المسيح للحواريين : لا كلُّ خبز الشعير بالملح الجريش ولبس المسوح والنوم على المزابل كثير مع عافية الدنيا والآخرة (١)

ه — وما يهمننا في هذا المقام أن نبحث في صحة هذه الأحاديث وفيها الزائف والصحيح ، لا يهمننا ذلك ، لأن عناية الصوفية بدرسها وروايتها هي الشاهد على ما نراه في تصوير مذاهبهم الأخلاقية ، وهم يذمون الدنيا إطلاقاً ولا يتسامحون في الرضا عنها إلا في رسوم ضيقة أشدّ الضيق ، ولولا غلبة هذه النزعة عليهم لكان لهم موقف آخر في توجيه تلك الأحاديث ، فما نظن أن الرسول كان يرى الدنيا جيفة في جميع الأحوال ، والمعقول أنه كان يحقرها حين يرى الناس يتكالبون عليها ويقترفون في سبيلها منكر الآثام ، ولو عرض الرسول لدنيا رجل صالح لقضى بأن الدنيا مطية المؤمنين ، وأن الغنى من نعم الله على عباده الصالحين .

إن وقوف الصوفية عند هذا الجانب من كلام الرسول لم يقع إلا عن قصد ، فذلك هو منحاهم في الأخلاق ، والشخصية الخلقية عندهم هي شخصية

فقيرة معدمة لا تعرف غير التفكير في الجزء المجرد من المملوكات ، أما النظر في هذا العالم الصاحب المملوء بالمحاسن والعيوب فذلك لأهل الدنيا الذين قضى عليهم الصوفية بالغفلة والسقوط .

واهتمام الصوفية بأدب المسيح يؤكد ما نراه في نزعتهم الأخلاقية ، فالمسيح هو أعظم درويش عرفه هذا العالم ، وهو في ذاته شخصية جذابة ، ولكن الاقتداء به اقتداءً مطلقاً لا يخلو من عدوان على مُلك العقل ، ولا يصح النظر إلى المسيح كشخصية مستقلة تمام الاستقلال ، وإنما يجب النظر فيما كان يحيط به من تكالب أرباب الأموال ، وتصور ما كانوا عليه من قذارة التعامل وسفاهة الإيجاف ، فاليهود الذين عرفهم عيسى كانوا بغوا في الأرض واشتروا رقاب الناس بالربا الفاحش ، وكذلك كانت دعوته إلى بغض الدنيا دعوة طبيعية يقرها الأدب والذوق .

٦ - ولكن كيف نبخل على الصوفية بما سمحنا به للمسيح ، وكيف نحرم هنا ما حللناه هناك ؟

الواقع أن الصوفية نشأوا في بيئات غلب عليها الفساد ، فساد الخلق والدين ، وما كانت المعاملات بين الناس في العهود الماضية إلا ضروباً من الختل والعدوان ، وهل صلح الناس في زماننا هذا مع قوة القانون وحزم القضاء ؟ حدثني كم رجلاً فيمن تعرف يصلح للتعاون بلا صكّ مكتوب ؟ وكم رجلاً فيمن تصادق تأتمنه فلا يخون ؟ وكم رجلاً فيمن تؤاخي يحفظ سرك ويرعى عهدك ، ويظل ظهيرك في المحضر والمغيب ؟

لقد نشأ الصوفية في أزمان لم يكن فيها غير الحاكم المسيطر أمر يطاع ،

وكانت الدسائس والوشايات أساس الحل والعقد في قصور الخلفاء والأمراء والوزراء، وكان الندمان والمحاسب هم محور الحركة والسكون، وأصل الإيدبار والإيقبال، على نحو ما يقع أحياناً كثيرة في هذا الزمان، فكيف ننكر أن يكون إسراف الصوفية في ذم الدنيا أثراً من آثار ذلك الاضطراب في السياسة والخلق والدين؟ وما هي تلك الدنيا البشعة التي يستجيز أهلها الغدر والعقوق؟ وهل يغدر الغادر ويعق العاق إلا وهو مؤيد بقوى خفية من الطمع والجشع، وحب التملك والاستعلاء؟

إن مطامع الدنيا هي الأصل في فساد الأخلاق، فهل يلام الصوفية على تحقيرهم إياها، ورمى عشاقها بالإلثم والبهتان، وحرهم بأقوال الحكماء والأنبياء والمرسلين؟

إننا نتهم الصوفية بالضعف حين يفرون من دنيا السفهاء، فلنجدال نحن، ولننظر عواقب المعركة بين الهدى والضلال، وأغلب الظن أننا سنرى الراية يائسين، لأن هنالك سرّاً لا يعلمه إلا علام الغيوب، هنالك المشكلة الباقية التي قضت بأن لا يخلص العالم من اشتباك الحلم والجهل، والعقل والجنون.

إن رجل الأخلاق ليس أحسن حالاً من راعي الغنم، يجمع هذه فتنة تلك، ولا يزال معذب القلب بين الشاردات والواردات، وليس أعظم قدرة من المدرس الذي يساق إليه التلاميذ بلا تخير ولا اصطفاء، ثم يطلب منه أن يتعلم تلاميذه جميعاً وأن ينجحوا جميعاً.

من الحق أن تطالب رجل الأخلاق بالثبات، ولكن من الظلم أن لا تشفق

عليه حين ينهزم ، فان الضعف أنفذ سهماً من القوة في عالم الأخلاق ،
أنت تعظ ولكن أين من يسمع ؟ وتسير في طريق الهدى ولكن أين من
يسارك ، وتبنى ، ولكن أين من يشد أزرك ويحمل معك أحجار
الأساس ؟ !

والخلاصة أن فرار الصوفية من الدنيا وأهلها يدل على ثلاثة أمور :
الأول شعورهم بالتبعة الأخلاقية .
والثاني ضعفهم عن مقاومة الرذائل الاجتماعية .
والثالث فساد ما نشأوا فيه من البيئات الدينية والمعاشية .

٧ — فان سأل القارئ عن أثر ذلك في الأخلاق ، فانا نجيب بأن كتمان
الصوفية لأسباب الهزيمة صوّر فرارهم من الدنيا بصورة العمل المقبول ،
فاقتدى بهم كثير من الناس وشاع الزهد في الطيبات فضاع من العالم
الاسلامى جزء كبير من الثروة المعنوية التى يمثلها جمال العمران وتتابع
الرزق في عالم الاقتصاد .

ومضى المنهزمون يسترون الهزيمة بدم الدنيا فكان للأدب من ذلك مغايم
عظيمة ، واستطاع على بن أبى طالب أن يحسن مثل هذه الأقوال :

« إنما الدنيا منتهى بصر الأعشى لا يبصر مما وراءها شيئاً ، والبصير ينفذها
بصره ، ويعلم أن الدار وراءها ، فالبصير منها شاخص والأعشى اليها شاخص ،
والبصير منها متزود ، والأعشى لها متزود^(١)... أنظروا إلى الدنيا نظر الزاهدين
فيها الصادقين عنها ، فانها والله عما قليل تزيل الثاوى الساكن ، وتفجع المترف

الآمن ، لا يرجع ما تولى فأدبر ، ولا يدري ما هو آت منها فينتظر ، سرورها مشوب بالحزن ، وجلد الرجال فيها إلى الضعف والوهن ^(١)... لم يكن أمرؤها في حبرة إلا أعقبها عبرة ، ولم يلق في سرائها بطناً إلا منحتة من سرائها ظهراً ، ولم تطلّة فيها ديمة رخاء إلا هتنت عليه مزنة بلاء ^(٢)... أوصيكم بالرفض لهذه الدنيا التاركة لكم وإن لم تتركوها ، والمبيلة لأجسامكم وإن كنتم تحبون تجديدها ، فأنما مثلكم ومثلها كسفر سلكوا سيلاً فكأنهم قد قطعوه ، وأمّوا علماً فكأنهم قد بلغوه ، وكم عسى المجرى إلى الغاية أن يجرى إليها حتى يبلغها ، وما عسى أن يكون بقاء من له يوم لا يعدوه ، وطالب حثيث يحدوه في الدنيا حتى يفارقها ، فلا تنافسوا في عز الدنيا وفخرها ، ولا تعجبوا بزيبتها ونعيمها ، ولا تجزعوا من سرائها وبؤسها ، فإن عزها وفخرها إلى انقطاع ، وإن زيتها ونعيمها إلى زوال ، وضراءها وبؤسها إلى نفاذ ، وكل مدة فيها إلى انتهاء ، وكل حى فيها إلى فناء ^(٣) .

وكلام ابن أبي طالب في ذم الدنيا كثير جداً ، وهو يمثل مذهبه في الزهد ويشرح هزيمته السياسية ، وكذلك فعل الخوارج ، فقد أطالوا القول في التنفير من الدنيا ، ولهم في ثلبها خطب ضربت بفصاحتها الأمثال ، من ذلك قول قطريّ بن الفجاءة :

« أيها الناس ، إعملوا على مهل ، وكونوا من الله على وجل ، ولا تغتروا بالأمل ، ولا تركنوا إلى الدنيا فانها غدارة خدّاعة ، قد تزخرفت لكم بغرورها ، وقتنتكم بأمانها ، وتزينت لخطّابها ، فأصبحت كالعروس المجلوّة :

العيون إليها ناظرة ، والقلوب عليها عاكفة ، والنفوس لها عاشقة ، فكم من عاشق لها قد قتل ، ومطمئن إليها خذلت ، فانظروا إليها بعين الحقيقة ، فإنها دار كثرت بوائقها ، وذمها خالقها ، جديدها يبلى ، ومالكها يفنى ، وعزيزها يذل ، وكثيرها يقل ، وحيها يموت ، وخيرها يفوت ، فاستيقظوا من غفلتكم ، وانتبهوا من رقدتكم ، قبل أن يقال : فلان عليل ، أو مدنف ثقيل ، فهل على الدواء من دليل ، أو على الطبيب من سبيل ، فيدعى لك الأطباء ، ولا يرجى لك الشفاء ، ثم يقال : فلان أوصى ، ولماله أحصى ، ثم يقال : قد ثقل لسانه ، فما يكلّم إخوانه ، ولا يعرف جيرانه ، وعرق عند ذلك جبينك ، وتتابع أنينك ، وثبت يقينك ، وطمحت جفونك ، وصدقت ظنونك ، وتلجج لسانك ، وبكى إخوانك ، وقيل لك : هذا ابنك فلان ، وهذا أخوك فلان . ومنعت الكلام فلا تنطق ، ثم حلّ بك القضاء ، وانتزعت نفسك من الأعضاء ، ثم عرج بها إلى السماء ، فاجتمع عند ذلك إخوانك ، وأحضرت أكفانك ، فغسلوك وكفنوك ، فانقطع عوّاذك ، واستراح حسّادك ، وانصرف أهلك إلى مالك ، وبقيت مرتهاً بأعمالك (١) .

وما نريد أن نطيل في بيان ما غنم الأدب من تبرم الصوفية بدنيا الناس . فقد عقدنا لذلك فصلاً موجزاً في القسم الأول بيننا فيه كيف أولع الصوفية بتصوير الدنيا ، وكيف لوّنوها وعرضوها في مختلف التشبيهات

ولننصّ في هذا المقام على أن ما قالوه حق ، فالدنيا سخيصة لا ثبات . لنعيمها ولا بقاء ، ولكن الإصرار على إحقاق هذا الحق ، والدوران حوله من

وقت إلى وقت ، أو تمثله في أغلب الأحوال ، إنما هو من أوهام النفوس العلية التي يترأى لها شبح الموت في كل حين . والموت حق ، ولكن الحياة أيضاً حق ، والشغل بها من دلائل الفتوة الجسمية والعقلية والروحية ، واليها المرجع في تصوّر النعيم المأمول ، وعلى ما فيها يقاس ما سيكون في دار البقاء

٨ — وهناك مشكلة اختلاف في حلها الصوفية ، وهي حال الرجل الغنيّ الذي يؤدي حقوق الغني فينفق في وجوه الحلال ويتصدق على الفقراء والمساكين ، فقد قال رجل للحسن البصري : ما تقول في رجل آتاه الله مالا فهو يتصدق منه ، ويصل منه ، أيحسن له أن يتعيش فيه — يعني يتنعم — فقال : لا ، لو كانت له الدنيا كلها ما كان له منها إلا الكفاف ، ويقدم ذلك ليوم فقره (١)

فالحسن يقاوم التنعم ، وينهى عنه الأغنياء الذين يؤدون حقوق المال أما أبو حازم المدني فيقول بغير ذلك في شيء من الرفق ، فقد قال له رجل : أشكو إليك حب الدنيا وليست لي بدار . فقال : أنظر ما آتاك الله عزّ وجلّ منها ، فلا تأخذه إلا في حله ، ولا تضعه إلا في حقه ، ولا يضرك حب الدنيا (٢)

وهذا جواب حكيم ، ولكن الغزالي يأبى إلا التعقيب عليه فيقول : وإنما قال هذا لأنه لو آخذه بذلك لآتبعه حتى يتبرم بالدنيا ويطلب الخروج منها (٣)

وهذا التعقيب يعين مذهب الغزالي في الزهد ، وجوهره يدل على ما كان عند أبي حازم من حكمة وعقل ، فإن الأغنياء الذين يؤدون حقوق الغنى هم ظل الله في الأرض ، وهم أهل الحرث وأرباب العمران ، والحكم عليهم بالانحراف عن جادة الحق فيه تئيس وتثييط وتعويق ، والصوفية لا يستكثر عليهم أن يسرفوا في التزهيد ، وإن كانوا يتلطفون أحيانا ، فقد نقل الغزالي قول أبي سليمان الداراني : إذا كانت الآخرة في القلب جاءت الدنيا تزحها فإذا كانت الدنيا في القلب لم تزحها الآخرة ، لأن الآخرة كريمة ، والدنيا لئيمة . ثم قال : وهذا تشديد عظيم ، ونرجو أن يكون ما ذكره سيّار بن الحكم أصحّ إذ قال : الدنيا والآخرة تجتمعان في القلب ، فأيهما غلب كان الآخر تبعاً له . وقال مالك بن دينار : بقدر ما تحزن للدنيا يخرج هم الآخرة من قلبك ، وبقدر ما تحزن للآخرة يخرج هم الدنيا من قلبك (١)

وفي هذا الحكم اعتدال ، وهو يقضى بأن الدنيا خليفة بالحب ، وليس في حبها ما يعيب ، على شرط أن لا تكون هي الغالبة ، وأن يكون ما فيها من الطيبات وسيلة لصالح الأعمال

٩ — وقد وضع الغزالي علائم واضحة للحمود والمذموم من الشؤون الدنيوية ، ويتلخص كلامه المطول في الفقرة الآتية :

ليس كل ما تميل اليه بمذموم بل هو ثلاثة أقسام : الأول ما يصحبك في الآخرة وتبقى معك ثمرته بعد الموت ، وهو شيثان العلم والعمل فقط ، والعلم هنا هو العلم بالله وصفاته وأفعاله وملائكته وكتبه ورسله وملكوته أرضه

وسمائه والعلم بشريعة نبيه ، والعمل هو العبادة الخالصة لوجه الله . والقسم
الثانى كل ما فيه حظ عاجل ولا ثمرة له فى الآخرة كالتلذذ بالمعاصى والتنعيم
بالمباحات الزائدة على قدر الحاجات . والقسم الثالث متوسط بين الطرفين
وهو كل حظ عاجل يعين على أعمال الآخرة كقدر القوت من الطعام
والقميص الواحد الخشن وكل ما لا بد منه ليتأتى للإنسان البقاء (١)

وهذا الكلام فى ذاته مقبول . ولكنه ينتهى إلى غاية واحدة : هى أن
يكون الإنسان كُتْلَةً خُلُقِيَّةً لا يتقدم ولا يتأخر إلا وفقاً لسياسة روحية
ضيقة المسالك . ومن الجميل أن يكون الإنسان كُتْلَةً خُلُقِيَّةً ، وأن يكون له
فى كل خطوة هاد من القلب والوجدان ، ولكنى أخشى أن يكون فى ذلك
ما يهدم جانباً من دعائم الأخلاق ، فالنفس قريية الشبه بالشجرة الصغيرة
التي تحيا بالحرية فى مكافحة الهواء ، ويؤذيها أن يرعاها الجنان فى كل لحظة ،
وأن لا يدعها بغير سناد ، وكذلك تحمد النفس حين تُسأل عن كل شيء ،
فلا تقرب الطعام إلا لغرض ، ولا تبشر اللباس إلا لغرض ، ولا تنظر فى
فى كتاب إلا بعد أن تميز لآى غاية ألف ، ولا تصحب أحداً إلا بعد أن
تستوثق من الطهر فى قصده المكنون

لقد أسرف الصوفية فى ذم الدنيا وأهلها ، وأسرفوا فى الدعوة إلى التحرر
منها ، ولو كانوا أصحاب لآثروا الاعتدال .

(١) انظر الصفحات ٢٢٠ — ٢٢٥ ج ٣

المقامات في الأحوال

ما هو المقام وما هو الحال في اصطلاح الصوفية — أهمية المقامات والأحوال في تصوير الشخصية الخلقية — عقل العصر الحاضر والحياة الروحية — مقام التوبة — مقام الصبر — مقام الشكر — مقام الرجاء — مقام الخوف — مقام الرضا — مقام الزهد — مقام الفقر — مقام الورع — حال المراقبة — حال القرب — حال الحب — حال الشوق — حال الأنس — حال الطمأنينة — حال اليقين — درجات العشق ونقلها الى التصوف .

١ — المقامات جمع مقام بالتذكير وهو الخطبة أو العظة يلقيها الرجل في حضرة الخليفة أو الملك ، وقد عقد ابن قتيبة فصلاً في المجلد الثاني من عيون الأخبار سماه (مقامات الزهاد عند الخلفاء والملوك) وقد تؤنث كقول بديع الزمان في أحد الواعظين (فاصبر عليه إلى آخر مقامته ، لعله ينبغي بعلامته) (١) والمقام في الأصل المجلس ، ففي القرآن (أى الفريقين خير مقاماً وأحسن ندياً) وفي شعر زهير :

وفيهم مقامات حسان وجوههم وأندية ينتابها القول والفعل

والمقام أيضاً الموقف العصيب . قال لبيد :

ومقام ضيق فرجته بكلام وبيان وجدل

لو يقوم الفيل أو فياله زلّ عن مثل مقامي وزحل

أما الصوفية فالمقام عندهم معناه : مقام العبد بين يدي الله عز وجل فيما

يقام فيه من العبادات والمجاهدات والرياضات والانقطاع إلى الله تباركت
أسماءه ، ومنه آية القرآن (ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد) (١)

أما الحال فنازلة تنزل بالقلوب فلا تدوم ، والفرق بين المقام والحال
أن المقام يكتسب بطريق المجاهدات والعبادات والرياضات ، وأن
الحال يأتى من فيض الله ، وقد أفصح الجرجاني عن ذلك حين قال :

« الحال عند أهل الحق معنى يرد على القلب من غير تصنع ولا اجتلاب
ولا اكتساب من طرب أو حزن أو قبض أو بسط أو هيئة ، ويزول بظهور
صفات النفس سواء يعقبه المثل أو لا ، فاذا دام وصار ملكا يسمى مقاما ،
فالأحوال مواهب ، والمقامات مكاسب ، والأحوال تأتى من عين الجود ،
والمقامات تحصل ببذل المجهود (٢) »

٢ — ودرس المقامات والأحوال يصور لنا فهم الصوفية للحياة الخلقية ،
وهم يرون الإنسان بين حالين : الأول حال المجاهدة ، والثانى تلقى الفيض ،
فالشخصية الخلقية لا تنفك تجاهد الأهواء والشهوات ، ولا تزال موجّهة
القلب إلى النفحات الروحانية ، فهى فى شغل موصول بمواجهة أسباب
الصفاء .

وأثر التصوف من هذه الناحية عظيم جداً فى الأخلاق ، فالرجل
المتصوف يحاسب نفسه فى كل لحظة ، ويتلصص مواقع الفيض فى كل لحظة ،
وهذه الشواغل الدائمة قد تكون مما يصرف النفس عن التوجه لما يجمد فى عالم
المحسوسات والمعقولات ، وتصير الرجل من أهل الوسواس فى تعقب

ما كان وانتظار ما سيكون من أعمال القلب والوجدان ، ولكنها عند الاعتدال تخلق من المرء قوة خلقية تنفع في توجيه الإرادة إلى الصالح من الأعمال .

وعقل العصر الحاضر لا يفهم هذه الوسوسة الروحية ، لأنه اندفع في التيارات الواقعية ، فلم يعد يدرك ما في هذه الوسوسة من الصدق والجلال . وأغلب الظن أن القلق في عالم العيش هو الذى ضيق الخناق على المعانى الروحية ، لأنها في نظر العقل الحاضر لا تقدم إلى أصحابها شيئاً من البخار أو البنزين ، والتصوف لا ينمو إلا في البيئات التى خفّت أثقالها في عالم العيش ، واستطاعت أن تغمض الجفون ولو لحظات لتنظر ما يجري في دنيا الوجدان

ونشهد أننا نجد مشقة في تقريب تلك السياسة النفسية من عقل هذا الزمان ، ولكن ما حاجتنا إلى ذلك ؟ نحن نؤرخ بعض المذاهب الفلسفية ، والمؤرخ لا يجمل به أن يشغل نفسه بالتحسين والتقبيح ، وإنما يجب عليه أن يقدم الصور الصحيحة لما وقع في التاريخ

ولنواجه المشكلة بعزم وصراحة فنقول إن تلك السياسة الصوفية أضرت من وجه وأحسنّت من وجوه ، أضرت حين قصرت الشخصية الخلقية على الحياة الفردية ، وقضت بأن يصم الرجل أذنيه في أكثر الأحيان عما يجري في المجتمع من أخبار الجد والابداع ، وأحسنّت حين ربطت مصير الفرد بمجاهدة الأهواء ، ومحاربة الشهوات ، وأقنعت أن لا غنى له عن ترقب الفيض الإلهي في جميع اللحظات ، وراضته على احتقار المغنم الدنيوية .

والإيمان بأن المغنم الحق هو الاتصال بالمبدع الأول الذى وهب الروح لكل موجود ، وصير العالم كتلة من الكهرباء .

٣ — ولناخذ فى شرح المقامات فنذكر أن المقام الأول هو التوبة النصوح وهى ندم بالقلب ، واستغفار باللسان ، وترك بالجوارح ، وإضمار أن لا يعود التائب إلى الذنب (١)

وجملة ما على العبد فى التوبة وما تعلق بها عشر خصال : أولها أن لا يعصى الله تعالى . والثانية أن لا يصّر إذا ابتلى بمعصية . والثالثة التوبة إلى الله تعالى منها . والرابعة الندم على ما فرط منه . والخامسة عقد الاستقامة على الطاعة إلى الموت . والسادسة خوف العقوبة . والسابعة رجاء المغفرة . والثامنة الاعتراف بالذنب . والتاسعة اعتقاد أن الله قدر عليه ذلك وأنه عدل منه . والعاشرة المتابعة بالعمل الصالح ليكفر عما تقدم من السيئات (٢)

وهذه الخصال تشهد بأن الصوفية يرون المرء مجرداً من الحول والقوة ، فهو يذنب بقدر ، ويتوب بقدر ، ومن واجبه أن يؤمن بأن الله كتب عليه الذنب ، وأن ذلك من الله عدل ، ومن واجبه أن يخاف العقوبة ويرجو المغفرة ، وأن ينوى الاستقامة على الطاعة إلى الموت .

وقليل من الانصاف يكفى لإعلان أن هذه اللبحة من أهم الدعائم فى الحياة الخلقية ، فكل تردد فى التوبة هو فى بناء الخلق صدع وانحلال ، وكل صدق فى التوبة هو حجر متين فى تقوية الشخصية الخلقية .

ومن علامة صدق التائب فى توبته أن يستبدل بحلاوة الهوى حلاوة

الطاعة^(١) ولا تصحّ للتائب توبة الا بأكل الحلال ، ولا يقدر على الحلال حتى يؤدي حق الله تعالى في الخلق ، وحق الله تعالى في نفسه . ولا يصحّ له هذا حتى يبرأ من حركته وسكونه الا بالله تعالى وحتى لا يأمن الاستدراج بأعماله الصالحات^(٢)

ومن شرط التوبة أنه ينبغي للتائب المنيب أن يبدأ بمباينة أهل المعاصي ثم بنفسه التي كان يعصى الله تعالى لها فلا ينيلها إلا ما لا بدّ منه ، ثم الاعتراف على أن لا يعود في معصية أبدا ، ويلقى عن الناس مؤوئته ، ويدع كل ما يضطره الى جريرة^(٣)

وينبغي لأهل التوبة أن يحاسبوا نفوسهم في كل طريقة ، ويدعوا كل شهوة ، ويتركوا الفضول ، وهي ستة أشياء : ترك فضول الكلام ، وترك فضول النظر . وترك فضول المشي ، وترك فضول الطعام ، والشراب واللباس^(٤)

ولا تنظر ، أيها التائب ، الى صغر الخطيئة ، ولكن انظر الى من عصيت^(٥) ، فقد كانت الصغائر عند الخائفين كبائر ، وكان من الصحابة من يقول : إنكم لتعملون أعمالا هي أدق في أعينكم من الشعر كنا نعدّها في زمن النبي صلى الله عليه وسلم من الموبقات^(٦) . وليس معنى ذلك أن الكبائر التي كانت على عهد النبي صارت بعده صغائر ، ولكن معناه أنهم كانوا يستعظمون الصغائر لعظمة الله تعالى في قلوبهم ، ولم يكن ذلك الوجدان في قلوب من بعدهم من المؤمنين . واختلف الصوفية في نسيان ما سلف من الذنوب ، فقال بعضهم : حقيقة التوبة أن تنصب ذنبك بين عينيك ، وقال آخر : حقيقة التوبة أن

تنسى ذنبك . وهذان طريقان لطائفتين ، وحالان لأهل مقامين ، فأما ذكر الذنوب فطريق المريدين وحال الخائفين ، وأما نسيان الذنوب فطريق العارفين وحال المحبين (١) .

ونحن نرجح الرأى الثانى ونرى الأخذ به فى جميع الأحوال ، فإن تذكر الذنوب الماضية يشلّ العزيمة ويفتّ فى عضد التائب ، ويخلق جواً جديداً للتعرف إلى ما سلف من الذنوب ، وهو فوق ذلك جهد ضائع وشغل للقلب بما لا يفيد . وإقامة المناحات على الهفوات الماضية علالة سخيقة يتوهم فريق من الناس أنها تزيد فى طهر القلوب ، وهى فى عالم الأخلاق تشبه بعض ما يقع فى عالم القضاء ، فلو كان يصح للقضاة أن يتعقبوا ماضى الناس ليأخذوهم بهفوات قدم عليها العهد لاختل الميزان ، وذهب جمال الحاضر ، وزهد الناس فى فضل المتاب ، فإن الأصل فى التوبة أن تكون حجازاً بين عهدين ، وأن يصبح التائب وكأنه مولود جديد ، ولا ينسى أن اجترار الذكريات الماضية سىء الأثر فى نظام الأعصاب ، وهو خليك بأن ينتهب العافية ويضيع جمال الساعة الحاضرة ، وهى العدة الخلقية فى نظام الأعمال .

ولا يقف الصوفية عند التوبة من الذنوب ، لأنها فى رأيهم توبة العوام بل يدعون إلى التوبة من الغفلة ، وهى عندهم توبة الخواص « فأما لسان أهل المعرفة والواجدين وخصوص الخصوص فى معنى التوبة فهو ما قاله أبو الحسين النورى رحمه الله حين سئل عن التوبة فقال : التوبة أن تتوب من كل شئ سوى الله تعالى ، وإلى هذا أشار الذى أشار بقوله : ذنوب المقربين حسنات

الآبرار ، وهو ذوالنون ، والذي قال أيضاً : رياء العارفين إخلاص المريدين فشتان بين تائب وتائب ، فتائب يتوب من الذنوب والسيئات ، وتائب يتوب من الزلل والغفلات ، وتائب يتوب من رؤية الحسنات والطاعات (١) .

٤ — المقام الثانى مقام الصبر ، وهو مقام شريف ، وقد جعله على بن أبى طالب ركناً من أركان الايمان ، فقال : بنى الاسلام على أربع دعائم : على اليقين والصبر والجهاد والعدل (٢) ، وروى عن النبى أنه قال : من أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر ، ومن أعطى حظه منهما لم ييسال ما فاته من قيام الليل وصيام النهار ، ولأن تصبروا على مثل ما أتم عليه أحب إلى من أن يوافينى كل امرئ منكم بمثل عمل جميعكم ، ولكنى أخاف أن تفتح عليكم الدنيا بعدى فينكر بعضكم بعضاً ، وينكركم أهل السماء عند ذلك ، فمن صبر واحتسب ظفر بكال ثوابه ، ثم قرأ : ما عندكم ينفد وما عند الله باق ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون (٣) ، وكان سهل يقول : أفضل منازل الطاعة الصبر عن المعصية ، ثم الصبر على الطاعة . . . وقال : الصالحون فى المؤمنين قليل ، والصادقون فى الصالحين قليل ، والصابرون فى الصادقين قليل ، فجعل الصبر خاصية للصدق ، وجعل الصابرين خصوص الصادقين (٤) وقد قال بعض العلماء : ما كنا نعد إيمان من لم يؤذ فيحتمل الأذى ويصبر عليه إيماناً (٥) وقد قال الله تعالى فى جزاء المخلصين (أولئك لهم رزق معلوم) وقال تعالى فى جزاء الصابرين (إنهما

(٢) القوت ج ٢ ص ٧٨

(٤) ص ٧٩

(١) اللمع ص ٤٤

(٣) القوت ج ٢ ص ٨٨

يوفي الصابرون أجرهم بغير حساب) قيل في التفسير : يغرف لهم غزافاً ، والمعنى في ذلك أن الصبر أشق على النفس ، وأمر على الطبع ، ويصعب فيه الألم والكظم عند الذل والضميم . ومنه التواضع والسكرت ، وفيه الأدب وحسن الخلق ، وبه يكون كف الأذى عن الخلق ، واحتمال الأذى من الخلق ، وهذه من عزائم الأمور ، التي يضيق منها أكثر الصدور ^(١) .

وللصوفية في الصبر كلام كثير . حدث السراج الطوسي قال : وقف رجل على الشبلى رحمه الله فقال له : أى صبر أشد على الصابرين ؟ فقال : الصبر لله . فقال الرجل : لا ، فقال : الصبر مع الله ، فقال : لا . فغضب الشبلى رحمه الله وقال : ويحك ، فأيش ؟ فقال الرجل : الصبر عن الله عز وجل . فصرخ الشبلى رحمه الله صرخة كادت تتلف روحه ^(٢) قال : وسألت ابن سالم بالبصرة عن الصبر فقال : على ثلاثة أوجه : متصبر وصابر وصبار ، فالمتصبر من صبر في الله تعالى ، فمرة يصبر على المكروه ، ومرة يعجز ، والصابر من يصبر لله وفي الله ، ولا يجزع ، وأما الصبار فذاك الذي صبره في الله والله وبالله ، فهذا لو وقع عليه جميع البلائ لا يعجز ولا يتغير ، من جهة الوجوب والحقيقة ، لا من جهة الرسم والخلقة ^(٣) وكان الشبلى يتمثل بهذه الآيات إذا سئل عن الصبر

عبرات خططن في الخلد مطراً قد قراها من ليس يحسن يقرأ
إن صوت المحب من ألم الشوق ق وخوف الفراق يورث ضرراً
صابر الصبر فاستغاث به الصبر فصاح المحب بالصبر صبراً

(١) الفتوح ج ٢ ص ٩٠ (٢) المع ص ٤٩ (٣) المع ص ٥٠

وعناية الصوفية بالصبر تمثل جانباً هاماً من تصورهم لكرائم الخلال ، فالصبر في جوهره من عناصر الشجاعة في مقاومة الشدائد ، والشدائد قد تكون حسية وقد تكون عقلية . والصبر عنصر أصيل في الحياة الخلقية ويظهر فضله في كل باب من أبواب العيش : فيكون في العبادات ، وفي طلب العلم ، وفي الصناعات ، وفي معاملة الناس ، ويكون في الصحة وفي المرض ، وفي الحب وفي البغض ، وفي النعيم وفي البؤس . ورياضة النفس على الصبر هي ذاتها من مصادر العافية في عالم الأخلاق .

والصوفية يتمثلون الصبر في صور جذابة تفصح عنها الحكاية الآتية :
حكى عن ذى النون أنه قال : دخلت على مريض أعوده ، فبينما كان يكلمنى أن أنة ، فقلت له : ليس بصادق في حبه من لم يصبر على ضربه .
فقال المريض : بل ليس بصادق في حبه من لم يتلذذ بضربه (١)

فالصابر على هذا الوجه يتلقى المكافاة بالقبول ، ويراهها من نعم الله ، وعند التأمل نرى العناية الإلهية تسوق إلينا الشدائد لحكمة عالية ، والجاهل هو الذى يضجر ويحزن ويكتئب ، أما العاقل فيلتبس وجوه الخير فيما يتلبه الله به من الشدائد ، وقد جربنا فرأينا النقم تساق لمنافع مستورة نجعلها كل الجهل ، ثم تظهر رويداً رويداً فنرى الخيرة فيما اختاره الله ، ونندم على ما أسلفنا من الحزن والاكتئاب

إن التخلق بخلق الصبر على هذا الوجه من أهم الدعائم في بناء الأخلاق ، وأقل مزايده أن يورثنا ابتسامة دائمة ندفع بها ما قد نفجع به من آلام

وخطوب . والخلق الصحيح هو الذى يورثك رباطة الجأش حين تشور
الأنواء ، ويمنحك السيطرة على الحوادث ، ويومض لك بهيق الفوز فى حلك
البأساء .

٥ — ويميل أكثر الصوفية إلى تفضيل الصبر على الشكر ، لأن الصبر
حال البلاء ، والشكر حال النعمة ، والبلاء أفضل لأنه على النفس أشق (١)
وعند أكثرهم أن الصابر العارف أفضل من الشاكر العارف ، لأن الصبر
حال الفقر والشكر حال الغنى ، فمن فضل الشكر على الصبر فى المعنى فكأنه
قد فضل الغنى على الفقر . قال المكي : وليس هذا مذهب أحد من القدماء ،
إنما هذه طريقة علماء الدنيا .. فان من فضل الغنى على الفقر فقد فضل الرغبة
على الزهد . والعز على الذل ، والكبر على التواضع . وفى هذا تفضيل الراغبين
والأغنياء على الزاهدين والفقراء ، ويخرج ذلك إلى تفضيل أبناء الدنيا على
أبناء الآخرة . وإنما فضلنا الصبر على الشكر فى الجملة والمعنى لأن الصبر حال
من مقامه البلاء ، وأهل البلاء هم الأمل فالأمل بالأنبياء . ولأن الصبر أبعد
من أهواء النفوس ، وأقرب إلى الضر والبؤس ، وأشد فى مكاره النفوس
وأنفى لطباعها وأشد مباينة لما يلائمها (٢)

وهذا الكلام يمثل اتجاه الصوفية فى أكثر ضروب الحياة ، فالجانب
الأقرب إلى البؤس والخنول هو عندهم أقرب إلى الطاعة والصفاء ، والظاهر
أنهم لم يتنبهوا كل التنبه إلى قيمة الشكر فى الغنى ، ولو فطنوا له لعرفوا أن
الشكر على الغنى يفرض على صاحبه مكاره قد تكون أصعب من الصبر على

البلاء . فالشكر على الغنى ليس كلمة تسهل فتقال ، ولكنه جهاد عنيف يلقي فيه الأغنياء بلايا من حرب النفس ، وليس من القليل أن ينتصر الغنى على نزواته وأهوائه وأطماعه فيؤدى حقوق الجاه وحقوق المال ، ويعيش عيش الأصفياء الذين لا يعرفون غير الحلال

٦ — على أن من الصوفية من فضل الشكر على الصبر ، فقد قال مطرف ابن عبد الله : لأن أعافى فأشكر ، أحب إلى من أن أبتلى فأصبر ، لأن مقام العوافى أقرب إلى السلامة ، فلذلك أختار الشكر على الصبر ، لأن الصبر حال أهل البلاء (١)

وصاحب هذا الكلام يرى العافية من أبواب السلامة ، أى سلامة النفوس ، لأن البلاء قد يعرض النفس للجزع والارتياح ، وتعريض النفس للفتنة غير مأمون العواقب ، أما العافية فتحفظ توازن النفس ، وتجعل الرجل قادراً على صالح الأعمال

والحق أن الإنسان يكابر حين يرحب بالمصائب ، لأنه أسير لنظام الأعصاب فى أكثر الأحيان ، ومن الخير له أن يسأل الله العافية ، وأن يتجنب التعرض للامتحان ، فقد يضعف عن مواجهة ما يشتهى من المصاعب ، ويعرف بعد الانزلاق فى هوة المكروه أن العزيمة قد تفتت أو تخون

وعند التأمل نرى النعم والعوافى تزيد فى الصلة الروحية بين الإنسان وبين ربه ، والفرق بعيد بين الحالين ، حال الطمأنينة وحال الاحتساب ،

فالمطمئن ينظر الى ربه نظرة المدين ، وهى نظرة كلها ترفق وتخشع ، أما الصابر المحتسب فيتعرض للزهو بالصبر على ما يعانى ، والزهو من أشد آفات النفوس (١) .

٧ — وهناك مقام الرجاء . والرجاء هو اسم لقوة الطمع فى الشيء بمنزلة الخوف اسم لقوة الحذر من الشيء ، ولذلك أقام الله تعالى الطمع مقام الرجاء فى التسمية ، وأقام الحذر مقام الخوف ، فقال : يدعون ربهم خوفاً وطمعا (٢) والرجاء من أوصاف المؤمنين ، ولا يصح الايمان إلا به ، كما لا يصح الايمان إلا بالخوف ، فالرجاء بمنزلة أحد جناحي الطائر ، وهو لا يطير إلا بجناحيه ، كذلك لا يؤمن من لا يرجو من آمن به ويخافه ، وهو أيضاً مقام من حسن الظن بالله تعالى وجميل التأمل له ، وقد أوصى به الرسول فقال : لا يموتنَّ أحدكم إلا وهو حسن الظن بالله تعالى لأنه قال : أنا عند ظنِّ عبدى بى ، فليظنَّ بى ماشاء (٣) ومن علامة صحة الرجاء فى العبد أن يكون الخوف باطناً فى رجائه ، لأن من تحقق برجاء شيء خاف فوته لعظم المرجوِّ فى قلبه وشدة اغتباطه به ، فهو لا ينفك فى حال رجائه من خوف فوت الرجاء . والرجاء هو ترويح الخائفين ، ولذلك سمى العرب الرجاء خوفاً ، لأنهما وصفان لا ينفك أحدهما عن الآخر ، ومن مذهبهم اذا كان الشيء لازماً لشيء أو وصفاً له

(١) من كلام القدماء « لا يصبر على مرارة الصبر الا صادق ، ولا يصبر على حلاوة الشكر الا صديق » ومن كلام بعض الصحابة « ابتلينا بالضراء فصبرنا ، وابتلينا بالسراء فلم نصبر » أنظر اليافعى فى هامش جامع الكرامات ج ٢ ص ٣١٤ ومعنى هذا أن السراء بلية ، وانما كانت كذلك لأن شكرها يحتاج الى جهاد .

(٢) القوت ح ٢ ص ١١٨

أو سبياً منه أن يعبروا عنه به ، فقالوا : مالك لا ترجو كذا وهم يريدون مالك لا تخاف (١) .

و للصوفية كلام كثير جداً في الرجاء ، واهتمامهم به هو أيضاً من دعائم الأخلاق ، لأن المذنب الذي لا يرجو ربه في قبول المتاب ينقلب الى قوة يائسة خطيرة لا يرجى لها صلاح ، ولا ينتظر منها نفع ، وانقطاع الصلة بين المرء وبين ربه هو أقصى غايات الفساد . وتخويف المرء من ربه له حدود ، ولا ينبغي أن يصل الخوف الى اليأس : فان التربية التي تقوم على الخوف المطلق تربية فاسدة ، لأنها تطمس أصول النور في القلب ، وتمنع عناصر الخير من النهوض ، ففي كل إنسان عواطف غافية تنتظر لحظات التيقظ والانتباه ، والرياضة الصحيحة هي التي تعنى بإيقاظ ما غفا من عواطف الخير والبر والرشاد .

٨ — ومع أن الصوفية يوصون بالرجاء ، فهم أيضاً يوصون بالخوف ، ويرون أن المحب لا يسقى كأس المحبة الا من بعد أن ينضج الخوف قلبه وكل مؤمن بالله تعالى خائف منه ، ولكن خوفه على قدر قربته (٢) والخوف نوعان : خوف العموم وهو أن يحفظ رأسه وما حواه من السمع والبصر واللسان ، وأن يحفظ بطنه وما وعاه وهو القلب والفرج واليد والرجل ، فأما خوف الخصوص فهو أن لا يجمع ما لا يأكل ، ولا يبنى ما لا يسكن ، ولا يكثر فيما عنه ينتقل ، وهذا هو الزهد (٣)

(١) أنظر بقية هذا الكلام في القوت ج ٢ ص ١٢٠

(٢) ص ١٣٥

(٣) ص ١٣٤

والصوفية يرون الخوف ملاك الحياة الخلقية ، فسر بعضهم هذه الآية « خلق الموت والحياة ليبلوكم » فقال : يبلوكم بتقليب القلوب في حال الحياة بخواطر الذنوب ، وفي حال الموت بالحياد عن التوحيد ، فمن خرجت روحه على التوحيد وجاوزت البلاوى كلها الى الملبى فهو المؤمن ، وذلك هو البلاء الحسن ، كما قال الله تعالى « وليبلى المؤمنين منه بلاءاً وحسناً » فهذه المعانى من العلوم أوجبت خوف الخائفين من علم الله تعالى فيهم ، فلم ينظروا معها الى محاسن أعمالهم ، لحقيقة معرفتهم بربهم (١)

والخوف عند العلماء على غير ما يتصور فى أوهم العامة ، وخلاف ما يعدونه من القلق والاحترق أو الوله والانزعاج ، لأن هذه خطرات وأحوال ومواجيد للوالهين ، وليست من حقيقة العلم فى شىء ، وإنما الخوف اسم لصحيح العلم وصدق المشاهدة ، فان أعطى عبد حقيقة العلم وصدق اليقين سمي هذا خائفاً ، ولذلك كان النبى صلى الله عليه وسلم من أخوف الخلق لأنه كان على حقيقة العلم ، ومن أشدهم حباً لله تعالى لأنه كان فى نهاية القرب (٢) .

وليس لدينا من الأنوار الروحانية ما نستطيع به شرح هذه الإشارة وهى تبدو لنا فى غاية من العمق ، ويكفى أن نقول إنها تقسم الخائفين الى طائفتين : طائفة تخاف العذاب فتقاسى أهوال المخاوف الحسيّة ، وطائفة يكمن خوفها فى حقيقة العلم وصدق اليقين ، ولا يظهر عليها جزع ولا هلع ولا إشفاق .

ويخيل الى أن تفسير هذا الخوف يتمثل في طمأنينة من يعلم فيقف عند الواجب ، ولا يعرض نفسه لزيغ ولا إثم ولا فسوق ، ثم يترقى في خوفه فيتحلى بأشرف ما يتحلى به المقربون ، وعندئذ تنتقل مظاهر الخوف من عالم الجسم إلى عالم الروح ، فتكون للعارف أشجان لا يدركها الا أهل الصفاء .

٩ - ويجيء بعد ذلك مقام الرضا ، والرضا باب الله الأعظم وجنة الدنيا ، وهو أن يكون قلب العبد ساكنًا تحت حكم الله عز وجل^(١)

وأهل الرضا في الرضا على ثلاثة أحوال : فمنهم من يعمل في إسقاط الجزع بحيث يستوى عنده ما يجري عليه من حكم الله ، من المكروه والشدائد والراحات والمنع والعطاء ، ومنهم من يذهب عن رؤية رضائه عن الله برؤية رضا الله عنه ، فلا يثبت لنفسه قدم في الرضا ، وإن استوى عنده الشدة والرخاء والمنع والعطاء ، ومنهم من يجاوز هذا ويذهب عن رؤية رضا الله عنه ورضاه عن الله لما سبق من الله تعالى خلقه من الرضا^(٢) والمتأمل يرى في هذا المقام قاعدة متينة من أصول الأخلاق ، فال تسليم لله من أدب النفس ، وهو يطرد عن القلب نوازع كثيرة يخلقها التفكير في النصيب الحاضر من حظوظ الحياة ، ومن الواضح أن هذا المقام يحتاج الى رياضة شديدة ، لأن الرضا لا يكون الا بعد تطهير القلب من الوسوس النفسية .

وهو بالتأكيد من أسباب الاطمئنان ، والطمأنينة أكبر الغنائم في الحياة الخلقية . وقد يقال إن الرضا المطلق يبعث على البلادة ويعرّي النفس بإيثار الركود ، ونجيب بأنه لا تنافي بين الرضا بالواقع وبين الرغبة في تكميل النفس

(١) المص ٥٣

(٢) المص ٥٤

وإمدادها بما تحتاج اليه من الأغذية الدنيوية والعقلية والروحية .

١٠ — ومن أهم المقامات مقام الزهد « وهو أساس الأحوال الرضية ، والمراتب السنية ، وهو أول قدم القاصدين الى الله عز وجل والمنقطعين الى الله والراضين عن الله والمتوكلين على الله تعالى ، فمن لم يُحكم أساسه في الزهد لم يصح له شئ . مما بعده ، لأن حب الدنيا رأس كل خطيئة ، والزهد في الدنيا رأس كل خير وطاعة (١) » .

والمراد هو الزهد في الحلال الموجود ، وأما الحرام والشبهة فتركه واجب (١) والزهاد على ثلاث طبقات فمنهم المبتدئون وهم الذين خلت أيديهم من الأملاك وخلت قلوبهم مما خلت منه أيديهم ، ومنهم المتحققون في الزهد وهم الذين تركوا حظوظ النفس من جميع ما في الدنيا ، وإنما كان هذا زهد المتحققين لأن الزهد في الدنيا فيه حظ للنفس هو الثناء والمحمدة واتخاذ الجاه عند الناس ، فمن زهد بقلبه في هذه الحظوظ فهو متحقق في زهده ، أما الفرقة الثالثة فهي التي تزهد في الزهد ، ويمثلها قول الشبلى : الزهد غفلة ، لأن الدنيا لا شيء ، والزهد في لا شيء غفلة (٢) .

وقد يبدو لنا هذا القول غريباً أشد الغرابة ، ولكن ما يهمنى ؟ نحن نؤرخ فكرة فلسفية فيها الواضح والغامض ، والمقبول والمردود ، وليس من المستبعد أن تمر بالنفس لحظات تؤمن فيها بأن الخلق كل الخلق أن يعتقد المرء أن الدنيا لا شيء ، ومن التجنى أن نطلق القول بأن هذه النزعة علامة مرض ،

(١) اللع ص ٤٦ (٢) اللع ص ٤٧ وهناك أثر يقول (ازهد في الدنيا يحبك الله ، وازهد فيما عند الناس يحبك الناس)

فقد تكون حيناً من علائم العافية ، ومن العدل أن نقضى بأن الخلق السليم قد يوجب الطمع حيناً ، والزهد حيناً ، يوجب الطمع حين يستطيع المرء أن يوجه منافع دنياه وجهة الخير والشرف ، ويوجب الزهد حين يخشى المرء أن تسير به دنياه إلى مزالق البغى والعدوان

ونشهد صادقين بأننا نحار في تعليل هذه المقامات أشد الحيرة ، ونخاف في أحوال كثيرة من عواقب التجنى على الصوفية ، ففي منافع العيش خير وشرف وجمال ، ولكن فيها أحياناً شرّ وضعة وقبح ، والذي يمشى على صراط الخلق يتذكر الصراط الذي وصفوه بأنه أدق من الشعرة وأحد من السيف

١١ — ويأتى بعد مقام الزهد مقام الفقر ، وهو عند الصوفية مقام شريف ، يؤيدهم فيه قول الرسول : الفقراء زين بالعبد المؤمن من العذار الجيد على خد الفرس^(١) وقد وصفه الخواص فقال : الفقر رداء الشرف ، ولباس المرسلين ، وجلباب الصالحين ، وتاج المتقين ، وزين المؤمنين ، وغنيمة العارفين ، ومنية المريدين ، وحصن المطيعين ، وسجن المذنبين^(١)

والفقراء على ثلاث طبقات : فمنهم من لا يملك شيئاً ولا يطلب بظاهره ولا بباطنه من أحد شيئاً ، ولا ينتظر من أحد شيئاً ، وإن أعطى شيئاً لم يأخذ وهذا مقام المقربين ، ومنهم من لا يملك شيئاً ولا يسأل أحداً ولا يطلب ولا يعرض ، وإن أعطى شيئاً من غير مسألة أخذ ، ومنهم من لا يملك شيئاً وإذا احتاج انبسط إلى بعض إخوانه ممن يعلم أنه يفرح بانبساطه إليه^(١)

ونحن في هذا المقام نواجه شخصية « الدرويش » وهي شخصية بمقتها أشد المقت ، لأنها حرب على الأخلاق ، وتنتهي إلى إثارة الحرب من تكاليف الحياة . فالفقير الأول الذي لا يملك ولا يطلب ولا يقبل ليس إلا صورة خيالية ، والأمعاء لم تخلق عبثاً ، وإنما هي جنود تقوم بوظائف حيوية لا يمتري فيها إلا المكابرون . والفقير الذي لا يملك ولا يطلب ثم يقبل هو من الشخصيات الضعيفة الجول في هذه الحياة ، والفقير الذي لا يملك ثم ينسبط إلى إخوانه حين يحتاج هو إنسان رقيق ، والخير له أن ينسبط إلى العمل والجدّ والسكفاح في ميادين الرزق الحلال

ولا ننكر أن الصوفية استطاعوا تزيين هذه الشخصيات ، فقد قال أبو علي الروزباري : سألتني أبو بكر الدقاق فقال : يا أبا علي ، لم ترك الفقراء أخذ البلغة في وقت الحاجة ؟ فقلت : لأنهم مشغولون بالمعطي عن العطاء ، فقال : نعم ، ولكن وقع لي شيء آخر فقلت : هات أفدني ما وقع لك . فقال : لأنهم قوم لا ينفعهم الوجود إذ الله فاقهم ، ولا تضرهم الفاقة إذ الله وجودهم (١)

وهذا كلام طريف ، ولكن يجب أن تقف طرافته عند هذا الحد فلا تتعداه إلى وضع القواعد الخلقية ، وإلا سادت الفوضى وعمّ الكسل والجمود (٢)

(١) اللمع ص ٤٨

(٢) ومن أدب الفقر ما روى الياقعي بسنده قال : كان عندنا بمكة قتي عليه أطمار رثة ، وكان لا يداخلنا ولا يجالسنا ، فوقعته محبته في قلبي ، ففتحت لي بمائتي درهم من وجهه حلال فحملتها إليه ووضعتها على طرف سجادته . وقلت لأنه فتح لي ذلك من وجهه حلال تصرفه في =

١٢ — ومن المقامات الشريفة مقام الورع ، وهو ملاك الدين ، ومن الصوفية من يتورع عن الشبهات ، وهى ما بين الحرام البين والحلال البين وما لا يقع عليه اسم حلال مطلق ولا اسم حرام مطلق فيكون بين ذلك (١) ومنهم من يتورع عما يقف عنه قلبه ويحيك فى صدره ، وهذا لا يعرفه إلا أرباب القلوب ، وهناك ورع العارفين والواجدين ، وهم الذين يرون أن كل ما يشغلك عن الله فهو مشؤم عليك (٢)

ومن أشرف ما قيل فى الورع قول أبى سعيد الخراز : الورع أن تتبرا من مظالم الخلق ومن مثاقيل الذرحتى لا يكون لاحدهم قبلك مظلمة ولا دعوى ولا طلب (٣)

وهذا رأى سديد ، فنحن فى الأغلب ننسى حقوق الناس ، وهى كثيرة جداً ، يتصل بعضها بالسلوك ، وبعضها بالمعاش ، ولا يستطيع تحقيق الورع على هذا الوجه إلا الأقلون

١٣ — ومن شريف الأحوال المراقبة ، وأشرف أحوال المراقبة أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك (٤) ، أو أن تراقب الله وتسأله أن يراك ، فإنه لا يكل خاصته فى جميع أحوالهم إلى نفوسهم ، ولا إلى أحد (٥) وقال ابن عطاء لبعض حكماء خراسان ممن قد ولع بالجهل

== بعض امورك، فنظر الى شزراً ثم قال: اشتريت هذه الجلسة مع الله سبعجانه على الفراغ بسبعين ألف دينار غير الضياع والمستغلات وتريد أن تخدعنى عنها بهذه ؟ وقام وبددها ، وقعت ألتقطها ، فما رأيت كعزه حين مر ، ولا كذلى حين كنت ألتقطها (أنظر نشر المحاسن الغالية ج ٢ ص ٣١٧)

وقارن التقشف : أو ما علت أن ما تقارن بيدك أقذار في جنب ما تطالع
بقلبك ، وما تطالعه بقلبك هباء في جنب ما تراقب في شرك ؟ فراقب الله في
شرك وعلايتك فإنه خير مما تقارن من عملك وعبادتك

١٤ — وقد ينشأ عن المراقبة حال القرب وحال الحب ، أما القرب
فسيبله الطاعة وصدق العبودية ، كما قيل :

تحققتك في السرِّ فناجاك لسانى
فاجتمعنا لمعان وافترقنا لمعان
إن يكن غيبك العظيم عن لحظ عيانى
فلقد صيرك الوجود من الأحشاء داني

وأما المحبة فسيبلها الأنس بالنعم الإلهية ، والمحبون دلي ثلاثة أحوال ،
فالحال الأول محبة العامة ، ويتولد ذلك من إحسان الله تعالى إليهم ، وعطفه
عليهم ، وشرط هذا الحال صفاء الود مع دوام الذكر ، وموافقة القلوب لله
وبذل المجهود ، والمبالغة في الثناء على المحبوب . والحال الثانى يتولد من نظر
القلب إلى جلال الله وعظمته وعلمه وقدرته ، وهو حب الصادقين ، وشرطه
هتك الأستار ، وكشف الأسرار ، ومحو الإرادات . وأما الحال الثالث فهو
محبة الصديقين والعارفين ، وهى تتولد من نظرهم ومعرفتهم بقديم حب الله
تعالى بلا علة ، فيحبونه كذلك بلا علة . وقد سئل ذوالنون فقيـل له : ما المحبة
الصافية التى لا كدرة فيها ؟ فأجاب : حب الله الصافى الذى لا كدرة فيه
سقوط المحبة عن القلب والجوارح حتى لا تكون فيها المحبة ، وتكون الأشياء
بالله والله ، فذلك المحب لله

وحب الله من أهم القواعد في بناء الأخلاق ، وهو يحوّلنا إلى أرواح لطيفة لا يصدر عنها شرٌّ ولا عدوان ، وقد يصل بنا إلى حب كل شيء في الوجود ، حين تتمثل العالم كله من صنع المحبوب . وهذا بالطبع لا يتيسر إلا حين يغلب علينا الصفاء ، فنسى البغض والحقد والانتقام والحسد ، وسائر الدسائس الصغيرة التي تفسد جمال الحياة ، وتصير الأحياء أشقياء .

والصوفية يشترطون في الحب أن يتصل بأدب النفس ، فمن المحبة الاستراحة إلى علم الله وحده بحال المحب ، وإخلاص المعاملة لوجهه ، وحسن الأدب فيها وهو الاخفاء لها ، وكتم ما يحكم به من الضيق والشدائد ، وإظهار ما ينعم به من الألفاف والقوائد ، وكثرة التفسر في نعمائه وخفيّ أطفافه وغرائب صنعه وعجائب قدرته ، وحسن الشاء عليه في كل حال ، والصبر على بلائه ، لأن المحب قد صار من أهله وأوليائه . والمحبوب قد يعنف بأحبابه لتمسكه منهم ومكانتهم عنده ، لعلبه أنهم لا يريدون به بدلا ، ولا يبعون عنه حولا : إذ ليست لهم راحة لسواه ، ولا بغية في سواه ، ولا همّ لهم إلا فيه ، كما قال بعض المحبين : ويل منك ، وويل عنك ، أفزع منك وأشتاق اليك ، إن طلبتك أتعبتني ، وإن هربت منك طلبتني ، فليس لي معك راحة ، ولا لي في غيرك استراحة (١)

وكانت رابعة العدوية من المحبين ، سأها النورى فقال : لكل عبد شريطة ولكل إيمان حقيقة ، فما حقيقة إيمانك ؟ فقالت ما عبدت الله خوفا من الله فأكون كالأمة السوء إن خافت عملت ، ولا حبّا للجنة فأكون كأمة السوء

إن أُعطيت عملت ، ولكنى عبده حبا له وشوقا إليه (١) وخطبها محمد بن سليمان أمير البصرة على مئة ألف وقال : لى غلة عشرة آلاف فى كل شهر أدفعها اليك ، فكتبت إليه : ما يسرنى أنك لى عبد وأن كل ما تملكه لى وأنك شغلتنى عن الله طرفة عين (٢)

ولها أبيات فى معنى المحبة رواها كبار الرجال من القوم :

أحبك حبين حبّ الهوى وحباً لأنك أهلٌ لذا
فأما الذى هو حبُّ الهوى فشغلى بذكرك عن سواكا
وأما الذى أنت أهلٌ له فكشفك للحجب حتى أراكا
فلا الحمد فى ذا ولا ذاك لى ولكن لك الحمد فى ذا وذاكا

ولننظر شرح المسكى لهذه الآيات : لأنه يصور فهم الصوفية للحب ، وهو يستكثر أن يدركه من لا ذوق له ولا قدم له فيه ، ويقول فى معنى حب الهوى « إنى رأيتك فأحببتك عن مشاهدة عين اليقين ، لا عن خبر وسمع وتصديق من طريق النعم والاحسان فتختلف محبتي إذا تغيرت الأفعال لا اختلاف ذلك على ، ولكن محبتي من طريق العيان فقربت منك ، وهربت إليك ، واشتغلت بك وانقطعت عن سواك ، وقد كانت لى قبل ذلك أهواء متفرقة فلما رأيتك اجتمعت كلها فصرت أنت كلية القلب وجملة المحبة فأنسيتهنى ما سواك ، ثم إنى مع ذلك لا أستحق على هذا الحب ولا أستأهل أن أنظر اليك فى الآخرة على الكشف والعيان فى محل الرضوان ، لأن حبي لك لا يوجب عليك جزاء عليه ، بل يوجب على فى كل شىء لك

كل شيء مما لا أطيعه ، ولا أقوم بحقق فيه أبداً ، إذ كنت قد أحبتك فلزمى خوف التقصير ووجب على الحياء من قلة الوفاء ، فتفضلت على بفضل كرمك ، وما أنت له أهل من تفضلك ، فأريتني وجهك عندك آخراً كما أريتني اليوم عندي أولاً ، فلك الحمد على ما تفضلت به في ذا عندي في الدنيا ولك الحمد على ما تفضلت به في ذاك عندي في الآخرة ، ولا حمد لي في ذا ههنا ولا حمد لي في ذاك هناك ، إذ كنت إنما وصلت إليهما بك ، فأنت المحمود فيهما لأنك وصلتني بهما (١) .

وهذا التفسير يدل على أن الصوفية لا يقفون في فهم الحب عند المعاني الفطرية ، ولكنهم يتوغلون فيعللون ويحللون ويصبغون الحب بصبغة الفكر والعقل ، فهم ينظرون الى الحب نظرة فلسفية ويضيفونه إلى دقائق المشكلات العقلية .

١٥ — ويتصل بحال الحب حال الشوق ، وقد روى عنه عليه السلام أنه كان يقول في دعائه : أسألك لذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك . ولذة النظر إلى وجه الله تعالى في الآخرة ، والشوق إلى لقائه في الدنيا (٢) وسئل بعضهم عن الشوق فقال : هيمان القلب عند ذكر المحبوب ، وقال آخر : الشوق نار الله تعالى أشعلها في قلوب أوليائه حتى يحرق بها ما في قلوبهم من الخواطر والارادات والعوارض والحاجات (٣) وأهل الشوق في الشوق على ثلاثة أحوال : فمنهم من اشتاق الى ما وعد الله تعالى لأوليائه من الثواب والكرامة والفضل والرضوان ، ومنهم من اشتاق إلى محبوبه من شدة محبته ،

وثرمه ببقائه شوقاً إلى لقائه ، ومنهم من شاهد في قرب سيده أنه حاضر لا يغيب ، فتتعم قلبه بذكره وقال إنما يشفق إلى غائب وهو حاضر لا يغيب ، فذهب بالشوق عن رؤية الشوق فهو مشتاق بلا شوق ، ودلائله تصفه عند أهله بالشوق وهو لا يصف نفسه بالشوق^(١)

وهذا نظر دقيق ، ففوة الحب تذهل المحب عن إدراك حال الشوق ، لأن التفكير في المحبوب ليس إلا من أحوال أهل البدايات في الحب ، فإذا امتزجت الأرواح نسي الحب ونسى الشوق .

١٦ — أما حال الأنس فلا يمكن التعبير عنه بأكثر من قول الطوسي : معنى الأنس بالله الاعتماد عليه والسكون إليه والاستعانة به^(١) ومن شواهد ما روى أن مطرف بن عبد الله كتب إلى عمر بن عبد العزيز

« ليكن أنسك بالله ، وانقطاعك إليه ، فإن لله تعالى عباداً استأنسوا بالله فكانوا في وحدتهم أشد استئناساً من الناس في كثرتهم ، وأوحش ما يكون الناس آنس ما يكونون ، وآنس ما يكون الناس أوحش ما يكونون^(٢) » وأهل الأنس في الأنس على ثلاثة أحوال ، فمنهم من أنس بالذكر واستوحش من الغفلة ، وأنس بالطاعة واستوحش من الذنب . ويفسر هذا قول سهل بن عبد الله : أول الأنس من العبد أن تأنس النفس والجوارح بالعقل ، ويأنس العقل والنفس بعلم الشرع ، ويأنس العقل والنفس والجوارح بالعمل لله خالصاً فيأنس العبد بالله ، أي يسكن إليه^(٢) والحال الثاني أن يأنس العبد بالله ويستوحش مما سواه من العوارض والخواطر الشاغلة ،

ويفسره قول ذى النون وقد قيل له : ما علامة الأنس بالله ؟ فقال : إذا رأيته يؤنسك بخلقه فانه هو ذا يؤحشك من نفسه ، وإذا رأيته يؤحشك من خلقه فهو ذا يؤنسك بنفسه^(١) والحال الثالث هو الذهاب عن رؤية الأنس بوجود الهيبة والقرب والتعظيم مع الأنس . وسئل الشبلى عن الأنس فقال : وحشتك منك ومن نفسك ومن الكون^(٢)

١٧ — والأنس بالله يقتضى الطمأنينة ، وهى ضروب : طمأنينة العوامّ الذين إذا ذكروا ربهم اطمأنوا إلى ذكرهم له ، فحظهم منه الاجابة للدعوات باتساع الرزق ودفع الآفات ، وطمأنينة الخواص الذين يرضون بقضاء الله ويصبرون على بلائه ، وطمأنينة خواصّ الخواصّ وهم الذين علموا أن سرائرهم لا تقدر أن تطمئن إليه هيبة وتعظيماً ، لأنه ليس له غاية تدرك وليس وليس كمثل شىء^(٣)

١٨ — والطمأنينة تقتضى المشاهدة ، وهى وصل بين رؤية القلوب ورؤية العيان ، وتتمثل فى مشاهدة الأشياء بأعين الفكر ، وأشرف أحوالها أن تشاهد قلوب العارفين مشاهدة تشييت فيكونوا حاضرين غائبين وغائبين حاضرين على انفراد الحق فى الغيبة والحضور ، فيشاهدوه ظاهراً وباطناً وآخرأ وأولاً^(٤)

١٩ — والمشاهدة تقتضى حال اليقين ، واليقين هو ارتفاع الشك ، وليس لزياداته نهاية ، وكلما تفقه المريدون فى الدين ازدادوا يقيناً إلى

يقين ، ونهاية اليقين تحقيق التصديق بالغيب بإزالة كل شك وريب . (١)

٢٠ — إلى هنا عرف القارئ صوراً من المقامات والأحوال ، ورأى كيف تمثل هذه النوازع فهم الصوفية للحياة الخلقية . ولنقرر أننا اعتمدنا في هذا البحث على كتاب اللمع وكتاب قوت القلوب ، وبين هذين الكتابين تفاوت قليل في فهم المقامات والأحوال ، فما يكون حالاً عند هذا قد يكون مقاماً عند ذاك .

أما تقسيم بعض المقامات أو الأحوال إلى درجات ثلاث فهو من صنع الطوسي في اللمع ، ومن واجبتنا أن ننبه القارئ إلى أن هذا التقسيم لا يعدو حدود التقريب ، فالنفس قد يكون لها في الحال الواحد مئات من الأشكال وقد يتقلب القلب في اللحظة الواحدة إلى ضروب مختلفة من الأنس واليقين ، وتلك وثبات روحية لا يعلم تصرفها غير علام الغيوب

٢١ — ولنشر في ختام هذا الفصل إلى رأى الميسيو ماسينيون في مقامات العشق ، وهو يرى أن العشاق نقلوا أحوال الحب عن الصوفية ، ومن أمثلة ذلك قول محمد بن داود : « إن الأحوال التي تتولد عن السماع والنظر مختلفة ولها مراتب : فأول ما يتولد عن النظر والسماع الاستحسان ، ثم يقوى فيصير مودة ، والمودة سبب الإرادة ، فمن ودَّ إنساناً ودَّ أن يكون له خلاً ، ومن ودَّ غرضاً ودَّ أن يكون له ملكاً . ثم تقوى المودة فتصير محبة ، ثم تقوى المحبة فتصير خُلَّة ، ثم تقوى الخلَّة فتوجب الهوى ، ثم يقوى الهوى فتصير عشقاً ، ثم يزداد العشق فيصير تتيماً ، ثم يزداد التتيم فيصير ولها . والشوق

تابع لكل واحدة من هذه الأحوال ، والمستحسن يشترك إلى ما يستحسنه على قدر محله من نفسه ، ثم كلما قويت الحال قوى معها الاشتياق^(١)»

والواقع أن الحب الذى يفهمه ابن داود هو ذاته نزعة صوفية ، فقد وقف عند قول أبى الشيص

وقف الهوى بى حيث أنت فليس لى متأخر عنه ولا متقدم
أجد الملامة فى هواك لذينة حباً لذكرك فليلنى اللوم
أشبهت أعدائى فصرت أحبهم إذ كان حظى منك حظى منهم
وأهنتى فأهنت نفسى جاهداً ما من يهون عليك بمن أكرم

ثم قال : ولو لم يقل أبو الشيص فى عمره بل لو لم يقل أحد من أهل عصره غير هذه الآيات لكانوا غير مقصّرين ، وإذا كانت كل خواطر العاشق فيما يتمناه واقعة بمن يهواه على الأمر الذى يرضاه فهذه هى المشاكلة الطبيعية التى لا يفنيها مرّ الزمان ، ولا تزول إلا بزوال الانسان ، وإذا صح هذا المذهب لم يعجب من أن يميل الانسان إلى الانسان بخلة أو خلتين ، فإذا زالت العلة زال الهوى ، فلا يزال الم رابط متقللاً إلى أن يصادف من يجتمع فيه هواه فحينئذ يرضاه فلا ينعطف عنه إلى أحد سواه

وليس من المستبعد أن يكون الصوفية هم الذين أخذوا المقامات والأحوال عن المحبين ، فالحب الحسى يقع أولاً ، ويحىء الحب الروحى ثم الالهى ثانياً . والعرب حين قالوا (تيم اللات) أو (تيم الله) إنما نقلوا التيم من المحسوس

(١) لخصنا هذا من كتاب الزهرة ص ١٩ — ٢١

إلى المعقول ، فشبهوا الحب الروحي بالحب الحسى ، لأن المحسوس أقوى فى
الظهور من المعقول .

وقد ظل الحب الحسى مقياساً للصدق ، حتى صح لأحدهم أن يقول
تعصى الاله وأنت تظهر حبه هذا لعمرى فى القياس بديع
لو كان حبك صادقاً لأطعته إن المحب لمن يحب مطيع

التجريد والسبب

ما هو التجريد وما هو التسبب — الأغراض التي يطلب من أجلها المال — هل التجريد والمنسبب في رتبة واحدة — آداب التجريد — آداب التسبب — الادخار — رأى الغزالي في المال — الدعوة الى الفقر — خطر هذه الدعوة — هجوم على الصوفية — بعض ما يجلب المال من هوان النفوس .

١ — رأينا عند الصوفية مقامات الفقر والورع والزهد . ولكن لا بد من النص على آرائهم في الفقر والغنى ، لأن ذلك صلة وثيقة بمذاهبهم الاخلاقية في طرائق المعاش . ونسادر فنذكر أن التصوف يسمى الفقر ، والصوفية يسمون الفقراء . وهذا وحده كاف لتعيين مسالكهم في الحياة

والانقطاع بالكلية إلى الله يسمى التجريد ، وطلب الرزق يسمى التسبب ، وهذه الكلمة الثانية لا تزال حية ، والعوام في مصر يقولون (رجل متسبب) وربما سموا ما يتجرون به سبياً ، وقد يقولون فيمن يبحث عن الرزق : أخذ في الاسباب

٢ — والصوفية لا يؤثرون الفقر لذاته ، وإنما يؤثرونه لما فيه من صرف النفس عن الشواغل الدنيوية التي تبعد المرء من الله . وهم حين يدعون إلى جمع المال ينصون على أنه لا يطلب لذاته ، وإنما يطلب للأغراض الآتية :

الاول — أن ينفقه المراء على نفسه : إما فى عبادة أو فى الاستعانة على عبادة ، أما فى العبادة فهو كالأستعانة به على الحج والجهاد ، وأما فيما يقوِّيه على العبادة فذلك هو المطعم والملبس والمسكن ، وما إلى ذلك من ضرورات العيش ، لأن هذه الشؤون إذا لم تتيسر كان القلب مصروفًا إلى تدبيرها فلا يتفرغ للدين

الثانى — ما يصرفه فى الصدقة والمروءة ووقاية العرض وأجرة الأستخدام . ومن وقاية العرض فى رأيهم بذل المال لدفع هجو الشعراء وثلب السفهاء ، وقطع ألسنتهم ودفع شرهم ^(١) وفى وقاية العرض صرف الناس عن رذيلة الاغتياى ، وليس من الإسراف أن يكون للرجل خدم : لأن قيامه بجميع شؤونه قد يعطل عليه أوقاته فلا يتفرغ لعبادة الله على الوجه المقبول

الثالث — ما ينفقه للخير العام كبناء المساجد والملاجئ والمستشفيات ^(٢) تلك فضائل المال من الوجهة الدينية ، ولا بأس بأن يحمى المتصوف ما فى المال من الحظوظ الدنيوية : كالخلاص من ذل السؤال وحقارة الفقر والوصول إلى العز والمجد بين الخلق وكثرة الاخوان والأعوان والأصدقاء والوقار والكرامة فى القلوب ^(٣)

وفى تحرير ذلك يقول ابن عطاء الله : إعلم أن الأشياء انما تدم وتمح

(١) لم تكن عندهم جرائم ولا مجلات

(٢) الملاجئ فى التعابير القديمة كانت تسمى الخوانق أو الرباطات . والمستشفيات كانت

تسمى دور المرضى أو البيمارستانات

(٣) انظر الأحياء ج ٣ ص ٢٣٧ و٢٣٨

بما تؤدي إليه : فالتدبير المذموم ما شغلك عن الله ، وعطلك عن القيام بخدمة الله ، وصدك عن معاملة الله . والتدبير المحمود هو ما ليس كذلك مما يؤديك إلى القرب من الله ، ويوصلك إلى مرضاة الله . وكذلك الدنيا ليست تدم بلسان الاطلاق ولا تمدح كذلك ، وانما المذموم منها ما شغلك عن مولاك ، ومنعك الاستعداد لأخراك (١)

٣ — وليس معنى هذا أن المتسبب والمتجرد في رتبة واحدة . لا . ليس الأمر كذلك ، ولن يجعل الله من تفرغ لعبادته وشغل أوقاته به كالأدخل في الأسباب ، ولو كان فيها متقيا ، فالمتسبب والمتجرد إذا استوى مقامهما من حيث المعرفة بالله فالمتجرد أفضل

ذلك كلام ابن عطاء الله في (التنوير) (٢) وهو في (الحكم) يدعو المرید إلى أن يقيم حيث أقامه الله (٣) ولا تناقض بين الفكرتين ، لأنه مع استواء التجرد والتسبب يرى قيام المتجرد أعلى وأكمل

ونحن لا نرتضى هذا الرأي ، ولكن من نحن ؟ نحن نرى التسبب فرصة ذهبية ، لأنه يعرض النفس للحن ويروضها على البلاء . ولا تعرف قيمة الخلق إلا عند الاتصال بالناس ، والأدب مع الناس موصول الأواصر بالأدب مع الله ، لأننا لا نحب العدل والانصاف إلا لتخلق بأخلاق الله ، ولا نبغض الجور والظلم والعسف إلا ابتغاء مرضاة الله ، والمتجرد لا يتعرض لشيء من ذلك ، هو رجل خلت دنياه من أسباب الشقاق والنزاع منذ سلمت نفسه

(١) التنوير ص ٣٣

(٢) ص ٣٤

(٣) انظر شرح الرندی ج ١ ص ٤

من بلايا الأحذ والعطاء . ويمكن الفصل في هذه القضية بأن نفضل التجرد حين نخشى على أنفسنا الضعف عن رعاية الحقوق ، ونفضل التسبب حين نرى في عزائنا من القوة والصلابة ما ندوس به على المطامع الدنيئة التي تستهوى من يطلبون الأرزاق

٤ — ولكن ما هو التجرد المحمود ؟ وما هو التسبب المحمود ؟

لقد وضع ابن عطاء الله في ذلك رسالة طريفة سماها التنوير في إسقاط التدبير ، وهي رسالة ممتعة من الوجهة الأدبية والصوفية ، لأنها حوت فقرات كثيرة مما أنشأ الصوفية في الدعوة إلى التخلص بكرائم الخلال

وإليك خلاصة ما وضعه لأداب التجرد

الاول — عليك بسابق تدبير الله فيك ، وذلك أن تعلم أن الله كان لك قبل أن تكون لنفسك ، فكما كان لك مدبراً قبل أن تكون ولا شيء من تدبيرك معه ، كذلك هو سبحانه مدبر لك بعد وجودك ، فكن له كما كنت له يكن لك كما كان لك

الثاني — أن تعلم أن التدبير منك لنفسك جهل منك بحسن النظر لها
الثالث — عليك بأن القدر لا يجرى على حسب تدبيرك . بل أكثر ما يكون ما لا تدبر ، وأقل ما يكون ما أنت له مدبر .

الرابع — عليك بأن الله تعالى هو المتولى لتدبير مملكته : علوها وسفلها ، غيبها وشهادتها . وكما سلمت له تدبيره في عرشه ، وكرسيه ، وسماواته ، وأرضه ، فسلم له تدبيره في وجودك إلى هذه العوالم

الخامس — عليك بأنك ملك لله ، وليس لك تدبير ما هو لغيرك . فما ليس لك ملكه ليس لك تدبيره .

السادس — عليك بأنك في ضيافة الله ، لأن الدنيا دار الله ، وأنت نازل فيها عليه ، ومن حق الضيف أن لا يعول همًّا مع رب المنزل

السابع — نظر العبد إلى قيومية الله تعالى في كل شيء ، فاذا علم العبد قيومية ربه وقيامه عليه ، ألقى قياده اليه ، وانطرح بالاستسلام بين يديه .

الثامن — اشتغال العبد بوظائف العبودية ، فاذا توجهت همته إلى رعاية عبوديته شغله ذلك عن التدبير لنفسه

التاسع — أن تعلم أنك عبد مربوب ، وحق العبد أن لا يعول همًّا مع سيده مع اتصافه بالافضال وعدم الاهمال ، فان روح مقام العبودية الثقة بالله والاستسلام إلى الله

العاشر — عدم عليك بعواقب الأمور ، فربما دبرت أمراً ظننت أنه لك فكان عليك ، وربما أتت الفوائد من وجوه الشدائد ، والشدائد من وجوه الفوائد ، والاضرار من وجوه المسار ، والمسار من وجوه الاضرار وربما كمنت المنن في المحن ، والمحن في المنن ، وربما انتفعت على أيدي الاعداء وأرديت على أيدي الأحياب (١)

ه — أما المتسبب فتجب عليه مراعاة الآداب الآتية :

الأول — ربط العزم مع الله قبل الخروج من المنزل على العفو عن المسيئين إليه ، إذ الأسواق محل المخاصمة والمقاولة ، فيكون كأبى ضمضم الذى كان إذا خرج من بيته قال : اللهم إني تصدقت بعرضى على المسلمين

الثانى — أن يتوضأ ويصلى قبل خروجه ويسأل الله السلامة فى مخرجه ذلك فانه لا يدرى ماذا يقضى عليه

الثالث — ينبغى له إذا خرج من منزله أن يستودع الله أهله ومسكنه وما فيه ، فانه قادر على أن يحفظ ذلك عليه

الرابع — يستحب له إذا خرج من منزله أن يقول : باسم الله توكلت على الله ، لا حول ولا قوة إلا بالله . فان ذلك يؤس منه الشيطان

الخامس — الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وليجعل ذلك شكراً لنعمة القوة والتقوى ، اللتين وهبهما المولى له ، فمن أمكنه الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، بحيث لا يصل إليه أذى فى نفسه ، أو عرضه ، أو ماله ، فهو بمن مكن له فى الارض ، والوجوب متعلق به ، وإن كان لا يصل إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إلا بالأذى سقط عنه الوجوب .

السادس — أن يكون مشيه بالسكينة والوقار . لقوله تعالى : « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً ، وليس ذلك خاصاً بالمشى ، بل المطلوب منك أن تكون أفعالك كلها تقارنها بالسكينة ويلازمها الثبوت .

السابع — أن يذكر الله تعالى فى سوقه ، فانه قد جاء عنه عليه السلام :

ذاكر الله في الغافلين كالمقاتل بين الفارين ^(١) ، ذاكر الله في السوق كالحي بين الموتى .

الثامن — ألاّ يشغله ما هو فيه من المباينة عن النهوض إلى الصلاة في أوقاتها جماعة ، لأنه إذا ضيعها اشتغالا بسببه ، استوجب المقت من ربه ، ورفع البركة من كسبه

التاسع — ترك الحلف والاطراء لسلعته ، فقد قال عليه السلام : التجار هم الفجار إلا من برو صدق

العاشر — كيف لسانه عن الغيبة والنميمة ، وليعلم أن السامع للغيبة أحد المغتابين ، فإن اغتیب أحد بحضرته فلينسكرك عليه ، فإن لم يسمع منه فليقم ، ولا يمنع الحياء من الخلق من القيام بحق الملك الحق ^(٢)

ثم قال ابن عطاء الله : وعليك أيها المؤمن بغض طرفك من حين خروجك إلى سبيلك إلى حين ترجع ، ولتذكر قول الله تعالى (قل للؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم) وليعلم أن بصره نعمة من الله عليه ، فلا يكن لنعم الله كفورا ، وأمانة من الله عنده فلا يكن لها خائناً ^(٣)

٦ — وابن عطاء الله لا يرى التسبب مما ينافي التوكل ، ويقول في ذلك : انظر إلى قوله صلى الله عليه وسلم (لو توكلتم على الله حق توكله ، لرزقكم كما يرزق

(١) في الأصل « الغازين » وهو تحريف (٢) راجع التنوير ص ٣٤ — ٣٦

(٣) انظر التنوير ص ٣٧

الطير ، تغدو خماصاً وتروح بطاناً) تراه يدل على الأمر بالتوكل على الله تعالى لا على نفي الأسباب ، بل يدل على إثباتها لقوله عليه السلام « تغدو خماصاً وتروح بطاناً » فقد أثبت لها غدوها ورواحها ، وهو سببها ، ونفى عنها الادخار (١).

٧ — وابن عطاء الله لا ينكر الادخار في جميع الأحوال ، وإنما ينكر ما يقع منه بخلا واستكثاراً ، ومباهاة وافتخاراً ، وهو يقبل ادخار المقتصدين وهم الذين لم يدخروا استكثاراً ولا مباهاة ولا افتخاراً ، وإنما علموا من نفوسهم الاضطراب عند الفقر فعملوا أنهم إن لم يدخروا تشوش عليهم إيمانهم ، وتزلزل إيقانهم ، فادخروا لضعفهم عن حال المتوكلين ، وعلماً منهم بعجزهم عن مقام اليقين . وهناك طبقة ثالثة ، هم السابقون ، وادخارهم ليس لأنفسهم ، ولسكنه ادخار أمانة ، فإن أمسكوا الدنيا أمسكوها . ق ، وإن بذلوها بذلوها بحق ، وليس الممسك لها بحق بدون البذل لها بحق (١)

٨ — والغزالي يرى المال كالحية : يأخذها الراقى ويستخرج منها الترياق ويأخذها الغافل فيقتله سمها من حيث لا يدري ، ولا ينجو أحد من سم المال إلا بالمحافظة على خمس وظائف :

الأولى — أن يعرف المقصود من المال : فلا يحفظ منه إلا قدر الحاجة ولا يعطيه من همته فوق ما يستحقه .

الثانية — أن يراعى جهة دخل المال فيجتنب الحرام المحض وما يغلب

عليه الحرام كأموال الحكام الظالمين ، ويحتجب الجهات المكروهة التي تقدرح في المروءة : كالهدايا التي فيها شوائب الرشوة ، وكالسؤال الذي فيه الذلة وهتك المروءة .

الثالثة — أن يراعى في كسبه مقدار حاجته في الملبس والمسكن والمطعم

الرابعة — أن يقتصد في الانفاق غير مقتر ولا مبذر

الخامسة — أن يصلح نيته في الأخذ والترك ، والانفاق والامساك ، لأن حسن النية هو الأساس (١)

٩ — إلى هنا رأنا القارئ نحتال في صياغة هذا الفصل ، وإنما كان الأمر كذلك لأننا أردنا أن نُنطِيق الصوفية بالدعوة إلى المال والادخار . والحق أنهم غرباء في هذا الميدان ، فالتصوف الاسلامي هو في حقيقته ظل من ظلال المسيحية ، هو هربٌ مطلق من الدنيا ومن الجاه ومن المال ، ولا يدعو إلى الغنى إلا طبقة ضئيلة من الصوفية ، ومن أجل هذا كان خطرهم شديداً على الأخلاق ... الصوفية جنوا على المسلمين أبشع جناية حين حببوا اليهم الزهد وبغضوا اليهم المال ، الصوفية هم الذين جعلوا المسلمين آخر الشعوب ، وهم الذين قضوا عليهم بالاستعباد ، وهم الذين أوردوهم موارد الذل والضميم والهوان .

إن أول صوفي تعمق في البحث عن عيوب النفس وآفات الأعمال وأغوار العبادات هو الحارث المحاسبي (٢) وهذا الرجل — الذي كان قدوة

(٢) أنظر الأحياء ج ٣ ص ٢٦٥

(١) الأحياء ج ٣ ص ٢٦٤

لجميع الصوفية — كان من أعداء المال ، ولم تكن عداوته للمال عداوة هينة
لأنه ضرب على الوتر الحساس حين ذكر المسلمين بفقر الرسول ، وهو يتخذ
من فقر النبي حجة على شر الغنى وإضراره بخير الدنيا والدين .

وكان الحارث المحاسبي رجلاً قوى المنطق زلق اللسان ، وكان من أهل
البصر بمكامن الضعف في النفوس ، وقد مكنت له مواهبه الأدبية والدوقية
من نواصي الناس ، فاندفع يذم المال ذمّاً بليغاً لم يصل إلى سماع ولا قلب إلا
حوّل صاحبه إلى زاهد أوّاب

رأى المحاسبي أن جماعة من العلماء احتجوا للغنى بما كان من أمر عبد الرحمن
ابن عوف ، وعبد الرحمن هذا كان من صحابة الرسول ، وكانت أمواله
ومتاجره مضرب الأمثال ، وقد شهد له النبي بالخير ورجا له حسن المآب
وكان غنى ابن عوف خليقاً بأن يحبب المسلمين في الغنى ويبين لهم أن كثرة
المال لا تنافي الدين ، فاندفع المحاسبي يبذل هذه الشبهة ويبين أن ابن عوف لن
يدخل الجنة بالرفق الذي يدخل به الصعاليك ، وإنما يدخل في هيبة وحذر
كما يدخل المريب .

ونظرية المحاسبي تقوم على أساس خطر ، فهو يرى الدنيا غير الدنيا
والناس غير الناس ، فان تشبهتم بالصحابه فأتمم مخطئون « فقد كانوا فيما أحل
لهم أزهد منكم فيما حرّم عليكم ، والذي لا بأس به عندهم كان من الموبقات
عندهم ^(١) » وليس لكم أن تطمعوا في الحلال ، لأنكم لن تجدوه في دهركم

كما وجدوه في دهرهم ، ولن تحتاطوا في طاب الحلال كما احتاطوا ، ولنفرض
أنكم ظفرتم بالحلال فهل تأمنون تغير القلوب ؟ إن كان ذلك فأتتم تحسنون
الظن بالنفس وهي أمارة بالسوء ^(١) وهل غاب عنكم أن الرسول قال :
يدخل صعاليك المهاجرين الجنة قبل أغنيائهم بخمسمائة عام ؟ ^(٢) وهل نسيتم
أنه قال : سادات المؤمنين في الجنة من اذا تغدى لم يجد عشاء ، واذا استقرض
لم يجد قرضا . وليس له فضل كسوة الا ما يواريه . ولم يقدر على أن يكتسب
ما يغنيه ^(٣)

وكان المحاسبي رجلا مسيحياً النزعة يرى العلماء كالمخل يخرج منه الدقيق
الطيب وتبقى فيه النخالة ، ويرى الحكمة تخرج من أفواههم ويبقى الغل في
صدورهم . ويراهم أفسدوا آخرتهم بصلاح دنياهم ، وقد روى كلمة المسيح
في هذا المعنى ، وهي كلمة لا نحب أن نرويها في كتابنا هذا ، ويكفى أن نشير
إلى مكانها في كتاب الأحياء ^(٤)

١٠ — والحق أن الصوفية اختلط عليهم الأمر حين أحبوا التشبه بالأنبياء
فالمسيح تصوف لأنه رأى حب الدنيا يعصف باليهود ، والنبي محمد لم يفكر
في إصلاح دنياه لأنه شغل بتبليغ الرسالة : فكان مثله مثل الداعية الذي يريد
أن يقطع جميع الألسنة ويسلم من تلوّم السفهاء .

ومن المعقول أن يلوذ الأنبياء والمصلحون بالفقر ليفرغوا الدعوة الخيرة

(١) الأحياء ج ٣ ص ٢٦٩ (٢) ص ٢٧٠ (٣) الأحياء ج ٣ ص ٢٧٢

(٤) ج ٣ ص ٢٦٥

ولكن كيف يصبح الفقر شريعة ؟ وكيف يصير من واجب الناس جميعاً
أن يعيشوا فقراء ؟

إن جانب الضعف في الأخلاق الصوفية أنها تجعل الفقر مما يجب أن
يرغب فيه جميع الناس ، ولو عقل الصوفية لعرفوا أن للفقر حلقة بشعة لا يطمع
في التعرف إليها رجل كريم . الفقر هو البلية العظمى ، والنكبة الكبرى ،
والبلاء الماحق ، والشر الملعون . الفقر هو العورة التي يفتضح بها الرجال ،
الفقر هو المقتل الذي يُصرَعُ به الأبطال ، الفقر هو أقبح الصفات التي تنزه
عنها الله ذو الجلال ، الفقر فضيلة سخيفة لا يدعو إليها إلا رجل سخيف !

١١ — للصوفية عذر واحد ، وهو عذر جميل ، هم يرون حب المال
يذهب بالناس إلى البغى في أكثر الأحيان ، ولكنى مع هذا أجزم بأن بغى
الغنى أجمل صورة من عدالة الفقير ، وهل للفقير عدالة ؟ إنه شخص مضئع
وهو في المجتمع لا يحسب له حساب ، والخلق الحق هو الذى يرفع الشخصية
الانسانية و يقيم لها الموازين .

ولو أن الصوفية درسوا الطبيعة الانسانية حق الدرس لتغير موقفهم
في فهم الفقر ، لو أنهم عرفوا أن الفقير لا يصلح لقيادة النهضة الاجتماعية
والسياسية والخلقية لأيقنوا أن الغنى سلاح ماض في أيدي المصلحين ، ولكن
الواقع أن الصوفية كانت همهم في الأغلب همماً تراجيدياً ، أليسوا هم الذين
وضعوا النقواعد للسؤال ؟ وهل يسأل الناس إلا الصغار والضعفاء ؟ وأى
قيمة للخلق إذا انتهى بصاحبه إلى الضعف والصغار ، ونأى به عن مواطن
الرجال ؟

إن الجنة وما فيها من خير ونعيم لا تساوى ذلة السؤال ، والله لم يخلقنا
لنسأل الناس ، وهو لم يمنحنا العقل والعافية إلا لنستعبد خيرات الأرض
ونستغنى عن المخلوقين . ولولا الأدب لقلت إن الله دعانا إلى الاستغناء عنه
منذ فطر الأرض والبحر والهواء على خدمتنا خدمةً أبدية لا يُحرّم منها
إلا أهل الجنود .

إن الله دعانا إلى الكرامة ومهد لنا سبيلها وأعانتنا عليها ، ولم يشأ أن يذل
الكفار بحرمانهم من استخراج ثمرات الأرض ، لأنه سبحانه لا يحب لأبنائه
أن يعيشوا عيش العبيد ، والمؤمن والكافر أمام عدله ورحمته سواء
الدعوة إلى الفقر تنافى الخلق ، وتنافى الأدب ، وتنافى الإيمان .

الدعوة إلى الفقر هى السوس الذى قضى على عظام المسلمين ، وجعلهم
من أذل الشعوب بعد أن كانوا من أقوى الأجزاء

الدعوة إلى القناعة رذيلة إنسانية لا يجترمها إلا رجل غافل أو مخبول .
وكيف نقنع وقد هدانا الله إلى أسرار الوجود فعرفنا أن الخير لا نهاية
له ، وأن النعيم أعظم وأكبر من أن تقام له حدود .

لو عاش أهل الأرض بعقول الصوفية وأوهامهم وأغلاطهم لما استطاع
الإنسان أن يستخرّ البرق والماء ، لو عاش أهل الأرض بأذهان الصوفية لما
كانت هذه النعم التى يمرح فيها أهل الشرق والغرب ، لو عاش أهل الأرض
بأذهان الصوفية لما كانت هذه الوثبات التى يموج بها العالم السياسى فيقيم قناطر
من الخير على بحار من الدماء

الصوفية قوم كسالى وادعون ذهب بهم الجوع إلى أودية الموت .

١٢ — قد يقول القارىء : وما شأنك أنت ؟ أنت تؤرخ التصوف ، فكيف تستطيل على الصوفية ؟

وأجيب بأنى أيضاً متصوف ، ولكن أى تصوف ؟ إنه تصوف استقيته من مورد الحياة ، هو تصوف حق يقوم على أساس الحق ، فان كان التصوف القديم هو الزهد فالتصوف الجديد هو الاخلاص المطلق فى حب الحياة والفوز والمجد ، التصوف الذى أدعو إليه هو الشره الشريف على فهم ما فى الدنيا من خير وشر ، وجمال وقبح ، وحق وزيف ، هو أن تكون قوة كاشفة قاهرة تستوعب أسرار الوجود ثم تسخره لخدمة الانسان والحيوان ، هو أن تجعل الدنيا فردوساً يذكر بما وعدت به من نعيم الفراديس ، هو أن تكون غنياً بعقلك وجهدك وخلقك فلا يكون لمخلوق فضل عليك ، هو أن تكون شبيهاً بربك فى كرمه وغناه

أنا لا أريد أن يتصوف الرجل تصوف العبيد ، وإنما أريد أن يتصوف تصوف الملوك .

١٣ — ولكن هناك وجه آخر نفهم به جمال الدعوة إلى الفقر . وتفصيل ذلك أن الغنى لا ينتظرنا فى كل وقت ، ولا نقنصه حين نشاء ، فقد يحتاج الغنى أحياناً إلى مسالك ينفر منها الكريم ، وفى هذه الحال يكون الفقر أجمل وأشرف .

فى أحيان كثيرة يكون من النبل أن نحرر رقابنا من رق الطمع ، وأن نتغنى بقول الذى يقول :

حرام على من وحد الله ربه وأفرده أن يجتدى أحداً رفا
ويا صاحبي قف بي مع الحق وقفة أموت بها وجدا وأحيا بها وجدا
وقل للملوك الأرض تجهد جهدها فذا الملك ملك لا يباع ولا يهدى

وأنت لو نظرت حولك لرأيت طوائف من الأغنياء لم يصلوا إلى غناهم
إلا بوسائل يفزع من تصورها كرام الرجال : فهذا الذى يسكن قصرأ فخما
ويعيش عيش الأمراء لم يصل إلى الغنى إلا منذ اليوم الذى باع فيه نفسه
وقلبه وضميره لأحد الوزراء أو لأحد الأحزاب ، وذلك الذى يأمر وينهى
ويطغى ويستطيل هو فى حقيقة أمره أذل من القراد بمناسم الجمال الجرب
لأنه لا يصبح ولا يمسى إلا وهو تابع ذليل ، وذلك الذى لا يمد يده لمصاحبتك
إلا وهو متكلف ، ولا يواسيك إن حزنت ، ولا يعودك إن مرضت ، ولا
تراه إلا أشم الأنف متفخ الأوداج ، ذلك المتكبر المتعجب الذى يحاول أن
يخرق الأرض ويطاول الجبال ، هو فى قرارة نفسه مستعبد لجهة قوية يرى
سوطها مسلطاً عليه فى كل حين ، وهو على كبريائه ترتعد فرائصه كلما تمثل
له شبح من يملك أمره فى يقظة أو فى منام

إن أكثر من ترى من أصحاب الحول والطول كان مثلهم مثل المرأة
التي لا تفرط فى عرضها بسبب القوت ، وإنما تفرط فى عرضها لتقضى لبايتها
من الترف ، وبعض النساء لا يؤذيها أن تجوع ، ولكن يؤذيها أن تخرج وهى
عاطل من الأساور والدمالج والخلاخيل .

وهل تظن أن الذى يبيع ضميره يبيعه ليققات ؟ وكيف يكون الأمر
كذلك وأكبر البطون يملأه رغيغ جاف ، ويرويه كوب من الماء القراح ؟

انما يبيع الناس ضمائرهم ليتحلوا بالحلى الكواذب من صور الأمر والنهى والطغيان .

انظر هذه النظرة إلى حقائق الجاه والمال ، ثم ارجع الى الصوفية تجدهم أعقل الناس وأشرف الناس

١٤ — أتراك نظرت وفكرت ؟ إن كنت فعلت فاعلم أن الصوفية حين دعوا إلى الفقر والورع والزهد لم يكونوا عابثين ، وانما كانوا يدافعون عن الكرامة الانسانية التى لا تضيع ولا تتمهن إلا فى أسواق المنافع ، وحفظ الكرامة هو الحجر الأول فى صرح الأخلاق

انظر هذه النظرة لترى ما فى مسالك الصوفية من المعانى الشعرية ، وهل من القليل أن تخلص من ربة الأغراض فلا يكون لأحد سلطان عليك ؟ هل من القليل أن تشعر بأن مائدتك الجافية هى من كسب يدك ، وأن ثوبك الحقيق لم ينسج خيوطه أحد سواك ؟ هل من القليل أن تعرف زوجتك وأن يعرف أبنائك أن ليس لهم سيد بعد الله غيرك ؟ هل من القليل أن يكون كل ما فى بيتك من أثاث ورياش انما وصل إليك بفضل كدحك ، وإن كان غطاؤك من الخيش ، وسريرك من الجريد ؟

إن الصوفية لا يحرمون عليك أن تثرى من الحلال ، فقد كان الصوفية بالفعل من أهل الكسب ، ولكن أى كسب ؟ انظر إلى أسماهم وألقابهم تجد فيهم الخواص والخراز والوقاد والصباغ والحداد والسماك والقصاب والدقاق .

انظر إلى ألقابهم تجدهم كانوا من أهل العمارة والصناعة والزراعة ، انظر

الى القابهم تجدهم كانوا من أقطاب السعى فى سبيل الرزق الحلال .

١٤ — كن كيف شئت فى فهم الدنيا والمعاش ، ولكن تذكر أن المتصوف رجل دقيق الاحساس ، وأنه لا يهون عليه فى سبيل الدنيا ما يهون عليك ، ومن أجل هذا تراه فى أدبه صادقاً كل الصدق ، وتكاد تلمس فى كل سطر بل كل حرف أنه يخفى بلية موجهة رماه بها التصون والعفاف .

وما نريد أن نسلك جميع المتصوفين فى سلك واحد ، هيات ، فنحن نحترق التبلد الذى يوسم بالتعفف . ولكننا لا نملك الغض من الأدب الحق ، أدب النفوس التى ترحب بالفقر حين لا ينال الغنى إلا بالذل ، ولا يدرك إلا بالضميم .

وفى ظلال هذه المعانى نقرأ أدب الصوفية فى ذم الغنى ومدح الفقر فنراه صوراً طريفة من أحوال النفوس والقلوب ، ونرى أنفسنا أمام صروح عالية من مكارم الأخلاق .

إن الصوفية الصادقين لا يؤثرون الفقر إلا فراراً من المال المشوب بالشبهات . والخوف على النفس والقلب والضمير من أدناس الحرام هو خوف نبيل لا يستشعره غير صحاح القلوب .

وما أسعد من ينفرون من الحرام ، ولا يأنسون بغير الحلال !

أَكَابُ الطَّعَامِ

متابعة الصوفية للرسول في خشونة الطعام — نفرتهم من البطنة وإيثارهم للحرمان — قبول فريق منهم لأطعمة السلاطين — فضل الجوع في كبح الشهوات — أثر الجوع في قتل الحبوية — فضل الطعام في إعداد الرجال لجلال الأعمال — السر في اسراف الصوفية حين يتحدثون عن الطعام — الشبه بينهم وبين شعراء البادية — شغلهم بترتيب أوقات التبليغ — رأيهم في دعوة الاخوان — أدب المائدة — رأى ابن آدم في الطعام والأثاث واللباس — نفرة بعضهم من إجابة الدعوات

١ — الصوفية يتابعون الرسول في خشونة الطعام ، والرضا منه بالقليل ، وكان عليه السلام يأكل خبز الشعير غير منخول ، وما ذمّ طعاما قط ، لكن إن أعجبه أكله ، وإن كرهه تركه ، وإن عافه لم يُبغضه الى غيره ، وكان يُلْعَقُ بأصابعه الصَّحْفَةَ ، وكان يُلْعَقُ أصابعه من الطعام حتى تحمرّ . وكان لا يمسح يده بالمنديل حتى يلحق أصابعه واحدةً واحدةً ، وكان لا يسأل أهله طعاما ولا يتشاه عليهم ، ما أطعموه أكل ، وما أعطوه قبل ، وما سَقَوْهُ شرب ، وكان ربما قام فأخذ بنفسه ما يأكل أو يشرب (١)

وكان يقول « إياكم والبطنة فأنها مُفْسِدَةٌ للبدن ، مُورِثَةٌ للسَّقَمِ ، مكسلة عن العبادة ، ويقول « ما ملأ ابن آدم وعاء شرا من بطنه ، حَسْبُ

(١) تلك هي الجوانب الحشنة من حياة الرسول في طعامه ، وهذه فقرات أخر جناها من كلام كثير كتبه الغزالي في الاحياء ج ٢ ص ٣٦٨ و٣٦٩ وللرسول طرق غير هذه في طعامه . ولكن الخشونة كانت أغلب

ابن آدمَ لَقَيْنِمَاتٍ يُقَمِّنَ صُلْبَهُ ، فان كان لا بدَّ فَكُلْتُ للطعام ، وثُلثُ للشراب ، وثُلثُ للنفس (١) »

٢ — وقد أثرت عن الصوفية أقوالٌ في النهي عن كثرة الطعام ، قال مالك بن دينار « وددت أن رزقي حصاة أمّصتها فقد ضجرت من كثرة تردادى الى الخلاء » وباع جارية فزارته يوماً فقال : كيف ترين مواليك ؟ فقالت ؟ ما أكثر خير بيوتهم ! فقال : أخبرتنى عن عمران حشوشهم (٢) »

وهو بهذا لا يشمل طيبات الطعام إلاّ مقرونة بما ستصير اليه !

٣ — ويمكن الجزم بأن سياسة الصوفية فيما يختص بالطعام كانت قائمة على أساس الحرمان (٣) وكان فيهم من يصوم الدهر « ولا يفطر غير أيام العيدين وأيام التشريق (٤) » وسمع شعيب بن حرب يقول :

« أكلت في عشرة أيام أكلة ، وشربت شربة (٥) » وتحدث التستري عن نفسه فقال : « رجعت الى تستر فجعلت قوتي اقتصاراً على أن يشتري لى بدرهم من الشعير الفرق فيطحن ويخبز لى فأفطر عند السحر كل ليلة على أوقية واحدة بحتا بغير ملح ولا إدام ، فكان يكفينى ذلك الدرهم سنة . ثم عزمت على أن أطوى ثلاث ليال ، ثم أفطر ليلة ، ثم خمسا ثم سبعا ، ثم خمسا وعشرين ليلة ، وكنت عليه عشرين سنة (٦) »

ومن الصوفية من حدث عن نفسه أنه تقوت في بضعة عشر يوماً — أو

(١) محاضرات الاصفهاني ج ١ ص ٣٠٢

(٢) المصدر السابق — والحشوش فى الأصل البساتين وكانوا يقضون فيها الحاجة

(٣) الكشكول ص ٢٥٨ (٤) معجم البلدان ج ٥ ص ٣٩٨

(٥) تاريخ بغداد ج ٩ ص ٢٤١ (٦) القشيرية ص ١١٥

قال سبعة عشر يوماً — خمس حبات ، أو قال ثلاث حبات . فقيل له : وكيف عملت ؟ فقال : لم يكن عندى غيرها ، فاشتريت بها لفتا ، وكنت آكل كل يوم واحدة . ولا عبرة بأن يقال إن هذا الرجل اكتفى بهذا القدر للضرورة فقد أثر عنه أنه كان لا يسأل أحدا شيئا^(١)

٣ — ومع إشار الصوفية للاقلال من الطعام ، والرضا من العيش بالدون ، كان فيهم من يأكل طعام السلاطين ويقبل جوائزهم ، وقد بلغ ابن عبد البر ، وهو بشاطبة ، أن قوما عابوه بأكل طعام السلطان وقبول جوائزه ، فقال :

قل لمن يتكر أكلى لطعام الامراء
أنت من جهلك هذا فى محل السفهاء

لأن الاقتداء بالصالحين ، من الصحابة والتابعين ، وأئمة الفتوى من المسلمين ، من السلف الماضين ، هو ملاك الدين^(٢) فقد كان زيد بن ثابت وهو من الراسخين فى العلم يقبل جوائز معاوية وابنه يزيد ، وكان ابن عمر مع ورعه وفضله يقبل هدايا صهره المختار بن أبى عبيد ويأكل طعامه ويقبل جوائزه . وقال عبد الله ابن مسعود — وكان قد ملأ علما — لرجل سأله فقال : إن لى جاراً يعمل بالربا ولا يحتنب فى مكسبه الحرام يدعونى الى طعامه فأجيبه ؟ قال . نعم ، لك المهنأ ، وعليه المسأثم ، ما لم تعلم الشئ بعينه حراما . وقال عثمان بن عفان رضى الله عنه حين سئل عن جوائز السلاطين : لحم

(١) تاريخ بغداد ج ١ ص ٣٦٦

(٢) العبارة للعقري — نفح الطيب ج ٢ ص ١٥٨

ظلي ذكى . وكان الشعبي — وهو من كبار التابعين وعلمائهم — يؤدب بنى عبد الملك بن مروان ويقبل جوائزه ويأكل طعامه . وكان ابراهيم النخعي وسائر علماء الكوفة والحسن البصرى مع زهده وورعه وسائر علماء البصرة وأبو سلمة بن عبد الرحمن وأبان بن عثمان والفقهاء السبعة بالمدينة حاشا سعيد بن المسيب يقبلون جوائز السلطان .

وكان مالك وأبو يوسف والشافعى وغيرهم من فقهاء الحجاز والعراق يقبلون جوائز السلاطين والأمراء ، وكان سفيان الثورى مع ورعه وفضله يقول : جوائز السلطان أحب الى من صلة الأخوان ، لأن الإخوان يمتنون والسلطان لا يمين ، ومثل هذا عن العلماء والفضلاء كثير قد جمع الناس فيه أبواباً (١) .

٤ — ويظهر من هذا أن الصوفية كانوا فريقين : فريقاً يبالغ في الاقلال من الطعام ويروض نفسه على الجوع ، وفريقاً يتسامح بعض التسامح فيوسع على نفسه بأكل ما يصل اليه من أطعمة السلاطين والأمراء .

ولكن الحال الغالب عليهم هو الحرمان ، وكان فيهم من يحرص على خبز الشعير (٢) ويتجنب ترف الاستحمام (٣) ، وإيثار الشعير له معناه ، فهو فى خشونته من حيث المطعم يناسب الصوف فى خشونته من حيث الملبس ، وإذا التقت خشونة الطعام وخشونة اللباس مع هجر الحمام نشأت عن ذلك

(١) العبارة للمقرئ — نفح الطيب ج ٢ ص ١٨٥ (٢) القشيرية ص ١٥

(٣) فى النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢٣٦ « أن الحسين بن أحمد كان زاهداً عابداً لا ينام إلا عن غلبة ، وكان لا يدخل الحمام ، ويأكل خبز الشعير » ورفض الحمام ليس معناه الانصراف المطلق عن الاستحمام

صورة شعشاء لا يتمثلها الرجل المترف الا بعنف شديد .

ولا جدال في أن لذلك تأثيراً على الأخلاق ، لأن المرء يتأثر في أخلاقه بما يأكل وما يلبس ، فما قيمة ذلك من الوجهة الأخلاقية ؟

نستطيع أن نجزم بأن سياستهم في الطعام لها أثر بالغ في حرب الشهوات ، فالرجل لا تصبو نفسه ، ولا يطمح بصره ، الى الحسن الممنوع ، الا حين ينشط الجسم وتهيج الحواس ، وهيهات أن تستيقظ جوارح رجل يكتفي بخبز الشعير ، ثم لا يأكل منه الا القليل .

والذين يتخلقون بأخلاق الصوفية في الطعام يستطيعون بسهولة أن يستهينوا بما تعرض الحياة من صنوف الشهوات . وقد كنت وأنا طالب في الأزهر أكتفي بالخبز الجاف مصحوباً بادام تافه هو الفول المدمس في الصباح ، والفول النابت في المساء ، وكنت يومئذ في ميعة الشباب ، ومع ذلك لا أذكر أني تعرضت لشهوة جامحة أو هوى غلاب .

هذا جانب من الفضل في تلك السياسة الصوفية^(١)

أما الجانب الآخر فهو الخطر الذي يهدد من يكتفون بالطعام الخشن القليل .

إن الجوع يقتل الحيوية ، ويروض الجسائع على صغر النفس ، وموت العزيمة ، وانحلال الشخصية . ولا يمكن لرجل يكتفي بأكلة واحدة في الأسبوع أن يكون من رجال الأعمال . وما الذي يحمل المرء على التفكير في

(١) في قوت القلوب ص ٤٢ — ٦١ ج ٢ كلام مطول عن نظام الأقوات عند المريدين . وهو يفصل رأى الصوفية في الطعام تفصيلاً مبنياً .

عظائم الأمور وهو يعيش فى العام بدراهم معدودات ؟

إن الطعام يقوى شهوة النهم ، كما يقول البوصيرى ، والنهم يتطلب وقوداً من طيبات الأرزاق ، والرزق الطيب لا ينتهب ولا يختلس ، ولكنه يأتى بفضل العزيمة المتوثبة والساعد المتين .

فلا حرج علينا بعد هذا البيان ، من التصريح بأن الصوفية فتنوا العالم الاسلامى ، وأضرروا به ، حين حببوا اليه الظماً والجوع .

ونظرة فى مدينة كالقاهرة ترينا شاهد ذلك : فطبقات العوام يحمدون الله على الخبز والملح والماء ، ومن أجل هذا يسيرون فى الحياة بخطوات بطيئة متشاقلة ، ويكتفون بالمساكن القذرة ، والمآكل الخسيسة ، والملابس الرخيصة ، على حين يقتحم الأجانب حصون المنافع الاقتصادية ، ويأكلون الطيبات ، ويقيمون فى أحياء جميلة هم منشئوها ، ويعرفون أدب الزينة وأدب الاستقبال ولو سألت الرجل الذاوى الجسم بفضل الجوع أن يتأهب للحرب لتردد وجزع ، وكيف يرحب بالحرب وليس له فيها مغنم مرموق ؟ أما الرجل الذى عرف أطايب العيش فقيه من قوة المراس ، وحب النضال ، والشوق إلى العراك ، ما يدفعه إلى المخاطرة بنفسه فى سبيل ما تنتج الحرب من مغنم وأسلاب .

والموت نفسه قد يتمثل للرجل السليم متعة رياضية ، أما الجسم العليل فقد شبع من الموت !!

هـ — ولكن مارأى القارىء فى أن الحرمان الذى كاد يلتزمه الصوفية عاد بشيء من النفع على قواعد الأخلاق ؟

لقد حرم الصوفية أنفسهم من الطعام ، فكان ذلك الحرمان سبباً
لا كشارهم من التحدث عن الطعام ، وأدب الطعام ، ومثلهم في ذلك مثل
شعراء البادية ، فان قصائد المديح في الجاهلية وصدر الاسلام يكثر فيها
الكلام عن اللحوم والألبان ، ويكثر فيها مدح السكرماء بكثرة الرماد وهزال
الفصلان ، ويرجع ذلك إلى أن الشعراء كان أكثرهم من أهل الفقر والجوع
فكان نحر الجزور يتمثل لهم شيئاً هائلاً جداً ، وكان الشعر ترقص عرائسه
في أحلامهم كلما تصوروا المصعب وقد جدته السيف ، وكان خير الرجال
عندهم من صح فيه قول النابغة الذبياني :

له بفناء البيت سوداء فخمة

تلقم أوصال الجزور العراعر (١)

وخير الناس من صح فيهم قول مسكين الدراعى :

كان قدور قوى كل يوم

قصاب الترك ملبسة الجلال (٢)

كان الموقدين بها جمال

طلاها الزفت والقطران طالى

بأيديهم مغارف من حديد

أشبهها مقيرة الدوالى (٣)

(١) السوداء هنا هى القدر ، والجزور الناقة ، والعراعر العظيمة الخلق

(٢) الجلال : الأغطية السود

(٣) المقيرة : المطلية بالفار وهو الزفت ، والدوالى جمع دالية وهى الدلو — وهذا الشعر
منقول من باب الأضياف والمديح فى الحماسة وله نظائر كثيرة جداً

فخرمان الصوفية من الطعام شغلهم به ، وحملهم على وصف أصفافه ،
والتهيو للصبر عنه ، وبسط القول فيما ينبغي له من آداب (١)

٦ — ومصدق ذلك أنا نراهم يتحدثون عن رياضة النفس على الجوع
باهتمام شديد ، هو آية الحرص على الطعام لو يعلمون ، كأن يقول صاحب
قوت القلوب :

« ومن كان ذام معلوم فالمستحب له أن لا يزيد على رغيين في يوم
وليلة ، وليجعل بينهما وقتاً طويلاً مرة ، وقصيراً أخرى ، على حسب الحاجة
وتوقان النفس إلى الغداء ، لا على طرد العادة والشهوة . والرغيف
سنة وثلاثون لقمة ، يكون قوام النفس في كل ساعة ثلاث لقمات ، فاذا أراد
أن يأكل الرغيف على هذا التقسيم فليجرع بعد كل ثلاث لقم جرعة ماء ،
فذلك اثنا عشر جرعة في تضاعيف ستة وثلاثين لقمة ، ففي ذلك قوام
الجسم وصلاحه في كل يوم وليلة على هذا الترتيب (٢) »

وهذه الرياضة اليومية ، أو الساعية إن شئت ، هي الشغل كل الشغل
بالطعام !

٧ — وقد تحدثوا عن أدب المائدة ، ودعوة الاخوان ، وعن الاكثار
والاقلال ، فقالوا ، مثلاً ، إن من إكرام الضيف تعجيل الطعام لهم ، وأفضل
ما قدم اليهم اللحم ، وخير اللحم السمين النضيج ، فان كان بعد اللحم حلاوة
فقد جمع لهم الطيبات (٢)

وهذا التحديد له دلالة نفسية

(١) الصوفية في ذلك كالعشاق أكثرهم حديثاً عن اللقاء والوصال والشهوات ثم المحرومون

(٢) قوت القلوب ج ٤ ص ٦ ؛

واستحبوا أن يأكل الرجل في منزل أخيه على نحو ما يأكل في منزله
بغير تكلف ولا تزين ، لأنه قد يدخل من الرياء والتزين في الطعام مثل
ما يدخل في سائر الأعمال (١)

وتلك دقة في فهم أحوال النفس

وحدثوا أن سفیان الثوري دعا ابراهيم بن أدهم وأصحابه الى طعام
فقصروا في الأكل ، فلما رفعوا الطعام قال له الثوري : إنك قصرت في الأكل ،
فقال ابراهيم : قصرت أحدهم في الطعام فقصرنا في الأكل (١)

ودعا ابراهيم الثوري أصحابه الى طعام فأكثر منه فقال له : يا أبا اسحق ،
أما تخاف أن يكون هذا إسرافا ؟ فقال ابراهيم : ليس في الطعام إسراف (١)
وهم يوصون بلعق الأصابع ، وأكل ما سقط من فئات الطعام لأنه فيما
يقال من مهور الحور العين (١)

وقال أبو سليمان الداراني : أكل الطيبات يورث الرضا عن الله عز وجل
وهذه الجملة كررها المسكى فذكرها في فصلين متجاورين ، ولهذا
التكرار معنى

ومن الأخبار التي اهتموا بروايتها أن المائدة التي أنزلت على نبي إسرائيل
من السماء كان فيها من كل البقول الا السكرات ، وكان فيها سمكة عند رأسها
خل ، وعند ذنبها ملح ، وكان عليها سبعة أرغفة ، على كل رغيف زيتونتان ،
وحب رمان ، وهذا عندهم من أحسن الطعام اذا اتفق (٢)

وحدثوا أن الحسن البصرى قال : كل نفقة ينفقها الرجل على نفسه وأبويه فمن دونهم يحاسب عليها ، إلا نفقة الرجل إذا دعا إخوانه الى طعام فان الله سبحانه وتعالى يستحي أن يسأله عن ذلك (١)

وحضر الثورى — وكان صوفيا — على مائدة أحد أبناء الدنيا ، وكان فيه بخل ، فقدم حملا (٢) فجعلوا يأكلون ، فلما رأهم يمزقون كل ممزق ضاق صدره فقال : يا غلام ارفع الى الصبيان ، فرفع الحمل الى داخل الدار فقام الثورى يعدو خلف الحمل ، فقال صاحب المنزل : الى أين ، يا أبا عبد الله ؟ فقال : آكل مع الصبيان ! فاستحيا الرجل وأمر برد الحمل حتى استوفوا منه (٣) وحدث أحدهم قال : كنا فى جماعة عند رجل فجعل يقدم الينا ألوان الرؤوس ، منها طيخا وقديدا ، فجعلنا نقصر فى الأكل تتوقع بعد الألوان حملا أوجديا . قال : فجاءنا بالطست ولم يقدم الينا غيرها ، فقال لى بعض الشيوخ من أهل التصوف وكان مزاحا : هو تعالى يقدر أن يخلق رؤوسا بلا أبدان ! قال : فبتنا تلك الليلة جياعا ، فطلب بعضنا فى آخر الليل خبزا أوفيتنا لسحوره (٤)

ودفع ابراهيم بن أدهم الى بعض إخوانه دراهم فقال : خذ لنا بهذه زبداً وعسلاً وخبزاً حورانياً ، فقال : يا أبا اسحق ، بهذا كله ؟ ! فقال ابن أدهم : ويحك ! اذا وجدنا أكلنا أكل الرجال ، واذا عدمنا صبرنا صبر الرجال . وأصلح ذات يوم طعاماً فأكثر ، ودعا نفرا يسيرا منهم الثورى والأوزاعى ،

(١) القوت ج ٤ ص ٦٨

(٢) فى الأصل « جملا » بالجيم ، والأصوب أن تكون « حملا » بالخاء المهملة

(٣) القوت ج ٤ ص ٧٢

(٤) القوت ج ٤ ص ٧١

فقيل له : أما تخاف أن يكون هذا إسرافاً ؟ فقال : ليس في الطعام إسراف ،
إنما الإسراف في الأثاث واللباس^(١)

وحدثوا عن سهل أنه سئل كيف كان في بدايته فأخبر بضروب من
الرياضات منها أنه كان يقاتل ورق النبت مدة ، ومنها أنه أكل دقاق التبن
ثلاث سنين ، ثم ذكر أنه اقتات ثلاثة دراهم ثلاث سنين ، قيل وما هو ؟
قال : كنت أشتري في كل سنة بدانقين تمرًا ، وأربعة دوانق كُسبًا ، ثم
أعجنها عجنة ، ثم أجزئها ثلثمائة وستين كبة أفطر في كل ليلة على كبة ، فقيل
له : فكيف أنت في وقتك هذا ؟ قال : آكل بلا حدٍّ ولا توقيت^(١)

وكان معروف الكرخي يهدي إليه طيبات الطعام فيأكل فيقال له : إن
أحاك بشرا لا يأكل من هذا فيقول : أخي بشر قبضه الورع ، وأنا بسطتني
المعرفة ، ثم قال : إنما أنا ضيف في دار مولاي ، إذا أطعمني أكلت ، وإذا
جوّعتني صبرت ، مالي والاعتراض والتخير !^(١)

٨ — فهذا كله دليل على شغفهم بالطعام ، ومع هذا كان فيهم متكبرون ،
وهم عند بعضهم من أنفة النفوس ، قال قائلهم : أنا لا أجيب دعوة . قيل : ولم ؟
قال : انتظار المارقة ذل . وقال آخر : إذا وضعت يدي في قصعة غيري ذلت
له رقبتي . وكان بعضهم يقول : لا تجب دعوة إلا من يرى لك أنك
أكلت رزقك . وأنه سلم إليك وديعة كانت لك عنده ، ويرى لك الفضل
في قبولها منه^(١) .

٩ — هذا ، ولا مفر من الاعتراف بأن ما وضع الصوفية في كتبهم من أدب الطعام أكثره مقبول ، يشهد بحسن الفهم وسلامة الذوق ، ويدل على بصر بأوضاع الحياة الاجتماعية . ولا يمنع من صحته ما نراه من تغير آداب الأطعمة والموائد ، فانا لا نحكم لهم أو عليهم إلا بعد أن تتمثل ما كانوا عليه من الحياة الفطرية ، ولكل زمن آداب .

أَبَاقُ الصَّيَمِ

١- ينظر الصوفية الى الصيام نظرة خلقية وروحية، وهم يقسمونه الى ثلاث درجات : صوم العموم ، وصوم الخصوص ، وصوم خصوص الخصوص .
أما صوم العموم فهو كف البطن والفرج عن قضاء الشهوة ، وأما صوم الخصوص فهو كف السمع والبصر واللسان واليد والرجل وسائر الجوارح عن الآثام ، وأما صوم خصوص الخصوص فصوم القلب عن الهمم الدنية ، والأفكار الدنيوية ، وكفه عما سوى الله عز وجل بالكلية ، كما عبر الغزالي في الجزء الأول من الأحياء .

وليس الطعام وحده ، ولا الشراب وحده ، ولا اللمس وحده ، مما يفطر به الصائم عند الصوفية . فهناك أشياء يفطر بها الصائمون ويفسد بها الصيام وليست مع ذلك من اللمس أو الطعام أو الشراب ، فالصائم يبطل صومه في نظر الصوفية بالفكر فيما سوى الله عزّ شأنه واليوم الآخر ، وبالفكر في الدنيا إلا دنيا تُراد للدين لعدّ ذلك من زاد الآخرة .

ويرى بعض الصوفية أن من تحركت همته بالتصرف في نهاره لتدبير ما يفطر عليه كتبت عليه خطيئة ، لأن ذلك لا يقع إلا من قلة الوثوق بفضل الله وقلة اليقين بالرزق الموجود .

٢ — وصوم خصوص الخصوص لا يتم الا بستة أمور :
الأول — غض البصر وكفه عن النظر الى كل ما يُندمّ وكل ما يكره ،
والى ما يشغل القلب وينهى عن ذكر الله .

الثانى — حفظ اللسان عن الفضول — وهم يعبرون عنه بالهذيان —
وحفظه عن الكذب والغيبة والنميمة والفحش والجفاء والخصومة والمرء
وإلزامه السكوت وشغله بذكر الله وتلاوة القرآن .

ومن الصوفية من يرى أن الغيبة تفسد الصوم ، وهم يستندون الى
أحاديث مروية عن الرسول صلى الله عليه وسلم .

الثالث — كف السمع عن الاصغاء الى كل مكروه ، لأن كل ما حرّم
قوله حرّم الاصغاء اليه . ولذلك سوّى الله سبحانه بين السمع وأكل السحت
فقال « سماعون للكذب ، أكسّالون للسحت » وقال « لولا ينهام الربانيون
والأخبار عن قولهم الآثم واكلمهم السحت »

الرابع — كف بقية الجوارح عن الآثام من اليد والرجل ، وكفها عن
المكاره ، وكف البطن عن الشبهات وقت الافطار لأنه لا معنى للصوم عن
الحلال ثم الافطار على الحرام .

الخامس — أن لا يستكثر من الطعام الحلال وقت الافطار بحيث
يمتلئ ، فما من وعاء أبغض الى الله من بطن مليء من حلال ، فالصوم يراد به
قهر أهواء النفس أو كما يقولون قهر عدو الله الشيطان . وقهر أهواء النفس
أو كما يقولون كسر الشهوة لا يتم لمن يتدارك عند فطره ما فاته في نهاره
من ألوان الطعام والشراب .

ولم يفت الصوفية أن ينصوا على الخطر الذى يهدد من يسرف فى الأكل بعد أن تخوى معدته ، وهم يرون ذلك يضاعف قوة النفس ويساعد على انبعاث الشهوات .

ومن رأى الصوفية أنه لا يليق بالصائم أن يأكل عند الافطار أكثر مما كان يأكل لو لم يصم ، لأن الغرض من الصيام هو حرمان النفس من مألوفها قبل الصيام ، والذى يملأ معدته عند الافطار على نية التعويض تعويض المعدة ما فاتها بالصيام لم يرد لنفسه من الخير إلا قليلاً .

السادس — أن يكون قلبه بعد الافطار مضطرباً بين الخوف والرجاء ، إذ ليس يدرى أيقبل صومه فهو من المقربين ؟ أم يرد عليه فهو من الممقوتين ؟

٣ — ومفسدات الصوم عند الصوفية هى اقتراف المكاره . أما المفطر بالطعام والشراب فهو أختف من ذلك . وعندهم أن من كف عن الأكل والجماع وأفطر بالآثام مثله مثل من مسح على أعضائه فى الوضوء ثلاث مرات ، ومن فعل ذلك فصلاته مردودة عليه لأنه ترك المهم وهو الغسل . أما الذى يصوم بجوارحه عن المكاره ويفطر بالأكل فمثله مثل من غسل أعضائه مرة مرة فصلاته مقبلة لا لحكامه الأصل وإن ترك الفضل .

ومعنى ذلك بصريح العبارة أن المهم فى الصوم هو كف الجوارح عن الآثام ، والافطار بالطعام ليس بشئ عند الصوفية وإنما هو شبيه بمن تفوته السنة فى آداب الوضوء ، أما الافطار بالمآثم فهو أخطر ما يعرض له الصائمون وليس لآثم عندهم صيام وإن قتله الظمأ والجوع .

وعند تأمل هذه الأحكام نرى الصوفية يقفون عند المعانى وهم بذلك يخالفون رجال الشرع الذين يجعلون غاية الصوم أو شرائط الصوم موقوفة على السكف عن شهوات الحواس

وليس معنى هذا أن الصوفية لا تهتمهم ظواهر الصيام ، لا ، وإنما يرون وقوف الصيام عند الجوع والعطش غاية سوقية لا يتسامى إليها أرباب القلوب .

هم لا ينكرون أثر الظمأ والجوع في كسر الشهوات ، ولكنهم يرون كيف النفس عن الآثام غاية الغايات ، وكل طاعة هي عندهم باب لاصلاح النفوس .

٤ — والصوفية هم الذين عطروا أيام الصوم بالأنفاس الروحية ، واليهم يرجع الفضل في نظم ما ساد على ألسنة الناس من الأناشيد ، وقد سلكوا مسالك مختلفة من التسخيم والتطريب ، وكثرت منظوماتهم في الفن الغنائى الذى يعرف باسم « كان وكان » واليك هذا الشاهد الطريف :

أيا من عمره طال	إلى كم أنت بطال
جميع الدهر نقّال	على دهرك أثقال
تبارز بالمعاصى	وعنا أنت قاصى
وتدعو بالخلّاص	وما عندك إقبال
إلى الغيبة ترتاح	وما عندك إصلاح
وما يرضيك يا صاح	سوى قد قيل أو قال
تمدّ الطرف في الصوم	ولا تخشى من اللوم

ليكتب منك في اليوم وفي الليلة أفعال
فتب ذا الشهر كي يمضى وكمّل صومه فرضا
لعل الله أن يرضى ويصلح منك أحوال

واليكم هذا الشاهد :

إن كنت تطلب توبه	إنهض فهذا وقتها
فبعد خمس ليال	يقال فرغ رمضان
يرحل وما أودعته	إلا زخاريف العمل
واحسرتك حين يشهد	عليك بالخسران
تصوم نهارك ولما	تفطر تحصل فايتك
تشبع وتنسى الجائع	هذا هو الخذلان
تقطع صيامك غيبه	والصوم قبوله من عجب
تاكل لحوم العالم	وترتجى الاحسان
من ليس يحفظ لسانه	ولا الجوارح من زلل
ما له من الصوم إلا	يقضى النهار جوعان
بالله عليك قم ودّع	شهر الصيام قبل السفر
ولا تخليه يرحل	وهو عليك غضبان
يبيض سواد الصحيفة	فالموت أدنى من نفس
وخف إلهك تحظى	منه غداً بأمان

وفي رحاب الصوفية ظهرت القصيدة المشهورة التي يتغنّى بها المنشدون

في توديع رمضان :

شهر الصيام لقد كرّمت نزيلا ونويت من بعد المقام رحىلا
وأقمت فينا ناصحاً ومؤدباً وشفيت منا بالفؤاد غليلا
نبكيك يا شهر الصيام بأدمع تجرى فتحكى في الحدود سيمولا
أسفاً على الأنس الذى عودتنا وصنيع فعل لا يزال جميلا
شهر الأمانة والصيانة والتقى والفوز فيه لمن أراد قبولاً
تبكى المساجد حسرة وتأسفاً إذ عطلت من أنسه تعطيلاً
فيه الجنان تفتحت لقدمه وتزينت ولدانها تجميلاً
وتفيات أشجارها بظلالها وقطوفها قد ذلت تذليلاً

وهى قصيدة طويلة يجدها القارئ فى كتاب الروض الفائق

وللصوفية توسلات خاصة بشهر رمضان :

« إلهى ، وقف السائلون ببابك ، ولاذ الفقراء بجناحك ، ووقفت سفينة
المساكين على ساحل كرمك ، يرجون الجواز إلى ساحة رحمتك ونعمتك .

« إلهى ، إن كنت لا تكرم فى هذا الشهر الشريف إلا من أخلص لك
فى صيامه ، فمن للمذنب المقرّ إذا غرق فى بحر ذنوبه وآثامه .

« إلهى ، إن كنت لا ترحم إلا الطائعين ، فمن للعاصين ؟ وإن كنت
لا تقبل إلا العاملين ، فمن للمقصرين ؟

« إلهى ، ربح الصائمون ، ونحن عبيدك المذنبون ، فارحمنا برحمتك ،
وجد علينا بفضلك ومنتك ، واغفر لنا أجمعين برحمتك ، يا أرحم
الراحمين » .

ولهم فيه تأوهات وحسرات كلوعة الذى يقول :

« إخواني ، ما أحسن من خلع عليه مولاه خلع القبول ! وما أنعم بال من بلغه غاية المقصود والسؤل ! وما أشق من رُدَّ عليه صيامه ، وأحصى عليه قبحه وآثامه ، ومضت في البطالة شهره وأعوامه ، وآثر شهوة نفسه على خدمة ربه إلى أن ذهبت ساعاته وأيامه ! !

وجملة القول أن الصوفية يرون الصيام فرصة من فرص القلب والروح ، وترك الطعام والشراب هو أهون ما يفكر فيه الصائمون ، والأصل عندهم أن يسلم القلب من الزيغ وأن تسلم الجوارح من آفات البغى والعدوان . وكذلك كانت أقوالهم في الصوم وآدابه مغمورة بمعاني الرفق والصفاء .

ولا يمكن القارئ أن يتصور مبلغ ما صنع الصوفية في تحبيب الصوم إلا إن زار المساجد في رمضان : فهناك يجد الترتيل والتسبيح والتلهيل ، وهي تقاليد طريفة يرجع الفضل في إقامتها وتثبيتها إلى الصوفية ، وهم قوم لم يشغلهم الحرام والحلال وإنما انغمست أرواحهم في لطف الغناء فكانت أحاديثهم وأناشيدهم ترتيلات قدسية لا يدرك أسرارها غير أرباب القلوب .

إن رجال الشريعة يختلفون فيما ينعقد به الصوم من النية ، أما الصوفية فيوجبون النية في كل لحظة ، ويرون رمضان كله موسماً سنوياً تظهر فيه السرائر والنفوس .

ورجال الشريعة يختلفون فيما يفسد الصوم ، ولهم في ذلك مزالق ، لأنهم يقفون عند المحسوس من الطعام والشراب . أما الصوفية فيشغلون بحساب النفس ، ويرون الصوم أصلاً من الأصول في تطهير النفوس والقلوب ، والصائم عندهم لا يشغل نفسه بحديث الظمأ والجوع ، كما يفعل

العوام من أشباه الصالحين ، وإنما يشغل نفسه بالحقائق الجدية ، ويتسامى إلى الاتصال برب العزة والجبروت .

ينظر العامى إلى الهلال فيراه فاتحة للمعجزات الحسية وينظر الصوفى إلى الهلال فيراه فاتحة لطوائف من المعانى الروحية ، وإذا كان الصائم من العامة يفرح عند الغروب لأنه سيرجع إلى الحرية الطبيعية فإن الصوفى لا يفرح عند الغروب إلا حين يوقن أنه قضى يوماً سعيداً لم يدنس فيه لسانه بغيبة أو نسيمة ، ولم يأثم قلبه بالتفكير فيما سوى الحضرة الربانية .

الصوم هو صوم الصوفية ، والصوفية هم الناس ، ومن عداهم أشباح بلا أرواح .

وما فضل الجوع فى تهذيب النفوس ؟ إن لحظة واحدة من كبح جماح النفس وصدّها عن شهوات البغى والعقوق أفضل وأشرف من ألف يوم يقضيها العامى فى الظمأ والجوع .

إن الصوم عن الطعام ليس بشيء فى جانب الصوم عن الآثام . وهل يتشهى الناس الطعام بقدر ما يتشهبون الوقوع فى الأعراض !!

ما هو الكف عن أكله يتشهاها البطن ؟ إن العزيمة الصادقة لا تُعرف إلا فى إقامة العدل ، لأن ابن آدم يتشهى الظلم أكثر مما يتشهى أطايب الطعام والشراب .

الصوم صوم النفوس لا صوم البطون ، الصوم الأعظم هو الكف عن إيذاء الناس ، ومن هنا صح لبعض الصوفية أن يقول :

إذا ما المرء صام عن الدنيا فكل شهوره شهر الصيام

آداب الزواج

١ — الأغلب على الصوفية أن ينفروا من الزواج ، وقد استشار رجل الشعبي في التزوج فقال :

« إن صبرت عن الباه فأتق الله ولا تتزوج ، فإن لم تصبر فأتق الله وتزوج (١) »

وقيل لمالك بن دينار : لو تزوجت ! فقال : إني طلقت الدنيا ثلاثاً فلا رجعة لي فيها (١)

وقيل لبعض الصالحين : إلام تبقى عزباً ولا تتزوج ؟ فقال : مشقة العزوبة أسهل من مشقة الكد في مصالح العيال (٢)

٢ — وهذا الجواب الأخير فيه سياسة الصوفية ، فهم ينفرون من الزواج هرباً من تكاليف العيش ، وقد حمل ذلك بعضهم على ابتكار المعاذير ، ولكن السبب الأصيل هو الرغبة في راحة البال

٣ — والظاهر أن الصوفية قبل الاسلام كانوا يميلون إلى العزوبة تأسيساً بالنصرانية ، ولهذا رأينا الرسول يحاربهم أشد الحرب ، فقد قال لعكاف بن وداعة : يا عكاف . ألك امرأة ؟ قال : لا . قال النبي : فأنت إذن من إخوان

الشياطين ، إن كنت من رهبان النصارى فالحق بهم ، وإن كنت منا فمن سنتنا
النكاح (١) »

وهذا السؤال من جانب الرسول لا يمكن أن يقع بمثل هذه الحدة إلا
إن سبق بشواهد من حياة عكاف ، ونرجح أنه كان لعكاف هذا آراء تشبه
الدعوة إلى التبتل والرهبانية

وقد بقى شيء من هذا المعنى فى أنفس الصوفية ، فانهم حدثوا أن سبب
تزويج أبى احمد القلانسى أن شابا من أصحابه خطب ابنة لصديق لأبى أحمد
فلما حضر وقت عقد النكاح امتنع الشاب ، واستحيا من ذلك الرجل الذى
كان يزوجه بابنته ، فلما رأى ذلك أبو أحمد قال : ياسبحان الله ! يزوج رجل
بكريمته فتمتنع عليه ! وعقد النكاح على أبى احمد ، فقبل أبو البنت رأسه وقال :
ما علمت أن لى عند الله تعالى من المقدار أن يكون لى مثلك ختن ، وما علمت
أن لابنتى عند الله تعالى من المقدار أن يكون لها مثلك زوج (٢)

وهذه الحكاية فيها معنى لطيف هو أدب القلانسى فى إنقاذ الموقف — كما
نعبر فى هذه الأيام — ولكن النتيجة كانت غريبة فقد بقيت تلك الفتاة ثلاثين
سنة عند أبى أحمد وهى بكر (٣)

٤ — فمن أين جاء هذا التبتل ؟ جاء من النصرانية أولاً ، ومن الصابئية
ثانياً

أما التبتل فى النصرانية فعروف ، وأما الصابئون فان العابد منهم ربما

(١) عيون الأخبار ج ٤ ص ١٨

(٢) اللع ص ١٩٩

خصى نفسه^(١) وفي الجزء الرابع من عيون الأخبار^(٢) أن ابن المبارك خصى نفسه وعاش محبوباً ، وتلك نزعة صابئية ، ولكننا رأينا بعد البحث أن ما في عيون الأخبار خطأ ، وأن الذى خصى نفسه هو أبو المبارك الصابى ، وليس ابن المبارك الصوفى ، وقد هداانا إلى تصحيح هذا الخطأ ما كتبه الجاحظ عن الصابئين فى الجزء الأول من الحيوان^(٣)

ه — وكلام الصوفية عن الزواج يشعر بأنه كان فى أنفسهم من التكليف الثقال ، وعندهم أن الفقير إذا تزوج فثقله كمثل رجل قد ركب السفينة فاذا وُلِدَ له فقد غرق^(٤) ، ويؤيد هذا المعنى أنهم نصوا على آداب الزواج « وليس من آدابهم أن يتزوجوا ذوات اليسار ويدخلوا فى رفق نسائهم ، ومن أدب الفقير أن يتزوج بفقيرة مُقِلَّة وأن ينصفها ، وإن رغبت فيه امرأة غنية أن لا يرتفق منها^(٥) »

وهذه آداب تتركز على حفظ الكرامة ، واستقلال النفس ، والبعد من المغامم الدنيوية ، وهم يمثّلون أنفسهم فقراء ، ولا يتسامون إلى المرأة الغنية ، وإنما يقبلونها إن رغبت فيهم ، وكانت الفتيات تميل إليهم فى بعض الأحيان ٦ — ويظهر أنه كان معروفاً عنهم التقصير فى رعاية الأطفال ، فان السراج الطوسى يقول :

« وليس من آداب من تزوج أو كان له ولد أن يكل أمر عياله إلى الله »

(١) الحيوان ج ١ ص ٥٧ (٢) ص ٩٩ (٣) ص ٥٧

(٤) نسب هذا القول الى ابراهيم بن آدم وسفيان الثورى . أنظر العلم ص ١٩٩

(٥) العلم ص ٢٠٠

تعالى ، ويجب عليه أن يقوم بفرضهم إلا أن يكونوا مثله في الحال (١) ،
والنص على هذا الأدب لا يقع بغير سبب ، وإنما هو موجّه إلى ناس
كانوا يرون من التوكل أن يكفوا أمر عيالهم الى الله
وهذا من الصوفية ضعف رأى ، إن وقع منهم . وهم صالحون لقبول
مثل هذا الرأى الضعيف (٢)

٧ — وجملة القول أن الصوفية ينظرون الى الزواج كأنه غلّ من الأغلال
التي تشل حركة الروح ، وقليل منهم من يفتن إلى ما في الزواج والذرية من
المعاني الروحية ، فالرجل المتأهل الذي يعاني مشاقّ العيش تتفتح أمامه أبواب
من الجهاد لا تخلو من شرف ونبل ، وفي رعاية الأهل ميدان لخبرة الخلق
والروح ، وأخشى أن يكون الميل الى العزوبة جنباً وهدماً من تكاليف الحياة ،
ولعله لا يكون الا كذلك ، ولا عبرة بدعوى الانقطاع الى الله ، فالسعى
في بر الأهل والذرية هو أيضاً انقطاع الى الله

وفي أعمال المرء كثير من الوجوه المادية ، ولكنها عند النية تصبح
وجوهاً روحية . وقصير النظر هو الذي يتوهم أن العبادة لا تكون الا في
العزلة والتسليم

على أن في السعى للأهل تعرضاً لضروب من المعاملات تتبين فيها جواهر
الأخلاق ، وفي الاتصال بالناس عن طريق المعاش أبواب من المحن الخلقية
يعرف عندها فضل الرجل الكريم الخلال

(١) اللمع ص ٢٠٠

(٢) في قوت القلوب ج ٤ ص ١٤٨ — ١٧٧ كلام مطول عن آراء الصوفية في الزواج ،
ولم نشأ تلخيص تلك الآراء لأنها لا تخرج عما أثبتناه في هذه الفقرات ، فمن كان في حاجة الى
زيادة فليرجع اليها هناك .

للتصوفية أن يفروا من الزواج ، ولكن عليهم أن يتذكروا أنهم يفرون من الجهاد ، وأى جهاد أقسى من السعى للأهل والأطفال ؟ إن التصوف كل التصوف أن تواجه مكاره العيش اعتماداً على رعاية الله ، أما إثارة العزوبة حباً في السلامة ، أو رغبة في الانقطاع الى الله ، فهو من أعمال الجبناء والغافلين

٨ — ومن الخير أن نشير الى أن من الصوفية من لم يفقه الترغيب في الزواج ، وإن كان نقرّمه المريدن ، فقد حدث المسكى أن بشر بن الحارث كان يقول في احمد بن حنبل : فضّل على بثلاث : بطلب الحلال لنفسه ولغيره وأنا أطلب الحلال لنفسى ، واتساعه للنكاح وضيقى عنه ، وقد جعل إماما للعامة وأنا أطلب الوحدة لنفسى . ونقل أن بشر بن الحارث رأى في المنام بعد وفاته فسئل عن حاله فقال : رُفعت سبعين درجة في عليين ، وأشرف بي على مقامات الأنبياء ، ولم أبلغ منازل المتأهلين^(١) ، وأنه قال : وعاتبني ربي عز وجل فقال : يا بشر ، ما كنت أحب أن تلقاني عزّبا ، وأن صاحب الرؤيا قال له : ما فعل أبو نصر التمار ؟ فقال : رُفع فوق سبعين درجة ، فقال الحالم : بماذا ؟ فقال : بصبره على بناته والعيال^(٢)

ومضى فحدث أن ابن مسعود كان يقول : لو لم يبق من عمرى إلا عشرة أيام أموت في آخرها لأحببت أن أتزوج ولا ألقى الله عز وجل وأنا عزب ، وأن رسول الله قال : تناكحوا تناسلوا فاني مكاثركم بكم الأمم يوم القيامة ، حتى بالسقط والرضيع^(٣)

وحدث أيضاً أن بعض الصالحين كان يعرض عليه التزويج فيأباه برهة من
دهره ، فانتبه من نومه ذات يوم فقال : زوجوني ! فسئل عن سبب ذلك
فقال : رأيت في نومي كأن القيامة قد قامت وكنت في جملة الخلائق في الموقف
وبى من العطش ما يكاد يقطع عنقى ، وكذلك الخلائق في شدة العطش من
الحر والشمس والكرب . قال : فبينما نحن كذلك إذ الولدان يتخللون الجمع
عليهم مناديل من نور ، وبأيديهم أباريق من فضة وأكواب من ذهب ، وهم
يسقون الواحد بعد الواحد ، ويتخللون الجمع ويجاوزون أكثر الناس .
قال : فمددت يدي إلى أحدهم فقلت : اسقني شربة فقد أجهدتني العطش . فقال :
ليس لك فينا ولد ، إنما نسقى آباءنا . فقالت : ومن أتم ؟ فقالوا : نحن من مات
من أطفال المسلمين (١)

ورواية أمثال هذه الأخبار هي دعوة إلى الزواج ، وهذه الأحلام
نفسها تدل على أن من الصوفية من كان يشعر بأهمية الزواج من الوجهة
الدينية

ولننقيد ما تنبه إليه أحدهم من فضيلة الصبر على البنات والعيال ، فهي لمحة
تدل على بصر بعزائم الأمور في عالم الأخلاق

٩ — على أن الصوفية في زواجهم وعزوبتهم ينتهون إلى غاية واحدة
هي الفناء ، والرجل الجائع الخامد يعسر عليه أن يأتي بنسل متين ، وما نظن
الرسول يكثر بالآبناء الضعفاء ، إنما يكثر بالذرية القوية التي تحفظ الشعور
وتقيم الحصون ، وهؤلاء لا ينجبهم إلا من يعرفون قوة الجسم قبل أن
يعرفوا صفاء الروح ، وذخيرة الأمم في العوام لا في الخواص

أدب الأخوة

اهتمام الصوفية بالأخوة — الأخوة عمل ينفع — من هو الصديق في عرف الصوفية؟ — الأخ والصديق — الحب في الله — كيف نعامل الصديق المذنب — فضل الصفيح والاعضاء — أدب الصديق — ترك الممارسة — ترك الخلاف — الوفاء في الحياة وبعد الممات — الصوفية لا يبذلون المودة لجميع الناس — القصد في الحب والبغض — المحبة عمل يحتاج الى حسن خاتمة — كيف تفرد الصوفية باطالة القول في أدب الأخوة .

١ — اهتم الصوفية بالأخوة أبلغ اهتمام، ولم يفرط منهم في بيان آدابها إلا القليل، وهم يرون أنفسهم مسئولين عن رعاية ما سنّه الحكماء في مختلف الملل من أدب الصداقة والوداد، فيروون ما أثر عن النصارى واليهود، والفرس والروم، ويتمثلون بكلام الشعراء، وإن لم يكن أولئك الشعراء من المعروفين بالزهد والصلاح

وقد يستطيع الناقد أن يجد مغمراً في أكثر ما سنّ الصوفية من شرائع الأخلاق، ولكن ما كتبوه عن أدب الأخوة أمتع من أن يمتدّ اليه فكر بغمز أو تجريح، فهو لاء الناس فهموا الصداقة كما ينبغي أن تفهم، وكلامهم فيها كلام من يعرف قيمة الصديق، ولا نبالغ إذا قلنا إن أكثر من كتبوا في آداب المودة عيال عليهم، لأن الصوفية يتكلمون عن الألفة كلام من يعتقد أنه سيحاسب يوم القيامة عما قدّم في عالم الأخوة والوداد. فلاتسأل أين الجديد في كلامهم عن الصداقة، ولكن انظر إلى الحماسة التي صوروا

بها أواصر المودّة لترى فضلهم في تعريف الناس بحقائق الاخاء ، وليس المهم أن تدعو إلى فكرة ، ولكن المهم أن تصل بالفكرة إلى أعماق القلوب

ولسنا في حاجة إلى تأكيد أهمية الصداقة في الحياة الروحية والاجتماعية، فمشاكل الأفراد والجماعات يرجع أكثرها إلى انفصام عرى المودة بين الناس ، ولو عرفت الجماهير كيف تتعامل وكيف تتوادّ لانعدمت أصول كثيرة من جرائم الشقاق

وباب الأخوة والصحبة في مؤلفات الصوفية باب نفيس نودّ لو أخذت منه صورة للمطالعة في المدارس الشانوية ، ففيه من الحكم والأمثال والأقاصيص نكت بديعة تمتع العقل والروح . وفيما كتب الصوفية عن أدب الأخوة ما يكفي لتوجيه النفوس إلى الاقتناع بأن الأخوة مشكلة أخلاقية ، وأنها جديرة بأن تكون مما يوضع في الموازين عند تقويم ملكات الرجال

٢ — وأعجب ما تنبّهت له من كلام الصوفية ما قيل : إن الأخوين في الله عز وجل إذا كان أحدهما أعلا مقاماً من الآخر رفع الآخر معه إلى مقامه ، وأنه يلحق به كما تلحق الذرية بالأبوين والأهل بعضهم ببعض : لأن الأخوة عمل كالولادة (١)

الأخوة عمل كالولادة ؟ هذا والله عجيب ، وهو يدلنا على فهمهم للمشقات التي يعانيتها من ينشئون الأخوات ، فالمودّة في تصورهم تحتاج إلى ضروب

من السياسة العملية لا يصبر عليها إلا الراشدون ، والذي يرمى صديقه لا يقلّ
جهداً عن الذي يرمى ولده ، وله من رعاية الصداقة أجر في الآخرة يساوى
أجره في رعاية الأهل والأطفال

٣ — ولكن من هو الصديق في عرف الصوفية ؟

هو الأمين ، ولا أمين إلا من خشى الله عز وجل ، فلا تصحب الفاجر
فتعلّم فجوره ، ولا تطلعه على سرّك. وليكن صاحبك من إذا خدمته صانك ،
وإن قعدت بك مؤونة مانك ، وإن مددت يدك بخير مدها ، وإن رأى منك
حسنة عدّها ، وإن رأى منك سيئة سدّها ، وإن سأله أعطاك ، وإن سكّت
ابتدأك ، وإن نزلت بك نازلة واسأاك ، وإن قلت صدّق قولك ، وإن
تنازعتما آثرك ، إن صديقك هو من يسدّ خللك ، ويسترّ زلللك ، ويقبل
عللك . ومن حق الصديق عليك أن تتجاوز له عن ثلاث : عن ظلم الغضب
وظلم الهفوة ، وظلم الدالّة (١)

ذلك هو الصديق في عرف الصوفية ، فهو أولاً رجلٌ يخاف الله ، وهو
ثانياً رجلٌ مواسٍ ألوف ، كثير الصفح ، وافر الحياء

٤ — وهذا الصديق أخ لك لم تلده أمك ، والقراية تحتاج إلى مودّة ،
أما المودة فلا تحتاج إلى قراية ، وقد قيل لحكيم بن مرة : أيما أحب إليك ،
أخوك أم صديقك ؟ فقال : إنما أحب أخى إذا كان صديقاً (٢) ، وقال أكرم
ابن صيفى : يا بنى ، تقاربوا فى المودة ، ولا تتكلوا على القراية (٣) ، وكان

(١) انظر قوت القلوب ج ٤ ص ١١٨ (٢) القوت ج ٤ ص ١٢٢

(٣) القوت ج ٤ ص ١٢٣

عبد الله بن الحسن البصرى يعرف إخوان الحسن إذا جاءوه لطول لبثهم عنده ، ولشدة شغله بهم ، فيقول لهم : لا تملّوا الشيخ ! فكان الحسن إذا علم ذلك يقول : دعهم يا لكع ، فانهم أحبّ إلىّ منكم ، هؤلاء يحبونى لله عز وجل ، وأنتم تريدونى للدنيا ^(١) وكان الحسن وأبو قلابة يقولان : إخواننا أحبّ إلينا من أهلينا وأولادنا ، لأن أهلينا يذكروننا الدنيا وإخواننا يذكروننا الآخرة ^(٢)

فأساس العلاقة هو العمل الصالح لا المنافع الدنيوية ، وأخوة القرابة عديمة القيمة إذا عريت من أخوة المودة ، وهذه نظرة سليمة تصلح لجميع الناس فى كل زمان ومكان

ه — وأصل الحب أن يكون فى الله ، وقد روى عن النبى أنه قال : ينصب لطائفة من الناس كراسى حول العرش يوم القيامة ، ووجوههم كالقمر ليلة البدر ، يفرع الناس وهم لا يفرعون ، ويخاف الناس ولا يخافون ، وهم أولياء الله عز وجل الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، فقليل من هؤلاء يارسول الله ؟ فقال : هم المتحابون فى الله عز وجل . ورواه أبو هريرة فقال فيه : إن حول العرش منابر من نور ، عليها قوم لباسهم نور ، ووجوههم نور ، ليسوا بأنبياء ولا شهداء ، يغبطهم الأنبياء والشهداء ، فقالوا : يارسول الله ، صفهم لنا ، فقال : هم المتحابون فى الله عز وجل ، والمتجالسون فى الله تعالى ، والمتزاورون فى الله تعالى ^(٣) وهؤلاء المتحابون فى الله إذا التقوا فهش بعضهم

(١) الفتوح ج ٤ ص ١٢٤ (٢) الفتوح ج ٤ ص ١٢٣ ، وليلاحظ القارىء

أن نون الرفع حذفت تخفيفا فى بعض الأفعال من هذه الشواهد

(٣) الفتوح ج ٤ ص ١٢٠

إلى بعض تتحات عنهم الخطايا كما يتحات ورق الشجر في الشتاء إذا يبس (١)
 والمتأخيان في الله يظلمهم الله في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله (١)
 ومن شرط المحبة في الله « أن لا تكون لرحم يصلها ، أو لنعمة يربها (٢) »
 فقد جاء في الأثر أن رجلا زار أخا في الله في قرية أخرى ، فأرصد الله
 تعالى على مدرجته ملكا فقال: أين تريد ؟ قال : أردت أخا لي في هذه القرية
 قال هل بينك وبينه رحم تصلها أو له عليك نعمة تربها ؟ قال : لا ، إلا أني
 أحببته في الله تعالى ، قال الملك : فاني رسول الله اليك ، إن الله تبارك وتعالى
 قد أحبك كما أحببته فيه (٢)

والحب في الله يوجب التزاور والتبازل والتصافى . ولقاء الاخوان له
 لذة تعدل الصلاة في جماعة والتهجد من الليل (٣)
 وهذا النوع من المودة هو أفضل وأشرف ما يقع بين الناس من
 العلاقات الوجدانية

٦ — ومن واجب المؤمن أن يرعى حرمة الصداقة ، وأن يتأسى بالدعاء
 المأثور « يا من أظهر الجميل ، وستر القبيح ، ولم يؤاخذ بالجريرة ، ولم يهتك
 الستر (٢) » فيظهر حسنات إخوانه ، ويستر مساوئهم ، ويتجاوز عن سيئاتهم
 ويسدل الستر على ما يقعون فيه من خطايا وهفوات

وقد اختلف مذهب الصحابة في الأخ يحب أخاه في الله ، ثم ينقلب
 الآخر عما كان عليه ، هل يبغضه بعد ذلك ؟ فكان أبو ذر يقول : إذا انقلب
 عما كان عليه وتغير فأبغضه من حيث أحببته ، وكان أبو الدرداء يقول بخلاف

(٤) الفتوى ٤ ص ١٢٠ (٢) الفتوى ٤ ص ١٢١ (٣) الفتوى ٤ ص ١٢٢

ذلك ، وقد حدثوا أن شاباً غلب على مجلسه حتى أحبه أبو الدرداء ، فكان يقدمه على الأشياخ ويقرّبه فحسدوه ، وأن الشاب وقع في كبيرة من الكبائر فجاءوا إلى أبي الدرداء وحدثوه وقالوا : لو أبعدته ! فقال : سبحان الله ! لا نترك صاحبنا لشيء . وقال بعض التابعين في مثله : إنما أبغض عمله وإلا فهو أخى . وكذلك قال الله عز وجل لنبيه في عشيرته (فان عصوك فقل إني بريء مما تعملون) ولم يقل : قل إني بريء منكم للحمة النسب ، وقد قيل للصدقة لحة كلحمة النسب . وكان أبو الدرداء يقول : إذا تغير أخوك وحال عما كان عليه فلا تدعه لأجل ذلك ، فان أخاك يعوجّ مرة ويستقيم أخرى ، وكان يقول : داو أخاك ، ولا تطع فيه حاسداً فتكون مثله . وقال إبراهيم النخعي : لا تقطع أخاك ، ولا تهجره عند الذنب فانه يركبه اليوم ويتركه غداً . وقال أيضاً : لا تحدثوا الناس بزلّة العالم ، فان العالم يزل الزلّة ثم يتركها ، وروى عن الرسول أنه قال : شرار عباد الله المشائمون بالنيمة ، المفرقون بين الأحبة ، الباغون للبراء العيب (١)

فالرأى الأول يقول بقطيعة المذنب ، وله وجه ، أما الرأى الثانى فهو غاية في التسامح ، وهو رأى حكيم ، لأن مقاطعة المذنبين تغريهم بالاثم ، وتزين لهم الفسوق ، وتملأ صدورهم بالحقد على الصالحين ، وتلك جرائم لفساد الأخلاق .

والرجل الصالح حقاً هو الذى يعرف ضعف النفس الانسانية ، ويعرف كيف يسوس المذنبين فينقلهم من الغي إلى الرشده ، ويغنىهم لحزب الهدى

بعد أن غنمهم الشيطان مرة لحزب الضلال

ولكن هذه النظرة الحكيمة ليست من حظ جميع الصوفية ، وإنما هي من حظ أشrafهم الذين أغنمهم نفوسهم عن كسب الشرف المزيف الذى يُجْتَلَبُ باسم الغيرة على الخلق والدين

والرجل النافع هو الذى يفكر عند أول وهلة فى إنقاذ من زلّت قدمه ، ولا يشغل نفسه عن الواجب بتريد الصياح والصراخ

وعند هذه النقطة الدقيقة تزل أقدام كثير ممن يتحدثون عن الأخلاق فأكثر أهل الغيرة لا يغارون إلا على منافعهم الذاتية ، ومن منافعهم أن تُسمع أصواتهم باستنكار الاثم والفسوق !

وللشيطان فى هذه المزالق حيل شيطانية ! فهو يُخَيِّل للناس أن من واجبه أن يصيحوا ويصرخوا ، وأن من التهاون أن يسكتوا عن منكر رأوه بأعينهم ، أو ترامت أخباره اليهم ، وكذلك ينطلقون فيضيفون إثماً إلى إثم ، وعدواناً إلى عدوان

ولا سبيل الى قهر الشيطان إلا بالموازنة بين الحالين : حال الغضب وحال الستر. فالذى يعلن غضبه حين يذنب أخوه يستطيع أن يضمن رضا العامة ، ولكنه قد يبعد من رضا الله ، لأن إعلان الغضب قد يجرّ على أخيه المذنب مصائب أدبية واجتماعية ، ويعرّض رزقه ورزق أهله للضياع ، إذا كان ممن يعيشون بمعاملة الناس ، وإعلان الغضب قد ينتهى الى التشهير ، ولذلك عواقب وخيمة لا يستهين بها إلا الغافلون . وحين ينتهى الغضب المطبوع

أو المصنوع إلى مثل هذه الحال فهو بلا ريب من الكبائر عند من يفهمون دقائق الأخلاق

أما الستر فهو من أخلاق الكرام بين الرجال ، وهو عنوان النبل والدين وله مزايا كثيرة :

فهو أولا دليل على الرفق ، ومن واجب المؤمن أن يستر عورة أخيه ، وأن ينصحه في السر لا في العلانية ، وهو ثانيا شاهد على نزاهة النفس ، لأن إظهار السخط على المذنبين يرجع في أكثر الأحوال إلى شهوة خفية هي حب التسلط والاستعلاء

فان لم يكن بدّ من الغضب على المذنبين فليكن ذلك في حدود العقل ، فان كانت الذنوب متصلة بالمصالح الاجتماعية والمعاشية بذل الناصح جهده ليجمع بين الفضيلتين : إنقاذ المذنب بالنصح ، والسعى الرزين لسلامة ما يتصل بأعماله من شؤون المعاش ، وإن كانت الذنوب واقعة في حدود التكليف الذاتية التي يوجبها الشرع فن الأدب أن نترك حساب ذلك لعلاّم الغيوب

وليس معنى هذا أنا نقول بترك الناس يذنبون كيف يشاءون ، لا ، ولكننا نقول بكفّ عادية الناصحين ، فأكثر النصح ظلم وعدوان ، ومن أذعيا الأخلاق من يحتلق لخصومه طوائف من المساويء والعيوب ، ثم يمضى فيلبس ثياب الاتقياء ، وينقلب إلى واعظ يبكى على الفضيلة بدموع التماسيح . وأمثال هؤلاء تروج دعواتهم ، ويؤمنون ولهم سوق في عالم الأراجيف ، وقد يفسد الزمن فيكون لمفسدو آياتهم صوت مسموع ، وفي الدنيا شهداء راحوا ضحية هذه الدعاوى الباطلة ، دعاوى الحرص على الفضيلة

والأخلاق ، وبدعوى الفضيلة والخلق تُنتهَبُ حقوق ، وتَضِيعُ على أهلها حقوق

وهذا الذى نقول به تنبه له كبار الصوفية ، فقد كان الرجل إذا كره من أخيه خُلُقاً عاتبه فيما بينه وبينه ، أو كاتبه فى صحيفة . قال المكي : وهذا لعمرى فرق بين النصيحة والفضيحة ، فما كان فى السر فهو نصيحة ، وما كان فى العلانية فهو فضيحة ، وقلما تصح فيه النية لله تعالى لأن فيه شناعة (١)

وقد أفصح الغزالي عن ذلك حين قال :

« وروى فى الاسرائيليات أن أخوين عابدين كانا فى جبل ، ونزل أحدهما ليشترى من المصر لحماً بدرهم ، فرأى بَغِيَّةً عند اللحام فرمقها وعشقها واجتذبها إلى خلوة فواقعها ، ثم أقام عندها ثلاثاً ، واستحيا أن يرجع إلى أخيه حيّاً من جنائته ، فافتقده أخوه واهتم بشأنه ، فنزل الى المدينة فلم يزل يسأل عنه حتى دُلَّ عليه ، فدخل اليه وهو جالس معها فاعتقه وجعل يقبله ويلتزمه ، وأنكر الآخر أنه يعرفه لفرط استحيائه منه ، فقال : قم يا أخى . فقد علمت شأنك وقصتك ، وما كنت قطُّ أحبَّ إلىَّ ولا أعزَّ من ساعتك هذه . فلما رأى أن ذلك لم يسقطه من عينه قام فانصرف معه ،

قال الغزالي : فهذه طريقة قوم ، وهى ألطف وأفقه من طريقة أبى ذرٍّ رضى الله عنه ، وطريقته أحسن وأسلم . فان قلت : ولم قلت هذا ألطف وأفقه ومُقَارِفُ هذه المعصية لا تجوز مؤاخاته ابتداءً ، فتجب مقاطعته انتهاءً ، لأن الحكم إذا ثبت بعله فالقياس أن يزول بزوالها ، وعلة عقد الأخوة

التعاون في الدين ، ولا يستمر ذلك مع مُقَارَفَةِ المعصية ؟ فأقول : أما كونه ألطف فلما فيه من الرفق والاستمالة والتعطف المفضي إلى الرجوع والتوبة لاستمرار الحياء عند دوام الصحبة ، ومهما قوطع وانقطع طمعه في الصحبة أصر واستمر ، وأما كونه أفقه فمن حيث أن الأخوة عَقْدٌ يَنْزَلُ منزلة القرابة ، فاذا انعقدت تأكد الحق ، ووجب الوفاء بموجب العقد ، ومن الوفاء به أن لا يَهْمَلَ أيام حاجته وفقره ، وفقرُ الدين أشد من فقر المال ، وقد أصابته جائحة ، وأملت به آفة افتقر بسببها في دينه ، فينبغي أن يراقب ويراعى ولا يهمل ، بل لا يزال يُسَلِّطُف به لِيَعْمَانَ على الخلاص من تلك الواقعة التي أملت به ، فالأخوة عُدَّةٌ للنائبات وحوادث الزمان ، وهذا من أشد النوائب ، والفاجر إذا صحب تقياً وهو ينظر إلى خوفه ومداومته فسيرجع على قرب ، ويستحي من الاصرار ، بل السكسلان يصحب الحريص في العمل فيحرص حياءً منه (١) .

٧ — وعلى الصديق أن يعاتب صديقه إذا جَدَّ ما يوجب ذلك ، فمعاتبة الصديق خير من فقدته (٢) ومن واجب الرجل أن يصبر لأخيه ، ويشكر له ، ويحلم عنه (٣) وليتذكر أن من اقتضى اخوانه ما لا يقتضون منه فقد ظلمهم ، ومن اقتضى منهم ما يقتضون منه فقد أتعبهم ، ومن لم يقتضهم فقد تفضل عليهم (٤) . وعليه أن يزور صديقه ، وأن يشيِّعه حين يتفضل بزيارته ، وأن يسأل عنه حين يغيب ، فقد كان عطاء يقول : تفقدوا إخوانكم

(١) الاحياء ج ٢ ص ١٨٦ (٢) القوت ج ٤ ص ١٢٦ (٣) القوت ج ٤

ص ١١٩ (٤) القوت ص ١٢١

بعد ثلاث ، فان كانوا مَرْضَى فعودوهم ، وإن كانوا مشاغيل فأعينوهم ، وإن نسوا فذكروهم (١)

٨ — ومن الأدب أن يسكت الرجل عن ذكر عيوب الصديق في غيبته وحضرته ، وأن يسكت عن التجسس والسؤال عن أحواله ، وإذا رآه في طريق أو حاجة لم يفتحه بذكر غرضه من مصدره ومورده ، ولا يسأله عن وجهته ، فقد يثقل عليه ذلك أو يحتاج إلى أن يكذب فيه ، ومن الأدب أن يسكت عن أسرارہ التي بثها إليه ، ولا يثبتها إلى غيره ألبتة ، ولا إلى أخص أصدقائه ، ولا يكشف شيئاً منها ولو بعد القطيعة ، فان ذلك من لؤم الطبع ، وأن يسكت عن القدر في أحبابه وأهله وولده ، وأن يسكت عن حكاية قدح غيره فيه . ولا ينبغي أن يخفى ما يسمع من الثناء عليه ، فان السرور به ينحصر أولاً من المبلغ ، ثم من القائل ، وإخفاء ذلك من الحسد ، وخلاصة القول أنه يحسن السكوت عن كل كلام يكرهه الصديق جملة وتفصيلاً ، إلا إذا وجب عليه النطق في أمر بمعروف ، أو نهى عن منكر ، ولم يجد رخصةً في السكوت (٢) .

وهذه الآداب تدلّ على بصر الصوفية بأسرار النفوس ، فالمرء يجب بفطرته أن يحتفظ بأشياء كثيرة من شؤون الشخصيّة ، ويسوء أن يتعقب أسرار أخ أو صديق ، ومن الناس من يظن أن الصداقة تعطيه الحق في أن يعرف تفاصيل ما أنت عليه في شؤونك الوجدانية والمعاشية ، ويرى من سوء الرعاية أن تطوّر عنه بعض أخبارك ، ومنهم من يتوهم

أن الأدب يفرض عليه أن ينقل اليك ما يهمس به أعداؤك وحاسدوك ،
وينسى أن لذلك عواقب بعضها خطرٌ وبعضها قبيح ، فقد تتأرّثُ بذلك
عداوات كانت خمدتْ ، وقد يفُلُّ ذلك من عزم الصديق فيقتل حيويته
ويصدّه عن الكفاح المشروع ، ومن الأصدقاء من يحسب أن من حقه أن
يتعرض بالنقد والملام لأحبابك وأهلك وأبنائك ، وتلك ضروب من
الفضول لا يقع فيها رجل حصيف

٩ — وقد اهتم الصوفية اهتماماً خاصاً بتقريب الممارسة والمدافعة في كل
ما يتكلم به الصديق ، وحدثوا أن الرسول قال : مَنْ ترك المراءَ وهو مُبْطِلٌ
بُنِيَ لَهُ بَيْتٌ فِي رَبْضِ الْجَنَّةِ ، وَمَنْ تَرَكَ المراءَ وَهُوَ مُحِقٌّ بُنِيَ لَهُ بَيْتٌ فِي أَعْلَى
الْجَنَّةِ . هذا مع أن تَرْكَهُ مَبْطَلًا وَاجِبٌ ، وقد جعل ثواب الفضل أعظم
لأن السكوت عن الحق أشدَّ على النفس من السكوت عن الباطل . وعلى
الجملة فلا باعث على الممارسة إلا إظهار التميز بمزيد العقل والفضل . واحتقار
المردود عليه باظهار جهله ، وهذا يشتمل على التكبر والاحتقار والايذاء
والشتم بالحق والجهل ، ولا معنى للمعاداة إلا هذا (١)

وأشهد أن هذا الأدب من خير ما دعا إليه الصوفية ، وقد غفلتُ
عنه في حياتي الأدبية فأضعت جميع أصدقائي ، وأكاد أحكم بأن حَمَلَةَ
الأقلام في عصرنا هذا قَلَّ أن يبقى لهم صديق ، فباسم حرية الرأي وحرية
النقد ، وحرية النشر ، وحرية القول ، تقع كلمات وعبارات تأتي على المودة
من الأساس .

ولا أنكر أن في الجدل والمهارة فوائد تعليمية ، وباسم هذه الفوائد نرتكب من الشطط ما لا يُباح ، ولكن لا يمكن نكران ما في انهدام صروح المودّات من الخسران المبين .

وأذكر أني قمت وأنا طالب في الجامعة المصرية فماريت طالباً ألقى درساً من دروس التمرين ، وكانت ممارسة عنيفة غضب لها الأستاذ الدكتور منصور فهمي وأقبل يعاتبني في قسوة ، فقلت : إنى لا أضمر سوءاً لهذا الطالب فهو صديقي ، فقال الأستاذ : ما هكذا يُعامل الصديقُ الصديق !

ولو تأدبنا بأدب الصوفية في ترك المهارة لما شاهدنا كل يوم مَصْرَعاً في الحياة السياسية والاجتماعية ، ففي أكثر الأحزاب يَشُبُّ الخلاف وتَقْدُّ نيران المهارة ، ثم تصل إلى الصحف فيضيف لها اللغظ وقوداً إلى وقود ، وما هي إلا أيام حتى تستفحل العداوات بين أصدقاء كان تألفهم مضرب الأمثال .

وقد يقال إن ناساً تصاولوا في ميادين الأدب والسياسة ثم ظلوا أصدقاء وهذا صحيح ، ولكن من يضمن سلامة القلوب من الندوب التي يورثها الجدل العنيف ؟ هؤلاء لم يظلوا أصدقاء على نحو ما كانوا في سالف العهد ، ولكنهم يتجملون فيخفون العشب ويُظهرون الوداد .

١٠ — ولا يكتفى الصوفية بتقييح المهارة ، بل يوصون بترك الخلاف ، وكل صاحب تقول له : قم بنا ، ويقول إلى أين ؟ فليس بصاحب (١) والخلاف أصل كل فُرقة وهي لطيفة الشيطان في اقتراق المتحابين في الله (١)

وقال أبو سعيد الخراز : صحبت الصوفية خمسين سنة ما وقع بيني وبينهم خلاف ، فقليل له : وكيف ذاك ؟ فأجاب : لاني كنت معهم على نفسي (١)

١١ — والوفاء من شروط الاخاء ، وهو أن يكون الرجل لصديقه في غيبته ومن حيث لا يعلم ولا يبلغه مثل ما كان له في شهوده ومعاشرته ، ويكون له بعد موته ولأهله من بعده كما كان له في حياته ، وكان من الصالحين من يخلف أخاه في عماله بعد موته أربعين سنة لا يفقدون إلا وجهه ، ويقال إن مسروقاً أدان ديناً ثقيلاً وكان على أخيه خيشمة دين ، فذهب مسروق فقضى دين خيشمة وهو لا يعلم ، وذهب خيشمة فقضى دين مسروق سرّاً وهو لا يعلم . فمن حقيقة المؤاخاة في الله عز وجل إخلاص المودة بالغيب والشهادة ، واستواء القلب مع اللسان ، واعتدال السرّ مع العلانية في الجماعة والخلوّة ، فإذا لم يختلف ذلك فهو إخلاص الأخوة ، وإن اختلف فففيه مدهانة في الأخوة ، وممازقة في المودة ، وذلك دخل في الدين ، ولا يكون مع حقيقة الايمان (٢)

والصوفية لا يبدلون المودة لجميع الناس : فلا تصح مؤاخاة مبتدع في الله تعالى ، ولا محبة فاسق على فسوقه ، ولا محبة فقير أحب غنياً لأجل دنياه ، وقد تصح الأخوة بين العالم والجاهل ، وبين الصالح والطالح ، إذا صحت النية ، وكان للعالم رجاء في تعليم الجاهل ، وللصالح أمل في تقويم الطالح (٣)

وقال سهل بن عبد الله : اجتنب صحبة ثلاثة أصناف من الناس : الجبارة

(٢) قوت القلوب ج ٤ ص ١٢١

(١) المص ص ١٧٧

(٣) القوت ج ٤ ص ١٢٥

الغافلين ، والقراء المداهنين ، والمتصوفة الجاهلين (١)

ومع هذا التحرز يوصون عند المحبة بالقصد في الحب كما يوصون عند العداوة بالقصد في البغض ، عملاً بما روى عن علي : أحب حبيبك هوناً مّا عسى أن يكون بغيضك يوماً مّا ، وأبغض بغيضك هوناً مّا عسى أن يكون حبيبك يوماً مّا ، وتأدياً بقول عمر بن الخطاب : لا يكن حبك كلفاً ، وبُغضك تلفاً ، وقول أسلم في تفسيره : إذا أحببت فلا تكلف كما يكلف الصبيّ بالشئ يحبه ، وإذا أبغضت فلا تبغض بغيره تحب أن يتلف به صاحبك ويهلك (٢)

١٣ — والمحبة عند الصوفية عمل ، وكل عمل يحتاج إلى حسن خاتمة ، فمن لم يحسن عاقبة الصحبة أدركه سوء الخاتمة ، وبطل عنه ما كان عليه قبل ذلك (٣) .

١٤ — فان سأل القارىء : كيف تفرد الصوفية باطالة القول في أدب الأخوة ؟ فانا نجيب بأن فراغ حياتهم من الشواغل المادية مال بهم إلى الاكثار من الكلام عن الشواغل المعنوية ، والرجل الخلى البال من هموم المعاش يجد متسعاً من الوقت لتأمل آداب الصحبة والألفة ومعاملة الرجال أما الذين تكثر شواغلهم الدنيوية فينصرفون عن النوازع الوجدانية ، ولا يلتفتون إلى دقائق الخواطر والاشارات فيما يتصل بأدب التودد إلى الناس .

يضاف إلى هذا أن الصوفية يقفون عند المودة المنزّهة عن الأغراض

وهي مودة لا تخلو لها قلوب المشغولين من أهل المنافع ، الذين لا يبذلون
التحية إلا لغرض مكنون

وليتذكر القارئ أنا نكتب هذا وخواطرنا موزعة بين أشات من
شواغل الحياة ، فلسنا ندرك أغراض الصوفية على نحو ما كانوا يدركون ،
ومن المؤكد أن علائقهم فيما بينهم كانت تجلب اليهم ضروبا من المتع
والمسرّات لا تتيسّر لمن يقفون في ألفتهم عند الحدود الرسمية والمعاشية .

ولست أدري كيف يعسرُ على من يعيشون عيش الصخب والضجيج
أن تكون لهم جوانبُ روحية يخلون إليها من وقت الى وقت ليتنسّموا
روح الأانس والصفاء في ظلال المودة الخالصة والاخاء الأمين !

الحب الحب الحب !

بداية الصوفية في الحب — ظرف الصوفية — بين النوازع الحسية والعواطف الروحية —
تأييد الحب الحسى بالمعاني الدينية — فتنة الصوفية بالأحداث — هجوم ابن الجوزى عليهم —
رأى ابن القيم فى صبابه ابن داود — خوف الصوفية من أخطار الجمال — عزائم الصوفية
وأدبهم فى رياضة النفس — الدفاع عن الصوفية — رأى ابن القيم فى الجمال — صور
مبتكرة فى التنفير من الحب الأثيم — دعوة النفس الى حرب الهوى — بين العقل والدين .

١ — يجب أن يكون عنوان هذا الفصل على هذه الصورة ، فما أعرف
كلمة من أسماء المعانى شغلت الصوفية كما شغلتهم كلمة الحب ، ويكفى أن
تتذكر أن أناشيد الصوفية تدور كلها حول الحب ، وأن التصوف لا يصلح
إلا بفضل الحب ، ولا يفسد إلا بسبب الحب ، فالحب هو الأول والآخر
فى حياة أولئك الناس

وأغلب الظن عندى أن الصوفية ابتدأوا حياتهم بالحب الحسى ، ثم ترقوا
إلى الحب الروحى . والانتقال من حب الجمال إلى التصوف معقول ، ولا سيما
فى حالة الحرمان من المحبوب . والحرمان قد يكون من آثار التصون والتجمل
والعفاف ، ثم يصير بأصحابه إلى الضعف فلا ترى منهم غير الأنين والحنين .
وكذلك كان العذريون ، فهم فى الأغلب ضعفاء ، والضعف الحسى هو بداية
الإقبال على المعانى الروحية فى أكثر الأحوال (١)

(١) من الصوفية من صرح بأن عشق الغلمان وصور الحسان هو قنطرة الى عشق الإله .
وذلك الصوفى هو صدر الدين الشيرازى ، وهذا رأى الصريح كان من أسباب ثورة رجال =

وتمرّس الصوفية بالحب في مطلع الشباب هو السرّ فيما يظهر عليهم من معاني الظرف . وقد حدثوا أن أحد تلامذة ابن جابر الاشيبلي قال لغلام جميل الصورة : بالله أعطني قبلة تمسك رmq ، فشكاه الغلام إلى الشيخ وقال له يا سيدى ، قال لى هذا كذا ، فقال له الشيخ : وأعطيته ما طلب ؟ فقال : لا . فقال الشيخ : فما هذه الثقالة ؟ ما كفاك أن حرمة حتى تشتكى به أيضاً ؟ (١)

وكان ابن جابر هذا من المعروفين بالزهد والصلاح وخرج أبو حازم الصوفى يرمى الجمار ومعه قوم متعبدون وهو يكلمهم ويحدثهم ويقص عليهم فاذا هو بامرأة حاسر قد فتنت الناس بحسن وجهها ، وألهمتهم بجمالها ، فقال لها : يا هذه ، إنك بمشعر حرام ، وقد فتنت الناس وشغلتهن عن مناسكهم ، فاتقى الله واستترى ، فان الله عز وجل يقول فى كتابه العزيز (وليضربن بحمُرهن على جيوبهن) فقالت : يا أبا حازم ، إنى من اللاتى قال فيهن الشاعر :

== الدين عليه (انظر أطروحة أبى عبد الله الزنجانى ص ٢٥) .
والواقع أن الذين تاروا عليه لم يفهموا ما يرمى اليه ، فقد كان الرجل من القائلين بوحدة الوجود ، والصور الجميلة من أنفس العناصر فى الوحدة الوجودية ، وربما كان التأمل فيها هو الذى ألهم الصوفية فتنة القول بالحلول أو القول بوحدة الوجود .
وما نقول به يختلف عما يقول به الشيرازى بعض الاختلاف ، فالميل الى الجمال هو فى رأينا تربية للذوق تنتهى بالانتقال من المحسوس الى المعقول ، وهو عند الشيرازى خطوة أساسية فى سبيل الوصول ، إذ كان الجمال المحسوس جزءاً من الجمال المطلق الذى يتكون من المحسوس والمعقول .

والظاهر أن الشيرازى أجراً منا وأصرح

(١) نفح الطيب ج ٢ ص ٣٢٢

أما طت كساء الخزّ عن حروجهها وأرخت على المتنين برداً مهلهلاً
من اللاء لم يحججن يبعين حسبة ولكن ليقتلن البريء المغفلاً
فقال أبو حازم لأصحابه: تعالوا ندع الله لهذه الصورة الحسنة أن لا يعذبها
الله بالنار. فجعل أبو حازم يدعو وأصحابه يؤمّنون. فبلغ ذلك الشعبي
فقال: ما أرقكم يا أهل الحجاز وأظرفكم! أما والله لو كان من قرى العراق
لقال: اعزّبي عليك لعنة الله! (١)

ونحن نرى ذلك ظرفاً صوفياً قبل أن يكون ظرفاً حجازياً

والصوفية أنفسهم يعرفون محبتهم بالعلاقات الغرامية وفيهم من يعتذر
بأن الهوى لم يغز قلوبهم إلا لحكمة إلهية فيقول:

«إن الله جلّ ثناؤه إنما امتحن الناس بالهوى ليأخذوا أنفسهم بطاعة من
يهوونه، وليشقى عليهم سخطه، ويسرّهم رضائهم، فيستدلوا بذلك على قدر
طاعة الله عزّ وجلّ، إذ كان لا مثل له ولا نظير، وهو خالقهم غير محتاج
إليهم، ورازقهم مبتدئاً غير ممتّن عليهم، فإن أوجبوا على أنفسهم طاعة من
سواه، كان هو تعالى أحرى بأن يتّبع رضاه» (٢)

٣ — وهم يقيسون الحب الروحي بالحب الحسي، ويقولون: إذا استولى
الحب أدهش عن إدراك الألم، والتجربة أعدل شاهد على ذلك، ويذكرون
أن سمّون الحب قال: كان في جوارنا رجل له جارية يحبّها غاية الحب،
فاعتلت، فجلس الرجل يصنع لها حيساً، فبينما هو يحرك ما في القدر إذ قالت

(١) زهر الآداب ج ١ ص ١٥٢ والكشكول ص ١٢٩ وروضة المحبين ص ٢٤١

(٢) كتاب الزهرة ص ١٨

الجارية : آه ، فدهش الرجل وسقطت الملعقة من يده ، وجعل يحرك ما في
القدر بيده حتى تساقط لحم أصابعه وهو لا يحس بذلك

قال العامل — وهو من أنصار الصوفية — فهذا وأمثاله قد يصدق به
في حب المخلوق ، والتصديق به في حب الخالق أولى ، لأن البصيرة الباطنة
أصدق من البصر الظاهر ، وجمال الحضرة الربوبية أوفى من كل جمال ، فانه
الجمال الخالص البحت ، وكل جمال في العالم فهو مختلط ناقص (١)

٤ — وشعراء الصبوات هم ألسنة أرباب العوارف الروحية ، وقد سمع
أبو الفتح الأعور الصوفي هذا البيت

وجهك المأمول حجتنا يوم يأتي الناس بالحجج

فتواجد وصاح ودق صدره إلى أن أغشى عليه وسقط ، فلما انقضى المجلس
حركوه فوجدوه ميتاً ، فغسلوه ودفنوه

وهذا البيت الذي قتل رجلاً صوفياً هو من قطعة لرجل فاجر هو
عبد الصمد بن المعذل الذي يقول :

يا بديع الدّل والغنَج لك سلطان على المهج

إن بيتاً أنت ساكنه غير محتاج إلى السرج

وجهك المأمول حجتنا يوم يأتي الناس بالحجج

قال ابن أبي حجلة : « والصوفية إذا قالوا : وجهك المأمول حجتنا ،

نقلوه إلى ما لهم في ذلك من المعاني (٢) »

(١) الكشكول ص ٢٦٣

(٢) ديوان الصبابة ج ٢ ص ٧٠ على هامش تزيين الأسواق طبع سنة ١٢٩١ هـ

ونقل الانطاكي قول البها زهير في هجر الدلال :

عتب الحبيب فلم أجد سبباً لذلك العتب حادث
ما كنت أعلم أنه ممن تغيره الحوادث

ثم قال : وفي هذا الأصل كلام للعارفين ، وكلّ يأخذ ما يناسبه من
الإشارات ، والبهاء زهير لا يكثر عليه مثل هذا ، فلقد سمعت مولانا عارف
الوقت الشيخ شمس الدين البكري أدام الله مدده يقول : إنه كان إماما
عارفاً ، أو ذا لسان عارف (١) ،

فالبها زهير على هذا عارف القلب ، أو عارف اللسان ، أى أنه يتكلم
فيعبر عن المعاني الروحية بألفاظ حسية ، وكلّ الشعراء ذلك الرجل إن
شاء الصوفية

وقد يروق لهم أن يتعقبوا أخيلة الحسين بالنقد والتجريح ، كالذى
وقع لهم في لوم من ينالم في غيبة حبيبته ليرى طيف الخيال ، إذ قالوا : إن
تخصيص النوم بأنه يريهم أحببتهم ، نقصٌ بين في مودّتهم ، فإن الحال إذا
تمكنت لم تفرق الروحان ، وإن افرق الشخصان ، فالمحب المشاهد لصاحبه
على كل حال مستغن عن الاستعانة على إحضاره برؤية الخيال (٢)

وكيف تحتاج هذه اللبحة إلى تقييد ، ونحن نرى جمهور المؤلفين في الحب
والمحبين لا يخلون من نزعة صوفية ، فابن داود صاحب الزهرة ، وابن حزم
صاحب طوق الحمامة ، وابن القيم صاحب الروضة ، والانطاكي صاحب
تزيين الأسواق ، كل أولئك فيهم نفحات صوفية ، والجمع بين النزعة الحسية

(٢) الزهرة ص ٢٥٩

(١) تزيين الأسواق ج ٢ ص ٦٦

والروحانية يظهر لهم من الأمور التي لا تحتاج إلى جدل ولا تأويل
ولابن القيم في هذا مذهب طريف : فهو يذكر الأدب في الصبوة الحسية
ثم يؤيده بالأدب في العلاقة الروحية كأن يقول : ومن علامات الحب
إغضاؤه عند نظر محبوبه إليه ، ورميه بطرفه نحو الأرض ، وذلك من مهابته
له ، وحيائه منه ، وعظمته في صدره ، ولهذا يستهجن الملوك من يخاطبهم
وهو يحدّ النظر إليهم ، بل يكون خافض الطرف إلى الأرض ، قال تعالى
مخبراً عن كمال أدب رسوله في ليلة الاسراء (ما زاغ البصر وما طغى) وهذا
غاية الأدب ، فان البصر لم يزغ يميناً ولا شمالاً ، ولا طمح متجاوزاً إلى ما هو
رائيه ومقبل عليه كما لا تشارف إلى ما وراء ذلك ، ولهذا اشتد نهى النبي صلى
الله عليه وسلم للمصلي أن يزيغ بصره إلى السماء ... الخ ^(١) . وكأن يقول :
ومن علامات المحبة كثرة ذكر المحبوب واللهمج بذكره وحديثه ، فمن أحب
شيئاً أكثر من ذكره بقلبه ولسانه ، ولذلك أمر الله سبحانه عباده بذكره على
جميع الأحوال ، وأمرهم بذكره أخوف ما يكونون فقال تعالى (يا أيها الذين
آمنوا إذا قمتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون) والمحبون
يفتخرون بذكر أحبائهم وقت المخاوف وملاقاة الأعداء ، كما قال

ذكرتك والخطي يخطر بيننا وقد نهلت منا المثقفة السمر

وفي بعض الآثار الإلهية : إن عبدى كل عبدى يذكرنى وهو ملاق قرنه .
فعلامة المحبة الصادقة ذكر المحبوب في الرغب والرهب ، كما قال بعض المحبين
في محبوبته :

يذكرنيك الخير والشر والذي أخاف وأرجو والذي أتوقع ^(٢)

ه — قلت إن أكثر الصوفية عرفوا الحب الحسى فى مطلع الشباب ،
فلأذكر أن هذا هو السر فى التباس الأمر على فريق منهم عند التفرقة بين
الشهوات الحسية والمعنوية ، فظلوا يحنون الى الجمال المحسوس ، بحجة أنه
يقربهم الى الجمال المعقول « وإنما تسترت هذه الطائفة لهواها وشهواتها ،
وأوهمت أنها تنظر عبرة واستدلالاً ، حتى آل ببعضهم الأمر الى أن ظنوا أن
نظرتهم عبادة لأنهم ينظرون الى الجمال الالهي ، ويزعمون أن الله سبحانه
وتعالى عن قول النصارى يظهر فى تلك الصورة الجميلة ، ويجعلون هذا
طريقاً الى الله ، كما وقع فيه طوائف كثيرة ممن يدعى المعرفة
والسلوك (١) »

ومن رأى ابن الجوزى أن أكثر المتصوفة قد سدّوا على أنفسهم باب
النظر الى النساء الأجانب لبعدهم عن مصاحبتن ، وامتناعهم عن مخالطتهن ،
واشتغلوا بالتعبّد عن النكاح ، واتفقت صحبة الأحداث لهم على وجه
الارادة ، وقصد الزهادة ، فأماهم ابليس اليهم ، وهم فى ذلك على أقسام :
القسم الأول أخبت القوم وهم ناس تشبهوا بالصوفية ويقولون بالحلول ،
ويزعمون أن الحق تعالى اصطفى أجساماً حلّ فيها بمعنى الربوبية ، والقسم
الثانى قوم يتشبهون بالصوفية فى ملبسهم ويقصدون الفسق ، والقسم الثالث
قوم يستبيحون النظر الى المستحسن ، استثناساً بما روى عن الرسول :
اطلبوا الخير عند حسان الوجوه ، وقوله : ثلاثة تجلو البصر : النظر الى الخضر

(١) روضة المحبين ص ١٣٤ ومن هذا يظهر أن صدر الدين الشيرازى مسبوق الى القول
بأن عشق الجمال قنطرة الى عشق واجب الوجود .

والنظر الى الماء ، والنظر الى الوجه الحسن . وهما حديثان لا أصل لهما عن رسول الله . والقسم الرابع قوم يقولون : نحن لا ننظر نظر شهوة وإنما ننظر نظر اعتبار ، فلا يضرنا النظر ، وذلك في رأى ابن الجوزى محال (١)

٦ — وقد شغل ابن الجوزى نفسه بتعقب الصوفية ، فنقل عنهم حكايات غريبة ، وعلق عليها تعليقات تدلّ على بصر بدقائق علم النفس والأخلاق ، ولا بد لنا من عرض نماذج من ملاحظاته لأنها ثمرة من ثمرات التصوف ، وكل ما كتب للتصوف أو عليه فهو مظهر من آثاره في الحياة العقلية والذوقية .

نقل بسنده أن عبد الله بن الزبير الحنفى قال : كنت جالساً مع أبي النصر الغنوى وكان من المبرزين العابدين فنظر إلى غلام جميل فلم تزل عيناه واقعيتين عليه حتى دنا منه فقال : سألتك بالله السميع ، وعزه الرفيع ، وسلطاناه المنيع ، إلا وقفت على أروى من النظر اليك . فوقف قليلاً ثم ذهب ليمضى فقال له : سألتك بالله الحكيم المجيد ، الكريم المبدى المعيد ، إلا ما وقفت ! فوقف ساعة ، فأقبل يصعد النظر إليه ويصوّبه ، ثم ذهب ليمضى . فقال : سألتك بالواحد الأحد ، الجبار الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ، إلا وقفت ! فوقف ساعة فنظر إليه طويلاً ، ثم ذهب ليمضى ، فقال : سألتك باللطيف الخبير ، السميع البصير ، وبمن ليس له نظير ، إلا وقفت ! فوقف فأقبل ينظر إليه ثم أطرق رأسه إلى الأرض ، ومضى الغلام ، فرفع رأسه بعد طويل وهو يبكى فقال : قد ذكرنى هذا بنظرى وجها جل عن التشبيه ، وتقدس عن

التمثيل ، وتعاضل عن التحديد ، والله لأجهدن نفسي في بلوغ رضاه بمجاهدتي جميع أعدائه ، وموالاتي لأوليائه ، حتى أصير إلى ما أردته من نظري إلى وجهه الكريم ، وبهائه العظيم ، ولوددت أنه قد أراني وجهه وحسنه في النار ما دامت السموات والأرض . ثم غشى عليه

ونقل بسنده أن أحدهم قال : كنت مع محارب بن حسان الصوفي في مسجد الخيف ونحن محرمون ، فجلس إلينا غلام من أهل المغرب فرأيت محارباً ينظر إليه نظراً أنكرته ، فقلت له بعد أن قام : إنك محرم في شهر حرام في بلد حرام في مشعر حرام ، وقد رأيتك تنظر إلى هذا الغلام نظراً لا ينظره إلا المفتونون ! فقال لي : تقول هذا ، يا شهواني القلب والطرف ! ألم تعلم أنه قد منعني من الوقوع في شرك إبليس ثلاث ؟ فقلت : وما هي ؟ فقال : سرّ الايمان ، وعفة الاسلام . وأعظمها الحياء من الله تعالى أن يطلع علىّ وأنا جاثم على منكر نهاني عنه ، ثم صعق حتى اجتمع الناس علينا .

وهنا يقول ابن الجوزي في التعليق على هاتين الحادتين :

« انظروا إلى جهل الأحمق الأول ورمزه إلى التشبيه ، وإن تلفظ بالتنزيه ، وإلى حماقة هذا الثاني الذي ظنّ أن المعصية هي الفاحشة فقط ، وما علم أن نفس النظر بشهوة يحرم ، ومحا عن نفسه أثر الطبع بدعواه التي تكذبها شهوة النظر ^(١) »

وروى بسنده أن بعضهم قال : قلت لأبي الكميث الأندلسي وكان جواً لا

فى أرض الله : حدثنى بأعجب ما رأيت من الصوفية فقال : صحبت رجلاً منهم يقال له مهرجان ، وكان مجوسياً فأسلم وتصوف ، فرأيت معه غلاماً جميلاً لا يفارقه ، وكان إذا جاء الليل قام فصلى ثم ينام إلى جانبه ، ثم يقوم فزعا فيصلى ما قدر له ، ثم يعود فينام إلى جانبه ، حتى فعل ذلك مراراً ، فإذا أسفر الصبح أو كاد يسفر أوتر ، ثم رفع يديه وقال : اللهم إنك تعلم أن الليل مضى على سلبا لم أقترف فيه فاحشة ، ولا كتبت على فيه الحفظة معصية ، وأن الذى أضمره بقلبي لو حملته الجبال لتصدعت ، أو كان بالأرض لتدكدكت ، ثم يقول : يا ليل اشهد بما كان منى فيك ، فقد منعى خوف الله عن طلب الحرام ، والتعرض للآثام ، ثم يقول : سيدى ! أنت تجمع بيننا على تقى ، فلا تفرق بيننا فى يوم تجمع فيه الأحباب ! فأقمت معه مدة طويلة أراه يفعل ذلك فى كل ليلة ، وأسمع هذا القول منه . فلما هممت بالانصراف من عنده قلت له : سمعتك تقول إذا انقضى الليل كذا وكذا فقال : وسمعتنى ؟ قلت : نعم ! قال : فوالله يا أختى إنى لأدارى من قلبى ما لو داراه سلطان من رعيته لكان الله حقيقاً بالمغفرة له ، فقلت : وما الذى يدعوك إلى صحبة من تخاف على نفسك العنت من قبله ؟

ونقل بسنده أن أبا حمزة الصوفى قال :

رأيت بيت المقدس فى من الصوفية يصحب غلاماً مدة طويلة ، فمات الفتى وعال حزن الغلام عليه حتى صار جليداً وعظماً من الضنى والكمد ، فقلت له يوماً : لقد طال حزنك على صديقك ، حتى أظن أنك لا تسلو بعده أبداً فقال : كيف أسلو عن رجل أجل الله عز وجل أن يصيبه معى طريقة عين

أبدأ ، وصاننى عن نجاسة الفسوق فى خلال صحبتي له وخلواتى معه فى الليل والنهار .

ويقول ابن الجوزى فى التعقيب على هاتين القصتين :

هولاء قوم رأهم إبليس لا ينجذبون معه إلى الفواحش فحسن لهم بداياتها فتعجلوا لذة النظر والصحبة والمحادثة وعزموا على مقاومة النفس فى صدها عن الفاحشة ، فان صدقوا وتم لهم ذلك فقد اشتغل القلب الذى ينبغى أن يكون شغله بالله تعالى لا بغيره ، وصرف الزمان الذى ينبغى أن يخلو فيه القلب بما ينفع فى الآخرة بمجاهدة الطبع فى كفه عن الفاحشة ، وهذا كله جهل وخروج عن آداب الشرع ، فان الله عز وجل أمر بغض البصر لأنه طريق إلى القلب ، ليسلم القلب لله تعالى من شائب يخاف منه ، ومماثل هؤلاء إلا كمثل من أقبل إلى سباع فى غيضة وهى متشاعلة عنه لا تراه ، فأثارها وحاربها وقاومها ، فيأبعد سلامته من جراحه إن لم يهلك (١)

واستطرد ابن الجوزى فذكر أنه كان ببلاد فارس صوفى كبير فابتلى بحدث فلم يملك نفسه أن دعه إلى فاحشة فراقب الله عز وجل ثم ندم على هذه الهمة وكان منزله على مكان عال ووراء منزله بحر من الماء ، فلما أخذته الندامة صعد السطح ورمى بنفسه إلى الماء وتلا قوله تعالى (فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم) فغرق فى البحر .

قال ابن الجوزى : انظر إلى إبليس كيف درج هذا المسكين من رؤية هذا الأمر ، وإدمان النظر إليه ، إلى أن مكّن المحبة من قلبه ، وإلى أن

حرّضه على الفاحشة ، فلما رأى استعصامه حسن له بالجهل قتل نفسه فقتل نفسه ، ولعله همّ بالفاحشة ولم يعزم ، والهمة مغفوّ عنها لقوله عليه السلام : عفى لآمتى عما حدثت به نفوسها ، ثم إنه ندم على همته والندم توبة ، فأراه إبليس أن من تمام الندم قتل نفسه كما فعل بنو إسرائيل ، فأولئك أمروا بقوله تعالى (فاقتلوا أنفسكم) ونحن نهينا عنه بقوله تعالى (ولا تقتلوا أنفسكم) فلقد أتى بكبيرة عظيمة ، وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : من تردّى من جبل فقتل نفسه فهو يتردّى في نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا (١)

ونقل أن يوسف بن الحسين كان يقول : كل ما رأيتموني أفعله فافعلوه إلا صحة الأحداث فانها فتنة الفتن ، ولقد عاهدت ربى أكثر من مائة مرة أن لا أصحب حدثا ففسخها على حسن الخدود ، وقوام القدود ، وغنج العيون ، وما سألتني الله معهم عن معصية ، وأنشد قول مسلم بن الوليد في معنى ذلك :

إن ورد الخدود والحدق النج ل وما في الثغور من أقحوان
واعوجاج الأصداغ في ظاهر الخد وما في الصدور من رمان
تركتني بين الغواني صريعا فلماذا أدعى صريع الغواني
وفي التعقيب على هذا التصريح الفاتك يقول ابن الجوزي :

«هذا الرجل قد فضح نفسه في شيء ستره الله عليه ، وأخبر أنه كلما رأى فتنة نقض التوبة ، فأين عزائم التصوف في حمل النفس على المشاق ؟ ثم ظن

بجهله أن المعصية هي الفاحشة فقط ، ولو كان له علم لعلم أن صحبتهم والنظر اليهم معصية ، فانظر إلى الجهل كيف يصنع بأربابه (١) »

وقد أطلنا الاقتباس من ابن الجوزي لأن الصفحات التي كتبها في هذا الموضوع من خير ما قرأنا في الدراسات النفسية والخلقية ، ولأنها تصور ما كان يعرض للصوفية من الحيرة المطبقة في تفهم الفروق بين مسالك الرشد والغنى ، ومعالم الهدى والضلال .

٧ — وقد فصل ابن القيم أحوال المحبين ، وعرض لمن عرفوا بالتصون والعفاف ، فقال عن محمد بن داود الأصهباني ، وكان من أهل المروءة والدين ، ومن أصدق الناس في العشق العفيف :

« وأما قصة محمد بن داود الأصهباني فغايتها ان تكون من سعيه المعفو المغفور ، لا من عمله المشكور ، وسلط الناس بذلك على عرضه ، والله يغفر لنا وله ، فانه تعرض بالنظر إلى السقم الذي صار به صاحب فراش ، وهذا لو كان بمن يساح له لكان نقصاً وعيياً ، فكيف من صبي أجنبي ؟ وأرضاه الشيطان بحبه والنظر اليه عن موصلته ، إذ لم يطمع في ذلك منه ، فنال منه ما عرف أن كيده لا يتجاوزه ، وجعله قدوة لمن يأثم به بعده كأبي محمد بن حزم الظاهري وغيره ، وكيد الشيطان أدق من هذا » (٢)

وهذا نظر قريب من نظر ابن الجوزي ، ويمتاز مع ذلك بالتلطف والرفق فهو يعترف بعفاف ابن داود ولكنه لا يجعله قدوة لمن سواه ، وحسب ابن

(١) التلبيس ص ٢٧٣

(٢) روضة المحبين ص ١٤٣

داود من السلامة أن لا يحشر في زمرة الآثمين .

٨ — ونستطيع الجزم بأن صحبة الأحداث كانت من الفتن الظاهرة في حياة الصوفية ، وكانت لهم في هذا الباب كنيات ، من ذلك قولهم للغلام الصبيح (شاهد) ومعناهم فيه أنه لحسن صورته شهيد بقدرة الله عز اسمه على ما يشاء ، ويحكى أن أصحاب أبي على الثقفي تحاموا لفظة (الشاهد) بين يديه هيبة له ، فتواصو فيما بينهم أن يقولوا للغلام الصبيح (حجة) فاتفق أنهم صحبوه في بعض الطريق فترأى لهم من بعيد غلام فقال أحدهم (حجة) وهو يظن أن أبا على لا يفتن لمغزاه ، فلما قرب الغلام منهم كان غير مليح فالتفت أبو على إليهم وقال : داحضة (١)

ويؤيد هذا أن أكثر من ألفوا في التصوف عرضوا لهذه المسألة وأطالوا في الزجر والترهيب ، وقد عقد لها القشيري فصلا قال فيه :
« ومن أصعب الآفات في هذه الطريقة صحبة الأحداث ، ومن ابتلاه الله بشيء من ذلك فباجماع الشيوخ ذلك عبد أهانه الله عز وجل وخذله ، بل عن نفسه شغله ، ولو بألف كرامة أهله ، وهب أنه بلغ رتبة الشهداء ...
أليس قد شغل ذلك القلب بمخلوق ؟ وأصعب من ذلك تهوين ذلك على القلب ، حتى يعدّ ذلك يسيرا ، وقد قال الله تعالى : وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم . وهذا الواسطي رحمه الله يقول : اذا اراد الله هو ان عبد ألقاه الى هؤلاء الأتتان والجيف . سمعت أبا عبد الله الصوفي يقول سمعت محمد بن أحمد النجار يقول سمعت أبا عبد الله الحصري يقول سمعت فتحا الموصلي

يقول : صحبت ثلاثين شيخا كانوا يعدّون من الأبدال ، كلهم أوصوني عند فراقى إياهم وقالوا : اتق معاشرّة الأحداث ومخالطتهم . . . فليحذر المرید من صحبة الأحداث ومخالطتهم ، فان الیسیر منه فتح باب الخذلان ، وبدء حال الهجران ، ونعوذ بالله من قضاء السوء (١) .

ونظر محمد بن أسباط الصوفی الى أبي المثنى الشيباني وقد نظر في وجه غلام مليح فقال : إدمان النظر ، يكشف الخبر ، ويفضح البشر ، ويطول به المكث في سقر (٢) .

وقال المعلى الصوفی : شكوت إلى بعض الزهاد فساداً أجده في قلبي ، فقال : هل نظرت الى شيء فتأقت اليه نفسك ؟ قلت : نعم ! قال : احفظ عينيك ، فانك إن أطلقتهما أوقعتك في مكروه ، وإن ملكتهما ملكت سائر جوارحك . (٣)

وقال مسلم الخواص لمحمد بن علي الصوفی : أوصني ، فقال : أوصيك بتقوى الله في أمرك كله ، وإيثار ما يحب على محبتك ، وإيّاك والنظر الى كل ما دعاك اليه طرفك ، وشوقك اليه قلبك ، فانهما إن ملكاك لم تملك شيئاً من جوارحك ، حتى تبلغ بهما ما يطالبانك به ، وإن ملكتهما كنت الداعي لهما الى ما أردت ، فلا يعصيان لك أمراً ، ولا يردّان لك قولاً (٤)

وقال الأسود بن طالوت : نظر الى أبو عمر الصوفی وقد أطلت النظر الى غلام جميل ، فقال : ويحك ، إن طرفك لعظيم ما اجتني من البلاء ، قد عرضك للمكروه وطول العناء ، لقد نظرت الى حنف قاتل للقلوب ، وبلاء

مظهر للعيوب ، وعار فاضح للنفوس ، ومكروه مذهل للعقول ، أكلّ هذا لاغترار بالله جرأك عليه حتى أمنت مكروهه ، ولم تخف كيده ؟ اعلم أنك لم تكن في وقت من أوقاتك ، ولا حالة من حالاتك ، أقرب الى عقوبة الله منك في حالتك هذه ، ولو أخذك لم يخلصك الثقلان ، ولم يقبل فيك شفاعة إنس ولا جان (١)

ورأى بعض الزهاد صوفيا يضحك الى غلام جميل فقال له : يا خرب القلب ويا خرب الطرف ، أما تستحي من كرام كاتبين ، وملائكة حافظين ، يحفظون الأفعال ، ويكتبون الأعمال ، وينظرون اليك ، ويشهدون عليك ، بالبلاء الظاهر ، والغل الدخيل المخامر ، الذى أقمت نفسك فيه مقام من لا يبالي من وقف عليه ، ونظر من الخلق اليه (٢)

٩ — ولكن ما دلالة هذه الشواغل ؟ هى بلا جدال باب من الأخلاق والمخلصون من الصوفية عرفوا خطر هذه المزالق الوجدانية ، وتنبهوا الى خطرها فى عالم الأخلاق .

ولابن الجوزى أن يقول فيهم ما شاء ، فلن ينكر أحد أن هؤلاء القوم وقفوا موقف التحرز والخوف من فتن جائحة كانت تقتل الكرامات والعزائم والنفوس فى كثير من الاندية الأدبية والسياسية . وكانوا وحدهم أصحاب الضمائر فى عهد كان فيها استهزاء الغلمان شريعة من شرائع الاجتماع .

وهل من القليل أن يتواصى الصوفية بالحرز من صحبة الأحداث فى أزمنة كان يشتري فيها الغلمان المتخبرون ليمسوا زينة القصور فى قرطبة

والقاهرة ودمشق وبغداد ؟

إن من سوء الرعاية أن نغفل أثر هذا التحرز في عالم الأخلاق ، لقد كان الصوفية يؤاخذون على النظرة في أيام كانت تكتب فيها أخبار الفسق والمجون بعبارات مكشوفة ينكرها الأدب ويأبأها الحياء .

ومن الذى يضمن أن يكون ابن الجوزى صادقا في كل ما كتب عن مغامر الصوفية ؟

أولئك قوم كانت لهم في شبابهم صبوات ، فلما منّ الله عليهم بالتوبة والهداية ظلّ خصومهم يتذكرون ماضيهم ، ويضيفون إليه ما شاء الإِفْك والبهتان ، ليغضّوا من أقدارهم وليصرفوا عنهم الناس

ونحن مع ذلك لا ننكر أن من الصوفية من زلت أقدامهم في صحبة الأحداث ، فالعصمة لله وحده ، وادعاء العصمة هو في ذاته وقاحة خلقية ، ولا يدعى التصون المطلق إلا خادع أو مخدوع ، ولكن من المكابرة أن نجحد ما أثر عن الصوفية من الفضل في هذا الباب ، وهل في الأدب كله كلمة أبلغ وأفصح وأنصح وأصدق من قول الواسطى طيّب الله ثراه :

« إذا أراد الله هو أن عبد ألقاه إلى هؤلاء الأتتان والجيف ! »

أترون كيف تضطرم نار الغيرة على الكرامة في أحشاء هذه الحروف ؟ وهل رأيتم صدقا أكرم وجهاً من صدق هذا المعنى ؟ هل رأيتم احتقاراً للشهوات الحسية أعنف من هذا الاحتقار ؟ رأيتم كيف تكون بلاغة من من خبر الدنيا ، وعرف مكارهاها ، وتبين عناصر الشر فيها ، واهتدى إلى معالم النجاة والهلاك ؟

الحق أن هذه المسألة في غاية الدقة : فالصوفية على خطر ، وناقدهم على خطر
الصوفية على خطر : لأن الاعتبار بالجمال قد يكون وسوسة خفية من
مكر الشيطان

وناقدهم على خطر : لأن الاحساس بروعة الجمال قد يكون باباً إلى صقل
النفس والوجدان

وقد يكون الماضي كله ضلالة من الضلالات يوم تنكشف الحقائق ،
ويتبين أن الوجود كله معقود الأواصر بقوة كهربائية لا نملك منها الفرار ،
قد يظهر يوماً أننا لا نملك الرغبة ، ولا نملك الزهد ، وإنما نحن مسخرون
في وجود عجيب يربطنا بقوة قاهرة حول تيارات من الحسن والقبح . إنه
ليوم عصيب ، ذلك اليوم الذي نعرف فيه أننا لا نملك غير الثثرة ، وأن
قانون الوجود يسخرنا كما يشاء ، وأن تاريخ المذاهب الأخلاقية لم يكن إلا
مظهراً من مظاهر ذلك القانون

أترون الرجل يخرج على مألوف العرف وهو طائع ؟ أترونه يشور على
التقاليد الدينية والاجتماعية وهو مطلق الاختيار والحرية ؟ ولماذا
لا يكون هذا النزاع بين الغواية والهداية نزاعاً فرضته تلك القوة
الكهربائية التي لم نعرف من أسرارها إلا شيئاً يشبه السراب حين يتمثل
في الأحلام ؟

ثم ما رأيكم في هذه الفلسفة ؟ أترونها نوعاً من الشطح ؟ ليكن ذلك ،
فنحن من تلاميذ الصوفية ، وهم أقدر الناس على الشطح والهيام في أودية
الخيال !

ولكن حذار أن تشكروا أن الفتن التي اصطدم بها الصوفية كانت مما لا يمكن تحاشيه في هذا العالم الغريب ، إن الدنيا خلقت كما شاء البارئ أن تخلق ، ففيها الخير والشر ، والرشد والغى ، والهدى والضلال ، وفيها ما شاء البارئ من السم والترىاق ، فانظروا كيف شئتم ، ولكن تأدبوا ، وتذكروا أن النار إن سلطت عليكم فستحولكم إلى رماد مهين ، مهما اعتصم بالفروض والظنون قولوا ، إن شئتم ، إن هناك قوانين أخلاقية عاش بفضلها العالم إلى اليوم ثم تذكروا أن هناك شيئاً اسمه الوقاحة ، وشيئاً اسمه الحياء ، فإن وصلتكم إلى هذه الغاية فاعترفوا ، إن كنتم منصفين ، أن الصوفية تفردوا بين الناس بالحرص على فضيلة الحياء

إن الوسوسة الخلقية هي في ذاتها أدب عظيم ، والصوفية هم الذين ملأوا الدنيا بالتنفير من فتنة الجمال ، والجمال في ذاته نفحة إلهية ، ولكن الفسق يحوله إلى عصارة قدرة لا يسكن إليها رجل في شمائله ذوق ، وفي روحه صفاء وكيف كان الفسق قدراً مع أنه من النتائج الطبيعية لنظام الأرواح والأبدان ؟

عند هذه المشكلة تتبين رغبة الإنسانية في الكمال المطلق ، فالفسق لا يقع إلا بسبب نزعتين : الاستعلاء الآثم من جانب ، والاستخذاء الساقط من جانب ، ولا كذلك العفاف فانه لا يكون إلا بفضل عاطفتين شريفتين : الإبقاء الكريم من جانب ، والإباء النبيل من جانب

فان قلتم : وكيف اعترفت بهذه المصطلحات ؟ فاني أجيب بأن بقاءها على هذه الأزمنة الطوال يدل على أن تلك القوة الكهربائية لها في بقائها سرٌّ

خاص . وحين يصح أن هناك فروقا جوهرية بين التحليق والاسفاف في عالم الأخلاق فسنعرف أن الصوفية كانوا أشرف الناس

على أن التحرز فيه معنى المقاومة ، والمقاومة من أصول التغلب في هذا الوجود ، ولو قد نظر ابن الجوزى هذه النظرة لعرف فضل هذا المعنى في قصة ذلك الصوفي الذي ابتلى بحب الجمال المحسوس ثم قاوم وغالب حتى فارق الحياة وهو نقى الثياب

وإننا لندرجو القارئ أن يرحمنا من تهمة التعصب للصوفية ، فنحن — يشهد الله — لا نحب إلا الوقوف في صف المظلومين ، والصوفية قاسوا من الظلم ألوانا كثيرة ، منها اتهامهم بالفسق والمجون ، ومن ؟ من ناس يتركون قصور الوزراء والأمراء والملوك تعج بالدنس والرفث والقدارة والرجس ، ثم يوجهون جهودهم الى حرب طائفة من الفقراء الذين لا يجدون الكفاف إلا بشق الأنفس في هذا العالم السخيف

يرحمكم الله ، أيها المؤلفون في الاخلاق ، فأكثركم من أهل الجبن والتلفيق وأى مظهر للجبن أقبح وأبشع من أن تصنف الكتب الطوال العراض في مثالب الصوفية ، على حين يترك الملوك الظالمون في العصور الماضية بلا رقيب ولا حسيب ؟

أين ما وضع ابن الجوزى وأمثاله في نقد الاستبداد ، وكان يعيش في عصر لا تحترم فيه ملكية ولا تحفظ حقوق ؟ أين ما كتب هؤلاء المتفهبون في الفساد الخلقي والاجتماعي الذي كان يندلع لهيبه من قصور الامراء والوزراء ؟ أين ما دونوا من أصول الاخلاق القومية والدولية في أزمان طغى فيها تيار

المطامع الاجنبية ، وتعرضت ديار العرب والاسلام للخراب والايقواء ؟
إن الفقير كان ولا يزال مكشوف العورات ، والغنى منذ الزمن القديم
يستر العيوب . ألم نجد ناسا ينكرون أن يكون الرشيد عرف مجالس الشراب ؟
ولكن ما هذا ؟ لعلنا نسرف في اتهام الانسانية بايثار الملق والمداهنة
والرياء ؟

إن الصوفية كانوا دعاة الاخلاق ، فمن واجب الناس أن ينبهوهم إلى
ما ينزلون فيه ، ومن حق الناس أن يحسدوهم على دعوى التفرد بالشرف
والاستقامة والتدين ، فالصوفية هم الذين خلقوا أسباب الحسد ، وهم الذين
دعوا الناس إلى محاسبتهم على ما يقولون وما يعملون

أما الملوك والأمراء والوزراء فلم يكن فيهم من يدعى أنه نموذج في
الأخلاق ، ولهذا سكنت عنهم أكثر المؤلفين في الأخلاق ، وأريد المؤلفين
المخلصين ، أما المنافقون فلم يكن لهم بد من مداراة أصحاب الملك ، وأرباب
الجاه والثراء

لكل إنسان أن يعيش كيف يشاء ، وعلى الله حساب الناس فيما يسرون
وما يعلنون ، ولكن ليحذر من ينصب نفسه داعية للخلق الجميل ، فإن الناس
سيحاسبونه على كل صغيرة وكبيرة ، وسيقولون فيه كل شيء ، بالحق وبالباطل ،
فلينظر أين يضع قدمه ، وأين يوجه خطراته النفسية والروحية ، وكيف تكون
صلته بالله وصلته بخلق الله . إن الدعوة إلى الخلق الجميل كالدعوة إلى الدين
الحق ، وقد رأينا كيف عانى الانبياء ، من ظلم الجاهلين والسفهاء ، فمن تسامت

نفسه إلى الدعوة إلى البر والشرف فليوطن نفسه على احتمال الضيم والاذى والعقوق

١٠ — ولنقيد أن هذه الازمات لا تقع إلا حين تكون الريب والشبهات ، فإذا صفت النفس ، وأمن المرید من عنف الشهوة ، فإن الصوفية يطلقون لأخيلتهم العنان في تصوير الجمال ، وقد تحفظ ابن القيم ما شاء أن يتحفظ ولكنه عقد فصلاً مهماً في كتاب (روضة المحبين) وهو الفصل التاسع عشر الذى تكلم فيه عن « فضيلة الجمال ، وميل النفوس إليه على كل حال » وقد قسم الجمال إلى قسمين ، ظاهر وباطن ، وبين أن الجمال الباطن هو المحبوب لذاته ، وهو جمال العلم والعقل والجود والعفة والشجاعة ، وهذا الجمال الباطن هو محل نظر الله من عبده وموضع محبته ، وهو يزين الصورة الظاهرة وإن لم تكن ذات جمال . وأما الجمال الظاهر فزينة خص الله بها بعض الصور عن بعض ، وهى من زيادة الخلق التى قال الله تعالى فيها (يزيد فى الخلق ما يشاء)

قال ابن القيم : وكما أن الجمال الباطن من أعظم نعم الله تعالى على عبده فالجمال الظاهر نعمة منه أيضاً على عبده ، فإن شكره بتقواه وصيائته ازداد جمالا على جماله ، وإن استعمل جماله فى معاصيه سبحانه قلبه له شيئاً ظاهراً فى الدنيا قبل الآخرة ، فتعود تلك المحاسن وحشة وقبحاً وشيناً ، وينفر عنه من رآه ، فكل من لم يتق الله عز وجل فى حسنه وجماله انقلب قبحاً وشيناً يشينه بين الناس ، فحسن الباطن يعلو قبح الظاهر ويستتره ، وقبح الباطن يعلو جمال الظاهر ويستتره (١)

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو الناس إلى جمال الباطن بجمال الظاهر
كما قال جرير بن عبد الله — وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يسميه يوسف
هذه الأمة — قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنت امرؤ قد
حسن الله خلقك فأحسن خلقك (١)

وقال بعض الحكماء : ينبغي للعبد أن ينظر كل يوم فى المرأة ، فان رأى
صورته حسنة لم يشنها بقبيح فعله ، وإن رآها قبيحة لم يجمع بين قبح الصورة
وقبح الفعل (١)

١١ — ومن الواجب أن نتأمل ما فى هذا الكلام من التربية الخلقية ،
فإن القيم يجعل الحسن الظاهر من طيبات الأرزاق ، ولكنه يشترط لذلك
أن يحسن الخلق ويكمل الدين ، وهو يلح فى هذا المعنى بصيغ مختلفة من
التأكيد ، ويستشهد بكلام الرسول وكلام الحكماء

وهذا التأكيد يدل على قوة الحاسة الخلقية ، فالحسن الفاجر هو فى الواقع
حسن وضع ، وفى الخلق السليم جمال أبرع من الجمال المحسوس ، والمعنويات
فى جوهرها أشرف من المحسوسات ، والعقل الصحيح يتمثل المحسوس من
صور التقريب للمعقول ، والجمال الحسى لا يمكن أن يكون غاية إلا عند أهل
الضعة والاسفاف من طلاب الدون فى عالم الشهوات

والجمع بين المعقول والمحسوس هو غاية الغايات ، ولا يتفق ذلك إلا
حين يشاء الله أن يسبغ نعمه على بعض العباد ، كالذى وقع فى حياة محمد بن
عبد الله ويوسف بن يعقوب

١٢ — ويمضى ابن القيم فيقول : ولما كان الجمال من حيث هو محبوباً للنفوس ، معظماً في القلوب ، لم يبعث الله نبياً إلا جميل الصورة ، حسن الوجه ، كريم الحسب ، حسن الصوت ، كذا قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم أجمل خلق الله وأحسنهم وجهاً ، كما قال البراء بن عازب رضى الله عنه وقد سئل : أكان وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل السيف ؟ قال : لا ، بل مثل القمر . وفي صفته صلى الله عليه وسلم : كأن الشمس تجري في وجهه . يقول واصفه : لم أر قبله ولا بعده مثله . . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستحب أن يكون الرسول الذي يرسل إليه حسن الوجه ، حسن الاسم ، وكان يقول : إذا أبردتم إلى بريداً فليكن حسن الوجه ، حسن الاسم . وقد روى الخرائطي من حديث ابن جريج عن ابن أبي مليكة عن ابن عباس رضى الله عنهما يرفعه : من آتاه الله وجهاً حسناً ، واسماً حسناً ، وخلقاً حسناً ، وجعله في موضع غير شائن له ، فهو من صفوة الله من خلقه . وقال وهب قال داود : يا رب ، أىّ عبادك أحب إليك ؟ قال : مؤمن حسن الصورة . قال : فأى عبادك أبغض إليك ؟ قال : كافر قبيح الصورة . ويذكر عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ينتظره نفر من أصحابه على الباب فجعل ينظر في الماء ويسوى شعره ولحيته ، ثم خرج اليهم ، فقلت : يا رسول الله ، وأنت تفعل هذا ؟ قال : نعم ! إذا خرج الرجل إلى إخوانه فليهيئ من نفسه ، فإن الله جميل يحب الجمال ... ودخلت امرأة جميلة على الحسن البصرى فقالت : يا أبا سعيد ،

أجلّ للرجال أن يتزوجوا على النساء ؟ قال : نعم . فقالت : وعلى مثلي ؟ ثم دلت ، فقال الحسن : ما على رجل كانت هذه في زاوية بيته ما فاته من الدنيا (١)

وكذلك يدور ابن القيم حول الجمال يمدحه ويطريه ويصف به أشرف الناس ، وما كان لنا أن نهتم بهذا لولا دلالة على نزعة أصيلة من نزعات الصوفية : فالنبي جميل ، والله جميل ، وصفوة الله من خلقه هم المؤمنون من أهل الجمال .

وأظرف موقف في هذه الأحاديث هو موقف الحسن البصري وقد رأى تلك الحسناء ، والحسن البصري هو إمام الصوفية ، وهو مع ذلك يعرف كيف يقول :

« ما على رجل كانت هذه في زاوية بيته ما فاته من الدنيا »

وهي عبارة بصرية تمثل اللفظة والشوق الى أفنان الجمال

١٣ — أولئك هم الصوفية ، وتلك نظراتهم الى صباحة الوجوه ، أفلا يكون لذلك أثر في فهمهم للأدب وتصورهم للأخلاق ؟

وكيف يمكن أن لا تؤثر هذه النزعات في اتجاهاتهم الخلقية والأدبية ؟ إن الخلق يصدر عن النفس ، والأدب ينبع من القلب ، وأمثال هذه النفوس والقلوب لا تفيض الا بالرحيق السلسيل في الأدب والأخلاق . ولا يمكن أن يمتري منصف في قوة الخلق عند أولئك القوم ، وإن جهد ناس في رميهم بالخصيات ، أما الأدب فحسبهم من التفوق فيه أن تفردوا بالاخلاص ،

(١) تخيرنا هذه الشواهد من الصفحات ٢٣٨ — ٢٤٢ من روضة الحبين

والاخلاص هو أساس العظمة في جميع الميادين .

١٤ — واهتمام الصوفية بالجمال ساقهم الى فن من الأدب الرفيع : هو الكلام عن فضل العفاف ، وكلامهم فيهم مزاج من الأدب والأخلاق ، ومن الصحف الباقية ما كتبه ابن القيم عن عفاف يوسف ، إذ بين « أن الداعي الذي اجتمع في حقه لم يجتمع في حق غيره ، فانه صلى الله عليه وسلم كان شابا ، والشباب مركب الشهوة ، وكان عزبا ليس عنده ما يعوضه ، وكان غريبا عن أهله ووطنه ، والمقيم بين أهله وأصحابه يستحي منهم أن يعلموا به فيسقط من عيونهم ، فاذا تغرب زال هذا المانع ، وكان في صورة المملوك والعبد لا يأنف مما يأنف منه الحر ، وكانت المرأة ذات منصب وجمال ، والداعي مع ذلك أقوى من داعي من ليس كذلك ، وكانت هي المطالبة فيزول بذلك كلفة تعرض الرجل وطلبه وخوفه من عدم الاجابة ، وزادت مع الطلب الرغبة التامة والمرادة التي يزول معها ظن الامتحان والاختبار لتعلم عفافه من فجوره ، وكانت في محل سلطانها وبيتها بحيث تعرف وقت الامكان ومكانه الذي لا تناله العيون ، وزادت مع ذلك تغليق الأبواب لتأمين هجوم الداخل على بغته ، وأتته بالرغبة والرهبة ، ومع هذا كله عفا لله ولم يطعها ، وقدّم حق الله وحق سيده على ذلك كله ، وهذا أمر لو ابتلى به سواه لم يعلم كيف كانت تكون حاله (١) »

إن حوادث الصوفية في الحب العفيف كانت تروى ، وهي آيات من الأدب الممتع ، وأى جمال فات هذه القصة ، وقد رواها المبرد بسنده عن

رجاء بن عمرو النخعي قال :

كان بالكوفة فتى جميل الوجه ، شديد التعب والاجتهاد ، فنزل في جوار قوم من النخع فنظر الى جارية جميلة فهويا وهام بها عقله ، ونزل بالجارية ما نزل به ، فأرسل يخطبها من أيها ، فأخبره أبوها أنها مسماة لابن عم لها ، فلما اشتد عليهما ما يقاسيانه من ألم الهوى أرسلت اليه الجارية : قد بلغني شدة محبتك لي ، وقد اشتد بلائي بك ، فان شئت زرتك ، وإن شئت سهلت لك أن تأتيني الى منزلي ، فقال للرسول : ولا واحدة من هاتين الخلتين ، إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم ، أخاف ناراً لا يخبو سعيها ، ولا يخمد لهيها ، فلما أبلغها الرسول قوله قالت : وأراه مع هذا يخاف الله ؟ والله ما أحد أحق بهذا من أحد ، وإن العباد فيه لمشتركون . ثم انخلعت من الدنيا وألقت علائقها خلف ظهرها وجعلت تتعبد ، وهى مع ذلك تذوب وتنحل حبا للفتى وشوقا اليه حتى ماتت من ذلك ، فكان الفتى يأتي قبرها فيسكى عنده ، ويدعو لها ، فغلبته عينه ذات يوم على قبرها فرآها فى منامه فى أحسن منظر ، فقال : كيف أنت ، وما لقيت بعدى ؟ فقالت : نعم المحبة يا سؤلى محبتكم حباً يقود الى خير وإحسان

فقال : على ذلك ، إلام صرت ؟ فقالت :

الى نعم وعيش لازوال له فى جنة الخلد ملك ليس بالفانى

فقال لها : اذكريني هناك ، فانى لست أنساك . فقالت : ولا أنا والله أنساك ، ولقد سألت مولاي ومولاك أن يجمع بيننا فأعنى على ذلك بالاجتهاد . فقال لها : متى أراك ؟ فقالت : ستأتينا عن قريب فترانا ، فلم

يعيش الفتى بعد الرؤيا الا سبع ليال حتى مات رحمة الله (١)

فهذه القصة من وضع الصوفية ، وهى من القصص التعليمية التى ألفت لرياضة النفس على إِبْثار العفاف ، وهى — على جمال مغزاها من الوجهة الخلقية — متخيرة الألفاظ ، بارعة الخيال

وأجمل من هذه القصة وأمتع ما حدثوا أن امرأة جميلة كانت بمكة ، وكان لها زوج ، فنظرت يوماً الى وجهها فى المرأة فقالت لزوجها : أترى أحداً يرى هذا الوجه ولا يفتن . ؟ قال : نعم . قالت : من ؟ قال : عبيد بن عمير . قالت : فائذن لى فيه فلا فتنته ! قال : قد أذنت لك . فأنته كالمستفتية ، فخلا معها فى ناحية من المسجد الحرام ، فأسفرت عن وجه مثل فلقة القمر ، فقال لها : يا أمة الله ، استترى ! فقالت : إني قد فتنت بك ! فقال : إني سائلك عن شىء ، فان أنت صدقتى نظرت فى أمرى . قالت : لا تسألنى عن شىء إلا صدقتى . قال : أخبرينى لو أن ملك الموت أتاك ليقبض روحك ، أكان يسرك أن أقضى لك هذه الحاجة ؟ قالت : اللهم لا . قال : صدقت ، فلو دخلت قبرك وأجلست للمساءلة ، أكان يسرك أنى قضيتها لك ؟ قالت : اللهم لا . قال : صدقت ، فلو أن الناس أعطوا كتبهم ولا تدرين أتأخذين كتابك يمينك أم بشمالك ، أكان يسرك أنى قضيتها لك ؟ قالت : اللهم لا . قال : صدقت ، فلو أردت الممرّ على الصراط ولا تدرين هل تنجين أو لا تنجين ، أكان يسرك أنى قضيتها لك ؟ قالت : اللهم لا . قال : صدقت ، فلو جىء بالميزان وجىء بك فلا تدرين أيخف ميزانك أم يثقل ، أكان يسرك أنى

قضيتها لك ؟ قالت : اللهم لا . قال : صدقت ، فلو وقفت بين يدي الله للسائلة
أكان يسرك أنى قضيتها لك ؟ قالت : اللهم لا . قال : صدقت . ثم قال : اتقى
الله فقد أنعم عليك ، وأحسن إليك

فرجعت الى زوجها فقال : ما صنعت ؟ فقالت : أنت بطل ونحن بطالون !
وأقبلت على الصلاة والصوم والعبادة ، فكان زوجها يقول : ما لي
ولعبيد بن عمير ، أفسد على امرأتى ، كانت فى ليلة عروساً فصيرها راهبة (١)
أرايتم ما فى هذه القصة من وجوه التربية الخلقية ؟

إن هذا الفن من الأقايص هو من وضع الصوفية ومن نحنا نحوهم
من أهل الزهد والعفاف ، وهو بما فيه من عناصر الصدق والاخلاص خليف
بمطاردة ما وضع المفسدون من أخبار الفسق والمجون ، فإن لم يكن الصوفية
خلقوا هذا الفن فهم الذين أحيوه وأذاعوه ، فاليهم الفضل فى حياته على كل
حال ، وهو فضل ليس بالقليل .

١٥ — ويتصل بهذا روايتهم للأخبار القصيرة التى تردع الهوى ، وتردّد
شارد العقل ، من أمثال هذه الكلمات :

قال ابراهيم بن أبى بكر بن عياش : شهدت أبى عند الموت فبكيت ،
فقال : ما يبكيك ؟ فما أتى أبوك فاحشة قط . وقال عمر بن حفص بن غياث :
لما حضرت أبى الوفاة أغمى عليه فبكيت عند رأسه ، فقال لى حين أفاق :
ما يبكيك ؟ قلت : أبكى لفراقك ، ولما دخلت فيه من هذا الأمر — يعنى
القضاء — فقال : لا تبك ، فانى ما حللت سراويلي على حرام قط ، ولا جلس

(١) روضة المحبين ص ٣٦٤ وتأمل كلمة (راهبة)

بين يديّ خصمان فباليت على من توجه الحكيم عليه منهما . وقال سفيان ابن أحمد : شهدت الهيثم بن جميل وهو يموت ، وقد سجّى نحو القبلة ، فقامت جارية تغمز رجله ، فقال اغمزيهما ، فان الله يعلم أنهما ما مشتا إلى حرام قط (١)

ولهذه الكلمات نظائر كثيرة جدا ، وهى تؤيد ما ذهبنا اليه من أن اهتمام الصوفية بالجمال ساقهم إلى فنون ممتعة من صور الأدب والأخلاق .

ولكن هل وقف الصوفية فى حرب الهوى عند ابتداع هذه الأقايص ؟ هيات ! فقد وضعوا طرائق للرياضة النفسية تعدّ من أبداع الدساتير فى عالم الأخلاق ، وهم يوصون مدمنى الشهوات بملاحظة الأمور الآتية ، وهى كفيلة بتخليص أسير الهوى من براثن الشيطان :

الأول — عزيمة حرّ يغار لنفسه وعليها .

الثانى — جرعة صبر يصبر نفسه على مرارتها تلك الساعة

الثالث — قوة نفس تشجعه على شرب تلك الجرعة ، والشجاعة كلها

صبر ساعة ، وخير العيش ما أدركه العبد بصبره .

الرابع — ملاحظته حسن موقع العاقبة ، والشفاء بتلك الجرعة .

الخامس — ملاحظته الألم الزائد على لذة طاعة هوام

السادس — إبقاؤه على منزلته عند الله تعالى وفى قلوب عباده ، وهو

خير وأنفع له من لذة مرافقة الهوى .

السابع — إثارة لذة العفة وعزتها وحلاوتها على لذة المعصية

الثامن — فرحه بغلبة عدوه، وقهره له . ورده خائباً بغيظه وغمه وهمه ،
حيث لم ينل منه أمنيته^(١)

التاسع — التفكير في أنه لم يخلق للهوى ، وإنما هيء لأمر عظيم لا يناله
إلا بمعصية الهوى .

العاشر — أن لا يختار لنفسه أن يكون الحيوان البهيم أحسن حالا منه ،
فان الحيوان يميز بطبعه بين مواقع ما يضره وما ينفعه ، فيؤثر النافع على
الضار ، والانسان أعطى العقل لهذا المعنى^(٢)

الحادى عشر — أن يسير بفكره في عواقب الهوى : فيتأمل كم أفاتت
معصيته من فضيلة ، وكم أوقعت في رذيلة ، وكم أكلت منعت أكالات ، وكم
من لذة فوتت لذات ، وكم من شهوة كسرت جاها ، ونكست رأسا ، وقبحت
ذكرا ، وأورثت ذما ، وألزمت عارا لا يغسله الماء ، غير أن عين الهوى عمياء
الثانى عشر — أن يتصور العاقل انقضاء غرضه من يهواه ، ثم يتصور
حاله بعد قضاء الوطر ، وما فاته وما حصل له

الثالث عشر — أن يتصور ذلك في حق غيره حق التصور ، ثم ينزل
نفسه تلك المنزلة ، فحكم الشيء حكم نظيره .

الرابع عشر — أن يتفكر فيما تطالبه به نفسه من ذلك ، ويسأل عنه
عقله ودينه يخبرانه بأنه ليس بشيء

الخامس عشر — أن يأنف لنفسه من ذل طاعة الهوى ، فانه ما أطاع

(١) العدو في هذا المقام هو الشيطان

(٢) أى أن ما يدركه البهيم يجب أن يدركه الرجل بالعقل

أحد هواه إلاّ وجد في نفسه ذلاً ، ولا يغترّ بصولة أتباع الهوى وكبرهم ، فهم أذل الناس بواطن ، قد جمعوا بين السكبر والذل .

السادس عشر — أن يوازن بين سلامة الدين والعرض والمال والجاه ، وبين نيل اللذة المطلوبة ، فإنه لا يجد بينهما نسبة ألبتة ، فليعلم أنه من أسفه الناس ببيعته هذا بهذا .

السابع عشر — أن يأنف لنفسه أن يكون تحت قهر عدوه ، فإن الشيطان اذا رأى من العبد ضعف عزيمة وسقوط همة وميلا إلى هواه طمع فيه وصرعه وألجمه بلجام الهوى وساقه حيث أراد ، ومتى أحس منه بقوة عزم وشرف نفس وعلو همة لم يطمع فيه الا اختلاساً وسرقة .

الثامن عشر — أن يعلم أن الهوى ما خالط شيئاً الا أفسده ، فان وقع في العلم أخرجه الى البدعة والضلالة ، وصار صاحبه من جملة أهل الآهواء ، وإن وقع في الزهد أخرج صاحبه الى الرياء ومخالفة السنة ، وإن وقع في الحكم أخرج صاحبه إلى الظلم وصدّه عن الحق ، وإن وقع في القسمة خرجت عن قسمة العدل الى قسمة الجور ، وإن وقع في الولاية والعزل أخرج صاحبه الى خيانة الله والمسلمين حيث يولى بهواه ، ويعزل بهواه ، وإن وقع في العبادة خرجت عن أن تكون طاعة وقربة ، فما قارن الهوى شيئاً إلا أفسده .

التاسع عشر — أن يعلم أن الشيطان ليس له مدخل على ابن آدم إلا من باب هواه ، فانه يطيف به ليعرف أين يدخل عليه حتى يفسد قلبه وأعماله فلا يجد مدخلا إلا من باب الهوى فيسرى منه سريان السم في الأعضاء .

العشرون — أن يتذكر أن مخالفة الهوى تورث العبد قوة في بدنه وقوة

فى لسانه ، وأن أغزر الناس مروءة أشدهم مخالفة لهواه ، وأنه ما من يوم إلا والهوى والعقل يعتلجان ، فأيهما قوى على صاحبه طرده وتحكم وكان الحكم له ، وأن الله سبحانه جعل الخطأ واتباع الهوى قرينين ، وجعل الصواب ومخالفة الهوى قرينين

الحادى والعشرون - أن يعرف أن الهوى تخليط ومخالفته حمية ، وأنه يخاف على من أفرط فى التخليط وجانب الحمية أن يصرعه دأؤه . وأن الهوى رق فى القلب ، وغل فى العنق ، وقيد فى الرجل ، ومتابعه أسير ، فمن خالقه عتق من رقه وصار حراً ، وخلع الغل من عنقه ، والقيد من رجله ، واستطاع مسaire الصالحين^(١)

١٦ - وهذه الأمور لخصناها من كلام مطول أثبتته ابن القيم فى نهاية كتابه الممتع (روضة المحبين) وقد وصل به اجتهاده الى نحو خمسين وسيلة لدعوة النفس الى حرب الهوى . وفى هذه الشواهد مقنع لمن يمتري فى مزج الصوفية بين العقل والدين ، فهم لا يعتمدون على الشرع وحده ، وإنما يجعلون الكرامة الانسانية مما تنصب له الموازين ، وهل كان الشرع فى جوهره إلا مبعث يقظة للعقل والوجدان ؟

(١) انظر روضة المحبين ص ٥٠٣ - ٥١٧

الموسيقا والغناء

فضل الموسيقى في التذكير بعالم الأرواح — اختلاف الناس في فهم الصور المعنوية للموسيقا والغناء — الألحان في الأغاني الدينية وفي القرآن — رأى الصوفية في السماع — حسن النية وشرف القصد هما الأساس في إباحة الغناء — بين الفقهاء والصوفية — طرائق الانشاد في مجالس الذكر — مجالس الصوفية تنقلب أحياناً إلى مجالس فنية — أثر الغناء في الأدب — بين الرمز والانفصاح .

١ — ليس من المبالغة أن نحكم بأن الصوفية تفردوا بين أهل الأدب والأخلاق بالتجويد في الموسيقا والغناء ، فهم الذين نظروا في ذلك نظراً فلسفياً وهم الذين جعلوا الموسيقا والغناء من المشاكل الخلقية وهم الذين صيروا إنشاد الشعر في المحافل العلنية باباً من الأدب الرفيع .

٢ — ولنبدأ هذا الفصل بتحليل الحوار الممتع الذي وضعه إخوان الصفا في فضل الأنغام الموسيقية ، فهو يمثل فهم الصوفية لأثر الموسيقا في تثقيف الأرواح والقلوب .

حدثوا أن جماعة من الحكماء والفلاسفة اجتمعوا في دعوة ملك من الملوك فأمر أن يكتب كل ما يتكلمون به من الحكمة ، فلما غنى الموسيقار لحناً مطرباً قال أحد الحكماء : إن للغناء فضيلة يتعذر على المنطق إظهارها ولم يقدر على إخراجها بالعبارة فأخرجها النفس لحناً موزوناً فلما سمعتها الطبيعة استلذتها وفرحت وسرّت بها فاسمعوا من النفس حديثها ومناجاتها .

وقال آخر : احذروا عند استماع الموسيقى أن تثور بكم شهوات النفس
البيمية نحو زينة الطبيعة فتميل بكم عن سنن الهوى وتصدكم عن مناجاة
النفس العليا .

وقال آخر للموسيقار : حرّك النفس نحو قواها الشريفة من الحلم
والجود والشجاعة والعدل والكرم والراقة ، ودع الطبيعة لا تحرك شهواتها
البيمية .

وقال آخر : الموسيقار إذا كان حاذقا بصنعيته حرك النفوس نحو الفضائل
ونفى عنها الرذائل .

وقال آخر : سمع فليسوف نغمة القينات فقال لتلميذه : امض بنا نحو
هذا الموسيقار لعله يفيدنا صورة شريفة ، فلما قرب منه سمع لحناً غير
موزون ونغمة غير طيبة فقال لتلميذه : زعم أهل الكهانة أن صوت البوم
يدل على موت إنسان ، فإن كان ما قالوا صدقا فصوت هذا الموسيقار يدل
على موت البوم !

وقال آخر : الموسيقار وإن كان ليس بحيوان فهو ناطق فصيح يخبر عن
أسرار النفوس وضماير القلوب (١)

وقال آخر : لا يفهم معاني الموسيقار ولطيف عبارته عن أسرار الغيوب
إلا النفوس الشريفة الصافية من الشوائب الطبيعية ، والبريئة من الشهوات
البيمية .

(١) الموسيقار في هذه العبارة هو الآلة الموسيقية

وقال آخر : إن النفوس الناطقة إذا صفت عن الشهوات الجسمانية ، وزهدت في الملائذ الطبيعية ، وانجلت عنها الأصدية الهولانية ، ترنمت بالألحان الحزينة ، وتذكرت عالمها الروحاني الشريف العالی وتشوفت نحوه فإذا سمعت الطبيعة ذلك اللحن تعرضت للنفس بزينة أشكالها ، وروثق أصباغها ، كيما تردّها إليها ، فاحذروا من مكر الطبيعة أن تقعوا في شبكتها .

وقال آخر : انما تشخص أبصار الناظرين إلى الوجوه الحسان لأنها أثر من عالم النفس ، ولأن عامة المراتب في هذا العالم غير حسان لما يعرض لها من الآفات الشائنة المشوهة ، إما في أصل التركيب أو بعده . وبيان ذلك أن الصغار من المواليد يكونون ألطف بنيةً وأظرف شكلاً وصورةً لقرب عهدها من فراغ الصانع منها ، وهكذا حكم ما يرى من حسن الثياب ورونقها في مبدأ كونها قبل الآفات العارضة لها من الهوام والبلى والفساد .

٣ — تلك فقرات قصيرة من الحوار الطويل الذي كتبه إخوان الصفا في فضل الموسيقى والغناء^(١) ولم ننقل الحوار برمته لأن منهج البحث لا يحتم ذلك . ويكفي أن ندل القارئ على الغرض الذي وُضع لأجله ذلك الحوار وهذه الفقرات تشير إلى أنهم يتمثلون أصولاً روحانيةً للهيكل الجسمانية ، ويتصورون أن الغناء قد يوجه النفس إلى الخير حيناً ، وإلى الشر أحياناً ، يوجهها إلى الخير حين ينبه الموسيقار إلى الواجب الأشرف في تحريك النفوس نحو قواها الشريفة من الحلم والجود والشجاعة والعدل ، ويوجهها إلى الشر حين يتغنى بالشهوات الحسية فيثير في النفس أسباب الشوق إلى موارد الغنى والضلال .

(١) انظر المحاوردة كاملة في رسائل إخوان الصفا ج ١ ص ١٧٥ — ١٧٩

وإخوان الصفا من الصوفية ، وإن لم يصرحوا بذلك ، وهم يستشهدون بكلام أهل التصوف في مواطن كثيرة ، وفي هذا الباب نقلوا من نوادرهم ما يؤيد رأيهم في اختلاف التأثيرات الموسيقية باختلاف النفوس . وهم يرون أن « كل نفس إذا سمعت من الأوصاف ما يشاكل معشوقها ، ومن النغمات ما يلائم محبوبها ، فرحت وسُرَّت والتذت بحسب ما تصورت من رسوم معشوقها ، واعتقدت في محبوبها ، وتلك المعشوقات تختلف باختلاف الطباع ، فللطبع السليم معشوقات روحانية ، وللطبع العليل معشوقات أرضية ، وقد صرحوا بأن أبصار الناظرين تشخص الى الوجوه الحسان لأنها أثرت من عالم النفس . كأن ذلك العالم كله جمال . وعلى هذا الأساس يكون الغناء العذب تذكيراً بالمحاسن المغيبة في عالم الروح .

٤ — والحق أن الغناء كان منذ الزمن القديم عنصراً حياً في التقاليد الدينية ، وكان من الأنبياء من يعتمد على صوته الجميل في جذب الناس ، ففي الحديث أن داود عليه السلام قد أُعطي حسن الصوت حتى كان يستمع لقراءته إذا قرأ الزبور الجن والانس والوحش والطيور ^(١) وكان بنو إسرائيل يجتمعون فيستمعون ، وكان يحمل من مجلسه أربعمئة جنازة ممن قد مات ^(٢) .

ولا تزال الكنائس المسيحية منذ نشأتها الأولى عامرة بالأناشيد ، وللكنائس الفرنسية تأثير في الموسيقى والغناء يعرفه من يهتم باللوحات الغنائية وقد جمعت عدداً وفيراً من أناشيد الرهبان ، ولا سيما الأناشيد المعروفة بالجرىجوارية

والقرآن نفسه لُحْنٌ وقُرِئَ بالألحان منذ عهد الرسول، وصحَّ للجاحظ أن يحكم بأن القراءة بالألحان غير الغناء (١).

وكذلك درج الصوفية على مدح الصوت الحسن فكان ذو النون يراه مخاطبات وإشارات إلى الحق أودعها كل طيّب وطيبة (٢) وكان يحيى بن معاذ يراه رَوْحَةً من الله لقلب فيه حبّ الله (٣)

هـ — وأهم ما امتاز به الصوفية هو التحرز في السماع وهم يكرهونه إذا تطرق إلى الغرض منه الفساد والمخالفة واللهو وترك الحدود (٤) وعندهم ما يسمى السماع بالحال ، والذي يسمع بحاله يتأمل إذا سمع حتى يرد عليه عمى من ذكر عتاب أو خطاب ، أو ذكر وصل أو هجر ، أو قرب أو بعد ، أو تأسّف على فائت ، أو تعطش إلى ما هو آت ، أو ذكر طمع ، أو يأس أو بأس ، أو بسط أو استئناس ، أو خوف الاقتراق ، أو وفاء بالعهد ، أو تصديق بالوعد ، أو نقض للعهد ، أو ذكر قلق أو اشتتاق ، أو فرح الاتصال ، أو ترح الانفصال ، أو التحسر على ما لم ينل ، أو القنوط من الذى أمل ، أو ذكر صفاء المحبة ، أو التمكن من المودة ، أو ذكر اعتراض الصبوة بعد تمكنه من الخطوة ، أو ذكر محافظة الرقيب عند ملاحظة الحبيب ، أو تباريح الشجون ، وفنون الفتون ، فاذا طرق سمعه من ذلك حال مما يوافق حاله فيكون كالقдах يقدره في سره على قدر قوة إرادته فيعجز عن الضبط (٥)

(١) وهناك رأى يقول بأن فوآخ السور في القرآن هي علامات موسيقية . وقد شرحت

هذا رأى في كتاب النثر الفني ج ١ ص ٤١

(٤) ص ٢٧٨

(٣) ص ٢٧٣ و ٢٧٦

(٢) اللع ص ٢٦٩

وعندهم السماع بالحق ومن الحق ، والذي يسمع بالحق ومن الحق لا يلتفت إلى هذه الأحوال ، لأنها وإن كانت شريفة فهي ممزوجة بحظوظ البشرية ، والذين يكون سماعهم بالله ولله ومن الله وإلى الله هم الذين وصلوا إلى الحقائق وعَبَرُوا الأحوال ، وَفَتَّوْا عن الأفعال والأقوال ، ووصلوا إلى محض الإخلاص وصفاء التوحيد ، فخدمت بشرتهم ، وفنيت حظوظهم ، وبقيت حقوقهم ، فشهدوا موارد الحق بالحق بلا علة ولا حظ للبشرية ، وأطلعهم تلك الموارد على أسرار حكمته ، وأرتم آثار قدرته ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء (١)

٦ — وينبغي أن تذكر أن الصوفية تفردوا بين رجال الدين بالتشيع للموسيقا والغناء ، فمن الفقهاء من يرى أن الغناء هو مكروه يراد به الباطل ويقضى بأن من استكثر منه فهو سفيه تردُّ شهادته (٢) ، وذلك الفقيه هو الشافعي رحمه الله . أما مالك فقد نهى عن الغناء وقال : إذا اشتري جارية فوجدها مغنية كان له ردُّها ، وهو مذهب سائر أهل المدينة إلا إبراهيم بن سعد (٣) وأما أبو حنيفة فكان يجعل سماع الغناء من الذنوب (٤)

أما الصوفية فقد أقبلوا على الغناء ، ولم يشترطوا إلا حسن النية ، وشرف القصد ، وتفردت الطريقة المولوية باستجازه العزف على الآلات الموسيقية على اختلاف أنواعها أثناء مجلس الذكر ، وكان لهذه الطريقة أشياع في الأقطار الفارسية والتركية ، وكان لهم في مصر تكية في حي السيوفية بالقاهرة وكانت لهم حضرة أسبوعية يتشوف إليها المولعون بالموسيقا والغناء ، وقد

(١) انظر اللمع ص ٢٧٩ (٢) الاحياء ج ٢ ص ٢٦٧ (٣) الاحياء ج ٢ ص ٢٦٨

أغلقت الحكومة المصرية تلك التكية ، ورأينا يوم إغلاقها جماعة من أهل الأدب يعترضون في الجرائد على حرمان الموسيقي من براعة أولئك القوم (١) .

والذى يراجع كتب التصوف يراها تفيض بالكلام عن الوجد والسماع وآداب المستمعين . وفي كتاب الاحياء فصل تمتع لخصته وناقشته في كتاب الأخلاق عند الغزالي (٢) ولا أرى العود إلى تلخيصه في هذا الحديث ، ويكفى أن يتذكر القارىء أن عناية الصوفية بالكتابة عن الموسيقى والغناء فيها وساوس كثيرة تمثل عنايتهم بالفنون وحرصهم على الأخلاق (٣)

٧ — أما طريقة التغنى في مجالس الصوفية فقد بينها الأستاذ التفتازانى في مقال نشره في مجلة المعرفة — عدد يونيه سنة ١٩٣١ — وهو يقول :

« إن الصوفية درجوا منذ القديم على أن يبدأوا مجالس الذكر بـ (لا إله إلا الله) وتُعرف عندهم بالأرضية ، ويأخذ (الرسيم) الذى هو رئيس المجلس فى التدرج بالذاكرين أثناءها من الراسـت « الرصد » إلى الدوكة إلى السيكاه إلى الجهر كاه (الجر كاه) إلى الحجاز ثم الرهاوى فالكردى

(١) ذهبت مرة لسماع أولئك القوم واسكن الشيخ محمد عبد المطلب رحمه الله صادفنى فى الطريق فصرفتنى عن ذلك الغرض وكانت حجته أنهم مبتدعون ، فضاعت بذلك فرصة ما أظنها تعود .

(٢) ص ٢٦٨ — ٢٧٤

(٣) كان ابن القيم فى أغلب أحواله من خصوم الصوفية وقد أنكر عليهم حب الغناء ، وهو يسمى الغناء (قرآن الشيطان) ويستشهد بقول ابن مسعود « الغناء ينبت النفاق فى القلب كما ينبت الماء البقل » ويذكر أنه شاهد ثقل القرآن على أهل الغناء والسماع (مدارج السالكين ج ١ ص ٢٧٥) والحق أن رأى ابن القيم فى هذه القضية لا يخلو من اعتساف ، فحلاوة القرآن لا توجب أن تخف النفوس لسماعه فى كل وقت ، لأن النفوس لا تستعد للجد فى كل حين ، فقد صاغها الله من ألوان مختلفات .

فالياتى فالصبا . وهنا تبدو مقدرة الرئيس فى نقل الذاكرين من نعمة إلى نعمة كما تبدو مقدرة المنشدين فى متابعتهم للانغام والانشاد . والغالب فى الانشاد على الأرضية أن يكون من كلام الصوفية كقولهم :

إلهى توسلنا بجاه محمد نبيك وهو السيد المتواضع
أنلنا مع الأحباب رؤيتك التى إليها قلوب الأولياء تسارع

إلى آخر القصيدة ، ثم ينفرد رئيس المنشدين بعد الوصول إلى نعمة الرصد أو إلى النعمة التى ينتهى عندها إنشاد القصيدة بالاستغانة (أغننا أدركننا يا رسول الله) ثم يقول الموّال من نفس النعمة ، فالآيات التى سينشدها عند قيام المجلس من نفس النعمة أيضاً ينشدها على الأرض مقطّعة وعند قيام الذاكرين يكرر الآيات بالطريقة المألوفة ، ثم ينفرد بعد ذلك بالمقطعات والقصائد والرقائق وما إليها من كلام الصوفية . وقد يستريح بعضهم أن ينشد الأدوار الموسيقية بمذاهبها وورودها المعروفة على مجلس الذكر ، ولكن هذه الطريقة قاهرية محضة ، ويكاد لا يتبعها إلا رجال الطريقة اللبثية أصحاب الفضل على هذا الفن وأساتذة مبرّزيه وحمله ألوّيته فى القاهرة منذ مائتى عام »

٨ — وقد لاحظت أن مجالس الصوفية كانت تنقلب أحيانا إلى مجالس فنية ، فهى مجالسٌ تعقد ظاهراً لذكر الله ، ولكن الغرض منها الغناء . فقد كان فى حىّ الحسين منزل تقام فيه حضرة كل ليلة ثلثاء . وكان ذكر الله فى الصورة الشكلية يتولاه طائفة من العجزة عجزة الدروايش ، أما نظام المجلس فيقوم على فن الشيخ حسن الحويحى ، وكان منشداً حلو الصوت ،

عذب الأداء ، خفيف الروح ، وكان ينشد في الحضرة أبياتاً من شعر ابن الفارض ، مثل :

ما بين معترك الأحداق والمهيج أنا القليل بلا إثم ولا حرج

ثم يندفع فيغنى « آنست يا نور الوجود ، شرفت يا روح المهجة ، بعد البعاد أنا قلبى عليك » أو « السكمال فى الملاح صُدَف » إلى آخر الأغاني الطريفة التى كانت تغنى فى الليالى الملاح .

وكنت ألاحظ أن أهل ذلك المنزل يجعلون ليلة الحضرة ليلة قصف فيجمعون خلاصتهم حول الموائد ويتندرون بأطياب الأحاديث .

وكان المستمعون يقترحون « الأدوار » على نحو ما كانوا يفعلون فى حفلات الضرب والأنس . وقد اقترح بعضهم دور « حود من هنا وتعال عندنا » فغضب الشيخ الحويجى وقال : نحن لسنا فى الأزبكية ... أما أنا فكنت أفهم من شواهد الحال أن الأزبكية ليست منهم ببعيد !

وكان الشيخ الحويجى ريحانة عصره ، فلما انتقل إلى جوار ربه تعطلت تلك الحضرة ، فما استطاع منشد آخر أن يجذب القلوب إلى ذلك المسكان (١)

(١) هو بيت الصواف ، وكان له فناء واسع تقوم فيه عدة نخلات ، وفى ذلك الفناء تقوم الحضرة على الحصر ، وفى الأبهاء يجلس المدعوون الخصوصيون على الأرائك وبالقرب منه كان بيت الشيخ مصلح ، وكان صوفياً متأقفاً يعيش عيش المترفين ، وكانت الحضرة تقام فى بيته ليلة الاثنين ، وما كان فيها ذكر ولا أناشيد ، وإنما كان يجتمع القراء المشهورون لقراءة القرآن بالألحان . وكان القراء يجدون الفرصة لتكوين سمعتهم بين الجماهير ، قبل أن تخلق الإذاعة الإسلامية بأعوام طوال . والشيخ مصلح مدفون بقرية الشيخ عبيد بجوار المطرية ، وقد حدثنى الاستاذ محمد لطفى جمعة أن بيته لا يزال معموراً بمريديه القدماء .

٩ — وكانت مجالس الذكر مدرسة لتخريج المغنين ففيها ظهرت تباشير النبوغ للمرحومين عبده الحامولى ومحمد عثمان وسلامة حجازى ويوسف المنيلوى وسيد درويش . وفى القرى المصرية مئات من قراء الموالد هم فى الأصل من أتباع الصوفية .

١٠ — واهتمام الصوفية بالغناء عاد على الأدب بكثير من النفع : فهناك مجموعات شعرية وضعت لحفظ الأناشيد الصوفية ، منها سفينة النجاة ، وهى مجموعة صنفّت منذ عشرين عاما ، صنفها الأديب محمود نسيم ، وقد عاوته على ترتيبها يوم كنت موصول العهد بالسادة الشاذلية .

وقد انتقل فريق من تلك الأناشيد إلى الأغانى الحسية ، أغانى المرح والطرب فى عالم الحس الذى يتاخم عالم الروح . ومنذ ليال كان صالح عبد الحى يغنى فى قاعة المذبايع :

إن شكوت الهوى فما أنت منا إحمل الصد والجفا يامعنى
وهى قصيدة صوفية يتلقاها أكثر الناس بالقبول ، وهى فى أنفسهم صورة من الوجد الحسى المشبوب .

١١ — وأكثر الأغانى الصوفية رمزيات وفيها ما يفصح عن أغراضهم كالذى نراه فى هذه الحائية :

أبدأ تحنّ إليكم الأرواحُ ووصالكم ريحانها والراحُ
وقلوب أهل ودادكم تشتاقيكمُ وإلى لذيد لقائكم ترتاح
وارحمنا للعاشقين تكلّفوا ستر المحبة والهوى فضّاح
بالسر إن باحوا تباح دماؤهم وكذا دماء البائحين تباح

ياصاح ليس على المحب ملامةً إن لاح في أفق الوصال صباح
سمحوا بأنفسهم وما بخلوا بها لما درّوا أن السماح رباح
ودعاهم داعي الحقائق دعوةً فغعدوا بها مستأنسين وراحوا
ركبوا على سنن الوفا، ودموعهم بحر، وحادي شوقهم ملاح
والله ما طلبوا الوقوف بيباه حتى دُعوا وأتاهم المفتاح
لا يطرَبون لغير ذكر حبيبهم أبداً فكل زمانهم أفراح
حضرُوا فغابوا عن شهود ذواتهم وتهتكوا لما رأوه وصاحوا
أفناهم عنهم وقد كشفت لهم حُجَب البقا فلاشت الأرواح
فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم إن التشبه بالكرام فلاح (١)

١٢ — وفي الصوفية من اهتم بتحديد المعاني المنقولة من الحسيات إلى

الذوقيات، فقد حدث ابن عربي أن من سماعهم قول ابن حيّوس
أُسْكَنَ نعمان الأراك تيقنوا بأنكم في ربيع قلبي سَكَنُ

(١) من الوفاء للبحث أن نذكر مرة ثانية أن ابن القيم يرتاب في الغناء وينكره على الصوفية، وهو يراه أفضح من شرب الخمر، ويقول « وأى نسبة لمفسدة سكر يوم ونحوه إلى سكرة العشق التي لا يستفيق الدهر صاحبها إلا في عسكر المهالكين سليباً حريباً أسيراً قتيلاً؟ وهل تقاس سكرة الشراب إلى سكرة الأرواح بالسماع، وهل يظن بحكيم أن يحرم سكرًا لمفسدة فيه معلومة ويبيح سكرًا مفسدته أضغاف أضغاف مفسدة الشراب؟ فان نازعوا في سكر السماع وتأثيره في العقول والأرواح خرجوا عن الذوق والحس، وظهرت مكابرة القوم، فكيف يحمى الطبيب المريض عما يشوش عليه صحته، ويبيح له ما فيه أعظم السقم، والمنصف يعلم أنه لا نسبة بين سقم الأرواح بسكر الشراب، وسقمها بسكر السماع (مدارج السالكين ج ١ ص ٢٧٩) وما يراه ابن القيم عين الفساد يراه الصوفية عين الصلاح، لأنهم يدعون إلى كل ما يهيج القلوب ويوقظ النفوس إذا كانت طريقتهم قائمة على تنبيه ما غفا من الأذواق والأحاسيس، وفيهم من لا يفرق بين الحلال والحرام ويرى أن العاصي والمطيع أمام الحق سواء. ويظهر من كل ما سلف أن أهل الشريعة وأهل الحقيقة مختلفون في الأساس الذي يقوم عليه الأخلاق.

ودُّوموا على حفظ الوداد فطالما بُليت بأقوام إذا استَحفظوا خانوا
 سلُّوا الليل غنى مذ تئاءت دياركم هل اكتحلت بالنوم لى فيه أجفان
 ثم قال « السماع الروحاني في ذلك : سكان نعمان الأراك هم العارفون
 في نعيم حضرة المشاهدة ومحلها قلوبهم . يقول لطيفته الربانية لهذه الهمم :
 داوموا فاني دفعت إلى نفوس أخذ عليها العهد الالهي في الميثاق الأول
 فخانوا ، ثم أخذ يصف نفسه بالقيومية تخلقاً إلهياً ، أى على قدر التجرد من
 عالم التركيب الذي هو محل النوم إلى العالم الأئزه الأقدس الذي لا نوم فيه
 ميراً ثانياً نبوياً من أنه لا ينام قلبه صلى الله عليه وسلم ، ثم أخذ يخاطب الهمم أن
 لمعان سيوفها إذا برقت من منازلها منازل الأعبة فعمد هاتيك السيوف
 أجفاني ، أى لا أنام ، يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار (١) .

وهذه العبارة فيها حيرة ، حيرة ابن عربي بين مقام الله ومقام الرسول ،
 وسبب ذلك يرجع إلى قوله بالحقيقة المحمدية ، فالنبي مألوه من جانب وإله
 من جانب ، فهو رب ومربوب ، هو رب حين تراه صاحب الفضل على جميع
 الموجودات ، وهو مربوب حين تتصور تبعيته لواجب الوجود ، وقد
 فصلنا هذه القضية في الجزء الأول تمام التفصيل

ثم حدثنا أن من سماع الصوفية قول مهيار
 من ناظر لى بين سَلْسَعٍ وَقِيَمًا (٢) كيف أضاء البرق أم كيف خبا
 نبهى وَمِيسُهُ ولم تَنَمْ عيني ولكن ردَّ قلباً عزبا
 برق له قد صار قلبي خافقاً (٣) واستبردته أضلعي ملتبها

(٢) سلع وقبا : موضعان

(١) محاضرة الأبرار ص ٢١٤ ج ١

(٣) رواية الديوان : قرت له بنات قلبي خافقاً

يالبعيد من منى دنا به - يوهمنى الصدق - بريق كذبا
ولنسيم سحر بحاجر ردت به عهد الصبا ريح الصبا
ألية مفتح العطار عن أعقب منها نفساً وأطيا
سل من يدل الناشدين بالغضا على الطريد ويرث السلبا
أراجع لى - والمنى تعلقة - وطالع نجم زمان غربا
وطوفة بين القباب بمنى لا خائفاً عيناً ولا مرتقبا

ثم قال : ه السماع الروحاني للعارف في ذلك : من ناظر لى بين المقامات
المحمدية كيف لمع برق المعرفة ، أم كيف خبا مطويا في غيم الكون ، أيقظنى
لمعانه على أن عيني مانامت عنه ، ولكن كان العقل منصرفاً إلى عالم التدبير
فردّه إلى العالم المدبّر ، فسكنت له همم القلوب بعد طيرانها خضعاً كسلسلة على
صفوان ، واستبردت برد السرور ما كان حامياً بنور التنزلات الالهية ، فلما
لاح له المعين من خلق خلقة الرصد مثال النور المنزل ليقبله منه عرفه بالحفظ
الالهى فقال : يوهمنى الصدق بريق كذب . ثم رجع ينادى أيضاً بالبعد من
عالم الأنفاس فى البرزخ المشترك بين النور والظلمة دلّ عليه وعلى عصر شبابه
ريح الصبا وشروق نفس التنفس من نفس الرحمن بما هو أطيب من المسك
عرفا ونشراً ، ثم قال : سل من يدل الناشدين قلوبهم بمقام الاشتياق على
الطريق عن البناء الأعز ، ويرد قلبا أخذ منه على غرة ، ثم قال : أراجع لى
ذلك السلب ، والمنى قد تكون أمانى ، وهل يطلع نجم سعد غرب ؟ أى صار
فى الحجاب . وهل أرائى طائفاً متردداً بين القباب الساترة شمساً لا خائفاً

يقول : لم ؟ ولا مترقباً وعد حصول الاتصال وانتظام الشمل بالأحباب (١) .
وهذا الكلام على ركاكته واضح المدلول ، فهو يعنى أن الصوفية قد
يتغنون بأشعار حسية ، ولكنهم ينقلونها إلى آفاق روحانية
وما احتاج ابن عربى إلى هذا الشرح إلا لأنه كان مشغولاً بتفصيل
التصوف ، أى إقامته على قواعد وأصول

وكان الأفضل أن يترك هذه المعانى بلا شرح ، فللأرواح آفاق أوسع
وأرحب مما يظن ، والصوفى الموصول القلب والروح بعالم المعانى قد يفهم
من الغناء أشياء لا يصل إليها شرح ولا تفسير ولا تأويل .

وشعراء الحواس أنفسهم لا تفقههم « ليلى » من حيث هى امرأة . وإنما
يتمثلون بها معانى كثيرة جداً ، منها الحجر والوصل والعذاب والنعيم
والصوفى . يعجز حقاً وصدقاً عن شرح أسباب هيامه حين يسمع الغناء ،
ومثله ممثل الموسيقى الحساس الذى يطرب من حيث لا يعرف بالضبط
كيف طرب .

والصوفى الحق لا ينكر المحسوسات ، فهو قد يحب « ليلى » الحقيقية .
بجانب « ليلى » المجازية ، لأن ليلى الحقيقية سطر جميل فى لوح الوجود
الصوفى الحق لا يحتاج إلى التبرؤ من جميع المحسوسات كما يتبرأ أمثال
ابن عربى ، لأن المحسوسات هى التصوير للعقوليات ، وهى المفتاح الذى
تدخل به فردوس المعانى

(١) انظر محاضرة الأبرار ص ٢١٥ ج ١ وتذكر ما أشرنا إليه فى الجزء الأول من تأويل
قصائد (ترجمان الأشواق)

الصوفي الحق يرتاح لكل قول ، ولكل صوت ، ولكل منظر ، ولكل
مخبر ، وهذه المرئيات ليست من الأوهام ، وإنما هي شواهد تشير إلى حقائق ،
كما تشير الألفاظ إلى المعاني

الصوفي الحق يعذر جميع المضللين وجميع المفتونين لأنهم في رأيه
من السالكين وإن جهلوا الطريق

الصوفي الحق يطرب لكل شيء ، ويأنس بكل شيء ، ويتغافل عن
الشروح لأنها تفسد النفحات الوجدانية التي تأخذ غيرها من الابهام
والغموض .

الصوفي الحق لا يعرف ماذا يريد ، وهل كان مجنون ليلي يعرف بالضبط
ماذا يريد ؟

الصوفي الحق يرتاح إلى الحيرة كما يرتاح الجاهلون إلى اليقين

اللهم ضللتني في هوائك ، واجعلني وحدي أسير الضلال في هوائك ،
فبفضلك ورحمتك ذاق العارفون طعم الضلال
وهل كانت الهداية الصريحة إلا نصيب الأغبياء !

الأدب الصوفي عند الشعرائى

مولد الشعرائى ونشأته — زوجته وأخوه — رضاه عن نفسه — اعتقاده فى الكرامات — انطباع الشعب المصرى على الايمان بكل مجهول — التصوف من سمات الضعف — دهاء الصوفية — حرص الشعرائى على رضا جميع الطبقات — شواهد من أخلاقه العالية — ذهاب الخير من مصر بانتصاف القرن العاشر — رأى الشعرائى فى الطبيعة الانسانية — الاسناد والايجاد — الترفق فى معاملة الفاسقين — الرفق بالأعداء — كيف تعامل من يظلمنا — غض البصر عن عيوب الناس — كيف تعامل النصارى واليهود — كيف تعامل الفرق الاسلامية — كيف تعامل الحكام — الشخصية الخلقية للمريد — تربية المريد من الوجهة العقلية — تأثر الشعرائى بالبيئة المصرية — الشعرائى والخواص .

١ — رأينا من الخير أن ندرس بعض الشخصيات الصوفية التى اهتمت بنشر محاسن الأخلاق ، فبدا لنا أن نكتب فصلا عن الغزالى ، ثم تذكرنا أننا نشرنا عنه كتابا فى أكثر من أربعائة صفحة هو « الأخلاق عند الغزالى » الذى قدمناه إلى الجامعة المصرية فى سنة ١٩٢٤ وتذكرنا أيضا أن مؤلفات الغزالى كانت من أهم مراجع هذا الكتاب ، فنحن مانسيناه حتى نفرده يبحث خاص .

وبعد التأمل رأينا أن ندرس إحدى الشخصيات المصرية التى أثرت أبلغ التأثير فى ذيوع الثقافة الصوفية بين المصريين ، فرأينا الشعرائى أكبر شخصية أثرت فى الآذواق المصرية ، وسيطرت على الجماهير زمناً غير قليل .

وقد يكون من أسباب ميل إلى درس هذه الشخصية أن الشعرائى عرف سنتريس — وفى ألفاظه وتعاييره أخلة لاتزال حية فى سنتريس — فقد نشأ

فى ساقية أبى شعرة وهى بلدة تجاور بلدنا ولنا فيها أقارب وأصدقاء . ومن أجل نشأته فى ساقية أبى شعرة سمي الشعراى ، وهو عند نفسه يسمى الشعراوى ، وهو اسم كثير الذبوع فى البلاد المصرية كان يسمى به الناس أبناءهم تيمنا بذلك الامام الجليل .

ويظهر أن شخصية الشعراى غرست فى ساقية أبى شعرة حب التصوف فلا تزال عامرة بذكريات الأولياء ، ولا يزال أهلها يقيمون الموالد وينشرون آداب الطريق ، وقد بلغ بهم الأمر أن اخترعوا شخصية جديدة هى شخصية الشيخ خالد ، وقد زعموا أنه خالد بن الوليد ، ف جذبوا به الناس إلى بلدكم عدداً من السنين .

وفى ساقية أبى شعرة ضريح لرجل من الصالحين اسمه الشعراوى وهم يؤكدون أنه والد عبد الوهاب الشعراوى الذى نكتب عنه هذا الفصل (١) وهو كلام لا نعرف مبلغه من الصواب .

٢ — ولد الشعراى فى قلقشندة فى بيت جده لأمه سنة ٨٩٨ وبعد أربعين يوماً من مولده انتقل إلى بلدة أبيه ساقية أبى شعرة فنشأ بها وأقام فيها إلى الثانية عشرة ، وظل موصول العهد بالبلد الذى نشأ فيه لأننا نراه يكثّر من التحدث عن أولياء المنوفية (٢) ثم انتقل إلى القاهرة فتلقى العلم على كبار الشيوخ فى عصره ، ثم ارتفع شأنه فصار شيخ زاوية ، وكان هذا المنصب من المناصب المرموقة فى ذلك الحين (٣) ، وأقبل على التأليف فترك ثروة فقهية وصوفية لم يترك مثلاً من العلماء الا الأقلون

(١) حدثنا بذلك الدكتور محمد حلمى عيد

(٢) كالذى وقع منه وهو يسرد ما عرف من كرامات إمام جامع سمادون

(٣) جاء فى بعض كلامه « إذا رفعت فصرت عالماً أو شيخ زاوية »

ولسنا في حاجة إلى ترجمة الشعراني فكتبه هي ترجمة نفسه لأنه يتحدث عن أحواله وأعماله في جميع المناسبات حتى أخبار بيته وأهله يراها القارىء في كتبه مفصلة أتم تفصيل (١)

(١) ترجم الشعراني نفسه ترجمة كاملة في مقدمة كتابه (لطائف المنن) فذكر أنه من ذرية الامام محمد بن الحنفية وأن جده السابع كان سلطان تلمسان ، وأنه حفظ القرآن وهو في سن التمييز ، وأنه واطب على الصلاة منذ كان عمره ثمانى سنين ، وأن الله عصمه من الآفات مع أنه نشأ يتيم الأبوين وأن الله سخر التساح له حين غرق في النيل وأنه حفظ متن أبى شجاع ومتن الأجرومية ودرسهما على أخيه في الريف قبل أن يهاجر إلى القاهرة . فلما هاجر إلى القاهرة حفظ من المتن ما لم يحفظه أحد من أهل عصره ، ثم صحب الأشياخ وكان له من علومهم أوفى نصيب .

وفي نهاية كتاب (البحر المورود) رسالة صغيرة كتبها الشعراني عن المؤلفات التي قرأها ، وهى تمثل مراجع الثقافة في ذلك العصر ، وكذلك صنع في كتاب (لطائف المنن) فذكر طائفة عظيمة من المؤلفات التي درسها وقدم لنا أمتع صورة عن أساتذة القاهرة في القرن العاشر . وكان إخوة الشعراني من أهل العلم : نعرف منهم عبد القادر الذى درس عليه في الريف مبادئ النحو والفقه ، ونعرف منهم أفضل الدين الذى تحدث عنه في جميع مؤلفاته . ويظهر أن أباه كان أيضا من أهل العلم ، فقد جاء في لطائف المنن ج ١ ص ٢٥٦ مانصه : « وقد أنشد الوالد رحمه الله تعالى :

الناس داء دفين لا دواء له	العقل قد حار منهم فهو منذهل
إن كنت منبسطا سميت مسخرة	أو كنت منقبضا قالوا به ثقل
وإن تخالطهمو قالوا به طمع	وإن تجانهمو قالوا به ملل
وإن تهوّر يلقوه بمنقصة	وإن ترهّد قالوا زهده حيل

إلى آخر ما قاله رحمه الله تعالى الرحمة الواسعة ، آمين » .

ولكن من المؤكد أن أباه كان من الفقراء بدليل أنه حين هاجر إلى القاهرة عاش في كنف شيخ جامع الغمري فكان بين أولاده كأنه واحد منهم يأكل مما يأكلون ويلبس مما يلبسون ، وقد شكر هذا الشيخ وأولاده بقوله في أدب وعطف « فلا يميزهم عنى إلا الله تعالى » أنظر لطائف المنن ج ١ ص ٣٢ .

ويظهر مما نقل على مبارك باشا عن كتاب (الدرر المنظمة) أن أولاد الغمري حسدوه بعد ذلك واتقلدوا عليه فترك جامعيهم وانتقل إلى مدرسة خوند — وعلى كثرة ما نظرت في كتب الشعراني لا أذكر أنه أشار إلى ما وقع من أولاد الغمري ، فان كان سكت سكوتا تاما عن مضايقتهم له حين عظم أثره فانما كان ذلك لأنه راعى ما قدموا إليه في صباه من حسن الصنيع .

والذى يتذكر أن العرب والمسلمين قلما يتحدثون عن نساءهم فى الأشعار (١) والمصنفات يدهش حين يرى الشعرانى يقول : وما رأت عيني من نساء عصرى أكثر مواظبة على قيام الليل من زوجتى أم عبد الرحمن فربما صلت خلفى وهى حبل على وجه الولادة بنصف القرآن ، وهذا عزيز جداً (٢) أو يقول : وأما أم ولدى عبد الرحمن رضى الله عنها فلها الآن معى تسع عشرة سنة فما رأيته قط وهى تقضى حاجتها فى خلاء البيت إلى وقتى هذا (٣) أو يقول : ومن اطلعت عليها من النساء تخاف على رؤية شخصها وهى فى الأزار وتستحي أن يراها أحد وهى خارجة من الخلاء زوجتى فاطمة أم عبد الرحمن رضى الله عنها . سافرت بها إلى الحجاز ثلاث مرات فما أظن أن العكام رأى لها حجباً قط من حين خرجت من بيتها إلى أن دخلت مكة المشرفة ثم رجعت إلى بيتها ، وكانت تركب فى مثل العقبات فوق ظهر القتب داخل الحمل المغطى ، ونزل نساء الأكبر كلهم فى نزول العقبة وطلوعها وهى لم تنزل وما شعرت قط بقضاء حاجتها ، لا فى المحطات ولا فى حال السير . رضى الله عنها . ولم تركب قط حماراً . وقالت : لا أستطيع أن يرانى أحد ، حتى الكحال عجزت فيها أنه يرى عينها فلم أقدر عليها . ورضيت بالوجع وصبرت حتى زال الرمد وضاف ميق عينها اليسرى عن العين اليمنى إلى الآن ، فهذا أمر رأيته منها . ولم يبلغنى وقوع ذلك لأحد من عيال

(١) لم يكن من المقبول عند شعراء العرب أن يتحدثوا عن نساءهم ، وإن تحدثوا عن معشوقاتهم ، وكان من العيب أن يروى الرجل شعراً قيل فى أمه وإن كان من شعر أبيه . وقل من شعراء العرب من رثى زوجته ، وأشهر من عرف بهذه الحلة من الوفاء الطغرائى وابن الزيات .

(٢) لواقح الأنوار ص ٤٣

(٣) اللواقح ص ٢٨٧

إخواننا . فالحمد لله رب العالمين على ذلك (١)

وهذه الفقرات تدل على أمرين : الأول أنه كان سعيداً في حياته المنزلية ولذلك أثر في فهمه لقواعد الأخلاق ، والثاني أنه كان يتمثل الكمال الخلقى في المرأة على وجه لا يخلو من تعسف ، بدليل أنه رأى من موجبات الحمد أن ترحب زوجته بألم الرمد في سبيل التحرز من رؤية الكحال ، أى طبيب العيون .

٣ — وبجانب اطمئنان الشرانى على أخبار بيته كان له جانب آخر من الطمأنينة هو الأانس بمودة أخيه أفضل الدين : فقد كان أخوه هذا من أهل الصلاح ، وكان به حفيصاً ، فهو يذكّره في مناسبات كثيرة بلسان رطب ويضفي عليه حلال الثناء (٢)

ويظهر أيضاً من حديثه أنه كان راضياً عن أصدقائه فهو يطوف بأخبارهم من حين إلى حين ، ويتحدث عنهم حديث الفرح الجذلان ويضاف إلى ذلك كله رضاه عن نفسه فقد كان يرى مساسكه في دنياه من أشرف المسالك ، ولذلك نراه يكثر من الحديث عن « منن » الله عليه كأن يقول « عرضوا على نحو أربعة آلاف دينار أوصى بها لى قاضى اسكندرية فرددتها احتياطاً لنفسى من أكل مال القضاء والشبهات التى لم تقسم لى وخوفاً عليها من ميلها إلى جمع مال الدنيا ، فالحمد لله على ذلك » ، وكأن يقول فى مقدمة كتابه تنبيه المعترين « شيدت أخلاقه بأفعال السلف الصالح من

(١) ص ٢٥٩ — ٢٦٠ وكلمة « عيال » هنا معناها المرأة ، وأهل مصر اليوم يسمون

المرأة « عائلة » فيقول أحدهم : خرجت مع العائلة . يعنى زوجته

(٢) انظر مثلاً ص ١١٥ و ٢٥٤ من لوائح الانوار . وراجع إن شئت كتاب لطائف

المنن تجدد الشرانى ذكر أخاه بالخبر فى أكثر من مائة موضع

الصحابة والتابعين ، والعلماء العاملين ، وبما من الله على بالتخلق به أوائل دخولى فى طريق محبة القوم ، خوفاً أن يقول بعض المتعنتين : كيف يأمرنا فلان بالتخلق بأخلاق القوم وهو لم يقدر على هذه الأخلاق . فذلك صرحت بكثير من الأخلاق التى من الله بها على دون أقرانى ، وكذلك قال فى مقدمة كتاب لطائف المنن ، وهو كتاب مملوء بالزهو والخيلاء ، وكله شواهد بأن الشعرانى كان عند نفسه أفضل الناس

وهذا الرضا المطلق عن النفس والأهل يفسر لنا جانباً مهماً من شخصية الشعرانى ، فهو سر ما اتصف به من الجرأة فى نقد ما رآه من الزين والانحراف فى أخلاق معاصريه . والرجل حين يخلص من آفات نفسه يفرغ للناس ، وكذلك كان الشعرانى قوى الجنان وهو يحارب طغيان الولاة وإسفاف العلماء

والرضا عن النفس ليس من السمائل المقبولة عند الصوفية ، ولكن هذه خصيصة من خصائص النفس الشعرانية ، ونحن ننص عليها من أجل ذلك ، فما نملك خلق النفوس من جديد لنسلكها فى سبط واحد ، وإنما نسجل ما عرفناه من ألوان النفوس

وربما كان من العدل أن نقيد هذا المنزع من الخيلاء ، فالشعرانى كان يستبيح الحديث عن فضائل النفس حين تخلص النية ، وحين يكون لذلك غرض مقبول ، كالتأثير على المريدين وجذبهم إلى الاعتقاد فى شيخهم ليقبلوا على تعاليمه بنفوس معمورة بالحب والإجلال (١)

(١) انظر البحر المورود ص ٢٦٩

٤ — وكما حدثنا الشعراني عن أهله وعن نفسه حدثنا كذلك عن عقليته . فهو رجل يؤمن بالكرامات إيماناً مطلقاً ويرى الأولياء يقدرون على كل شيء . وليس من المستبعد عنده أن يعرف الولي أخبار البيوت ، ومن الممكن في رأيه أن يبيع الرجل الحشيش وهو في حقيقة أمره من الأولياء ، ويجوز في تصويره أن ينقل الرجل من مكة إلى مصر في مثل لمح البصر إذا دفعه أحد الواصلين . وحدثنا أن أستاذه الخواص كان يرسل أصحاب الحوائج إلى رجل كان يبيع الفجل على باب الأزهر فيقضيها لهم في الحال ، وأن هذا الرجل كان لا يأكل أحد من فجله ويبدنه مرض من جذام أو برص أو غيرهما إلا شفى لساعته ، وحدث عن الشوني أن أحد الحمارين في قنطرة الموسكي كان معروف البركة فلا تركب حماره مومس إلا تابت ، ولا تعود للزنا أبداً ، وأن أحد باعة الحشيش كان لا يشتري أحد منه قطعة إلا تاب عن الحشيش (١) وحدثنا أنه اجتمع بابليس على ساحل النيل وجادله وسمع منه أن الإنسان ككفتي الميزان وقلبه كلسان الميزان (٢)

ومؤلفات الشعراني تفيض بالآقاصيص عما صنع المجاذيب ، ولهذا الجانب أهمية في فهمه لقواعد الأخلاق ، فالشخصية الخلقية في نظر الشعراني هي شخصية تصدق كل شيء ، وإن أحالته العقول ، ما لم يعارض النصوص الشرعية ، فمن حدثنا أنه قرأ القرآن كله خمس مرات من المغرب إلى العشاء فهو صادق ، ومن حدثنا أنه قرأ القرآن كله بالحروف (٣) ثلاثمائة ألف مرة

(١) أنظر تفاصيل هذه الاشارات في لوائح الأنوار ص ٩٩ — ١٠١

(٣) الحروف : هي القراءات

(٢) اللوائح ص ٢٠٦

في يوم وليلة فهو صادق ، لأنه « إذا تجردت الروح عن هذا الجسم الكثيف فعلت ذلك (١) »

ويظهر من النقول المبثوثة في كتب الشعرا أن الصوفية المصريين لعهدهم كانوا جميعاً يقولون بالكرامات ، ويظهر كذلك أنه كان في مصر لذلك العهد طوائف من الفقهاء تشكر الكرامات : لأنه شغل نفسه بمحاجة من ينكرون ما اختص به الأولياء

والتعليل نفسه يدل على سذاجة عقلية : فهو ينقل عن أستاذه محمد المرصفي أن الأولياء يتفق لهم أن يقضوا في يوم واحد ما لا يمكن قضائه إلا في سنين : لأن أعمار هذه الأمة قصيرة فأقدر الله الخواص على إنجاز الأعمال بسرعة البرق ليرجعوا على عبادة الأمم السابقة الذين عاشوا نحو الخمسمائة سنة (١)

وليس يعنيننا أن نناقش صحة الكرامات : لأننا لم نصل في فهمها إلى حكم مقبول . وإنما يعنيننا أن نسجل أن الشعرا كان يرى الشخصية الخلقية شخصية لا يؤذيها أن تعق العقل ، ولا يضرها أن تسوء الظواهر في بعض الأحوال . وما كتبه عن الخواص يشهد بأنه كان يؤمن بالكرامات إيمان المجاذيب (٢) وما كتبه عن نفسه يدل على حمق : فقد حدث أنه سمع تسبيح الجمادات والحيوانات وسمع من يتكلم في أطراف مصر بل في سائر أقاليم الأرض وسمع تسبيح السمك في البحر المحيط (٣) ويهمننا أيضاً أن نسجل أثر الشعرا وأمثاله في تلوين العقلية المصرية : فقد انطبع هذا الشعب على

(٢) أنظر لطائف المتن ص ٢٦ و ٢٧ ج ١

(١) البحر المورود ص ٢٦٨

(٣) أنظر لطائف المتن ج ٢ ص ١٧١

الإيمان بكل مجهول . وقد رأيت من كبار العلماء من يدافع عن الكرامات في دروسه بالأزهر الشريف ، وللشيخ الدجوى في ذلك مباحث طوال . ورجاني أحد الأدباء الممتازين أن أكتب فصلا في هذا الكتاب أشرح به وجه الحق في الكرامات . ورأيت رجلا من أهل الفضل يتحدث عن القطب وكرامات الأقطاب . وما أحسبه كان من المازحين . ومنذ أيام تلقيت رسالة من أحد قراء البلاغ حدثني كاتبها عن رجل من علماء الأزهر يزعم أنه رأى النبي في المنام وأن النبي قضى بأن يكون إمام الأولياء

وما أدعى أن الاعتقاد في الكرامات خاص بأهل مصر : فقد عقد لها الغزالي باباً في الاحياء . وانما أحكم بأن الشعراني كان أكبر من غرسوا هذه العقيدة في البيئات المصرية ، وإليه يرجع الفضل في توجيه الناس إلى ما في الكرامات من حدائق الخيال !

والاعتقاد في الكرامات عزاء كبير للفقراء : فهم يخلقون لأنفسهم دنيا من المجد الموهوم يعوضون بها ما ضاع عليهم من حظوظ الحياة . ومن المؤكد أن هذه الوسواس لا تسود إلا في عصور الضعف السياسي والاقتصادى : حين تصبح الأمة وهى فارغة الأيدي من سلطان الجاه والمال . ومن ذلك رأينا المسلمين في عصور قوتهم لا يعرفون غير الواقع ، مع أن الصلاح كان من أغلب الصفات عليهم ، ثم رأيناهم في عصور الانحطاط يصدقون كل شيء ويلقون زمامهم إلى كل مخلوق ، عساهم ينسون ما هم فيه من شظف العيش ونكد الشقاء

٦ — والتصوف نفسه من مظاهر الضعف ، والرجل لا يتصوف إلا

حين يئأس ، لأنه بفطرته حيوان مقترس لا ينتظر المجهول من حظوظ النفس ، وإنما يصول ويفتك ليظفر بحظوظ الأمراء والملوك

وقد جاء في كلیلة ودمنة أن ذا المروءة لا ينبغي له إلا إحدى اثنتين : أن يكون بين الملوك مكرماً ، أو بين النساك متبتلاً . وهذه الكلمة هي الفيصل : فالرجل يطلب المنزلة العالية في جميع الأحوال ، فان فاتته بين الملوك لم تفته بين النساك . ومعنى ذلك أن التعبد نفسه لا يخلو من كبرياء

وقد استطاع الصوفية بدهائهم المصقول وكبريائهم المسكبوت أن يجعلوا كلمة الحرمان هي العليا : فما زالوا يغمزون أهل الدنيا ويلبسونهم ويسوئون سمعتهم ويرمونهم بالبهتان حتى صح عند السواد أن الفقراء هم الملوك حقاً ، وأن الملوك المتوجين لا يملكون غير « الدنيا » وهي متاع المقتونين !

والذى يراجع سير الأنبياء يرى الفقراء كانوا أسرع الناس إلى إجابة الدعوة « إن نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا » وانما كان ذلك لأن الأنبياء يعدون أتباعهم السلطان المطلق في عالم السماء . والفقراء بفطرتهم الحيوانية يتشوفون إلى السيطرة ، فان فاتتهم هنا أدركوها هناك

٧ — وخلاصة القول أن الشعرائى وأصحابه وجدوا فى مصر تربة خصبة فأنبتوا فيها ما شاءوا من صنوف الخيال ، وكان شيوع الشعوذة الصوفية فى هذه البلاد يسير جنباً لجنب مع ما اصطفاه نصارى مصر من النحلة الارتودوكسية ، فان اصطفاه نصارى مصر للذهب الارتودوكسى لم يقع إلا بفضل ما هم عليه من الضعف : لأنه مذهب مشبع بالخرافات ، والخرافات هي السند لكل مخلوق ضعيف .

والذى يتأمل أحوال مصر فى العشرين سنة الماضية يؤكد صدق ما أقول
فى أيام الحرب العالمية كان لمشايخ الطرق سلطان عظيم ، لأن الناس كانوا
يؤسوا من المجد السياسى ، فلما هبت الثورة المصرية فى سنة ١٩١٩ شغل الجمهور
بشغل جديد ، وانقطع الخلاف بين الشاذلية والخلوتية ، وحل محله الخلاف
بين السعديين والوطنيين والدستوريين .

ولأمر ما كان التصوف يسمى الفقر ، وكان الصوفية يسمون الفقراء
أترونى بهذا أغض من تلك النزعة الروحية ؟
هيات ، وإنما أردتها إلى أصل صحيح من ضمائر الناس
ألم تسمعوا أن أحد الرؤساء هدد مرءوسه فقال : إن لم تستقم أقمته
من غد فى الصف الأول ؟

والصف الأول هو صف المبكرين إلى الصلاة : صف من يسبقون
الامام إلى رؤية المحراب !

ولا يعرف الناس لزوم المحارب إلا بعد أن تخلوا أيديهم من أدوات
الحرب فى سبيل المجد أو فى سبيل المعاش .

مالى ولهذا الاستطراد ؟ يكفى أن أسجل أن القاهرة لم تمتلئ بالزوايا ولم
يكن للشعرانى فيها حظ مرموق إلا لأن أهلها كانوا غلبوا على أمورهم
الدينية ففضوا يلتمسون الأسباب إلى فتح أبواب السماء .

وما كان الشعرانى بالأحقق ، وكيف وهو الذى أحصيت عليه أنه قال
فى مؤلفاته أكثر من خمسين مرة :

« العاقل من عرف زمانه »

إي والله ، فقد عرف الرجل زمانه فساس أهله بما ينبغي أن يساسوا به . فلم يمت الا وهو (القطب الرباني ، والمحقق الصمداني) وذلك متاع ليس بالقليل .

٨ — أترانا نتجنى على الشعراني حين نصفه بالترفق في مداراة الناس ليظهر بالسمعة وبعد الصيت ؟

أنظر في مقدمة « اليواقيت والجواهر » ومقدمة « البحر المورود » فان فعلت فستعرف أنه كان يحرص أشد الحرص على الظفر بالزعامة في التصوف والدين : أي أنه كان يريد أن يكون مرضياً عنه من أهل الحقيقة وأنصار الشريعة ، وإلى هاتين الجبهتين كانت ترجع أصول الصدارة بين الناس .

كان الشعراني يؤلف الكتاب في التصوف ثم يمضي إلى العلماء فيستكتبهم بالقبول ليصح له القول بأن كتبه ليس فيها ما يخالف الشرع ، وكان الناس يعرفون عنه ذلك فيعمدون إلى كتبه فيضيفون إليها زيادات تدخله في الحظيرة الخطرة : حظيرة الصوفية المتفلسفين الذين يتطلعون إلى الخروج على المؤلف من مقبول الآراء (١)

(١) كان الشعراني شديد الحرص على حسن السمعة بين رجال الشريعة لتصح له السيادة الروحية والدينية . وفي نهاية كتاب البحر المورود شاهد لذلك فقد دون إجازات أربعة من أعلام عصره أحدهم حنبلي . وثانيهم حنفي . وثالثهم مالكي . ورابعهم شافعي : ليسكون مرضياً عنه من الجميع .

٩ — ولكن مهلا — فهذا الرجل الذى نضيفه إلى أصحاب المطامع كان من نوادر الرجال فى كرم الأخلاق ، وفى كسبه صحائف تُكتب بماء الذهب ، ولو شئت لقلت بمداد من دماء القلوب ، فقد حدثنا هذا الرجل — وهو صادق — أنه كان يزجر من يراه من أصحابه يتجسس على عيوب الناس ^(١) وهذا أدب نبيل

وحدثنا — وهو صادق — أن من منن الله عليه كثرة ستره لعورات المسلمين الذين لم يتجاهروا بالمعاصى ، وأنه يرى ذلك من جملة الواجبات . وهو الذى يقول :

« إن من جملة سترنا للمسلم أن نغلق عليه بابه إذا رأيناه خارجاً وهو سكران ، ونأمر الأجنبية التى معه فى الخلوة المحرمة أن تنزل من حائط الجار إن خفنا أن أحداً ينظرها إذا خرجت من المحل الذى هى فيه . كل ذلك حتى لا يعلم أحد بعصيان ذلك الرجل . لا سيما إن كان جاراً لنا . وكما يترتب على كشف السوءات مفسدة . فإياك يا أخى أن تفشى سر أخيك المسلم ولو لأعز أصدقائك ، فانه يحكى ذلك لكل الناس إن كان ساذجاً ، وإن كان حاذقاً فيحكى ذلك لبعض الناس ويأمرهم بالسكتان فيصير كل واحد يخبر صاحبه ويأمره بالسكتان حتى تمتلئ البلد ^(٢) وأحدهم يحسب أنه كتم ما رأى والحال أنه هتك أخاه بين الناس ^(٣) »

ولا يكتفى بذلك ، بل يذكر أن من نعم الله عليه انشراح صدره

(١) لطائف المنن ج ٢ ص ٧

(٢) البلد فى كلام الشعرائى مؤتة وهى لغة أهل المنوفية ، وقد ورد مذكراً فى القرآن

(٣) لطائف المنن ج ١ ص ٢٠١

ومطauعة نفسه فى محبة سترعدوه وكراهته لكشفها مع أن الغالب على الناس إظهار السماتة بالعدو وإظهار عورته (١)

وهذا الأدب دعا إليه الشعرانى فى جميع مؤلفاته ، وهو يرى العصاة من أصحاب الجدود العوائر ، وينظر إليهم بعين العطف والاشفاق ، ويترفق فى هدايتهم إلى الله ، وهذا من أخلاق الأنبياء (٢)

والذى يلفت النظر فى هذا المواطن هو التغاضى عن عيوب الأعداء : لأنه يفرض قوة عظيمة فى ضبط النفس ، فهو من أخلاق الأقوياء من الرجال. وفى أصدقائى رجل ابتلاه الله بلؤم الحاقدين وامتحنه بكيد السفهاء ، ومع ذلك لا أذكر أن لسانه أو قلبه خاض فى عرض أحد ممن يتقولون عليه الأقاويل ، وقد يتفق له فى أحيان كثيرة أن يحارب خصومه أعنف الحرب ، ولكنه لا يحاربهم إلا فى العلانية ، ولا يتعرض أبداً لمقاتلتهم الأخلاقية . وإنما يثير فى وجوههم الدخان فيتوهم من لا يعرف أنه يقذفهم بالنار ، مع أنه يصرف الناس عامداً عن دخائلم الأثيمة ويشغل الجمهور عن مساوئهم بأمر صغيره هى الكلام عن العلم والجهل . وأعداء هذا الرجل يعرفون فيه ذلك الخلق ويفهمون أن زوال الجبل من مكانه أقرب إلى الامكان من خوض قلبه أو لسانه فى الأعراض . ولذلك يهجمون عليه مستبسلين . وهولو شاء لزلزل بهم الأرض ولكن نعمة الله عليه فى هذا الأدب أحب إليه من قهر الأعداء .

١٠ — وما يجب النص عليه من أحوال الشعرانى أنه كان يعتقد أن الخير فى مصر ينتهى باتصاف القرن العاشر ، ثم تصبغ دنيا المصريين مسبعة

(١) لطائف المنن ج ١ ص ٢٠٢

(٢) سترى بعد قليل شواهد أخرى من نبل الشعرانى فى معاملة الناس

لا آمن فيها ولا سلام . وانظر ما يقول في البحر المورود (١) :

« أخذ علينا العهد أن لا تتصدر للشفاعة في الناس عند الحكام إذا دخل
النصف الثاني من القرن العاشر ، إلا إن كانت عندنا حال وتصريف في الحكام
بالولاية والعزل ، فان من لا كشف عنده ربما أغلظ على الحاكم فقال له
الحاكم : إن كنت صالحا فانفخني فلا يقدر على نفحه فيفتضح عند الحاكم .
وسمعت سيدي عليا الخواص يقول :

« كان عند الحكام بقية خوف من الله تعالى يمتنعون به عن ظلم العباد
فرفع الله ذلك خامس عشر صفر سنة ثمان وثلاثين وتسعمائة . قال : وعن
قريب يصير حاشية الحاكم يأخذون من الانسان الجعالة ولا يقضون له
حاجة ويطلب فلو سه مثلاً فلا يصل إليها ، والله غفور رحيم . »

والخواص الذي نقل الشعراني عنه أن الحياء ذهب من الحكام في الخامس
عشر من صفر سنة ثمان وثلاثين وتسعمائة هو نفسه الذي قال :

« كان قد بقي في الناس بعض سترة لبعضهم بعضاً فرفع الله تعالى حكمها
في سنة سبع وأربعين وتسعمائة وما بقي أحد يقدر على كشف عورة أخيه
ويسترها إلا قليل من الناس ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم (٢) . »
وقد طاف حول هذه المسألة في كتاب آخر هو لواقع الأنوار ، فذكر
مرة أنه لم يبق في مصر من يصلح للأستاذية في الطريق ، لأن الاشياخ فقدوا
وكان آخرهم على المرصني (٣) وذكر مرة ثانية أنه أدرك طريق الفقراء ولها

(٢) البحر المورود ص ٢٧٥

(١) ص ٢٧١

(٣) الواقع ص ٢٠٤

حرمة عند الناس وعلى أصحابها الخير والهيبة فرفع الله تعالى ذلك بموت السادة :
على المرفعى وعلى الخواص ومحمد الشناوى (١).

ويظهر أن الشعراى لم يكفه أن يذهب الخير من مصر بانتصاف القرن
العاشر ، بل ترقى فى سوء الظن فحكم بأنه أخذ يذهب من الدنيا منذ انقضى
الثلث الاول من القرن السادس ، وقال فى ذلك :

« أخذ علينا العهد العام من رسول الله أن لا نتمنى الموت إلا إن خفنا
على أنفسنا من فتنة فى ديننا فى هذا الزمان الذى يرى الانسان دينه فى كل يوم
ينقص عن اليوم الذى قبله ، وهذا الأمر قد وقع من حين انتهى كمال الدين
وهو سنة سبع وثلاثين وخمسمائة ، كما رأيت ذلك فى لوح نزل من السماء فى
واقعة فى المنام ، وقد أخذت الأمور كلها يا أخى فى النقص وصار دين المؤمن
ينقص كل يوم عن الحال الذى قبله ، وصار يتصعب على الانسان القبض
على دينه كما يتصعب عليه القبض على جمرة فى كفه ليلا ونهاراً ، فكما ضعف
عن دوام القبض على الجمرة كذلك ضعف عن دوام القبض على الدين على
حد سواء ، فلا يموت الانسان يوم يموت إلا على أنقص الاحوال . وأول
أخذ الدين فى النقص من سنة سبع وخمسمائة حين بلغ أهل العلم حدهم ،
وأهل الطريق حدهم . هذا ما رأيت مكتوباً فى لوح تجاه مدرسة الشيخ ابراهيم
المواهبى الشاذلى بباب الخرق (٢) من مصر المحروسة ، وكان فى سلسلة فضة ،
وقد أشار إلى ذلك الشيخ عبد العزيز الدرينى فى منظومته وكان فى سنة
سبعين وخمسمائة يقول :

(١) اللواقح ص ٣٣٢

(٢) هو باب الخلق

وقد بدا النقص في الاحوال أجمعها

وبدلت صفوة الأوقات بالكدر (١)

وهذه الفقرة تشهد بأنه رأى ذلك التاريخ مرتين ، مرة في لوح نزل من السماء ، ومرة في لوح مكتوب تجاه مدرسة يباب الخلق ، ومع ذلك نراه في مكان آخر يحكم بأن الدين أخذ في النقص في منتصف القرن السابع (٢) ويقول : « وقد مضى الأئمة والعلماء والقوامون بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأظلمت الدنيا لفقدهم ، وكانت أنفاسهم تحميمهم من الظلمة حتى يقوموا بالمرتبة حين كان الدين في زيادة ، فلما أخذ الدين في النقص في سنة ثلاث وخمسين وستمائة ضعفت قلوب العلماء وعجزت عن إزالة المنكرات لكثرتها ، وقلة من يساعد عليها ، وقلة الولاة الذين يسمعون للعلماء (٣) » .

وما ندري كيف وقع الشعرا في هذه الورطة فأخذ يؤرخ نقص الدين ويضطرب في التاريخ .

وما ندري أيضاً كيف صح عنده أن الدين لم يلحقه نقص إلا في القرن السادس ، أو السابع ، أو العاشر ، مع أنه هو نفسه روى أن سفیان الثوري كان يخرج إلى السوق فيأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فما مات حتى صار يرى المنكر فلا ينكره ، فقليل له في ذلك فقال : كان قد انفتح في الاسلام ثلثة فأردنا أن نسدّها فانفتح فيه ذروة وانهدمت من أركانه أركان ، ثم صار

(١) اللواقح ص ٢٦٣

(٢) يحسن أن نقيد أن ما وقع في القرن السادس أو السابع هو بداية النقص في الدين ، أما رفع العدل والخير دفعة واحدة من قلوب الحكام والناس فقد وقع في القرن العاشر . هذا هو تحرير كلام الشعرا في بعض النظر عما فيه من خطأ واضطراب

(٣) اللواقح ص ٣٤٤

يبول الدم من الحزن إلى أن مات (١)

ولسنا في حاجة إلى النص على أن من عادة الناس أن يشكوا زمانهم وأن يترحموا على الأزمان السوالف ، وإنما المهم أن ننص على أن الشعرا في فصل بين عهود الخير وعهود الشر بتاريخ محدود ، ويستند تارة إلى لوح نزل من السماء ، ويعتمد تارة أخرى على كلام الخواص .

ولهذه النظرة أثر في أحكامه الأخلاقية : فهو من المتشائمين ، بل من اليائسين . والمصلح اليائس لا يرجي له نجاح .

١١ — على أن للشعرا في كلمات أخرى تمثل رأيه في الطبيعة الانسانية وتصرفه عن الاعتماد على مثل ما توهم من رفع الخير من قلوب الناس في تاريخ محدود ، فقد اتفق له مرة أن يحكم بأن الخير هو الأصل وأن الشر عارض ، ولم يحدد ذلك بزمان واتفق له مرة أخرى أن يحكم بأن « طينة الآدمية واحدة » وأن الجائز وقوعه من أفسق الفاسقين جائز وقوعه من أصلح الصالحين (٢) ولم يخرج عن هذه « الطينة » في رأيه سوى الأنبياء لعصمتهم ، وبعض الكمّل لحفظهم (٢) وتنتهي هاتان الفكرتان إلى غاية واحدة هي أن الانسان صالح للخير وهو أصل ، وصالح للشر وهو عارض ، وأنه حين يصلح لا يصلح أبداً ، وحين يسوء لا يسوء أبداً . بل يجوز للفاسق أن يعمل ما يعمل الصالح ويجوز أن يقع الصالح فيما يقع فيه الفاسق .

ومعنى ذلك أن التسامى إلى الهداية ليس له زمان ، بل هو مطلوب في كل زمان .

(١) اللوائح ص ٣٤٤

(٢) اللوائح ص ٢٤٨

١٢ — ويتصل بهذا رأيه في الذات الانسانية ، فالإنسان صنعة الله تعالى وصنعيته كلها حسنة ، والقبيح إنما هو عارض عرض من حيث الصفات لا الذوات ، وجميع ما أمرنا الله بمعاداته إنما هو من حيث الصفات ، فلو أسلم اليهودى وحسن إسلامه أمرنا بمحبته فما زالت منه إلا صفة الكفر وذاته لم تتغير (١)

فالذات الانسانية حسنة في جميع الأحوال من حيث هي ذات ، ولا تقبح إلا بقبح الصفات .

ولعله أخذ هذا المعنى من ابن عربى حين حكم بأن الطهارة من الحدث غير معقولة المعنى لأن الحدث وصف نفسى للعبد فكيف يمكن أن يتطهر الشيء من حقيقته ، فانه لو تطهر من حقيقته انتفت عينه ، وإذا انتفت عينه فمن يكون مكلفاً بالعبادة (٢)

ولهذا الملحظ قيمة في توجيه النظر الأخلاقى: فكل إنسان له قيمة ذاتية وإن أمعن في الكفر والفسوق ، وعلى رجال الأخلاق أن ينظروا إلى الملحدين والآثمين نظرة إشفاق لأنهم في حقيقة الوجود جواهر علاها الصدا فبدت كالمعدن الخسيس ، ولو أمكن جلاء تلك الجواهر لنصبت لها سوق في عالم النفائس ، وتسابق اليها عشاق اللؤلؤ المكنون

١٣ — ويزيد في قيمة هذه النظرة الخلقية أنها موصولة عنده بأدب آخر هو التفكير في الاسناد والايجاد ، فمن الأدب الذى اختاره الشعرانى أن نضيف كل محمود في الوجود إلى الله إسناداً وإيجاداً ، وأن نضيف كل

مذموم في الوجود إلى النفس والشيطان إسناداً لا إيجاداً . وعلى ذلك ينزل قوله تعالى : (ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك) وإن كان الكل من عند الله ، وينزل قول الرسول (الخير كله بيدك والشر ليس إليك) أى لا يضاف إليك أدباً كما لا يقال (سبحانه خالق الخنازير) وإن كان هو الخالق باجماع الناس في جميع الديانات (١)

وهذه المسألة من المشكلات ، وقد عرض لها في لواقع الأنوار بكلام متموج لا يحل ولا يربط (٢) إذ قال :

« أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ندفع غضبنا ونكظم غيظنا ، ونأمر بذلك جميع إخواننا ، وإذا غضب أحدنا وهو قائم فليجلس ، فإن ذهب عنه الغضب وإلا فليضطجع ، فإن لم يزل فليتوضأ . ويحتاج من يريد العمل بهذا العهد إلى السلوك على يد شيخ صادق يدخله إلى حضرة الرضا بكل واقع في الوجود وبطريقه الشرعى فلا يبقى عنده شيء يغضبه لأنه حكيم عليم ، وما ترك الناس يغضبون إلا حجابهم عن شهود أن الله هو الفاعل لكل ما برز في الوجود وشهودهم الفعل من جنسهم ، فلذلك غضبوا على غضبهم ، ولو أنهم سلكوا الطريق لوجدوا الفعل لله تعالى يبادى الرأى فلم يجدوا من يرسلون عليه غضبهم ووجدوا كل شيء وقع في الوجود هو عين الحكمة فذهب اعتراضهم فعلم أن الكامل لا يغضب لنفسه قط ، وإنما يغضب إذا انتهكت حرمة الله تعالى . وكأن الحق يقول للكامل : إذا رأيت عملاً برز على يد أحد من عبيدى مخالفاً لشرعية نبي فاغضب ، ولو

(١) أنظر البحر المورود ص ٢٧٢

(٢) آثرنا هذه العبارة البلدية لأن لها دلالة دقيقة في هذا الموضع

شهدت أنى أنا الفاعل ، لكنى لا « أمرك أن تغضب على فعلى ، وإنما أمرك أن تغضب على وجه نسبة الفعل إلى عبدى ^(١) »

وهذا كلام متهافت ، لأنه لا يعرف أحد كيف يفعل الله الفعل ثم يغضب ويأمرنا أن نغضب . وكيف يغضب أو نغضب وكل شيء وقع فى الوجود هو عين الحكمة والصواب ؟

إن الشعرانى هنا متهافت ، ولكن المهم أن نسجل أنه ينهى عن الغضب ويدعو إلى كظم الغيظ ، ويروض المريد على الرضا بكل واقع فى الوجود .

ومسألة « النسبة » مسألة هينة : لأننا لا نذنب حين نذنب إلا كما تفعل السيارة حين تدوس طفلا فى الطريق . فالسيارة هى التى قتلت على طريق النسبة ، والقاتل الحق هو السائق ، وهو وحده المسئول « وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » وما قتل السيف إذ قتل وإنما قتل السيف .

١٤ — وهذا الاتجاه فى فهم الایجاد والاسناد جعل الشعرانى يترفق فى معاملة الفاسقين : فهو ينهى عن صحبتهم ولكنه يراها متعينة حين نقصد بها مهيد بساط التوبة لهم ، كما عليه الدعاة إلى الله « فانهم لا يبعدون عن مستقيم ولا أعوج : فان المستقيم لا يجوز هجره ، والأعوج محتاج إلى من يقوم عوجه وقد أغفل هذا الأمر خلق كثير من طلبة العلم فبعدوا عن خلطة المعوجين من الظلمة فحرموا بركة هدايتهم ، ولو أنهم قربوا منهم مع العفة عما بأيديهم من الدنيا ^(٢) وسارقوهم بالوعظ لربما أثرت فيهم مواعظهم ^(٣) » .

(١) لوائح الأنوار ص ٢٠٦ وانظر أيضا ما كتبه عن الاسناد والایجاد فى لطائف المنن

ج ٢ ص ١٦٩ — ١٧٦

(٢) تحفظ جميل (٣) اللوائح ص ٣٤٧

والشعرانى ينهى عن اغتياب الفساق ، ويرى أنه لا يجوز لك أن تستغيب فاسقا أو تؤذيه أو تشق عليه ، ويستأنس بحديث (لا غيبة فى فاسق) ويقول إن بعضهم قال فى تأويله « احفظوا لسانكم فى حقه ولا تغتابوه ، فجعل لفظ (لا) ناهية » (١) وهو يميل إلى قبول هذا التأويل .

وصرح فى البحر المورود أن العهد أخذ علينا أن نرفق بالمسيئين وأن نكون أرحم بهم من أنفسهم ، بحكم الارث لرسول الله الذى قال (ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء) وقد قالوا : من نظر إلى الخلق بعين الحقيقة رحمهم ، ومن نظر اليهم بعين الشريعة مقتهم . ثم قال فى تفسير هذه الكلمة « وعين الحقيقة أن تشهد أن الحق تعالى مادام يخلق فيهم المعاصى لا يمكنهم الرجوع عن الوقوع فيها ، قال تعالى : (ثم تاب عليهم ليتوبوا) ، فإذا انتهى خلق المعصية فيهم تابوا لا محالة » (٢)

وهذه المسألة لا تبعد كثير أعن رأيه الذى عرضناه آنفا فى الاسناد والايجاد

١٥ — والشعرانى لا يبيح أن ندعو على من ظلمنا فلا نقول قط « اللهم من كادنا فكده ، ومن بغى علينا فخذ » ونحو ذلك ، والرأى عنده أن نرجع إلى نفوسنا فننظر السبب الذى تحكم فينا ذلك الظالم بسببه فنسب منه ونستغفر ونرجع إلى الله ، فان لم تتيسر لنا توبة صبرنا واحتسبنا ، وقد دعا رسول الله على قريش بالهلاك فأنزله الله تعالى عليه (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) فاستحيا من الله ، وترك الدعاء عليهم وصار يدعو لهم بالهداية وهنا يبلغ الشعرانى ذروة التصوف إذ يقول فى تلطف وترفق :

« واعلم يا أخى أن من شأن كل عارف أن يرى نفسه قد استحققت الخسف به لولا عفو الله ، وأن جميع ما يقع عليه من البلايا والمحن دون ما كان يستحق ، ويرى جميع الظلمة فى هذه الدار كزبانية جهنم ، إلا أنهم خالفوا الزبانية فى هذه الدار فى ظلمهم للعباد فى كونهم تحت النهى ، بخلاف الزبانية فانهم هناك تحت الأمر . ومعلوم عند كل عارف أن حكم الإرادة لا مرد له ، لأنه لا يصح قط لأحد أن يخالف إرادة الله ، بخلاف أمره فيصح مخالفته لقوة سلطان الإرادة فافهم ^(١) ومن هذا المشهد قلّ تكدير العارفين لمن ظلمهم وآذاهم ، فإن الظالم حكمه حكم السوط الذى يضرب به ، فالغيط حقيقة إنما يكون من الضارب الظالم لا من السوط . فمن اغتاز من السوط فهو محجوب عن تمام العقل ^(٢) »

ومعنى هذا أن ما يقع علينا من الظلم إنما هو تأديب من الله ، والظالمون هم أدوات التأديب ، ونحن حين نشور عليهم يكون مثلنا مثل من يشور على السوط الذى يضرب به ، والأولى أن يشور على حامل السوط ، ولكن حامل السوط فى هذه المرة هو الله الذى لا يظلم أحداً من العالمين

١٦ — ويمضى الشعرانى فى الترفق فيذكر أن العهد أخذ علينا أن لا نطلق أبصارنا فى عيوب الناس ولا نسأل قط عن تحقيق ما سمعناه فى حقهم من التهم ، ونحفظ أسماعنا وأبصارنا عن مثل ذلك ، فمن شق جيب الناس شقوا جيوبه ، ومن كان عليه دين قديم قضاه لا محالة ^(٣) وهو يحرص على توكيد

(٢) البحر المورود ص ٢٧٩

(١) هل فهمت ؟

(٣) لواقح الأنوار ص ٣٤٥

هذا الأدب الجميل ، وينقل أن الحسن البصرى كان يقول: والله لقد أدركنا قوما كانت عيوبهم مستورة فبحثوا عن عيوب الناس فأظهر الله عيوبهم ، ورأينا أقواماً ليس لهم عيوب فبحثوا عن عيوب الناس فأحدث الله لهم عيوباً

ولا يقف الشعراى عند هذا الحد من أدب النفس ، بل يرى من حسن الخلق أن تغفر لمن آذاك من الناس ^(١) ويوصى بأن يكون الانسان نفاعاً لمن يذمونه ويقعون في عرضه ممن لا يعرفون أدب الرجال ^(٢) ويرجو أن نعوذ أنفسنا طلاقاً الوجه لكل مسلم من عدو وصديق ^(٣)

١٧ — ولا يكفى عنده أن تترفق بالمسلمين وحدهم فان الترفق واجب في معاملة جميع الناس ، ويقول في ذلك :

« وكثيراً ما كاتبت اليهود والنصارى أصحاب المكوس في تخفيف المظالم عن المسلمين ^(٣) وأقول في كتابي لهم : أسأل الله للمعلم فلان أن يرضى عنه ويدخله الجنة مع الصديقين والشهداء والصالحين ، وأضمر له سؤال التوبة من الكفر ليصح دخوله الجنة ، وربما أنكر ذلك من لا علم له بطرق السياسة فأنى أعلم أنى لو قلت له : أسأل الله للمعلم فلان أن يتوفاه على الإسلام لنفر خاطره منى ولم يقبل شفاعتى ، كما ينفر المسلم من قول أحد له : أسأ الله أن يميئ البعيد على غير الإسلام . قال تعالى (وكذلك زينا لكل أمة عملهم) فاعرف يا أخى طرق السياسة ، وعود نفسك طيب

(١) لواقع الأنوار ص ٢٠٠

(٢) ص ٢٠٢

(٣) هذه الفقرة تشهد بأن موظف المكوس كانوا في ذلك العهد من النصارى واليهود

الكلام ، فانه أحسن سواء كان المخاطب صالحاً أو طالحاً والله عليم حكيم (١) »

وما نحب أن تفوت هذه المناسبة بدون أن نقيد أن الشعراني يذكر في مواطن مختلفة أن كثيراً من اليهود أسلموا على يديه بفضل الرفق و (الكلام لخلو) على حد تعبيره . واليهود في كلامه هم مثال الكفر الموبق وهو يضرب بهم المثل حين يتكلم عن أهل الزيغ ، وهذا يدل على أن يهود مصر لعده لم تكن لهم منزلة اجتماعية (٢)

١٨ — ولم يفت الشعراني أن يضع للهرید دستوراً يسير عليه في معاملة الفرق الإسلامية ، وعنده أنه لا ينبغي التجرد للرد على أمثال المعتزلة والجبورية إلا إن عارض كلامهم نصاً قاطعاً أو إجماعاً عاماً « لأن دين الإسلام يشملهم ويعممهم » لا نبساط شعاع نوره على قلوب جميع المسلمين . والخطأ من كل وجه لا يكون إلا للكفار ، فاذا سمعنا الجبري مثلاً يقول (لا فعل إلا لله) لا يجوز لنا الإنكار عليه بمجرد هذا القول وإنما ننكر عليه قوله بعدم إسناد الأفعال إلى العباد فقط لكون الحق تعالى أضاف أفعاله إليهم فمن نفى إسنادها فقد أخطأ لقصور نظره . وإذا سمعنا المعتزلي يقول (الفعل للعبد) لا ننكر ذلك بل بعدم إضافتها إلى الله جملة واحدة ، فكل من الجبري والمعتزلي مخطيء من وجه ، والكامل من نظر بعين الحقيقة وبعين الشريعة فرأى الفعل

(١) اللوائح ص ٢٠٢ (٢) جاء في ص ٧٦ من لوائح الأنوار أن أحد الصالحين طلب منه الدعاء فقال : لا تعد من فضلك تقول لي ذلك تؤذيني فإني والله لما قلت لي أدع لي رأيت نفسي كيهودي قال له شيخ الإسلام أدع لي . فجعل اليهودي مثلاً في الكفر مع أنه من أهل التوحيد ، ولم يضرب المثل بالنصراني وهو من أهل الثلاث لأن النصراني كانت لهم منزلة اجتماعية وكانت لهم مصالح ظاهرة في هذه البلاد . والمال يرفع أصحابه وإن لم يكونوا مؤمنين

الله إيجاداً وللعبد إسناداً .. وقس على الجبرية والمعتزلة غيرهما من الفرق
الاسلامية (١)

وهذه اللفتة تدل على اهتمام الشعرائى بتصفية البيئة الإسلامية وحمايتها
من الجدل المؤذى الذى يفسد ما بين الناس من صلات الاخاء

١٩ — والشعرائى ينصح بمداواة الحكام ويقول « أخذ علينا العهد بأن
نأمر إخواننا أن يدوروا مع الزمان وأهله كيف داروا ، ولا يزدرون قط
من رفعه الله عليهم ولو فى أمور الدنيا وولايتها ، كل ذلك أدباً مع الله عز
وجل الذى رفعهم : فانه ما يرفع أحداً إلا لحكمة . ثم أى فائدة لازدراءهم
من ارتفع عليهم ، مع أن أحداً لا يسمع لهم ؟ وهذا العهد قل من يعمل به
من الناس فيقولون عن المحتسب أو الوزير أو غيرهما : من أين لهؤلاء السفلى
الضخامة علينا ونحن نعرف آباءهم ، وفلان كان أبوه زبالاً ، وفلان كان أبوه
نوتياً ، وفلان كان أبوه فلاحاً . ونحو ذلك من الهذيانات . ومن أقام هذا
الميزان اليوم على الناس حرم بركة أهل زمانه (٢) ،

وظاهر من هذا الكلام أن المصريين الذين عرفهم الشعرائى فى القرن
العاشر كانوا كالمصريين الذين نعرفهم اليوم فى القرن الرابع عشر : فالنوتية
عمل حقير ، والفلاحة عمل حقير ، والمرء لا يصح له أن يكون وزيراً إلا إن
كان من بيت له ماض فى ولاية أمور الناس

والمهم هو أن نسجل هذه النظرة الخلقية : فالذى يعادى الحكام ويفكر
فى لمزهم وغمزهم هو رجل حرم بركة أهل زمانه . وهذا رأى حق وصدق

فالحكام يملكون ما لا يملك ، وييدهم تصريف الأمور . والطعن في آباءهم
وأجدادهم هذر سخيف لا يحسنه غير السخفاء

وهذا الأدب له غور أعظم من ذلك : لأن انتقاص الحكام يززع الوحدة
القومية ، ويقسم الأمة إلى شطرين : رعية حاكمة ، وحكام مبغوضين .
وسلامة الأمة لا تكون إلا بالآلفة بين الحاكمين والمحكومين

والشعرانى يكرر هذا المعنى كلما لاحت فرصة . ومن رأيه أنه ينبغي لنا
إذا اجتمعنا بسultan أو أمير أو كبير في قومه أن نسأله أن يدعو لنا . ولو
كان غير صالح ، فإن الله تعالى يستحي أن يرد دعاء هؤلاء الأكابر بين
قومهم ورعيته ويخجلهم . ويضرب المثل بما وقع لفرعون حين طلب منه
قومه أن يطلع لهم نيل مصر لما توقف ، فانه قال : يارب لا تخجلني بين عبادك
فأجابه . ثم يقول الشعرانى :

« وهذا سر قل من يتنبه له من الناس ... ولما طلعت للبasha داود نائب
مصر في هذا الزمان في قضية أوجبت ذلك في سنة خمس وأربعين وتسعمائة
سألته الدعاء بأمور كانت متوقفة على شهوراً فنزلت من القلعة فوجدتها كلها
قد قضيت ، فاعلم ذلك واعمل عليه (١) »

٢٠ — والظاهر أن الشعرانى كان رجلاً أزرق الناب ، فانه قدر في كظم
الغيظ على ما لم يقدر عليه أحد من الصوفية ، هو رجل سياسى حنكته الأيام
فاصطنع المجاملة والمداراة . وذلك أدب لا يعاب ، ولكن لا يمكن القول
بان مقامه يساوى مقام المخاطرين من أرباب الشجاعة الأدبية الذين أسمعوا

(١) البحر المورود (ص ٢٩٣)

كبار الخلفاء ما لا يحبون

إن أدب الشعرا في هذه الشؤون أدب عيسوي ، فهو لا يبعد كثيراً عن أدب المسيح إذ قال : دعوا ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله

فالمرید الذی يؤدبه الشعرا في هو رجل يقبل كل شيء : ليس له أن يشور على الحكام وإن كانوا ظلمة ، لأن الله لا يرفع أحداً إلا لحكمة ، وقد يكون الحاكم الظالم سوطاً سلطه الله على المذنبين !

المرید الذی يؤدبه الشعرا في رجل تراپی ، هو كأكثر من نعرف من أهل هذا العصر ، فقی الناس من يؤيدون كل حكومة ، ويسیرون في كل ركاب ، ويكادون يقولون حين يسمعون كلام أى وزير : صدق الله العظيم !

وهذا أدب جمیل إذا قیس بما فيه من سلامة العواقب ، وبما يجلب من الحظوظ الدنيوية . ولكنه أدب منحط إذا تذكرنا أن من واجب أهل الرأى أن يقفوا وقفة الآساد في وجوه الظالمين

وعذر الشعرا في يبدو مقبولاً ، لأن الواعظين لا يُسمع لهم حين يقاومون الحكام ، وفاته أن الرأى العام يتكون من تلك الكلمات الصغيرة التي ينقلها المنكرون من مكان إلى مكان ، وأعنف الحكام وأصلبهم لا يقدر على الوقوف في وجوه الناس حين يغضبون ، وهل تقدر وأنت سيد على تدمر الخدم في بيتك ! إن الذين يصانعون الحكام الظالمين باسم السياسة وتدبر العواقب هم قوم جنباء يسترون جنبهم بتصنع الحكمة وبعد النظر ومرونة العقل ، وهذه الشرائل المصقولة لا تنبت إلا في قلوب الضعفاء

وقد صرح الشعرائي عن جنبه ^(١) حين قال :

« أخذ علينا العهد أن لا تتصدر لازالة منكرات الولاة إلا إن كان معنا تصريف فيهم ، وإلا آذونا ونفونا من بلادنا وأحوجونا إلى الاستخفاء زمانا طويلا ^(٢) »

ومعنى هذا أن إزالة منكرات الولاة لا تكون إلا عند ضمان السلامة .
والسلامة مطلب وضيع في نظر كبار الرجال

٢١ — ننتقل من هذا إلى رأيه في تربية المريد من الوجهة العقلية : وهو ينهيه عن قراءة كتب التصوف والتوحيد المطلق . فلا يقرأ كتب ابن عربي أو غيره من غلاة الصوفية « وذلك لعدم الفائدة وشدة الانكار على من تفوه بما ذكروه فيها مما يخالف عقول غالب الناس ؛ وما كل ما يعلم يقال . وربما فهموا منها أمورا تخالف صريح السنة فيموتون على اعتقادها فيخسرون مع الخاسرين . وما رأينا قط مريداً بلغ مبلغ الرجال بمطالعة كتاب ^(٣) »

ولا ينافي هذا ما جاء في مقدمة اليواقيت والجواهر من الدعوة إلى قراءة كتب ابن عربي فانه هناك احتسب حين أقنع المريد بأن ما جاء في كتب ابن عربي مخالفاً للشرع إنما هو من وضع الدسائسين

(١) كلمة « جنب » لا تنطبق تماما على حال الشعرائي ، فقد تبين لنا أنه كان يصانع الحكام سياسة ، لأنه كان مرتبط مع حكم عصره بكثير من الصلات ، وقد زاد ذلك في جاهه فكان أكثر الناس لا يصلون الى الوظيفة إلا عن طريقه ، وكان الحكام يزورونه في زاويته فيلقاهم بالترحيب ويخلو بهم خلوات خاصة يدبر فيها معهم ما يشاء ، وهذا هو السر في أنه كان ينهى عن مقاومة الحكام ويسأل الله مع فقرائه أن يرفع عنهم « الحملات »

(٢) البحر المورود ص ٢٧١

(٣) البحر المورود ص ٢٧٤ وأنظر أيضا لطائف المنن ج ١ ص ٢٤٢

ونخلص من هذا إلى أن التصوف عنده يجب أن يقيد بالشرع وأن المرید يجب عليه أن يحترس من مزائق العقول

٢٢ — ونهيه عن قراءة كتب التصوف لم يمنعه من أن يملأ كتبه بأقوال الصوفية في الرمزيات ، فقد نقل كلمة أبي الحسن الشاذلي في تفسير آية (وما تلك بيمينك يا موسى) على الطريقة الصوفية :

« يقال للولى : وما تلك بيمينك أيها الولى ؟ فيقول : هي دنياى أنفق منها على نفسى وأهلى وإخوانى ، فيقال له : ألقها ، فيلقها فيجدها حية تسعى فى هلاك قابضها فيأخذ حذره منها ، فاذا حذر منها يقال له : خذها ولا تحف . فكما ألقاها أولاً بإذن حال بدايته فكذلك أخذها بإذن حال نهايته (١) »

والواقع أن الشعرانى سلك مسالك الصوفية فى أكثر مؤلفاته ، فتجوز فى الألفاظ والمعانى ، ودخل إلى قلوب القراء بأساليب لا تخلو من فتون ، ولكن الخطر عند الشعرانى يخالف الخطر عند ابن عربى . فالذى يؤمن بكل ما أشار به الشعرانى يخرج وهو مخبول ، والذى يؤمن بكل ما أشار به ابن عربى يخرج وهو زنديق ، والفرق بعيد بين الزندقة وبين الخبال

فسذاجة الشعرانى هى أصل ما يقع فيه من انحراف ، ومكر ابن عربى هو أصل ما يقع فيه من ضلال

٢٣ — بقيت مسألة يجب النص عليها : وهى أن الشعرانى لا يكاد يعرف غير البيئة المصرية ، فهو يضع الآداب لمواطنيه من أهل مصر ولا يفكر فى من

عدايم من المسلمين ، وهو حين يتحدث عن نقص الدين أو رفع الرأفة من قلوب الناس لا يعنى أحداً غير المصريين ، وقد مضت النصوص التي تعين هذا المعنى ، ويؤيدها قوله في البحر المورود :

« أخذ علينا العهد إذا كان لنا جار ساكن على الخليج أيام قطعه ، أو نزح الخرات منه ، وعلينا عجزه عن نزح ما تحت بيته إما لفقر أو بخل أن نوهم جماعة الوالى أن تلك الخرات نشأت من بيتنا دون بيته ، ثم أنزحها نيابة عن جارنا ، ولا ندع جماعة الوالى يربعوه مع قدرتنا على ذلك ، ولا سيما إن كان عنده ضعيف أو نفساء أو فرح أو غرماء يطالبونه وهو عاجز عن الوفاء ومستخف بالبيت . والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه (١) »

وهذا النص يدل دلالة قاطعة على أن الضمير « نا » فى قوله (أخذ علينا العهد) يراد به الصوفية المصريون : فأداب الشعرانى هى آداب محلية أوحاها ظرف المكان

والأصل فى كل دعوة أدبية أو اجتماعية أو دينية أن تصطبغ بالموطن الذى نشأت فيه ، وكذلك يجب أن تغلب الألوان المحلية فى كل أثر أدبى أو اجتماعى أو دىنى ، ولكننا لا نجد هذا الشرط يتحقق عند أى مؤلف على نحو ما تحقق عند الشعرانى : فالبيئة المصرية تطل من كل سطر بل من كل حرف . وهو فى اتجاهاته الذهنية ، وأخيلته الأدبية ، مصرى صميم عرف أخلاق الفلاحين ، وأخلاق أهل القاهرة التى يسميها « مصر المحروسة » . ومعرفته

لأهل مصر في مسالكهم الخلقية والمعاشية يعطى كتبه منزلة عظيمة هي تاريخ المجتمع المصرى فى ذلك الحين

وقد شرحنا ذلك بالتفصيل فى القسم الأول من هذا الكتاب فليرجع إليه القارئ هناك (١)

٢٤ — وفى ختام هذا الفصل ينبغى أن ننص على أن مصادر الشعرانى فى كتبه الأخلاقية ترجع إلى أصليين : الأول كتب الفقه والتصوف والحديث ، والثانى ما تلقاه شفويًا عن أسياخه فى الطريق ، وهنا نذكر بالذات عليًا الخواص وكان من مشاهير الأولياء وله ضريح يزار بالحسينية ، فقد أكثر الشعرانى من نقل أقواله والاستشهاد بآرائه فى كثير من الشؤون

وإذا صدق الشعرانى فيما نقل عنه — وهو عندنا صادق — فإن الخواص يعدُّ بما نقل عنه من أئمة التصوف ورجال الأخلاق ومن أعيان مصر فى القرن العاشر ، وإذا كان الخواص لم يترك شيئًا يستحق الذكر من المؤلفات فإن الشعرانى صنع معه ما صنع أفلاطون مع سقراط

ما هذا ؟ أيصح فى الأذهان أن يقرن اسم الشعرانى إلى اسم أفلاطون واسم الخواص إلى اسم سقراط ؟

وهل يقدم هذا الكلام إلى الجامعة المصرية ؟

(١) يجب أن نذكر بهذه المناسبة أن الشعرانى يأخذ مدده دائماً من العلماء المصريين فيجعلهم دائماً فى صدر الكلام ولا يذكر مصادره من القرآن والحديث وكلام المتقدمين إلا بعد أن يستوفى ما يهيمه من النقول عن العلماء المصريين ، وهو فى هذا قليل الأمثال ، فالباحثون يبدأون بكلام المتقدمين ، وهو من بينهم يبدأ بكلام من عاصروه ثم ينتقل إلى الاستئناس بكلام القدماء .

إلى والله ! هذا من موجبات العجب ، ولكنه حق : فإن شطحات
الشعرانى وحدها تضعه فى الصف الأول بين رجال الخيال ، وإحاطاته
بالعلوم الإسلامية والعربية وصدق رأيه فى معرفة أهل زمانه تضيفه إلى
صفوف العلماء والحكماء . ولا أنكر أن له أحيانا جرأة تثير النفوس ولكن
مجموعة ما ألف هذا الرجل تشهد بأنه كان من العظماء ، وليس من الختم أن
يكون جرهر عليه من جوهر العلم الذى أذاعه أفلاطون ، فإن الفرق بين
العقلين عظيم ، ولكن مجهود الشعرانى فى نشر الثقافة الشرعية والصوفية
لا يقل خطراً عن مجهود أفلاطون فى نشر ثقافة اليونان

إننا ننظر إلى الشعرانى بعيون جلتها حقائق العلم الحديث . ومن أجل
ذلك نسكره ونقسو عليه ، ولو أننا تمثلنا العصر الذى نشأ فيه ، ونظرنا فيما ترك
من المصنفات وما سطر من أخبار الحقائق والأضاليل ، وتذكرنا ما رعى
من الفقراء وما هدى من الطلاب ، وما تسامى إليه حين تطلع إلى أسرار
الوجود ، لو نظرنا هذه النظرة لأحسبنا بتيارات من العطف تجرف
ما أخذنا عليه من الوسوس والهفوات

وأما الخواص فماذا نقول فيه ؟

ليرى من شاء بشارع الحسينية ، فإن فعل فسىرى ضريحاً لا يعرفه غير
العوام ، وهم لا يذكرون إلا أنه كان رجلاً صالحاً يعيش من جدل الخوص
فهل فى الناس اليوم من يعرف أن هذا الرجل المجهول هو الذى قال :

« من أراد أن يعرف مرتبته فى العلم الذى يزعم أنه من أهله فليرد كل
قول إلى قائله ، وكل علم إلى عالمه ، وكل شيء استفاده من أمر دنياه وآخرته

إلى من استفاده منه ، وينظر نفسه بعد ذلك (١)»

أترون عمق الفكر فى هذا الكلام البسيط ؟

إن الخواص الذى عرفناه فى كتب الشعراى لا يقل عظمة عن سقراط
الذى عرفناه فى كتب أفلاطون . والفرق بين الرجلين أن سقراط أولع
بمخاطبة العقول ، والخواص أغرم بمخاطبة القلوب . والعقل أبقى من القلب
وله فى كل زمان أنصار وأشباع

إن أفلاطون عاش لأنه وقف عند حدود الأرض . ومات الشعراى
لأنه تطلع إلى السماء . عاش أفلاطون لأنه تحدث عن شؤون يقمها الأصحاء
ومات الشعراى لأنه خاض فى شؤون لا يدركها غير من انقطع عن دنياه .
والانقطاع عن الدنيا من أعراض الموت . ولكن من ينكر أن رأى المحتضر
قد يكون أصدق رأى ، وحديثه أبلغ حديث ؟

وهل من القليل أن تعيش شطحات الشعراى أربعة قرون ؟
ذلك ضرب من الحياة لو تعلمون

(١) انظر لطائف المتن ج ١ ص ٢٦١

المهلكات والمنجيات

تحديد الشخصية الخلقية — مزايا النظرة الصوفية — آفات الشبع وفوائد الجوع —
هل نعلم حين نبتلى بالشهوات — رذائل المرائين — شهوة الفرج — آداب الزواج —
مدافعة الشهوات — آفات اللسان — آفات الأقلام — مزايا الصمت — حقارة الفضول
آفة المراء والجدال — قبح الخصومة — صيانة اللسان عن الفحش واللعن — خطر
المزاح — النهى عن السخرية والاستهزاء — شناعة الكذب — مآثم الاغتياب —
قبح النيمة والسعاية — كلمة ختامية في الفرق بين الصوفية وبين غيرهم من رجال الأخلاق

١ — طال الطواف بآراء الصوفية في الأخلاق ، ورأينا ألواناً مختلفات
من مذاهبهم في العيش ومناحيهم في السلوك ، ولكن الشخصية الخلقية
للصوفي الحق لا تزال خافية بعض الحفاء ، وأخشى أن نكون أطلنا في بيان
النواحي الفلسفية من التصوف ، وأخشى أيضاً أن نكون أسرفنا في نقد
المذاهب الصوفية إسرافاً يضلل القارئ ويصرفه عن تنوُّر ما في الشخصية
الصوفية من سماحة وصفاء .

ولكن ما اصطنعناه من العنف في نقد المذاهب الصوفية ، وما آثرنا من
التعمق في عرض التصوف من الناحية الفلسفية ، كان أمراً يوجب البحث كل
الوجوب ، لأن هذا الكتاب لم يؤلف لشرح التصوف ، ولا لتأريخ التصوف ،
وإنما ألف لغاية صريحة : هي بيان تأثير التصوف في الأدب والأخلاق ،
وقد وصلنا من ذلك إلى بعض ما نريد

ثم نظرنا فرأينا منهج البحث يسمح بتصوير الشخصية الخلقية للصوفي
الحق ، وزيد الناحية العملية في حياة المريد ، الناحية التي تصوّر ما يخاف
وما يرجو في حياة الأخلاق .

٢ — قد يقال : وما الفرق بين الصوفي وبين غيره من أرباب السلوك
السليم إذا غرضنا النظر عن الناحية الفلسفية ؟

ونجيب بأن الناحية الفلسفية هي في الأصل عماد الناحية العملية ،
فالصوفي يتفلسف في جميع أعماله ولا يتقدم ولا يتأخر إلا بموازين .
وللصوفي ميزة ليست لسواه من رجال الأخلاق فهو « يحسُّ » المواعظ
و « يذوق » الأمثال ، والحكمة على لسان الصوفي متوقدة ملتتهبة تأخذ
وقودها من الضمائر والقلوب .

وهناك ميزة ثانية هي الإلهام ، الإلهام ، ولو شئت لكررتها ألف مرة ،
فالصوفي يحب أن ينقل جميع ما أثر من أقوال الأنبياء والحكماء والصالحين
في تأكيد المعنى الذي يدعو إليه ، وربما كان الصوفية هم الذين تفردوا
بالاطناب في شرح أدواء النفوس ، وأمراض القلوب ، وبكوا على مصاير
العاصين والغافلين أحر البكاء

وهناك ميزة ثالثة هي شعور الصوفي بأثقال الأوزار والذنوب ، فهو
رجل تواب أواب لا يذنب حين يذنب الا وهو في غاية من
الحجل والاستحياء .

وهناك مبزة رابعة هي الايمان ، فالصوفي وإن تفلسف لا يعتقد أن
الأخلاق وسيلة نفعية تُطلب للمعاش وحسن الصلات مع الناس ، وإنما
يعتقد أن الأخلاق صلة بينه وبين الله ، والله صورة جميلة في أنفس المخلصين
من أهل التصوف ، وهم يحبونه كل الحب ، ويستحيونه كل الاستحياء ، وهم
من أجل ذلك لا يبالون الشرائع ولا القوانين ، وإنما يفكرون في صلاتهم
الحقيقية بذلك المحبوب المعبود .

وما أنكر أن الصوفية قد يصلون الى الوسوسة الخلقية في أكثر الأحيان ، ولكن عذرهم في ذلك مقبول . فهم يتسامون الى الظفر بالرضوان عند محبوب لا تناله الأوهام ولا الظنون ، ورضوانه غرض عزيز المنال

٣ — ولنفصل شمائل الصوفي من الناحية الخلقية فنقول

يخاف الصوفي شهوة الطعام والشراب ، وهو على حق ، فكل الرذائل تصدر عن الطعام والشراب ، وما أمن إنسان غوائل ما يأكل وما يشرب الا انقلب الى مخلوق سفيه ممقوت
وهل ذل من ذل وضاع من ضاع إلا بسبب الحرص على الطعام أو الشرب ؟

والصوفي لا يجزع حين يجوع ، وإنما يلتفت الى نفسه فيقول : أى شيء تخافين ؟ أتخافين أن تجوعى ؟ لا تخافى ذلك ، أنت أهون على الله من ذلك ، إنما يجوع محمد وأصحابه (١)

أو يقول : إلهى أجمعنى وأعريتنى ، وفى ظلمم الليالى بلا مصباح أجلسنى ، فبأى وسيلة بلغتنى ما بلغتنى (١)

أو يقول : إلهى ، ابتليتنى بالمرض والجوع ، وكذلك تفعل بأوليائك ، فبأى عمل أودى شكر ما أنعمت به على (١)

الصوفي يرى الشبع من المهلكات ويرى فى الجوع فوائد :

الأولى — صفاء القلب ، وإيقاد القريحة ، ونفاذ البصيرة ، فان الشبع

يورث البلادة ، ويعمى القلب ، ويكثر البخار على الدماغ .

الثانية — رقة القلب وصفاءه ليتهاً لادراك لذة المناجاة

الثالثة — الانكسار والذل وزوال البطر والفرح والأشر الذى هو

الطغيان والغفلة عن الله

الرابعة — أن لا ينسى بلاء الله وعذابه ولا ينسى أهل البلاء

الخامسة — كسر شهوة المعاصى والاستيلاء على النفس الأماراة بالسوء

السادسة — دفع النوم وسهولة السهر

السابعة — تيسير المواظبة على العبادة ، فان الاهتمام بالأكل قد يضيع

على العابد أطيب الأوقات

الثامنة — صحة البدن ودفع الأمراض

التاسعة — خفة المؤونة ، فان من تعود قلة الأكل كفه اليسير

من المال

العاشرة — التمكن من الايثار والصدقة بما فضل من الأطعمة على

اليتامى والمساكين (١)

وللصوفية كلام كثير فى النهى عن الشبع والتشويق إلى الجوع ، وقد

نقدنا هذه النظرة حين تكلمنا على آداب الطعام ، ولكن لا مفر من

الاعتراف بأن لا يثار الجوع مزية أساسية هي الخلاص من شهوة البطن

والسلامة من أمراض الأبدان والأخلاق ، فأخطر الأمراض الجسمانية

مصدرها الأكل ، وأخطر الأمراض الأخلاقية مصدرها الأكل ، ولا تسهل

(١) انظر تعليل هذه الفوائد فى الاحياء ج ٣ ص ٩٠ — ٩٤

المعاصى إلا على من يسرفون فى الطعام والشراب

٤ — ولم يفت الصوفية أن ينصوا على أن الجوع قد يتطرق إليه الرياء ، كأن يأكل الرجل فى الخلوة ما لا يأكل مع الجماعة ، وهذا هو الشرك الخفى^(١)

ومن رأيهم أن حق العبد إذا ابتلى بشهوات وأحبها أن يظهرها ، وهذا عندهم صدق الحال ، فإن إخفاء النقص وإظهار ضده من الكمال هو نقصان متضاد. اعفان ، والكذب مع الإخفاء كذبان ، فيكون مستحقاً لمقتين ، ولا يرضى عنه إلا بتوبتين صادقتين ، ولذلك شدد الله أمر المنافقين فقال : « إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ، لأن الكافر كفر وأظهر ، والمنافق كفر وستر ، فكان ستره لكفره كفرآ آخر ، لأنه استخف بنظر الله إلى قلبه وعظم نظر المخلوقين فمحا الكفر عن ظاهره ، والعارفون يُبْتَسلون بالشهوات بل بالمعاصى ولا يُبْتَسلون بالرياء والغش والإخفاء

ذلك كإلام الغزالى فى الإحياء^(١) وهو كلام نفيس ، وهو يصور صدق الشخصية الخلقية أجمل تصوير ، فالصوفى الحق قد يقع فى المعصية ، ولكنه لا يرائى ولا ينافق ، لأنه يختار بين حالين : الاستخفاف بنظر الناس والاستخفاف بنظر الله

الصوفى يرى الناس أحقر من أن يتهيبهم ويتق لظهورهم وفضولهم وسفاهتهم ، ويرى الحياء لا يكون إلا من الله الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور

الصوفى يؤذيه أن يكون كـبعض الأراذل الذين يستبيحون جميع المنكرات فى الخفاء ، ثم يلقون الناس بوجوه الصالحين الزاهدين المتبتلين وما عرفوا الصلاح ولا الزهد ولا التبتل ، وإنما هم لصوص سفلة يسرقون السمعة الحسنة من المجتمع المغفل الذى يعيش عيش القروء فلا يصدق غير ما ترى عيناه المفتوحتان بلا وعى ولا إحساس

الصوفى يؤذيه أن يُعرف بالصدق حين يكون من الصادقين ، لأن فى الشهرة بالصدق فتنة تجره إلى الرياء

والصوفى لا يستهويه أن يرى المنافقين والمخادعين فى نجاح ورفاهية ونعيم ، لأنه يعرف أن حظوظهم فى دنياهم ليست إلا حراما فى حرام ، ولا فرق بين انتهاب السمعة وانتهاب المال ، وإن خفى ذلك على الغافلين

ومن المنافقين من لا يكفيه أن يستر الله عورته الخفية فيجره الشره فى انتهاب السمعة الحسنة إلى الوقوع فى أعراض الناس ليصح عند الجمهور المغفل أنه من أهل الغيرة على الأخلاق ، وبهذه الأساليب تسير بين الجماهير أباطيل وأضاليل تنصب لها موازين فيشقى بها ناس ويسعد ناس

الصوفى يقف موقف المتفرج على الضلالات الاجتماعية ، ويرى الرذيلة المكشوفة أهون من الرذيلة المستورة ، لأن الرذيلة المكشوفة تعصم صاحبها من موبقات كثيرة أهونها الصلاح المزيف ، والأدب المكذوب

أما الرذيلة المستورة فتخلق لصاحبها موبقات مهلكة ماحقة أيسرها الشعور بأن الكذب على الله وعلى الناس أمر تجيزه العقول ، عقول السفلة المهتوكين أمام الله والمستورين أمام الناس

وقد بدا لأهل أمريكا منذ أعوام أن يحرموا شرب الخمر فوقعوا في خطر ماحق هو الرياء والنفاق ، واشتهت المسالك في تمييز الفاضل من المفضول ، ولو أصرت أمريكا على هذه النزعة « الاعلانية » لفقدت ميزتها الأصلية وهي صراحة القلوب والأعمال

والأمم التي تحرص على سلامة الظواهر هي الأمم المهدة بالاستعباد والزوال

وشاهد ذلك يؤخذ من حياة الشعوب في هذه الأيام ، فالأمم التي تُكثر من الكلام على التحليل والتحريم هي الأمم التي تعاني آلام الاستعباد ، لأن انشغالها بالنفاق والرياء والخداع لم يترك لها من فراغ البال ما تستعد به لمقاومة المكاره والخطوب. ولا كذلك الأمم التي جعلت حسابها مع الله لا مع الناس

وحسب المرء من السفالة والضعفة والخطة أن لا يكون له رقيب غير طوائف من المخلوقات تستبيح في السر ما تنكر في العلانية وحسب الأخلاق من الضعف أن لا تماسك إلا بأسباب واهية من الرياء

وقد حار الباحثون في فهم السر الذي قضى بأن تخلد الكتب التي بلغها الأنبياء والمرسلون

فليفهموا ، إن شاءوا ، أن مرجع ذلك السر إلى الصدق ، فالأنبياء والمرسلون لم يكن فيهم رجل كاذب ، وإنما كانوا جميعاً صادقين ، فقد سجلوا عيوبهم ومساوئهم تسجيلاً صريحاً لا مواربة فيه ولا تضليل ، وهل كانت

الكتب التي بلغها الأنبياء والمرسلون إلا تسجيلاً للبآسى الإنسانية الممثلة
في أخطاء الأنبياء والمرسلين ؟

سيفنى كل شيء وتبقى خطيئة داود

سيفنى كل شيء ويبقى العتاب الموجه إلى الرسول في القرآن

سيفنى كل شيء ، وتبقى صور البكاء على الآثام والذنوب ، بكاء الأنبياء

والمرسلين

وسيبقى كل شيء إلا الصلاح المزيف الذى ظفر به الأوباش من

من أديعوا الاستقامة والعدالة والصلاحية لتربية العقول والقلوب

وأشقى الأمم هى التى يكون معلومها ومربوها مخادعين ومنافقين

أشقى الأمم هى التى تعيش بعقول الاطفال فلا ترى غير الظواهر

والعناوين

أشقى الأمم هى التى تحاسب على الرغبة المسروق ولا تحاسب على

المجد المسروق

أشقى الأمم هى التى ينصب فيها للظاهر ميزان ولا ينصب فيها للباطن

ميزان

ولإنما فُرض عليها هذا الشقاء لأنها حُرمت حقاً وصدقاً من جواهر

الأخلاق

وهل تظفر أمة بجمال الخُلُق حين يسرها أن تجمل الوجوه وإن

قبُحت القلوب ؟

إن المصدر الأصيل للخُلُق الجميل هو القلب ، فان غفلت الأمم عن

هذا الجوهر فهي أسمى مضيئة مفتونة لا تصلح لغير الرق والاستعباد
لن تفلح أمة إلا حين تتخلق بأخلاق الله ، وهو عز شأنه لا ينظر إلى
الصور ولا إلى الأعمال ، وإنما ينظر إلى القلوب
تباركت يا ربى وتعاليت ، وبك يستعز ويستنصر كل من شاء رحمتك
أن لا يكون له نصير غيرك

وما أسعد من تفضلت عليه فكتبت أن لا يعرف نصيراً سواك

ه — وكما يخاف الصوفية شهوة البطن يخافون شهوة الفرج ، وينكرون
أن يتناول الرجل من الأدوية ما يقوئى شهوته على الاستكثار من الوقاع
كما يتناول بعض الناس أدوية تقوئى المعدة لتعظم شهوة الطعام . ومثال ذلك
عندهم مثال من ابتلى بسباع ضارية ، وحيات عادية ، فتنام عنه فى بعض
الأوقات فيحتال لاثارتها وتهيجها (١)

وهم فى أغلب أحوالهم يؤثرون العزوبة على الزواج ، ولكنهم يدعون
إلى الزواج عند خوف الفتنة ، ويتحرزون من كل ما يثير الشهوات ،
ويستقبحون أن تمر صورة الشهوة المحرمة على خيال المريد ، ولذلك تفاصيل
مرت فى الكلام على الحب

ومن علامة صدق المريد أن يتزوج فقيرة متدينة ولا يطلب الغنية ،
فان لزواج الغنية آفات ، منها المغالاة فى الصداق ، وتسويق الزفاف ،
وفوت الخدمة ، وكثرة النفقة ، وإذا أراد طلاق الغنية لسبب مقبول فقد
يمنعه الحرص على مالها ، والفقيرة بخلاف ذلك (٢)

(١) الاحياء ، ج ٣ ص ١٠٧ (٢) الاحياء ج ٣ ص ١١٠

ويستحب الصوفية أن تكون المرأة دون الرجل بأربع : السن والطول
والمال والحسب

وأن تكون فوقه بأربع : الجمال والورع والخلق والأدب

ويوجب الصوفية أن يصبر الرجل على امرأته ، وحدثوا أن أحدهم
خطب امرأة ذات جمال ، فلما قرب زفافها أصابها الجدرى ، فاشتد حزن
أهلها لذلك خوفاً من أن يستقبحها ، فأراهم الرجل أن عينيه أصابهما رمد
وأن بصره ذهب ، وزفت إليه وذهب عن أهلها الحزن ، فبقيت عنده
عشرين سنة ثم توفيت ، ففتح عينيه ، فسأله إخوانه عن سر ذلك فقال :
تعمدته لأجل أهلها حتى لا يحزنوا ، فقيل له : سبقت إخوانك بهذا الخلق
وتزوج بعض الصوفية امرأة سيئة الخلق فكان يصبر عليها ، فقيل له :
لم لا تطلقها ؟ فقال : أخشى أن يتزوجها من لا يصبر عليها فيتأذى بها .

وللصوفية أحاديث في الزواج يضيق عن سردها المجال ، وللقارىء أن
يرجع إلى قصة سعيد بن المسيب في الأحياء فهي صورة من الأدب الرفيع
ولهم في مدافعة الشهوات آيات

حدث أحمد بن سعيد عن أبيه قال : كان عندنا بالكوفة شاب متعبد ،
ملازم للمسجد الجامع لا يكاد يفارقه ، وكان حسن الوجه ، حسن القامة ،
حسن السمات ، فنظرت إليه امرأة ذات جمال وعقل فشغفت به ، وطال
عليها ذلك ، فلما كان ذات يوم وقفت له على الطريق وهو يريد المسجد
فقالت له : يا فتى ، اسمع مني كلمات أكلبك بها ثم اعمل ما شئت ، ففضى ولم
يكلمها ، ثم وقفت له بعد ذلك على طريقه وهو يريد منزله فقالت له : يا فتى

اسمع منى كلمات أكلمك بها ، فأطرق ملياً وقال لها : هذا موقف تهمة ، وأنا
أكره أن أكون للتهمة موضعاً . فقالت له : والله ما وقفت موقفى هذا
جهالة منى بأمرى . ولكن معاذ الله أن يتشوف العباد الى مثل هذا منى ،
والذى حملنى على أن لقيتك فى هذا الأمر بنفسى معرفتى أن القليل من هذا
عند الناس كثير ، وأتم معاشر العباد على مثال القوارير أدنى شئ يعيها ،
وجملة ما أقول لك أن جوارحى كلها مشغولة بك ، فالله الله فى
أمرى وأمرى

فضى الشاب إلى منزله وأراد أن يصلى فلم يعقل كيف يصلى . فأخذ
قرطاساً وكتب كتاباً ثم خرج من منزله وإذا بالمرأة واقفة فى موضعها
فألقي إليها الكتاب ورجع إلى منزله . وكان فى الكتاب :

« بسم الله الرحمن الرحيم

اعلمى أيتها المرأة أن الله عز وجل إذا عصاه العبد حلم ، فإذا عاد إلى
المعصية مرة أخرى ستره ، فإذا لبس لها ملابسها غضب الله تعالى لنفسه
غضبة تضيق منها السموات والأرض والجبال والشجر والدواب . فمن ذا
يطيق غضبه ؟ فإن كان ما ذكرت باطلا فانى أذكرك يوماً تكون فيه السماء
كالمهل ، والجبال كالعصن ، وتجثو الامم لصولة الجبار العظيم ، وإنى والله
قد ضعفت عن إصلاح نفسى ، فكيف إصلاح غيرى ، وإن كان ما ذكرت
حقاً فانى أدلك على طبيب هدى يداوى الكلام الممرضة ، والواجع
الممرضة ، ذلك الله رب العالمين ، فاقصديه بصدق المسألة فانى مشغول عنك
بقوله تعالى : وأنذرهم يوم الآزفة ، إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ،

ماللظالمين من حميم ولا شفيع يطاع ، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور .
فأين المهرب من هذه الآية ؟ »

ثم إنها جاءت بعد ذلك بأيام فوقفته له على الطريق فلما رآها من بعيد
أراد الرجوع لمنزله كيلا يراها فقالت : يا فتى ، لا ترجع ، فلا كان الملتقى
بعد هذا اليوم أبداً إلا غداً بين يدي الله تعالى . ثم بكى بكاء شديداً وقالت :
أسأل الله الذى بيده مفاتيح قلبك أن يسهل ما قد عسر من أمرك !

ثم إنها تبعته وقالت : أمنت على بموعظة أحملها عنك
فقال : أوصيك بحفظ نفسك من نفسك ، واذكرى قوله تعالى : وهو
الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار
فأطرقت وبكت بكاء أشد من بكائها الأول ، ثم أفاقت ولزمت بيتها
وأخذت فى العبادة ولم تزل على ذلك حتى ماتت كمدأ (١)
وإنما ذكرت هذا الشاهد لعذوبته من الوجهة الأدبية ، وهناك شواهد
تعد بالمئات ، وهى تصور جوانب من حلاوة الأدب وطهارة الأخلاق .
والمهم أن نسجل أن الصوفى يخاف ربه أشد الخوف ، ويكره الشهوة
أشد الكره ، ولا يتقدم ولا يتأخر الا وهو فى حيلة وحذر من أحاييل
المفاتن والصبوات

والصوفية يعرفون مزلق النفوس والأهواء فيتحرزون من النساء ومن
الوجوه الصباح ، ويجاهدون أهواءهم بالعزلة فى بيوتهم وبالظماً والجوع
وبمصاحبة الاتقياء

وقد أشرنا غير مرة إلى أن الشهوات هي الأصل في عمارة الوجود ،
ولكن من ذا الذى يرضى أن تذهب مروءته ليعمر الوجود ؟
من ذا الذى يرضى أن يكون وقوداً فى أتون العمران ؟
من ذا الذى يرضى أن يكون عضواً فى الجمعية الأثيمة التى تعمّر الوجود
بأسباب الشهوات ؟

وما قيمة الوجود كله إذا خرجنا من ربحه خاسرين ؟
ما غنيمة الرجل الذى يجاهد لاغناء الحياة الأدبية بالصور الحسية
والاجتماعية على نحو ما فعل ميسيه ولا مرتين إذا خرج من جهاده بمحصول
سخيف هو فقد كرامته بين الناس ؟
وهل يستطيع أطرف الأدباء أن يكون أخلد من ابليس ؟ إن بعض
الأدباء — وأنا منهم — يتوهمون أن وصف الشهوات والمآثم يرفع الأدب
ويحييه ، وذلك ضلال مبين

فما ظفرت ولا ظفر أمثالى بغير عصارة مريّة الطعم والمذاق .
إن الصوفية أعقل من الأدباء وأشرف
سيلقى الصوفية ربهم راضين مبتسمين ، أما نحن فسنذهب الى النار فى
ركاب امرئ القيس الذى أنذره الرسول .
لقد فقدنا كل شيء ، حتى الطمع فى عفو الله ، وهل يعفو الله على من
خلدوا آثار المآثم والشهوات باسم الأدب الرفيع ؟

إن من أشنع الأضاليل أن تظن أن من الأدب أن تصف كل ما ترى العيون
إن من أشنع الأضاليل أن تحسب أن من واجبك أن تصور كل ما فى الوجود .

إن من أسخف الأباطيل أن تخال أنك جندى من جنود الحب والهيام
والفتون .

تلك دنيا من الوهم السخيف طفنا بملاهيها ونحن سفهاء ، ثم رجعنا نادمين
وأي نحن من الصوفية ؟

أين مكان المسود من مكان السيد ؟

أين يقع حال اللاهين اللاعبين الذين لا تغنيهم الخلائل عن الخليات
من حال الصوفية الذين لا يعرفون اللذات الا في حدود الحلال ؟

قولوا فى الصوفية ما شئتم ، ولكن تذكروا أنهم أشراف متصنون
يكرهون مواطن التهم ومواضع الشبهات .

وهل فى الدنيا حال أشرف من حال من يقطع السبيل على اللاهين
والمتقولين ، فلا يمكن السفلة من الوقوع فى عرضه كلما شاء لهم هواهم أن
يلزوه فى الأندية والمجتمعات ؟

إن أصغر مزية للتصون هى ردّ الأعداء خائبين ، الأعداء اللئام الذين
يعرفون صدق سريرتك ، ثم يتوكأون على قصيدة تقولها فى منظر جميل
ليستبيحوا عرضك عند من تعرف ومن لا تعرف

إن أهون فضيلة من فضائل التصون هى إجاعة الأوباش الذين لا يجدون
وسيلة لاشباع بطونهم غير الوقوع فى أعراض الرجال .

فان قلت إن الصوفية على طهارتهم لم يسلموا من السنة الأندال ،
فانى أجيبك بأن حالهم أفضل من حال الأديب الوصاف الذى يمكن
الأندال من اتهامه بالاثم والفتون ، فلا يجدون من يصرفهم عن غيرهم

باسم العقل والوجدان .

إن الصوفية أفضل من الأدباء وأشرف
فليكن من همنا أن نحاول اللحاق بأولئك القوم
ولكن أين العوائم وأين القلوب !

٦ — وكما يحترس الصوفية من شهوات البطن والفرج يحترسون من
آفات اللسان .

والصوفية هم أكثر الناس كلاماً في التحذير من الكذب والغيبة والنميمة
والفضول .

وما اتفق لرجل من الصوفية أن يؤلف كتاباً إلا تكلم على آفات اللسان .
فقد علمتهم التجارب أن اللسان يضر كما ينفع ، وهدتهم عظات الأيام إلى
أن اللسان قد يجر صاحبه إلى المخاطر والمعاطب
وما تقدم إنسان أو تخلف إلا كان لسانه من أسباب ما غنم من تقدم أو
رُزِي من تخلف

وشواهد الحال في كل مجتمع تشهد بأن الألسنة لها أثر فعال في
مراكز الرجال .

فالرجل العاقل يلقي الناس بما يحبون ، ويأبى عليه أدبه أن يواجههم بما
يكرهون .

وقد يسوء حظ الرجل ويجانبه التوفيق فيتوهم أن من واجبه أن يصارح
الناس بعيوبهم ومساوئهم ، وهو يحسب ذلك من الشجاعة الأدبية ، ولو عقل
لعرف أن الشجاعة الصحيحة هي ضبط اللسان وحبسه عن إيذاء الناس .

وقد يتفق في بعض الأحيان أن تُقهر على الجهر بكلمة الحق ، ولكن تلك الحال هي الشاهد على العجز الموبق ، فالرجل الحكيم يستطيع دائماً أن يكون عفيف القول رطب اللسان ، ولا تصدر الكلمة السفية عن لسان الرجل إلا وهو مقهور مغلوب ، وما قهره ولا غلبه إلا ضعف عزيمته عن مقاومة ما في صدره من أهواء وشهوات .

٧ — اهتم الصوفية بالكلام على آفات الألسنة ، وكادوا يسكتون عن آفات الأقلام ، وإنما كان الأمر كذلك لأن الأقلام في الأزمان الخالية لم يكن لها مجال .

أما اليوم فالقلم يأسو ويحرج ، وهو صديق من أصدقاء السوء والبهتان كان القدماء يقولون :

جراحات السنان لها الشامُ ولا يلتام ما جرح اللسانُ
وكان اللسان يحرج في بيئات ضيقة محصورة يعد أصحابها بالعشرات
أو بالآلاف .

أما اليوم فالقلم يحرج في بيئات يعد أصحابها بالآلاف أو بالملايين .
والكلمة الجارحة في جريدة أو في مجلة تنتقل من بلد إلى بلد ، ومن قطر إلى قطر ، ومن قارة إلى قارة ، وتحدث من الآثار السيئة ما تعجز عن غسله الأنهار والبحار .

كانت الغيبة باللسان توجه الى فرد من الأفراد ، أما الغيبة بالقلم فقد تؤذى حكومة من الحكومات أو شعباً من الشعوب .

وما بنا أن ننهي عن نقد الحكومات والشعوب ، ولكننا نوازن بين

حالين : حال من يغتاب فرداً وحال من يغتاب حكومة أو أمة .

فالذى يغتاب فرداً يعطل مصلحة فردية ، أما الذى يغتاب حكومة فهو يحرض عليها جماهير كثيرة فيسوق الشعب إلى التمرد والعصيان ، ولذلك عواقب تهدد مصالح الألوف والملايين ، والذى يغتاب أمة قد يعرضها لأخطار من الوجهة الاقتصادية أو الوجهة الدولية . والناس يقعون فى هذه المآثم كل يوم ولا يتنبهون لخطر ما يصنعون .

ومن تقاليد هذا العصر أن ننشئ الجرائد والمجلات لمحاربة الحكومات والأحزاب ، ومن حقنا أن نفعل ذلك ، والحجة فى أيدينا وهى الغيرة على المصلحة القومية ، ولكن يغيب عنا أن الأهواء قد تكون لها مسالك فى تزيين ما تورط فيه أحياناً من الجور والاعتساف .

فالذى يهجم على رئيس حكومة أو رئيس حزب لا يعرف فى الأغلب خطر ما يصنع من الوجهة الأخلاقية ، لأن التمهيد فى الحياة السياسية قد يحوّل صاحبه إلى طاغية يستطيع كل شئ فى تأييد المذهب الذى انحاز إليه ، وفى السياسيين رجال عُرِفوا بالأدب والذوق ، ولكنهم فى الجدل السياسى يخرجون على ما عرِفوا به من التجميل وضبط النفس ، حتى لتحسب للرجل منهم شخصيتين مختلفتين أشد الاختلاف .

وإنما كان ذلك لأن مذاهب السلوك فى العصر الحديث لا تعرف مآثم الاغتياب فى الحياة الاجتماعية والسياسية ، كما تعرفها فى الحياة الفردية ، فـرئيس الحكومة أو رئيس الحزب لا يجوز اغتيابه من حيث هو فرد ، ولكن يجوز اغتيابه من حيث هو رئيس حكومة أو رئيس حزب ، والغيبة

الاجتماعية والسياسية أبشع أثراً من الغيبة الفردية ، ولكن أين من يتنبه إلى دقائق الأخلاق ؟

يضاف إلى ذلك أن الغيبة الاجتماعية والسياسية تنشر بطريقة علنية في الجرائد والمجلات ، وقراء الصحف فيهم من يصدق كل ما يقرأ ، وهنا وجه الخطر ، فلو كان الناس جميعاً قادرين على نقد ما يقرأون لحقت أضرار الغيبة الاجتماعية والسياسية ، وبقيت مهابة رؤساء الحكومات ورؤساء الأحزاب في صدور الناس .

وإذا كان في الاحاديث النبوية ما ينذر بأن اللسان قد يهوى بصاحبه في النار سبعين خريفاً فنحن نؤكد أن القلم قد يهوى بصاحبه في النار سبعائة ألف خريف .

والقلم في هذا الزمان أخطر الآفات ، وعلى حملة الاقلام أكبر الائمة في خلق الضغائن والحقود بين الأفراد والجماعات والشعوب ، وهم المسؤولون أمام الله وأمام التاريخ عن تكدير السلام وسوق الناس إلى المجاوز البشرية وكتتاب السياسة لاتزوج أسواقهم الا إن عرفوا بالقدرة والبراعة في تصوير مقاتل الحكومات والأحزاب ، والجريدة التي تؤثر العقل على الهوى يتلقاها الناس بفطور وعدم اكتراث ، لأن في بني آدم حيوانية مقهورة تطلب الغذاء من الأقاويل والأراجيف ، ولذلك يصفقون لمن يجترح المأثم باسم الغيرة على عمار السكون مع أنهم يعرفون أن بيته خراب .

وسياتى يوم تعتدل فيه الموازين الذوقية والأدبية والاجتماعية والسياسية ، فيعرف من لم يكن يعرف أن العالم السياسي كان يتلون بألوان الشهوات والأهواء .

وأن من أقطاب السياسة الدولية من يضرب الأمم بعضها ببعض في خطبة
أو مقالة وهو معقول بعقل الشراب .

سيأتى يوم يعرف فيه المسلمون أن حضارتهم العظيمة لم تقوضها غير
الأقلام الباغية ، أقلام الكتاب والمؤلفين الذين غفلوا عن أخطار الغيبة
الاجتماعية ، فحبروا الفصول الطوال فى المفاضلات بين الأمم الاسلامية
حتى شطروها الى عناصر يبغى بعضها على بعض بلا تورع ولا استحياء .

و ثورة الأمة الفارسية على اللغة العربية كانت لها أسباب من هذا النوع .
و ثورة الأمة التركية على الحروف العربية كانت لها دواع من هذا القبيل .
ولن نزول آثار هذه الغيبة القلمية الا يوم يمن الله على المسلمين بكتّاب
حكماء يعرفون كيف يقتلعون جذور هذه الفتن من الأفئدة والقلوب .
ولكن متى يأتى ذلك اليوم ؟

إن الأقلام تقدم ما تشاء من الألوان ، وهى تبغى على العدل والسلام
بلا حق ، وتأخذ الأجر على خدمة البغى والاثم والعدوان .

متى يعرف الناس أن صراخ الأرامل وبكاء اليتامى فى أعقاب ما تصنع
الحرب من إهلاك الأزواج والآباء كان مرجعه الى القلم الأثيم ؟

متى يعرف الناس أن « الدعايات » التى تنظمها الحكومات والأحزاب
هى سموم خطيرة تفتك أشد الفتك بطمأنينة الأمم والشعوب .

متى يعرف الناس أن « الدعاية » يجب أن تكون باباً من الهداية ؟

متى يفهم بنو آدم قيمة الصدق فى الوصف ؟

متى يجيء رجل صوفى ينبه أهل هذا الزمان إلى خطر القلم ، كما نبه

الصوفية الى خطر اللسان في الأيام الخالية ؟

متى ؟ متى ؟ إن أهل هذا العصر لا يفهمون من الأخلاق إلا شيئاً واحداً ، هو أن يحسن المرء أساليب الرياء حتى يسلم من شر الجواسيس فلا تكون له صحيفة في سجلات السوابق . وذلك حظ خسيس لو يعلمون !

٧ — كان الصوفية يعرفون أن لا نجاة من خطر اللسان إلا بالصمت ، وهم يذكرون أن عقبة بن عامر سأل رسول الله عن النجاة فقال : أَمْسِكْ عليك لسانك ، وليسعك بيتك ، وابك على خطيئتك^(١) .
وفي هذه الكلمات نظام الأخلاق .

فحفظ اللسان أصل عظيم من أصول السلامة ، وقرار المرء في بيته أدب نفيس لا يتأدب به غير أحرار الرجال ، وهل كان العطب والهوان إلا في الضجر من أمان البيت ؟

إن عورات المرء تنكشف حين يخرج من بيته ، وماذا يلقي حين تضيق عليه رحمة البيت ؟ يلقي اللاغين والآثمين من أكلة اللحوم ، لحوم الأعراض ، يلقي المتجرين من أهل الغواية والاثم والفسوق ، يلقي حطب جهنم من الأوباش الذين لا يعرفون كيف يقضون الوقت بالاستماع إلى موعظة حسنة أو الاطلاع على كتاب نفيس .

والناجحون في هذا الوجود هم الذين يعرفون كرامة البيوت .
والصعاليك هم الذين يجدون راحتهم في هجر بيوتهم ليعيشوا من فضلات السفهاء .

وفي الدنيا ناس لا يجدون القوت ، ولكنهم يسترون فاقتهم بالقرار في
بيوتهم ، وهؤلاء هم حزب الله ، وهم المصطفون الأبرار يوم ينصب الميزان .
وأبشع هوان في الدنيا هو الاعتماد على الناس ، وما مدّ مخلوق يده إلى
صديق أو قريب إلا كان ذلك بداية الخذلان ، ولا استطاع المرء أن يعيش
في حماية أصدقائه ، أو رعاية أقربائه ، الا وقد عرف أنه مخلوق ذليل مهين .
فمن أين جاء للرجل الذي اسمه محمد أن يقول في وصية من استهداه
« وليسعك بيتك » ؟

تلك حكمة لا تخرج إلا من لسان رعا الله واصطفاه .

أما وصيته بالبكاء على الخطيئة فأمرها معروف . ولا يصلح الرجل للخير
إلا إن عرف كيف يبكي على خطاياها .

إن الصوفية يخشون شر اللسان ، ويستأنسون بقصة معاذ بن جبل إذ
قال : يا رسول الله ، أنؤاخذ بما نقول ؟ فقال الرسول : ثكلتك أمك
يا ابن جبل ، وهل يكب الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم^(١) .

ونحن نعرف جيداً أخطار اللسان : فصاحبنا عيسى بن هشام تكدر
عيشه وساءت سيرته ، لأنه ابتلى بعدو سفيه لا يتقى الله في الأعداء ولا
الأصدقاء ، فأذاع عنه من الافك ما أذاع ليسقط مكانه في المجتمع ، وصديقنا
الحارث بن همام كان رجلاً يصلح لأعظم الشؤون ، ثم ابتلته المقادير
بصديق ينفس عليه مكاتبة العلمية والأدبية فأخذ يلزمه من حيث لا يحتسب
ليسوء سمعته عند من يملكون منافع الدنيوية ، وأخونا العزيز هيان بن بيان

كان خليفاً بأن يشغل أعظم منصب في الدولة ، ثم شاء الحظ العاثر أن يكون له زميل ساقط الهمة والمروءة والشرف لا يعيش إلا بالتزلف إلى الكبراء ، ومن الكبراء من يسرهم أن تسوء سمعة الرجال ليتفردوا بالسيطرة والجبروت وكذلك صح عندنا بعد التجارب الأليمة أن السلامة لا تكون إلا لمن رحمه الله فكتب أن يعيش بلا أقرباء ولا أصدقاء ولا رفقاء .

والويل كل الويل لمن وثق بالأصدقاء وأمن غدر الزمان !
ويعتقد الصوفية أن الأعضاء كلها تذكر اللسان بواجبه وتقول : اتق الله فينا فانك إن استقممت استقمنا ، وإن اعوججت اعوججنا (١)

ويروون أن ابن مسعود كان على الصفايلِّي ويقول : يا لسان ، قل خيراً تغنم ، واسكت عن شر تسلم ، من قبل أن تندم .
فقيل له : يا أبا عبد الرحمن ، أهذا شيء تقوله ، أو شيء سمعته ؟ فقال : لا ، بل سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن أكثر خطايا ابن آدم في لسانه (٢)

ويروون أن ابن عمر حدث أن رسول الله قال : من كف لسانه ستر الله عورته ، ومن ملك غضبه وقاه الله عذابه ، ومن اعتذر إلى الله قبل الله عذره (٣)
وأن معاذ بن جبل قال : يا رسول الله أوصني ، فقال له الرسول : اعبد الله كأنك تراه ، وعد نفسك في الموتى ، وإن شئت أنبأتك بما هو أملك من هذا كله ، وأشار بيده إلى لسانه (٤)

(١) الاحياء ج ٣ ص ١١٦

(٢) الاحياء ج ٣ ص ١١٧

وأن رسول الله قال : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليسكت^(١)

وأن الحسن قال : ذكر لنا أن النبي صلى الله عليه قال : رحم الله عبداً قال خيراً فغتم ، أو سكت فسلم^(١)

وأن البراء بن عازب قال : جاء أعرابي الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : دلني على عمل يدخلني الجنة ، فقال الرسول : أطعم الجائع ، واسق الظمآن ، وأمر بالمعروف ، وأنه عن المنكر ، فان لم تستطع فكف لسانك إلا من خير^(١)

وأن الرسول قال : الناس ثلاثة : غانم وسالم وشاجب ، فالغانم الذي يذكر الله تعالى ، والسالم الساكت ، والشاجب الذي يخوض في الباطل^(٢) .
ويؤكدون أن المنصور بن المعتمر لم يتكلم بكلمة بعد عشاء الآخرة أربعين سنة

وأن الربيع بن خيثم ما تكلم بكلام الدنيا عشرين سنة ، وكان إذا أصبح وضع دواة وقرطاساً وقلماً ، فكل ما تكلم به كتبه ثم يحاسب نفسه عند المساء قال أستاذنا الغزالي طيب الله ثراه :

« فان قلت : فهذا الفضل الكبير للصمت ما سببه ؟ فاعلم أن سببه كثرة آفات اللسان من الخطأ والكذب والغيبة والنميمة والرياء والنفاق والفحش والمرء وتزكية النفس والخوض في الباطل والخصومة والفضول والتحريف والزيادة والنقصان وإيذاء الخلق وهتك العورات . فهذه آفات كثيرة وهي

(١) الاحياء ج ٣ ص ١١٧ (٢) الشاجب : الهالك

سبابة الى اللسان لا تثقل عليه ، ولها حلاوة في القلب ، وعليها بواعث من الطبع ومن الشيطان ، والخائض فيها قلها يقدر أن يمسك اللسان فيطلقه بما يحب ، ويمسكه ويكفه عما لا يحب ، فان ذلك من غوامض العلم ، ففي الخوض خطر ، وفي الصمت سلامة ، فلذلك عظمت فضيلته ، هذا مع ما فيه من جمع الهمة ، ودوام الوقار ، والفراغ للفكر والذكر والعبادة والسلامة من تبعات القول في الدنيا ومن حسابه في الآخرة فقد قال تعالى : ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد (١) »

ويمضي الغزالي فيقسم الكلام الى أربعة أقسام : قسم هو ضرر محض ، وقسم هو نفع محض ، وقسم فيه ضرر ومنفعة ، وقسم ليس فيه ضرر ولا منفعة . أما الذي هو ضرر محض فتركه واجب ، وكذلك ما فيه منفعة لا تنفي بالضرر . وأما الكلام الذي لا منفعة فيه ولا ضرر فهو فضول ، والاشتغال به تضییع زمان ، وهو عين الخسران (١)

بقي القسم الرابع وهو معرض لأخطار الرياء والتصنع والغيبة وتزكية النفس ، ولا يسلم من آفاته إلا من وقف على دقائق الاخلاق

٨ — ويستقبح الصوفية أن يتكلم الرجل فيما لا يعنيه ، ويروون أن الرسول قال : أول من يدخل من هذا الباب رجل من أهل الجنة ، فدخل محمد بن سلام ، فقام اليه ناس من أصحاب الرسول وأخبروه بذلك وقالوا : أخبرنا بأوثق عمل في نفسك ترجو به ؟ فقال : إني لضعيف ، وإن أوثق ما أرجو به سلامة الصدر ، وترك ما لا يعنيني .

وأن أبا ذر قال : قال لى رسول الله : ألا أعلمك بعمل خفيف على
البدن ، ثقیل فى المیزان ؟ قلت : بلى یا رسول الله ، فقال : هو الصمت ،
وحسن الخُلق ، وترك ما لا یعنیک ^(١)

وقال مجاهد : سمعت ابن عباس یقول : خمسٌ هنَّ أحبَّ إلىَّ من الدراهم
الموقوفة : لا تتكلم فيما لا یعنیک فانه فضل — أى فضول — ولا آمن
علیک الوزر ، ولا تتكلم فيما یعنیک حتى تجدل له موضعاً ، فانه رب متكلم فى
أمر یعنیه قد وضعه فى غیر موضعه فعنت ، ولا تمار حليماً ولا سفيهاً . فان
الحليم یقلبك ، والسفيه يؤذیک ، واذکر أخاک إذا غاب عنک بما تحب أن
یذکرک به ، وأعفه عما تحب أن یعفیک منه ، وعامل أخاک بما تحب أن
يعاملک به . واعمل عمل رجل یعلم أنه مجازى بالاحسان مأخوذ بالاجترام ^(١)

وقال مؤرق العجلى : أمر أنا فى طلبه منذ عشرين سنة لم أقدر علیه ،
ولست بتارك طلبه . قالوا وما هو ؟ قال : السکوت عما لا یعنیک .

وقد شرح الغزالی حدود هذه الآفة فقال : حدّ الکلام فيما لا یعنیک
أن تتکلم بکل ما لو سکت عنه لم تأثم ، ولم تستضر به فى حال أو مآل .
مثاله أن تجلس مع قوم فتذكر لهم أسفارک وما رأیت فیها من جبال وأنهار ،
وما وقع لك من الوقائع ، وما استحسنته من الأطعمة والشیاب ، وما تعجبت
منه من مشایخ البلاد ووقائعهم ، فهذه أمور لو سکت عنها لم تأثم ولم تستضر
بالسکوت .

ومن جملتها أن تسأل غیرک عما لا یعنیک ، فأنت بالسؤال مضیع وقتک

وقد أُلجأت صاحبك أيضا بالجواب الى التضييع ، هذا إذا كان الأمر مما لا يتطرق بالسؤال عنه آفة . وأكثر الأسئلة فيها آفات . فانك تسأل غيرك عن عبادته مثلا فتقول له : هل أنت صائم ؟ فان قال نعم ، كان مظهراً لعبادته فدخل عليه الرياء ، وإن لم يدخل الرياء عليه سقطت عبادته من ديوان السر ، وعبادة السر تفضل عبادة الجهر بدرجات ، وإن قال : لا ، كان كاذبا ، وإن سكت كان مستحتمراً لك وتأذيت به ، وإن احتمل لمدافعة الجواب افتقر إلى جهد وتعب فيه ، فقد عرضته بالسؤال : إما للرياء أو للكذب أو للاستحقار ، أوللتعب في حيلة الدفع . وكذلك سؤالك عن سائر عباداته وعن المعاصي وعن كل ما يخفيه ويستحي منه ، وكذلك سؤالك عما حدث به غيرك . وكأن ترى إنسانا في الطريق فتقول : من أين ؟ فربما يمنعه مانع من ذكره ، فان ذكره تأذى به واستحيا ، وإن لم يصدق وقع في الكذب وكنت أنت السبب (١) .

وهذه الشواهد تمثل أشياء من صور المجتمع لعهد الغزالي ، ولو عاش في عصرنا لأضاف أشياء ، فمن الناس من يدخل بيتك فيسألك عن كل ما تقع عليه عيناه : يسأل عن تكاليف الأثاث ، وعدد الحجرات والغرفات . وقد يسأل عن البيت متى بنيته ، وكيف أقمته ، وربما سأل عن الجيران وجيران الجيران ، وقد يسألك عن أطفالك وعن أسنانهم ومدارسهم وما تنتظر لهم في المستقبل القريب أو البعيد ، وهو لا يسكت عن حالك في وظيفتك ، ويرى من حقه أن يعرف مكاسبك ومغانمك ، وقد يرى من حقه أيضا أن

يعرف تكاليف أثوابك ، وأن يبدى ملاحظته السديدة على هندامك !
واللغو والفضول من أظهر شمائل الناس في هذه الأيام ، ولا بدّ من
صوفيّ جديد يضع للجمع الحاضر قواعد ينتهى إليها الناس . إن كانوا
صالحين للتأدب بأدب الرجال .

وأغرب ما تراه العيون غرام بعض الصحفيين بالبحث عن مذاهب
الناس ومسالكتهم في الحياة ، وقد يطيب لهم أن يسألوك عن كل شيء ،
كأن من حق الجمهور أن يعرف ما تأكل وما تشرب وما تلبس . وتلك
شهوات سخيفة يعيش منها الفارغون والبطالون

والصوفي يكره لنفسه ولمريديه أن يقعوا في شيء من ذلك ، والأدب
الحق أن لا تدخل في شؤون معارفك وأصدقائك ، بل الأدب كل الأدب
أن تجهل من أمورهم كل شيء

والرجل المهذب هو الذى يدخل بيوت الناس وعينه عمية ، وأذنه
صماء ، فلا يرى ولا يسمع ، ثم يخرج وهو سليم القلب من أوضاع
الانتقاد والاعتراض .

٩ — والصوفية يكرهون لمريديهم أن يقعوا في آفة المراء والجدال ،
ويستأنسون بقول الرسول : من ترك المراء وهو محقّ بنى له بيت في
أعلا الجنة ، ومن ترك المراء وهو مبطل بنى له بيت في ربض الجنة (١)
فترك المراء من المحقّ أعلا منزلة لأن المحقّ يجد عسراً وصعوبة في ترك
الجدال ، ومن أجل ذلك كان انصرافه عن المجادلة أدلّ على قوة نفسه ، وشدة

(١) الاحياء ج ٣ ص ١١٩ والربض فى الأصل هو الخطيرة وتكون بالأرض

أمتلاكه لهواه

ويستأنسون أيضا بقول الرسول: إن أول ما عهد إلى ربي ونهاني عنه بعد عبادة الأوثان وشرب الخمر ملاحاة الرجال (١)

والرسول يرى الجدال من أسباب انحلال الشعوب ويقول: ما ضلّ قوم بعد أن هداهم الله إلا أوتوا الجدال (١)

وشواهد الأحوال تؤيد هذه النظرة النبوية، فالأمم التي تكثر فيها الخصامات والمجادلات هي الأمم المعرضة للانحلال، وأقوى الأمم اليوم هي الأمة الانجليزية وهي أقل الأمم غراماً بالمجادلات الصحفية والبرلمانية، وستظل قوية إلى أن يتليها الله بجماعة من الصحفيين الطائشين الذين يقتلعون بالجدل والمهاترة أصول الهيبة والحب من قلوب الناس

والسر في قبح الجدال يرجع إلى ما فيه من شهوة الاستعلاء، ومن هنا كان خطره على الصداقات والمودات، ولا يمكن أن تصح بينك وبين رجل مودة إذا ظننت أنك أفضل منه أو ظن أنه أفضل منك

وكان سفيان يقول: صاف من شئت، ثم أغضبه بالمرء، فليرمينك بداهية تمنعك العيش (١).

وهذا كلام يعرف صدقه من ابتلاهم الله بمجادلة الناس.

وقد شرح الغزالي حقيقة المرء فقال:

« حدّ المرء هو كل اعتراض على كلام الغير باظهار خلل فيه: إما في

اللفظ، وإما في المعنى، وإما في قصد المتكلم. وترك المرء بترك الإنكار

والاعتراض . فكل كلام سمعته فان كان حقاً فصدق . ، وإن كان باطلاً أو كذباً ولم يكن متعلقاً بأمور الدين فاسكت عنه . والطعن في كلام الغير تارة يكون في لفظه باظهار خلل فيه من جهة النحو أو من جهة اللغة ، أو من جهة العربية ، أو من جهة النظم والترتيب بسوء تقديم أو تأخير ، وذلك يكون من قصور المعرفة ، وتارة يكون بطغيان اللسان ، وكيفما كان فلا وجه لاطهار خلله . وأما في المعنى فكأن يقول : ليس كما تقول وقد أخطأت فيه من وجه كذا وكذا . وأما في قصده فمثل أن يقول : هذا الكلام حق ، ولكن ليس قصدك منه الحق ، وإنما أنت فيه صاحب غرض وهذا الجنس إن جرى في مسألة علمية فربما خص باسم الجدل ، وهو أيضاً مذموم ، بل الواجب السكوت ، أو السؤال في معرض الاستفادة لاعلى وجه العناد ... وأما المجادلة فعبارة عن قصد إفحام الغير وتعجيزه وتنقيصه بالقدح في كلامه ونسبته الى القصور والجهل^(١) ،

ومعنى هذا أن من أدب المرید أن يترك الاعتراض على الناس تركاً كلياً ، ومعناه أيضاً أن من سوء السلوك أن تتحدث عن خطب الخطباء ، ورسائل الكتاب ، وقصائد الشعراء ، وآثار المؤلفين ، فلا تصحح أغلاطهم ، ولا تنبه على الضعيف من أساليبهم ، والمبتذل من معانيهم ، لأن الباعث على ذلك هو الترفع باظهار العلم والفضل ، والتهجم على الغير باظهار الجهل والنقص ، وهما شهوتان باطنتان للنفس

وقد هدتنا التجارب الى صدق هذه النظرة الصوفية ، فكل ما نجتزعه

باسم النقد الأدبي هو ضلال فى ضلال ، وهو يخلق من العداوات والخزانات
ما نعيجز عن دفعه فى أكثر الأحيان

وقد نهجم على ناس فنصح أغلاطهم علانية فى الجرائد والمجلات ،
وتكون الحجة أننا نخدم الحياة العلمية والأدبية ، وفى هذا ظل من الحق ،
ولكن من نهجم عليهم يؤذون أنفسهم ويسودون صحائفهم بالطعن فىنا
وتشويه سمعتنا عند من نعرف ومن لا نعرف ، وقد يكون فىمن نصصح
أغلاطهم ناس صغار يستيحيون خلق المآثم والعيوب ، وإشاعة الأقاويل
والأراجيف .

وفىمن ابتلاهم الله بالصراحة فى النقد الأدبي رجل خدم الحياة الأدبية
نحو عشرين سنة فلم يخرج من ذلك الكفاح العنيف إلا بمغانم باطلة هى
ما رماه به أدياء العلم والأدب من أدناس الزور والبهتان

أستغفر العقل ، ففىهم من يظفر من ذلك الكفاح بمحصول نفيس : هو
اليأس من أدب الناس ، والثقة المتينة بعدل الله . وحسن الظن بالله هو
أساس التصوف ، وهو لا يتم إلا إن اقترن بسوء الظن بالناس

وإذا كان الصوفية يكرهون لمريديهم أن يجادلوا الناس ، فهناك رجال
يكرهون للصوفية أن يعترفوا بوجود الناس ، وسيطول ندمهم على ما صنعت
أيديهم حين أقاموا الموازين لمؤلفات ودواوين لا يصلح أهلها لشيء ، وإن
كان الله تلىف فأباحهم الاستمتاع بنعمة الشمس والهواء

وأى منظر أقبح من منظر مخلوق ترفع اسمه بقلبك فىكون جزاؤك أن
يأكل لحمك فى لآندية والمجتمعات ؟

وأى ندم أوجع من ندم رجل يخلق بقلمه منازل أدبية لبعض المخلوقات ،
ثم تعتمد تلك المخلوقات على ما غنمت بفضلها من الشهرة فتؤذيه أبلغ إيذاء
باسم الاتصاف للحق والغيرة على ما سموه الأدب الرفيع ؟

وما قيمة الحياة الأدبية والعلمية إذا خرجنا من خدمتها مجرحين بأظافر
الأوباش ؟

ولكن لعل لله حكمة فيما يبتلى به العلماء من تصحيح أغلاط الجهلاء .
تباركت يا ربى وتعاليت ، فلك الفضل فى كل حال ، وكنت أحكم
الحاكمين فى خلق الشر والدمامة والقيح ، فتلك أصول قام على أساسها
الوجود ، ولو رحمت من يرجون رضاك من شر خلقك لكان نصيبهم الضياع
فيها أيها المرید ، جادل من شئت ، وناضل من شئت ، على شرط أن
تكون لك نية حسنة فى الجدل والنضال .

ولا يضيرك بعد ذلك أن يأكل لحمك السفهاء ، فأنت فى وجود لا يسلم
فيه من أذى الناس الا الخاملون والضعفاء ، وهل سلم الأنبياء والمرسلون
من أذى الناس حتى تطلب السلامة من أذى الناس ؟

١٠ — ولكن تذكر أيها المرید مهما كان حالك وشأنك ما حدث ابن
قتيبة إذ قال : مرّ بى بشر بن عبد الله فقال : ما يجلسك هنا ؟ فقلت : خصومة
بينى وبين ابن عم لى فقال : إن لأبيك عندى يدأ ، وإنى أريد أن أجزيك
بها ، وإنى والله ما رأيت شيئاً أذهب للدين ، ولا أنقص البروءة ، ولا أضيع
للذة ، ولا أشغل للقب من الخصومة . قال : فقلت لأنصرف فقال لى
خصمى : مالك ؟ قلت : لا أخاصمك ! فقال : إنك عرفت أن الحق لى !

فقلت : لا ، ولكنى أكرم نفسى عن هذا (١)

والصوفية لا يشكرون أن يخاصم الرجل فى سبيل حقوقه ، ولكنهم يشكرون اللد فى الخصومة ، لما فى اللد من التسلط والايذاء ولا سيما إذا امتزج اللد بكلمات لا يحتاج إليها فى تأييد الحجة وإظهار الحق « فأما المظلوم الذى ينصر حجته بطريق الشرع من غير لد ولا زيادة لجأ على قدر الحاجة ومن غير قصد عناد وإيذاء ففعله ليس بحرام . ولكن الأولى تركه ما وجد إلى الترك سبيلا ، فإن ضبط اللسان فى الخصومة على قدر الاعتدال متعذر ، والخصومة توغر الصدر وتبيح الغضب . وإذا هاج الغضب نسي المتنازع فيه وبقي الحقد بين المتخاصمين حتى يفرح كل واحد بمسامة صاحبه ويحزن بمسرتة ، ويطلق اللسان فى عرضه ، فمن بدأ بالخصومة فقد تعرض لهذه المحذورات (١) » .

والحق أن هذا الجانب من الأدب دقيق ، فالخصومة فى سبيل الحقوق واجبة ، ولكنها تجرّ أحيانا إلى ضيم وهوان . والوقوف أمام المحاكم يغيض من أقدار الرجال ، وما ينبغي أن يعرف الرجل أبواب المحاكم إلا حين تضيق أمامه جميع المسالك . والذى يقف للدفاع عن حقه أمام المحكمة قد تسوقه الظروف إلى التزيد ، والتزيد قبيح ، وقد ينتهى إلى رمى الخصم بعبارات أو إشارات لا تصلح للصدور من رجل كريم . ومن هنا كره الصالحون أن يكون الرجل فصيح اللسان أمام القضاة . لأن فصاحة اللسان قد تحقّ الباطل فى بعض الأحيان .

١١ — والصوفية يكرهون للمريد أن يتقعر في الكلام بالتشديق وتكلف السجع والفصاحة والتصنع فيه بالتشبيبات والمقدمات وما جرت به عادة المتفاصحين المدعين للخطابة^(١) وينذرون أن عمر بن سعد بن أبي وقاص جاء إلى أبيه سعد يسأله حاجة ، فتكلم بين يدي حاجته بكلام فقال له سعد : ما كنت من حاجتك بأبعد منك اليوم ، إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : يأتي على الناس زمان يتخللون الكلام بالسنتهم كما تتخلل البقر الكلاً بالسنتها^(٢) .

ولا يدخل في هذا تحسين ألفاظ الخطابة والتذكير من غير إفراط وإغراب ، فإن الغرض من الخطابة تحريك القلوب وتشويقها وقبضها وبسطها ، ولرشاقة اللفظ تأثير في ذلك ، فأما المحاورات التي تجرى لقضاء المصالح فلا ينبغي أن يقع فيها أيّ تكلف .

ومعنى هذا أن الصوفية يرون التفصح من غير موجب ينافي أدب الرجل المذهب .

١٢ — والصوفية يكرهون لمريديهم أن تقع ألسنتهم في الفحش ، والفحش هو كلام « غليظ » بجانب سلامة الذوق ، وقد نهى الرسول عن أن تُسبّ قتلى بدر من المشركين فقال : لا تسبوا هؤلاء ، فإنه لا يخلص إليهم شيء مما تقولون ، وتؤذون الأحياء ، ألا إن البذاء لؤم^(٣) وقال : إن الله لا يحب الفاحش المتفحش الصيّاخ في الأسواق .

وقال إبراهيم بن ميسرة : يؤتى بالفاحش المتفحش يوم القيامة في صورة

(١) الاحياء ج ٣ ص ١٢٦ (٢) الاحياء ج ٣ ص ١٢٧

كلب أو في جوف كلب^(١) .

ويكره الصوفية أن يتكلم الرجل عن الأمور المستقبحة بالعبارات الصريحة « وأكثر ذلك يجرى في ألفاظ الوقاع وما يتعلق به ، فإن لأهل الفساد عبارات صريحة فاحشة يستعملونها فيه ، وأهل الصلاح يتحاشون عنها ، بل يكتنون ويدلون عليها بالرموز فيذكرون ما يقاربها ويتعلق بها ... وهناك عبارات فاحشة يستقبح ذكرها ويُستعمل أكثرها في الشتم والتعير ، وهذه العبارات متفاوتة في الفحش وبعضها أخفش من بعض ، وربما اختلف ذلك بعادة البلاد ... والباعث على الفحش إما قصد الإيذاء ، وإما الاعتياد الحاصل من مخالطة الفساق وأهل الخبث واللؤم ، ومن عاداتهم السب^(١) ، والغزالي بهذه العبارة متنبه إلى تلون الألفاظ بألوان الأقاليم : فما يستقبح هنا قد لا يستقبح هناك ، والمعول عليه هو البعد عن مخاطبة الناس بما لا يحبون .

وبسبب هذا التحرز أولع العرب بالتأليف في الكنايات ليرشدوا الجمهور إلى مواقع الخشونة في التعابير وينبهوه إلى المقبول من الألفاظ في مختلف الأحوال .

١٣ — ويكره الصوفية أن تجرى الألسنة بكلمات اللعن ، واللعن عبارة عن الطرد والابعاد من الله تعالى ، وذلك غير جائز إلا على من اتصف بصفة تبعده من الله عز وجل ، وهو الكفر والظلم ، بأن يقول : لعنة الله على الظالمين وعلى الكافرين . ولكن في لعن أوصاف المبتدعة خطر ، لأن معرفة

(١) الاحياء ، ج ٣ ص ١٢٨

البدعة غامضة ، ولم يرد فيه لفظ ماثور . والتفصيل فيه أن كل شخص ثبتت لعنته شرعاً تجوز لعنته ، كقولك : فرعون لعنه الله ، وأبوجهل لعنه الله ، لأنه قد ثبت أن هؤلاء ماتوا على الكفر وعُرف ذلك شرعاً . أما شخص بعينه في زماننا كقولك زيد لعنه الله ، وهو يهودي مثلاً ، فهذا فيه خطر ، فإنه ربما يسلم فيموت مقرباً عند الله ، فكيف يحكم بكونه ملعوناً (١) .

ونقل الغزالي أن نعيان شرب الخمر فحده مرات في مجلس رسول الله ، فقال بعض الصحابة : لعنه الله ، ما أكثر ما يؤتى به ! فقال الرسول : لا تكن عوناً للشيطان على أخيك .

قال الغزالي : وهذا يدل على أن لعن فاسق بعينه غير جائز

ثم قال : فإن قيل : هل يجوز لعن يزيد لأنه قاتل الحسين أو أمر به ؟ قلنا : هذا لم يثبت أصلاً . فلا يجوز أن يقال إنه قتله أو أمر به ما لم يثبت . فضلاً عن اللعنة ، لأنه لا تجوز نسبة مسلم إلى كبيرة من غير تحقيق . ولا يجوز أن يُرمى مسلم بفسق وكفر من غير تحقيق (٢) .

ونص الغزالي على اسم يزيد له دلالة اجتماعية ، فهو يصور بعض عيوب المجتمع في القرن الخامس ، ولعلها من عيوبه إلى اليوم ، فقد كان وقوع الناس في أعراض الخلفاء والملوك والوزراء من العيوب الشائعة في الممالك الإسلامية ، وإليها يرجع أكبر الأسباب في زعزعة الأمن والثقة بين الناس ، والخصومة بين الأمويين والعلويين لها دخل في ذلك ، وقد نهى الصالحون

(١) الاحياء ج ٣ ص ١٢٩

(٢) الاحياء ج ٣ ص ١٩٣٠

عن مضغ حوادث التاريخ ، ولا سيما حين ينتهى ذلك إلى النزاع والشقاق وهذه الآفة على ما فيها من بشاعة كان لها فضل على الأدب يراه من اطلع على كتاب « المدائح النبوية فى الأدب العربى » فقد بينّا هناك كيف أتى الكميت بالأعاجيب وهو يهجو الأمويين ، وكيف برع دعبل وهو يهجو العباسيين ، ولكن ذلك الهجوم على ما فيه من روعة فنية وأدبية لا يليق بالمريد ، لأن هذه الخصومات أصبحت فى ذمة التاريخ ، والاقبال عليها قد يولد فى النفس أحقاداً جديدة يشقى بها الناس من حيث يشعرون أو لا يشعرون .

وقد بدأ الشيعة يتأثرون بمذهب أهل السنة فى التغافل عن سيئات الماضى ، وفى رجال الشيعة لهذا العهد من يروض تلاميذه على دراسة التاريخ دراسة علمية لا مذهبية ، وسأتى يوم قريب جداً يتأدب فيه المسلمون جميعاً بأدب الصوفية الذين يستنكرون تكفير مسلم أو تفسيره بلا بينة ولا برهان .

والتسامح أساس الحب ، ولا يعطف المسلمون بعضهم على بعض إلا إذا اقتربوا فى فهم الأشياء ، وتناسوا ما فى التاريخ من ضغائن وظلمات (١) .

(١) يحسن من باب الاستقصاء أن نذكر أن رأى الغزالى فى النهى عن لعن يزيد خلق لأهل السنة تهمة هم منها أبرياء وهى التشيع ليزيد ، وقد عرض اليماني لنفى هذه التهمة فى كتاب الروض الباسم — ج ٢ ص ٤٠ — ٤٤ فبرأ الغزالى من القول بتصويب يزيد فى قتل الحسين وبين أن الغزالى لم يخص يزيد بتحريم اللعن فهو مذهبه فى كل فاسق وكافر كما رواه عنه النووى فى الأذكار .

ثم ساق اليماني شواهد صريحة من كتب أهل السنة فى التوجع لمصرع الحسين ونقل عن صحيح البخارى أن ابن عمر سأله رجل فى دم البعوضة ، فقال : ممن أنت ؟ قال : من العراق فقال : انظروا الى هذا يسألنى عن دم البعوضة وقد قتلوا ابن بنت النبي صلى الله عليه وسلم ! وكان ابن حزم قد اتهم بالتعصب لبني أمية ، فنفى ذلك اليماني وأورد نصوصاً من كلام ابن حزم تشهد بسخطه على سيرة يزيد (انظر الروض الباسم ج ٢ ص ٣٦ ، و ٣٧)

١٤ — والصوفية يبغضون الافراط في المزاح والمداومة عليه ، لأن ذلك يورث الضحك ، وكثرة الضحك تيمت القلب وتورث الضغينة في بعض الأحوال وتسقط المهابة والوقار^(١).

وقال يوسف بن أسباط : أقام الحسن ثلاثين سنة لم يضحك ، وقيل أقام عطاء السلي أربعين سنة لم يضحك . ونظر وهيب بن الورد إلى قوم يضحكون في عيد فطر فقال : إن كان هؤلاء قد عُفِرَ لهم فما هذا فعل الشاكرين ، وإن كان لم يغفر لهم فما هذا فعل الخائفين^(٢).

وقال عمر بن عبد العزيز : اتقوا الله وإياكم والمزاح فانه يورث الضغينة ويحجّر إلى القبيح ، تحدثوا بالقرآن وتجالسوا به ، فان ثقل عليكم فحديث حسن من أحاديث الرجال .

وقيل : لكل شيء بذر ، وبذر العداوة المزاح .

قال الغزالي فان قلت : فقد نقل المزاح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فكيف يُنهي عنه ؟ فأقول : إن قدرت على ما قدر عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وهو أن تمزح ولا تقول إلا حقاً ولا تؤذى قلباً ولا تُفُزِرَ فيه ، وتقتصر فيه أحياناً على الندور ، فلا حرج عليك فيه . ولكن من الغلط العظيم أن يتخذ الانسان المزاح حرفة فيواظب عليه ويُفُزِرَ فيه ثم يتمسك بفعل الرسول صلى الله عليه وسلم فيكون كمن يدور نهاره مع الزنوج ينظر إليهم وإلى رقصهم ويتمسك بأن الرسول أذن لعائشة في النظر

(١) ص ١٣٢

(٢) رويت هذه الكلمات في زهر الآداب منسوبة الى الحسن البصري

إلى رقص الزنوج في يوم عيد ، وهو خطأ ، إذ من الصغائر ما يصير كبيرة بالاصرار ، ومن المباحات ما يصير صغيرة بالاصرار^(١).

ولا ريب في أن المزاح فيه أحياناً مطايبات تشرح الصدور ، ولكن المهم هو أن لا يقع في المزاح ما يؤذى الرفيق والصديق والجليس ، فمن الناس من يأمن جانبك فيما زحك بما لا تحب ، وأمثال هؤلاء قد حرّمهم الله نعمة الخلق الكريم ، وصحبهم بلاء ، وأسوأ الناس حظاً في دنياه من ابتلى برفاق محرومين من نعمة الذوق لا يرعون حرمة المجلس ولا حق الجليس .

والمزاح في الأصل فيض من جَذَل النفس ، وقد يجب في بعض الأحيان ، ولكن الحيلة فيه قد تصعب ، وسياسة النفس عند الانشراح لا يقدر عليها إلا الأقلون ، فمن واجب من يهمله أمر نفسه أن يترك المزاح جملة واحدة إلا إن صادف من يدركون قيمة المطايبات ، وهم في هذا الزمن أقل من القليل .

يضاف إلى هذا أن الناس لا يدركون النكتة بطعم واحد ، فما يضحك له هذا قد يغضب منه ذاك ، وفي بني آدم مخلوقات لها أذواق غلاظ ، والهرب من صحبة هؤلاء واجب مفروض على الرجل الحصيف .

وقد أثر عن كبار الرجال كثير من المزاح والمطايبات ، ولكن هؤلاء الرجال الكبار كانوا يعرفون كيف يمازحون ويطايبون ، وكان جلساؤهم في الأغلب من أهل الفطنة والذوق ، فما جاز لهم لا يجوز لك ، فقد تكون ممن ابتلاه الله بأن يعيشوا في عصر محروم من نعمة الفطنة والذوق .

وما أحب أن أزيد ، وقاك الله من أهل زمانك وحماك !

١٥ — وهناك آفة أشنع من المزاح وهى السخرية والاستهزاء . وذلك محرم لما فيه من الإيذاء . قال الله تعالى « يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ، ولا نساء من نساء عسى أن يكنَّ خيراً من » ومعنى السخرية الاستهانة والتحقير والتنبيه على العيوب والنقائص على وجه يُضحك منه ، وقد يكون ذلك بالمحاكاة فى الفعل والقول ، وقد يكون بالإشارة والإيماء . . . وهذا إنما يحرم فى حق من يتأذى به ، فأما من جعل نفسه مسخرة وربما فرح من أن يُسخر به كانت السخرية فى حقه من جملة المزح^(١).

١٦ — والصوفية ينهون عن الوعد الكاذب ، ولا نرى موجباً لشرح هذه الآفة فقد فشلت فى هذا الزمان حتى صارت من قواعد السلوك . والله المستعان على أهل هذا الزمان !

١٧ — ويكره الصوفية لمريدتهم أن يكذبوا فى القول واليمين « وهو من قبائح الذنوب ، وفواحش العيوب^(٢) » فقد قال الحسن : كان يقال إن من النفاق اختلاف السر والعلانية ، والقول والعمل ، والمدخل والمخرج . وقال رسول الله : ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ، المنان بعبطيته ، والمنفق بسلعته بالخلف الفاجر ، والمسبل إزاره . وقال : ما حلف حالف بالله فأدخل فيها مثل جناح بعوضة إلا كانت نكسة فى قلبه الى يوم القيامة . وقال :

(١) الاحياء ج ٣ ص ١٣٥

(٢) عبارة الغزالي فى الاحياء ج ٣ ص ١٣٧

ثلاثة يحبهم الله ، رجل كان في فئة فنصب نحره حتى يقتل أو يفتح الله عليه وعلى أصحابه ، ورجل كان له جار سوء يؤذيه فيصبر على أذاه حتى يفرق بينهما موت أو ظعن ، ورجل كان معه قوم في سفر أو سرية^(١) فأطالوا السرى حتى أعجبهم أن يمسوا الأرض فنزلوا فتنحى يصلي حتى يوقظ أصحابه للرحيل . وثلاثة يشنأهم الله : التاجر أو البائع الخلاف والفقير المحتاج^(٢) والبخيل المنان والصوفية يرون الكذب أقبح من الزنا ويستأنسون بما روى عن عبد الله بن جراد قال : سألت رسول الله فقلت : يا رسول الله ، هل يزنى المؤمن ؟ قال : قد يكون ذلك . قلت : يا نبي الله ، هل يكذب المؤمن ؟ قال : لا . ثم أتبعها صلى الله عليه وسلم بقول الله تعالى « إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله » .

وسمِع رسول الله يقول في دعائه : « اللهم طهر قلبي من النفاق ، وفرجني من الزنا ، ولساني من الكذب »
فجعل الكذب في بشاعة الزنا والنفاق

وقال صلى الله عليه وسلم : ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم ولا يزكهم ولهم عذاب أليم : شيخ زان ، ومملك كذاب ، وعابد مستكبر .
وقال : لو أفاء الله على عدد هذا الحصى لقسمتها بينكم ثم لا تجدوني بخيلا ولا كذابا ولا جبانا ... وقام رسول الله وكان متكئا فقال : ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ الإِشرأك بالله وعقوق الوالدين . ثم قعد وقال : ألا وقول الزور .

(١) السرية على وزن فعيلة القطعة من الجيش تسرى خفية

(٢) لعل الصواب « المختال »

وقال : إن العبد ليكذب الكذبة فيتباعده عنه الملك مسيرة ميل من تنن
ما جاء به .

وقال : تقبّلوا الى بست أتقبل لكم بالجنة . قالوا : وما هنّ ؟ قال : إذا
حدث أحدكم فلا يكذب ، وإذا وعد فلا يخلف ، وإذا اتّسمن فلا يخن ،
وغضوا أبصاركم واحفظوا فروجكم ، وكفوا أيديكم .

وقال : كل خصلة يُطبع أو يطوى عليها المسلم إلا الحيانة والكذب .
ومن أبلغ ما قيل في تقييح الكذب قول ابن السمّاك : ما أرانى أوجر
على ترك الكذب لأنى إنما أدعنه أنفة .

وهنا تظهر سماحة التصوف ، فالصوفى يكره الكذب لأنه ينافى شرف
النفس ، وهم مع ذلك فطنوا إلى ما فى الكذب من الإضرار بالناس ، فنصّوا
على « أن الكذب ليس حراماً لعينه ، بل لما فيه من الضرر على المخاطب
أو على غيره » (١) .

وقد تكلم الصوفية على ألوان من الأكاذيب ، وسكتوا عن أشياء
لم تعرفها العصور الماضية إلا قليلا ، سكتوا عن الأكاذيب التى يعرفها
« المهذبون » ، من أهل هذا الجيل ، وعن الأخبار التى يخترعونها اختراعاً أثميا
ليغضّوا من أقدار الرجال ، وهم فى هذا يعتمدون على الغفلة الفاشية بين الناس ،
فأكثر خلق الله يصدّقون كل ما يسمعون ، والخط من قيمة الرجل باختراع
الأكاذيب أمرٌ سهل ، لأنه يقوم على انعدام الضمير ، والضمير عند أكثر
من تعرف لفظ بلا مدلول

(١) عبارة الغزالى فى الاحياء ج ٣ ص ١٣٩

والكذب لا يقف ضرره على المكذوب عليه ، بل ضرره بالكذب أقبح وأشنع ، لأنه يحرق شخصيته الخلقية . ويقفه أمام نفسه موقف الدليل المهن ، وأوقع الناس لا يستطيع الفرار من رؤية الأشياء على ما هي عليه ، فالكاذب يعرف جيداً أنه كاذب ، وهذه المعرفة تؤذيه أشد الأذى ، لأنها تقتل ثقته بشرف النفس ، وإذا انعدمت ثقة مخلوق بشرف نفسه فمسيره إلى الانحلال .

والصدق ينفع الناس ، ولكن فضله على الصادق أعظم وأجزل ، لأنه يقدم إلى صاحبه ذخائر من الثقة والأمانة والشرف ، وثقة المراء بقدرته على كرم الخصال تسوقه إلى ميادين المجد ، وترفع رأسه في السر والعلانية ، وتؤهله للنزول الكريمة بين الرجال .

وأكثر من درسوا الأخلاق يتوهمون أنها ترجع إلى غايات نفعية هي الصلاحية للحياة السعيدة بين الناس . ولو تأملوا لعرفوا أن للأخلاق منفعة نفسية ، فهي ترسل الأشعة الكريمة على آفاق النفس ، وتحيط القلب الطيب بأرواح الفراديس .

ولا يعرف صدق هذه العبارة إلا من راض نفسه على التخلق بأخلاق الحكماء . وما في الأخلاق الصالح من صعوبة وعسر هو أساس ما فيها من نشوة روحية ، لأنها تصورنا أمام أنفسنا بصورة القادرين المسيطرين على زيف الأهواء والميول .

١٧ — والصوفية يرون الكذب مما يُطلب في بعض الأحوال ، كأن يتوقف عليه الصلح بين الناس ، وكأن يكون وسيلة لتغطية الضغائن والحقود .

ومعنى هذا أن الخلق يحسن أو يقبح تبعاً لما يسوق من المغام، أو يجز من المفاسد .

والذى يدل على استثناء بعض ضروب الكذب ما روى عن أم كلثوم قالت : ما سمعت رسول الله يرخص فى شىء من الكذب إلا فى ثلاث : الرجل يقول القول يريد به الإصلاح ، والرجل يقول القول فى الحرب ، والرجل يحدث امرأته والمرأة تحدث زوجها .

قال الغزالى : فهذه الثلاث ورد فيها صريح الاستثناء ، وفى معناها ما عداها إذا ارتبط به غرض مقصود صحيح ، له أو لغيره ، أما ماله فمثل أن يأخذه ظالم ويسأله عن ماله فله أن ينكره ، أو يأخذه سلطان فيسأله عن فاحشة بينه وبين الله تعالى ارتكبها فله أن ينكر ذلك فيقول ما زينت وما سرقت . . . وذلك أن إظهار الفاحشة فاحشة أخرى ، فللرجل أن يحفظ دمه وماله الذى يؤخذ ظلماً ، وعرضه بلسانه وإن كان كاذباً ، وإن كان عرض غيره فبأن يسأل عن سر أخيه فله أن ينكره ، وأن يصلح بين اثنين وأن يصلح بين الضرات من نسائه بأن يظهر لكل واحدة أنها أحب إليه ، أو يعتذر إلى إنسان وكان لا يطيب قلبه إلا بانكار ذنب وزيادة تودد فلا بأس به (١) .

والمهم من كل ذلك هو النص على أن الصوفية يبعضون الكذب أشد البغض حين يكون فيه إضرار وإيذاء ، ويتسامحون فيه حين يكون أقرب إلى الخير من الصدق

١٨ — ننتقل إلى رأى الصوفية فى الغيبة . قال الغزالى : « والنظر فيها

طويل » .

والواقع أن الصوفية جميعا تكلموا على مآثم الاغتياب، وكان في النية أن نعقد فصلاً للسكلام على هذه الآفة الخبيثة التي يرجع اليها أكثر أسباب الفساد بين الناس، وهي في حقيقة الأمر أفضع المهلكات، وهي سلاح الضعفاء والعاجزين والأوغاد، وما سهلت الغيبة على لسان مخلوق إلا كان ذلك شاهداً على تردده في بؤرة الانحطاط (١)

والله عز شأنه ذم الغيبة في كتابه العزيز وشبه صاحبها بآكل لحم الميتة فقال: «ولا يغتب بعضكم بعضاً، أوجب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه» وقال عليه السلام: كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه. وقال: لا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تتاجشوا (٢) ولا تدابروا، ولا يغتب بعضكم بعضاً، وكونوا عباد الله إخواناً. وقال: إياكم والغيبة، فإن الغيبة أشد من الزنا، فإن الرجل قد يزني ويتوب فيتوب الله سبحانه عليه، وإن صاحب الغيبة لا يغفر له حتى يغفر له صاحبه. وقال: مررت ليلة أسرى بي على أقوام يخمشون وجوههم بأظافيرهم فقلت: يا جبريل، من هؤلاء؟ قال: هؤلاء الذين يغتابون الناس ويقعون في أعراضهم.

وقال البراء: خطبنا رسول الله حتى أسمع العواتق (٣) في بيوتهن فقال:

«يا معشر من آمن بلسانه ولم يؤمن بقلبه، لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا

(١) لم تخلق ألفاظ الشتم إلا لتوجه إلى هذا الصنف الوضع من المخلوقات

(٢) التناجش هو أن تستام السلعة بأزيد من ثمنها ليرك الآخر فيقع فيها، والتهى عن النجش والتناجش يشهد بأن المناورات التجارية مرض قديم عرفه الناس قبل عهد الرسول.

(٣) العواتق جمع عاتق وهي الشابة أول ما أدركت

عوراتهم ، فانه من تتبع عورة أخيه تتبع الله عورته ، ومن تتبع الله عورته يفضحه في جوف بيته .» .

وقيل أوحى الى موسى عليه السلام : من مات تائباً من الغيبة فهو آخر من يدخل الجنة ، ومن مات مصرأً عليها فهو أول من يدخل النار .

وقال أنس : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر الربا وعظم شأنه (١) فقال : إن الدرهم يصديه الرجل من الربا أعظم عند الله في الخطيئة من ست وثلاثين زنية يزنيها الرجل ، وأربى الربا عرض الرجل المسلم .

ولما رجم رسول الله ماعزاً في الزنا قال رجل لصاحبه : هذا أقعص كما يقعص الكلب ! فمرّ صلى الله عليه وسلم وهما معه بجيفة فقال : إنهما منها ! فقالا : يا رسول الله ، نهش جيفة ! فقال : ما أصبتما من أخيكما أنتن من هذه وقال الحسن : والله للغيبة أسرع في دين الرجل المؤمن من الأكلة في الجسد (٢) .

وقال بعضهم : أدركنا السلف وهم لا يرون العبادة في الصوم ، ولا في الصلاة ، ولكن في الكف عن أعراض الناس .

وسمع علي بن الحسين رجلاً يغتاب آخر فقال له : إياك والغيبة فانها إدام كلاب الناس .

وإنما أطلنا نقل هذه النصوص لغرضين : الأول دلالتها على اهتمام

(١) المراد من تعظيم شأن الربا تجسيم خطره وأذاه

(٢) الأكلة بالضم والكسر وبوزن تبعه هي الحكمة ، وهي مرض ويبل يفرع الأجساد ، والأكلة هي الغيبة مجازاً .

الصوفية بتقبيح الاغتياب ، والثاني ما فيها من الصور الأدبية ، فهي جميعاً من الكلام النفيس . وإنا لنرجو أن ينتفع بها أحد القارئین فتكون نعمة من الله على هذا الكتاب .

١٩ — والغيبة هي أن تذكر أخاك بما يكرهه لو بلغه ، سواء ذكرته بنقص في بدنه أو في نسبه أو في خلقه ، أو في فعله ، أو في قوله ، أو في دينه ، أو في دنياه ، حتى في ثوبه وداره ودابته^(١)

وهي لا تقتصر على اللسان ، بل يتحقق أذاها بالتعريض والاشارة والایماء والغمز والهمز والكتابة والحركة ، وكل ما يفهم المقصود فهو داخل في الغيبة وهو حرام .

والاغتياب بالكتابة هو في عصرنا أشنع أنواع الاغتياب ، لأنه ينشر في الكتب والجرائد والمجلات فيطير من أرض الى أرض

ومن الغيبة أن تقول (بعض من مر بنا اليوم ، أو بعض من رأيناه) إذا كان المخاطب يفهم منه شخصاً معيناً ، فإذا لم يفهم عينه حاز ، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كره من إنسان شيئاً قال : ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا^(٢)

والتصديق بالغيبة غيبة ، بل الساكت شريك المعتاب ، قال صلى الله عليه وسلم : المستمع أحد المعتابين^(٣)

ولا يخرج المستمع من إثم الغيبة إلا أن ينكر بلسانه ، أو بقلبه إن خاف ، وإن قدر على القيام أو قطع الكلام بكلام آخر فلم يفعل لزمه إثم الغيبة .

وإن قال بلسانه اسكت وهو مشته لذلك بقلبه فذلك نفاق ، ولا يخرج من
الاثم ما لم يكرهه بقلبه^(١)

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من أذلّ عنده مؤمن فلم ينصره
وهو يقدر على نصره أذله الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق
وقال : من ردّ عن عرض أخيه بالغيب كان حقا على الله أن يرد عن
عرضه يوم القيامة .

وقال أيضا : من ذبّ عن عرض أخيه بالغيب كان حقا على الله أن
يعتقه من النار

وقد عرض الغزالي أسباباً للغبية تدل على بصره بأخلاق الناس ، وأنا
أرجع أسباب الغيبة الى سبب واحد هو شعور المغتاب بالانحطاط ، فهو يريد
أن يحط من أقدار الناس ليصبح من المألوف أن الناس جميعا منحطون
فيتساوى الفاضل بالمفضول .

والجهلاء يولعون باغتياب العلماء ليوهموا أنفسهم ويوهموا الجمهور أن
العلم مزية صغيرة ، وأن المزايا كلها فيما يدعيه الجاهلون من متانة الأخلاق .
ومن هنالم تسلم أعراض العلماء من ألسنة السفهاء ، فكل ذى نعمة محسود ،
وما ظفر رجل بمنزلة علمية أو أدبية أو اجتماعية إلا ضاقت به صدور
الجهلاء والمهازيل والمتخلفين .

وسينقضى الدهر قبل أن تصح أخلاق الناس فيثق أهل الفضل بأنهم في
أمان من تقول المتقولين ، وإرجاف المرجفين ، ومكايد المنحطين .

ومن الصور التي لا تزال حية من عهد الغزالي إلى اليوم صورة الرفاق الذين لا تطيب مجالسهم إلا بأكل لحوم الناس ، وهي ما سماه « موافقة الأقران ومجاملة الرفقاء ومساعدتهم على الكلام ، فانهم إذا كانوا يتفكحون بذكر الأعراض فيرى أنه لو أنكر عليهم أو قطع المجلس استثقلوه ونفروا عنه فيساعدهم ويرى ذلك من حسن المعاشرة ويظن أنه مجاملة في الصحبة وقد يغضب رفقائه فيحتاج إلى أن يغضب لغضبهم إظهاراً للمساهمة في السراء والضراء فيخوض معهم في ذكر العيوب والمساوي (١) » .

وقد أخذت هذه الصورة ألواناً جديدة في العصر الحاضر: العصر الديمم الذي لا يفوز فيه إلا أهل البذاءة والرقاعة والانحطاط ، وصار من تقاليد المجالس أن يكون فيها سفهاء يقدمون الفواكه المحرمة للآذان الشرهة التي لا يغذيها غير سماع الزور والبهتان .

والرجل الذي يصون لسانه عن الخوض في لغو الحديث لا يصلح اليوم للمجالس ، ولا سيما إذا كان أصحاب تلك المجالس من الذين رفعهم الدهر الخبول فوصلوا بالدس والكيد إلى ما يعجز عنه الأحرار والأشراف .

وقد نبه الغزالي على دقائق من الغيبة يقع فيها رجال الدين ، ورجال الدين في أغلب أحوالهم من أهل الغفلة والعجرفة ، ولا سيما في العصور التي يغلب فيها الرياء .

ولنعط الكلمة للغزالي فهو بأحوالهم أبصر وأعرف . قال :

« وأما الأسباب الثلاثة التي هي في الخاصة فهي أغمضها وأدقها ، لأنها

شرور عرضها (١) الشيطان في معرض الخيرات ، وفيها خير ، ولكن شاب الشيطان بها الشر : الأول أن تنبعث من الدين داعية التعجب في إنكار المنكر والخطأ في الدين فيقول : ما أعجب ما رأيت من أمر فلان ! فإنه قد يكون صادقا ويكون تعجبه من المنكر ، ولكن كان حقه أن يتعجب ولا يذكر اسمه فيسهل الشيطان عليه ذكر اسمه في إظهار تعجبه فصار به مغتابا وآثما من حيث لا يدري . ومن ذلك قول الرجل : تعجبت من فلان كيف يحب جاريته وهي قبيحة ، وكيف يجلس بين يدي فلان وهو جاهل ! الثاني الرحمة وهو أن يغتم بسبب ما يتبلى به فيقول : مسكين فلان قد غمى أمره وما ابتلى به ! فيكون صادقا في دعوى الاغتمام ويليه الغم عن الحذر من ذكر اسمه فيذكره فيصير به مغتابا فيكون غمه ورحمته خيرا ، وكذا تعجبه ، ولكن ساقه إلى شر من حيث لا يدري . والترحم والاغتمام ممكن دون ذكر اسمه فيبيحه الشيطان على ذكر اسمه ليبتل به ثواب اغتمامه وترحمه . الثالث الغضب لله تعالى فإنه قد يغضب على منكر قارفه إنسان إذا رآه أو سمعه فيظهر غضبه ويذكر اسمه ، وكان الواجب أن يظهر غضبه عليه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولا يظهره على غيره ، أو يستر اسمه ولا يذكره بالسوء . فهذه الثلاثة مما يغمض دركها على العلماء فضلا عن العوام فانهم يظنون أن التعجب والرحمة والغضب إذا كان لله تعالى كان عذراً في ذكر الاسم ، وهو خطأ (٢) ، وما قاله الغزالي عن رجال الدين في القرن الخامس هو من آفاتهم في القرن الرابع عشر . ومن النادر جداً أن تتصل برجل من رجال الدين فيوحي اليك

(١) في الأصل (عباها)

(٢) الاحياء ج ٣ ص ١٤٩

بأدبه ولطفه وروحه معاني الهداية ، وكيف يكون ذلك وهم لا يعرفون غير القعقة والجمعية في خطبهم وأحاديثهم ومقالاتهم ! وقد يتفق لهم أن يؤلفوا الكتب وينشئوا المجلات في الدعوة إلى الله ، ولكن تنقصهم البشاشة والروحانية فيعجزون عن نقل الناس من الظلمات إلى النور ، وقد ينقلونهم أحياناً من الهدى إلى الضلال .

وربما رجع ذلك إلى أزمة وجدانية وعقلية متصلة بالعصر الحديث ، فشيوع التعاليم المدنية والأنظمة المدنية أوهم رجال الدين أنهم في حرب مع الجيل الجديد ، وهم بالفعل في حرب ، وهذا الروح المشبع بسوء الظن والخوف من الهزيمة يحملهم على الإسراف في اتهام أبناء الجيل الجديد بالوقوع في المآثم والخروج على أدب الدين الخفيف

وبفضل هذا الإسراف صارت طلبة رجل الدين طلبة كريهة لا يلقاها الناس بالترحيب ، لأنه لا ينظر إلا إلى عيوبهم ، ولا يهتم إلا بالكشف عن مساوئهم ، ولا يطول لسانه إلا حين يجد مجالا للتقريع والتأنيب . ولو عقل لعرف أن من واجبه أن يدهم على مبلغ صلاحيتهم للخير والهداية .

وإذا حُرِّم رجال الدين نعمة الحب ، حب الناس لهم والتشوف إليهم ، فقد عجزوا عجزاً تاماً عن نصره الدين ، والخير لا ينتظر من الواعظ البغيض الذي لا يحدث الناس إلا بما يكرهون .

ومن المؤلم أن يعجز الأسيخ عما يقدر عليه القسيسون ، فالقسيس لا يزال رجلاً لطيفاً يداخل الناس ويسامرهم ويعرف أهواءهم ويقتلها برفق . والترغيب على لسان القسيس أكثر من الترهيب . وقد كان

أشياخنا كذلك قبل أن تشيع الأحقاد بين الأحزاب المدنية والدينية ، يوم كان « شيخ الطريقة » يدخل البلد فيملأها بالبشاشة والروحانية .

وفي مصر اليوم وعاظ يسировون في البلاد هادين ومرشدين ، والأمل كبير في أن يتخلقوا بأخلاق الصوفية فتسكون فيهم الوداعة والبشاشة والرفق ليصلوا إلى قلوب الناس ويحببهم في الأعمال الصالحات ، وقد يوفقون إلى السياسة الرشيدة فيتصلون بمن في الأقاليم من معلمين وموظفين ويشوقونهم إلى التأدب بأدب الدين الخفيف ، ويومئذ يصل الواعظ إلى المنزلة التي كان يتمتع بها الشعرا في والمرصفي والشناوي في القرن العاشر ، حين كان الصوفية يسيطرون بالأدب الحق على قلوب العوام والخواص .

٢٠ — وقد أفاض الغزالي في علاج الغيبة ، وله في ذلك صحائف بيض نودّ لو يرجع إليها القارىء في الجزء الثالث من الاحياء ، فقد تنقله من حال إلى حال ، وهو يوصي بأن يتدبر المرء في نفسه فان وجد فيها عيباً اشتغل بعيب نفسه ، وإذا لم يجد عيباً في نفسه فليشكر الله تعالى ولا يلوثنّ نفسه بأعظم العيوب ، فان تلب الناس وأكل لحم الميتة من أعظم العيوب .

وقد تحدث عن يشترك في الغيبة مجاملة لآخوانه فقال : علاج ذلك أن تعلم أن الله تعالى يغضب عليك إذا طلبت سخطه في رضا المخلوقين . فكيف ترضى لنفسك أن توقر غيرك وتحتقر مولاك فتترك رضاه لرضاهم ، إلا أن يكون غضبك لله تعالى ، وذلك لا يوجب أن تذكر المغضوب عليه بسوء ، بل ينبغي أن تغضب لله أيضاً على رفقاءك إذا ذكره بالسوء ، فانهم

عصوا ربك بأفحش الذنوب وهى الغيبة (١)

وتكلم على من يغتاب غيره استهزاء به فقال : وأما الاستهزاء فقصدك
مه إخوان غيرك عند الناس بإخزاء نفسك عند الله تعالى وعند الملائكة
والنبيين عليهم الصلاة والسلام ، فلو تفكرت فى حسرتك وجناتك وخجلك
وخزيك يوم القيامة لأدهشك ذلك عن إخوان صاحبك (١) .

٢١ — والصوفية يحرمون الغيبة بالقلب ، وهى سوء الظن

وهذه غيبة هينة من حيث صلتها بالمجتمع لأنها قليلة الإيذاء ، ولكن ضررها
راجع عليك ، لأنها تفسد قلبك ، وتشغل ضميرك ، وتزعزع وجدانك .
وتضيّع صفاء نفسك . والواجب أن يخلو قلبك خلواً تاماً من كل سوء فلا
يكون فيه غير صور الخير والجمال .

٢٢ — وكفارة الغيبة هى الندم والتوبة والتأسف واستقالة من آذيتهم
بالاغتياب .

٢٣ — والصوفية يبعضون النيمة ، وهى نقل آراء الناس بعضهم فى بعض
وهى آفة سيئة العواقب ، ولا يقتربها إلا المحرومون من نعمة الحب ، حب
الخير للناس .

وإذا كانت النيمة إلى من يخاف جانبه سميت سعاية .

قال مصعب بن الزبير : نحن نرى أن قبول السعاية شر من السعاية ، لأن
السعاية دلالة والقبول إجازة ، فاتقوا الساعى فلو كان صادقا فى قوله لكان
ليماً فى صدقه حيث لم يحفظ الحرمة ولم يستر العورة (٢) .

وقال رجل لعمر بن عبيد : إن الأسوارى ما يزال يذكر فى قصصه

بشرّ، فقال له عمرو : يا هذا ، ما رعيت حق مجالسة الرجل حين نقلت إلينا حديثه ، ولا أديت حقى حين أعلمتني عن أخى ما أكره ، ولكن أعلمه أن الموت يعمنا ، والقبر يضمنا ، والقيامة تجمعنا ، والله يحكم بيننا وهو خير الحاكمين (١) .

ورفع بعض السعاة إلى الصاحب بن عباد رقعة نبه فيها على مال يتيم يحمله على أخذه لكثرة . فوقّع على ظهر الرقعة :

« السعاية قبيحة ، وإن كانت صحيحة ، فإن كنت أجريتها مجرى النصيح فخرسائك فيها أكثر من الربح . ومعاذ الله أن نقبل مهتوكا فى مستور . ولولا أنك فى خفارة شريك لقالبك بما يقتضيه فعلك فى مثلك ، فتوقّ ياملعون العيب ، فالله أعلم بالغيب . الميت رحمه الله ، واليتيم جبره الله ، والساعى لعنه الله » (٢) .

وقال بعضهم : لو صح ما نقله النمام إليك ، لكان هو المجترى بالشتم عليك ، والمنقول عنه أولى بحملك لأنه لم يقابلك بشتمك .

٢٤ — أما بعد فقد عرضنا ألوانا من المهلكات ، وأشرنا إشارات خفيفة إلى طرق الخلاص ، ومنهج البحث لا يوجب أن نطيل فى شرح المهلكات والمنجيات ، فها أردنا إلا الوصول إلى غرض واحد : هو بيان الحرص الشديد من جانب الصوفية على تقوية الشخصية الخلقية .

قد يقال : إن الصوفية لم يأتوا بشيء جديد ، فهم يرضون ويغضبون على

(١) الأحياء ج ٣ ص ١٥٩

(٢) ارجع الى شخصية الصاحب بن عباد فى الجزء الثانى من كتاب (النثر الفنى)

نحو ما يقع لسائر رجال الأخلاق . ونقول إن ما امتاز به الصوفية هو
التحرز الشديد من آفات الأخلاق . والالحاح الموصول في تعرف أهواء
النفوس والقلوب ، وإنا لنترجو أن يرجع القارئ إلى الجزء الثالث والرابع
من كتاب الأحياء ، فقد شرح الغزالي ضروب المهلكات والمنجيات شرحاً
وافياً وفصلاً أوسع تفصيل ، وجمع بين المعقول والمنقول بأسلوب شائق
جذاب ، وما عرف إنسان مؤلفات الغزالي إلا أحس بوجوب الرجوع إلى
مدرس نفسه من جديد .

خاتمة الكتاب

١ — ما أحسبني أحتاج إلى التذكير بالأساس الذي قام عليه هذا الكتاب، فقد فصلت القول فيه كل التفصيل، واعتذرت غير مرة بارتباط بعض أجزاء الكتاب ببعض، ارتباطاً يجعل من العسير في بعض الأحيان أن يكون البحث الواحد في الأدب الصّرف أو الخلق البحث، فلم يبق إلا أن يكون التقسيم مبنيًا على غلبة الخصائص الأدبية أو الأخلاقية، وكذلك صنعت في تبويب هذا الكتاب، فجعلت الجزء الأول في الأدب والجزء الثاني في الأخلاق.

وقد امتدّ بنا الشوط في الدراسات والمراجعات وهممنا بأن نجعل هذا الكتاب مرجعاً شاملاً لجميع الآراء الصوفية، ولكن الوفاء لمنهج البحث صرفنا عما هممنا به من الاستطراد والاستقصاء، فما كانت غایتنا إلا بيان تأثير التصوف في الأدب والأخلاق، وفي مثل هذه الحال لا يطلب منا أن نقف عند كل باب وقفة الشارحين والمحققين، فذلك يُطلب ممن يؤلف كتاباً في شرح الأخلاق الصوفية على نحو ما صنع المكيّ في قوت القلوب والغزالي في إحياء علوم الدين.

٢ — وقد شهد القارىء في الجزء الأول أننا حرصنا على بيان الخصائص الأساسية للأدب الصوفي، وأسهبنا في الكلام على الأشعار والفقرات التي

حملت معانى التصوف عن طريق التصريح أو التلميح ، واهتمنا باظهار ما بين ذلك الأدب وبين المجتمع من صلات ، فاتخذناه وثيقة نعرف بها كيف كانت الروح الفكرية والاجتماعية فى البيئات التى عاش فيها أولئك القوم .

ولم يفتنا أن ننصّ على مزالهم الأدبية والعقلية ونحن نحلل تلك الأشعار والفقرات ، لأننا رأينا أن منهج البحث يوجب أن تكون فى هذا الكتاب أحكام أدبية يهتدى بها من يراجع أدب الصوفية .

وقد جرى ذلك كله فى حدود القصد والاعتدال فلم نخرج من الاطناب إلى التطويل ، ولم نسرف فى عرض الشخصيات الأدبية والفلسفية ، وإنما وقفنا عند الشواهد التى تكفى لبيان المذهب الأدبى أو الفلسفى فى ميدان التصوف ، فالحكم العطائية مثلاً لم تكن كل ما عرفه الأدب الصوفى من هذا النوع ، وأشواق ابن الفارض لها نظائر وأمثال ، والحلاج لم يكن أول وآخر من استشهدوا فى سبيل القول بوحدة الوجود ، فهناك الشلمغاني الذى أحرقت جثته فى بغداد ، فمن شاء أن يمضى فى درس الأنواع والشخصيات فليسر على بركة الله فقد مهدنا له الطريق .

وما أذكر أنى ألححت فى الشرح والتبيين إلحاحاً كاد يثقل منهج البحث إلا حين تكلمت على نظرية وحدة الوجود ، وحجتى فى ذلك أن هذه النظرية ظلت غامضة على اختلاف الأجيال ، ولم يفهمها من الباحثين إلا الأقلون ، والذين فهموها جنبوا عن عرضها عرضاً واضحاً صريحاً ، وأكثر من فهموها كانوا يؤمنون بها إيماناً لا يخلو من جهل وسخف ، فرأيت أن أدرس ما لها وما عليها بحيدة نزيهة ، واستطردت فبينت أثرها فى المذاهب الصوفية

والشعبية ، وكدت أنطق القارىء بالقول بأنها رجعة إلى المذاهب الوثنية :
فالقول بوحدة الوجود يفرض أن نرى الالهوية في كثير من الأشياء ،
وهذا عند التأمل ليس إلا صورة من الرجعة لأساطير اليونان .

وما أرى في ذلك شيئاً من الغضاضة على أقطاب التصوف والتشيع ،
فالمذاهب الفلسفية يتسلسل بعضها عن بعض ، وتنتقل إلى الناس بطرائق
نجهلها من طرائق الوجود فيقبلونها بلا وعى ولا احتساب ، لأن الانسان في
الواقع يريزح تحت أعباء ثقال من مواريث الأفكار والعقائد والمذاهب ،
وقد شرحت ذلك في المقال الذى نشرته في جريدة البلاغ منذ سنين في الرد
على الفيلسوف ليثى برول ، وأنا أقرر بصراحة أن مانظنه خصائص أصيلة
لبعض الديانات هو عند التحقيق محصول قديم تضاعل أثره حيناً من الزمان
ثم رجعت إليه الحيوية والطرافة حين اقتضى ذلك نظام الكون ، والوثنية
وإن استقبلها المؤمنون دين صحيح قام على الشعر والخيال والايمان بوحدة
الوجود .

٣ — رجونا القارىء مرات أن يكتفى منا بالايجاز ، وعساه يفعل
فلا يتهمنا بالتقصير . وقد أشرنا مرة إلى ما صنع أبو الحسن الشاذلى حين
فسر بعض آيات القرآن على الطريقة الصوفية ، ولو كان المجال اتسع لأشرنا
إلى جميع من فسروا القرآن على ذلك الأسلوب كما صنع ملا سلطان على
وغیره من الذين رأوا أن أكثر آيات القرآن رموز لمعان روحية ، وهذا
اعتساف بلا جدال ، ولكن النص عليه واجب .

وأشرنا كذلك إلى من وجّه أشعار الفجور وجهة روحية ، ولو اتسع

المجال لتكلمنا على كثير من صنعوا هذا الصنيع ، ونوهنا بمن عكسوا القضية فنقلوا المعانى الروحية إلى أذواق حسية^(١).

٤ - ليت وليت !

ليت الزمان كان أعفانا من الشواغل التى تقصم الظهر فمضينا نشرح ما تمثله وتصورناه ثم تحققناه من الثورة التى أحدثها التصوف فى عالم الأدب والأخلاق .

لقد وضعنا القاعدة حين ألفنا كتاب (الأخلاق عند الغزالي) فتحدثنا قليلا عن أنصار الغزالي وخصومه ، وكان لذلك أثر ظاهر فى تصوير مذاهب ذلك الفيلسوف ، ولو أننا عقدنا باباً فى هذا الكتاب للكلام على أنصار التصوف وخصوم التصوف لاتضح هذا المذهب الفلسفى أكثر مما اتضح ولكن يعزينا أننا لم نغفل هذه الناحية كل الإغفال فقد بسطنا القول فيما بين رجال الحقيقة ورجال الشريعة من خلاف ، وبيننا ما للتصوف وما عليه بياناً شافياً .

ولكن لا مفر من تنبيه القارىء إلى أن هناك ثروة أدبية وفلسفية أثارها التصوف ، وهى الشاهد على تأثيره فى الأدب والأخلاق ، وهذه الثروة تنتظر من يثيرها فى كتاب غير هذا الكتاب ، فما كان فى مقدورنا أن نتخطى منهج البحث ونحن مقيدون بسلاسل من حديد هى التقاليد الجامعية التى توجب الوقوف عند الأصول وتكره الإفاضة فى الحديث عن الفروع ، لأن نظام الرسالة يغير نظام الكتاب

(١) من هذا الباب ما أولوا به شطحات ابن عربى (انظر الغيث المنسجم ج ١ ص ١١)

هـ — وكان في النية أن نعقد باباً للفرق بين تصوف أهل السنة وتصوف الشيعة ، ولكننا عند التأمل لم نر موجبا لهذه التفرقة ، فالصوفية لا يعيرون هذا الخلاف كبير التفات . والخلاف بين أهل السنة والشيعة ليس خلافا دينيا كما يتوهم الأكثرون ، وإنما هو في أغلب صورته خلاف سياسي ، ومن قال بغير ذلك فهو غافل أو جهول ، والصوفية من الشيعة يرون الغزالي من أساتذتهم وهو سني ، والصوفية من أهل السنة يرون الحلاج من أساتذتهم وهو شيعي . وكتب التصوف تسكت عن هذه الفروق المذهبية لأن للتصوف غاية تفوق ذلك .

ولكن كانت هناك محاولة تنفع لو اتسع الوقت ، وهي شرح تأثير المذاهب الصوفية بالبيئات المحلية ، فمن المؤكد عندنا أن الصوفية متصلون بالأرض التي ينشأون فيها أتم اتصال ، ومثلهم في ذلك مثل الفقهاء ، فالفقيه المصري يعاني مشكلات لا يعانيها الفقيه العراقي ، وقصة تحليل النبيذ في حياة أبي حنيفة هي الشاهد على ذلك فقد كان الخلاف حول الشراب مما يشغل أهل العراق (١) وال حال كذلك في التصوف :

فالمعضلات التي اهتم بها الشعرا في معضلات مصرية ، والأزمات التي عاناها صدر الدين الشيرازي هي أزمات فارسية ، فعند الشيرازي ألوان من المشكلات الأخلاقية أنشأها البلد الذي عاش فيه ، وآداب المريدين عنده لها لون خاص يدركه من يتعمق في درس كتاب « الأسفار » ولو اتسع المجال لتحدثنا عن هذا الفيلسوف في فصل خاص ، فله ذوق يشبه

(١) ولولا الأدب لقلنا إن دفاع أبي حنيفة عن النبيذ له صلة بجهانته المرحلة في صباه

ذوق عمر الخيام في بعض مراميه مع حفظ الفارق بين التصون والمجون

٦ — ليت ثم ليت ! وهل ينفع شيئاً ليت ؟ .

ليتنا استطعنا أن نتكلم على الصوفية في العصر الحاضر ، فلهم أذواق وأخلاق تستحق التسجيل ، ولكن عاقنا سوء الظن بمحصولهم الأدبي ، فليس فيهم رجل فيلسوف ، وإن كثر فيهم المتحذلقون !

يضاف إلى ذلك أننا أقمنا هذا الكتاب على أصول يغلب فيها النقد والتجريح . والتعرض للأحياء بهذه الحرية قد يؤذيهم أشد الأيذاء .

وما رأيت في صوفية هذا العصر غير رجلين : رجل طيب القلب يرى الصوفية منزهين عن الملام ، ورجل جاهل يرى التصوف باباً من الانحلال وقد صنت قلبي عن التعرض لهذا وذاك .

ومع هذا نرى عقل العصر الحاضر يميل أشد الميل لدراسة التصوف ، وهي ظاهرة حسنة تبشر باقبال الناس على المعاني الروحية ، وإن كان أغلب الباحثين في التصوف لهذا العهد لا ينظرون إليه إلا من الناحية الفلسفية أو الاجتماعية (١) .

٧ — ولا بد من النص على أن دراسة التصوف الاسلامي كانت توجب الطواف بما كتب عنه في اللغة الفارسية واللغة التركية ، ففي الفرس والترک صوفية لهم مقام عظيم في الأدب والأخلاق ، ولكن الله أغنانا عن ذلك

(١) ربما جاز القول بأن عناية المستشرقين بدرس التصوف لها تأثير في توجيه الباحثين من الشرقيين لدرس التصوف بعد أن سكتوا عنه حيناً من الزمان ، وأشهر من اهتموا بدرس التصوف الاسلامي بين المستشرقين ماسينيون الفرنسي ونيكلسون الانجليزي

بعض الاغناء : فقد اعتمدنا على مؤلفات عربية كان مؤلفوها يمثلون القومية الاسلامية ، يوم كانت اللغة العربية هى لغة التأليف فى أكثر الأقطار الإسلامية .

وكذلك يجد القارىء روح الصوفية ممثلة فى هذا الكتاب أجمل تمثيل وإن تباعدت بهم المنازل وانقسموا إلى قبائل وشعوب .

٨ — وقد رأى القارىء أننا فى أغلب الأحوال عطفنا على الصوفية أشد العطف ، ولا غرضاً فى ذلك ، فقد يتفق للباحث أن يتعقب الصوفية على نحو ما صنعنا فى كتاب « الأخلاق عند الغزالى » ولكن تعقب الصوفية والنص على أغلاطهم وهفواتهم لا يصرف المنصف عن الاعتراف بأخطارهم العالية بين رجال الأخلاق .

ودراسة مؤلفات الصوفية دراسة عميقة تدلنا على ألوان المعارف الفلسفية والنفسية التى عرفها الأسلاف ، فالصوفية هم علماء النفس عند المسلمين ، وهم الصلة بين القديم والحديث ، القديم الذى عرفه الفرس والروم والهنود والمصريون ، والحديث الذى ابتكره العرب والمسلمون .

والفرق بين باحث مثل أرسططاليس وباحث مثل الغزالى بعيد جداً ، فأرسططاليس يبحث أصول الأخلاق من الناحية النظرية ولا يهتمه غير إقناع العقل ، أما الغزالى فيهتم بانارة القلب ، ويسوق الشواهد والأمثال بأسلوب خلاب يحرك القلوب ، وهو مع ذلك لا يغفل عن تعليل الأخلاق وتحليلها من الوجهة النظرية ، فقارىء كتاب أرسططاليس يخرج عالماً ، وقارىء كتاب الغزالى يخرج عالماً ومهتدياً .

ولو شئنا لغضضنا النظر عن المفاضلة بين أرسططاليس والغزالي ،
وفاضلنا بين ابن مسكويه والغزالي ، فابن مسكويه معلّم ، والغزالي واعظ ،
والفرق بين المذهبين لا يحتاج إلى بيان .

وما نقول به قد تنبه إليه القدماء حين وازنوا بين كتاب المكي وكتاب
الغزالي ، فقد قالوا : كتاب الاحياء يورثك العلم وكتاب القوت يورثك
النور .

وإنما كان الأمر كذلك لأن المكيّ في قوت القلوب غلبت عليه النزعة
الروحية ، ولا كذلك الغزالي في الاحياء فقد غلبت عليه النزعة العلمية .

ومن الواضح أن الأخلاق لا يكفي في فهمها قبول العقل ، وإنما يجب
أن تتغلغل إلى القلب بحيث يُصبح الحسُّ الخُلُقِيّ جارية وجدانية .

وعند هذه النقطة يظهر الفرق بين الصوفية وبين رجال الأخلاق ،
فالفلاسفة يعللون ويحللون في حدود المنطق والعقل ، أما الصوفية فيزيدون
على ذلك ربط الشخصية الخلقية بالشخصية الدينية : فالوازع عند الفلاسفة
هو العقل ، والوازع عند الصوفية هو العقل والوجدان ومراعاة الأدب
مع الله ذي القوة والجبروت والجلال والجمال .

قد يقال : إن في الصوفية ناسا يستهينون بالأخلاق العملية .

وهذا حق ، ففي الصوفية قوم يحتقرون الظواهر ويحتقرون الأعمال .

وهؤلاء على ضلالهم الظاهر لهم مكانة أخلاقية ، لأنهم لا يشيرون على
الظواهر إلا وهم يعلمون أنهم عربات تجرها قاطرة الوجود ، فهم في ضلالهم
وهدهم تابعون أوفياء .

وليس المهم أن تنساق مع المأثور من نظام الأخلاق ، ولكن المهم أن لا تتقدم ولا تتأخر إلا وأنت شاعر بأنك على هدى أو على ضلال .
و زيع بعض الصوفية زيع جميل ، لأنهم حوّلوا الوجود إلى قوة شعيرية تموج بالمفاتن وتزخر بالغرائب والأعاجيب .

وهؤلاء المسرفون على أنفسهم قد استطاعوا أن يحفظوا الشخصية الخلقية نقية سليمة ، فهم تصوروا الشرور والآثام مقاصد أرادها علام الغيوب ، ولم يتصوروا أنفسهم نائرين على العزة الربانية ، وبذلك بقيت ضمائرهم خالصة من شوائب العناد والمكابرة ، فعاش أديهم الأثيم ينفتح بالعطر والطيب على اختلاف الأجيال

ونخلص من ذلك كله إلى حقيقة واضحة : وهى أن الصوفية فى ضلالهم وهداهم كانوا قوماً يعرفون جواهر الأخلاق ، فللعوام عندهم نظام ، وللخواص نظام ، وقد كرهوا أن نحدث العوام بما نحدث به الخواص ، فالأخلاق تتلون وتشكل باختلاف الأشخاص ، وهذه نظرة لا تخلو من حصافة وسداد

وفى الصوفية من ثار على الكتب المقدسة وثار على الأنبياء ، وهذا فى رأى رجال الشرع كفرٌ موبق ، ولكنه عظيم جداً من الوجهة الأخلاقية ، لأنه يمنح الشخصية الخلقية قوة ساحقة تجتري جميع العوائق ، وتقف الرجل أمام الله وجهاً لوجه ، كما وقف الأنبياء والمرسلون . وليس هذا بالقليل

ولا تظهر قيمة هذه النظرة إلا إذا تدبرنا ما وقع فيه بعض النصارى وبعض المسلمين من الاستعباد للنصوص ، فالخضوع المطلق للنصوص عطل

المواهب فى البيئات النصرانية والاسلامية ، وخضوع بعض المتصوفة أمام أشياءهم لم يكن إلا صورة من خنوع بعض النصارى أمام القسيسين والرهبان .

وجرأة الأحرار من الصوفية هى فيما أفترض أساس الثورة التى أقامها جمهور من النصارى على الكنيسة الأرثوذكسية والكنيسة الكاثوليكية ، فالبروتستانت من النصارى هم تلاميذ الصوفية من المسلمين ، لأنهم رفضوا أن يكون بينهم وبين الله وسيط ، كما رفض أحرار الصوفية أن يكون بينهم وبين الله وسيط

وسياتى يوم يتضح فيه أن ثورة بعض النصارى على عبادة الصور لم تكن إلا أثرًا لاطلاع بعض القسيسين على المذاهب الصوفية

إن الصوفى المعتدل يقبل من شيخه كل شئ ، كما يقبل النصرانى المعتدل من القسيس كل شئ ، والصوفى المعتدل يقدم كلام شيخه على القرآن والحديث ، كما يقدم النصرانى المعتدل كلام الرهبان على كلام الانجيل ، أما الصوفى الثائر فيرفض جميع النصوص ويتسامى إلى مخاطبة الله والفهم عنه بلا مرشد ولا دليل ، وهنا أقول بصراحة إن هذا أساس متين لبناء الشخصية الخلقية وإن غضب رجال الدين (١)

١٠ — وهنا تعرض شبهة فى غاية من الخطورة يصورها هذا السؤال :

(١) فى كتاب الورع ص ١١٥ أن وابصة قال : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أريد أن لا أدع شيئًا من البر والائتم إلا أسأله عنه فجعلت أخطى الناس فقالوا : اليك يا وابصة عن رسول الله فقلت دعوني أدنو منه فانه من أحب الناس الى ، فقال يا وابصة أخبرك بما جئت تسألني عنه أو تسألني ؟ فقلت : أخبرني يا رسول الله . فقال : جئت تسألني عن البر والائتم ، قلت : نعم . قال فجمع أصابعه وجعل ينكت بها صدرى ويقول : يا وابصة ، استفت قلبك ، استفت نفسك ، البر ما اطمأن اليه القلب ، فاطمأنت اليه النفس ، والائتم ما حاك فى النفس وتردد فى الصدر ، وإن أفتاك الناس وأفتوك ... وهذه دعوة إلى استقلال الشخصية الخلقية

كيف يسلم المجتمع مع هذه الآراء؟

ونجيب بأن هذه الآراء تعرض المجتمع لأخطر أنواع الانحلال، لأنها تفتح الباب للطفيليين والواغليين من أدعياء الأخلاق، وستمضى دهور ودهور قبل أن تصلح هذه الآراء لأن تكون شريعة يعيـش عليها جميع الناس إن الخلق الصحيح هو الذى يروضك على أن تعيش سليما معافى من آفات الشطط والجروح، وينظمك فى سلك واحد مع من تسايـرهم وتعاشـرهم من خلق الله أو خلق الشيطان

والعاقل — أعنى صاحب الشخصية الخلقية — هو الذى يفهم أنه مسئول عن مراعاة منفعه الأدبية والاقتصادية بحيث يضمن الربح ويأمن الخسران ومن أجل هذا حرص جمهور الصوفية على رياضة مريديهم رياضة سليمة تبعدهم عن المزالق ومواطن الشبهات، كالذى صنع مؤلف القوت ومؤلف الاحياء.

ومن أجل هذا أيضا أقسم الصوفية مريديهم إلى عوام، وخواص، وخواص الخواص، ولكل فرقة من هؤلاء الثلاثة آداب

أليس الصوفية هم الذين قضوا بأن صوم خصوص الخصوص لا يقع فيه الفطر بالطعام والشراب، وإنما يقع الفطر بارتكاب المآثم ونهش الأعراض؟

ولكن هذا الذوق الرقيق لا ينفع مادام فى الدنيا ناس لهم أذواق غلاظ، والذوق الغليظ هو الغالب على بنى آدم فى كل زمان وفى كل مكان

٧ — أما بعد — وقد تعبنا من أما بعد — فإن موقفنا من هذه الآراء موقف المؤرخ للنظريات الفلسفية ، ونحن نعرضها بقوة وعنف كأننا من أهلها ، وليس الأمر كذلك ، وإنما هي عدوى وصلتنا من أستاذنا الغزالي طيب الله ثراه ، فقد كان يسهب في شرح المردود من الآراء حتى اتهم بأنه من أنصار تلك الآراء ، فإن بدا لبعض الناس أن يهتمونا بتزيين ما لا يقبله رجال الدين فليذكروا أننا لا نفكر في متابعة أحد من رجال الدين ، وإنما نجعل النظرية الفلسفية أساس هذه البحوث

وما دامت المقادير شاءت أن يكون هذا الكتاب من محصول الجامعة المصرية فليكن صورة صحيحة من صور التفكير في الجامعة المصرية ، والتفكير في الجامعة المصرية يقوم على أساس متين : هو الصراحة التامة في عرض النظريات والأفكار والآراء

ورحمة الله وسعت كل شيء ، فلن تضيق عن باحث يدرس أوهام القلوب ، وشهوات العقول

« ربنا لا ترغ قلوبنا بعد إذ هديتنا ، وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب »

زكي مبارك

قوافي الجزء الاول^(١)

حرف الهمزة

صفحة

١٠٢	ولكن كساه الله ثوب غطاء
١٠٣	وللنقص تنمو كل ذات نماء
٢٧٦	يا سماء ما طاولتها سماء
٢٩٢	سحراً فأحيامت الأحياء

حرف الباء

٢١	بذكراك والممشى إليك قريب
٢٢	على بظهر الغيب منك رقيب
٢٤	فأكرم أسباب الردى سبب الحب
٥٦	بحيث شاد البيعة الراهب
٩٤	خلوت ولكن قل على رقيب
١٠٠	وغصونه الخضر الرطاب
١٠١	فكلكم يصير الى تباب
١٠٢	فما كل هوثوق به ناصح الجيب
١٠٣	إن هي صحت أذى ولا نصب
١٠٣	حب الحياة وغره نشبه

(١) اكتفينا بقوافي الجزء الأول لأنه خاص بالأدب الصوفي ، والأشعار فيه كثيرة . أما الجزء الثاني فأكثره دراسات أخلاقية والأشعار فيه قليلة لا تحتاج الى فهرس

١٠٨	روائع الجنة في الشباب
٢٠٦	كتبت الى روحى بغير كتاب
٢١٧	سر سنا لاهوته الشاقب
٢٣٩	لهم صار مكشورفا منحنى حجابيه
٢٤٥	وقلبي بنار من قلاها مقلب
٢٥٣	لا شيء كيف يساوى الشيء واعجبي
٢٥٤	وهذا كل مطلوبى
٢٧٠	وإن رمت قرباً من حبيبي تقربا
٢٣١	يا عزيزاً أمسى ذليلاً كثيراً

حرف التاء

٨١	مضلاً لأرباب العقول السخيفة
١٠٩	ما أ كثر القوت لمن يموتُ
١٨١	وذاتى بذاتى إذ تجلت تحلت
٢١٧	فلا بلغت ما أملت وتمنت
٢٣٩	وود حصان المدح لو كان مفلوتا
٣١٠	ولا بالولا نفس صفا العيش ودت

حرف الشاء

١١١	واعلم بأن الطالبين حشا
-----	------------------------

حرف الجيم

١٠٤	عادت مخيلته عجاجا
٣٠٤	فى كل معنى لطيف رائق بهج
٣١١	أنا القليل بلا إثم ولا حرج

حرف الحاء

١٠٦	أيها القلب الجموح
٢٤١	لقاء شيوخ المريد لقاح
٢٤١	سوى من لدى الاهوال بالنفس يسمح
٢٤٢	قصور وفرش بالطراز توشح
٢٥٤	والدمع طوفان هل منه نجا نوحى
٢٨٠	وكلهم بأليم الشوق قد باحا
٣١١	طمع فينعم باله استرواحا

حرف الدال

٨٥	لكنت اليوم أشعر من لبید
٩٣	فانظر بما ينقضى بجيء غده
٩٣	لم تمس محتاجاً إلى أحد
١٧٢	تدل على أنه واحد
١٧٦	كالذى نعلم أو نعتقده
١٧٩	فآه من طول شوق آه من كمدى
١٩١	ويعبدنى وأعبدہ
٢٣٤	مع رائح إن أتى وغادى
٢٤٠	بهم فى الهوى سكرته إلى حشرهم غداً
٢٤٦	كجسم وبل أولى جوازاً مؤكداً
٥٢١	بين أيدى حواسد وأعادى
٢٥٣	ولا تقل الحق اتحد
٢٥٣	تفنن عن كل كائن موجود

٢٦٦	عن علة والحظ عن بسط يدا
٢٩٩	تنفس شاك أو تألم ذو وجد
٣٢٥	معنبرة خضراء مثل الزبرجد
٣٢٩	أبخل ذاك منها أم صدود

حرف الذال

٨٢	ولا أراه أخذا
٢٩٥	وهواك قلبي صار منه جذاذا

حرف الراء

٢٦	بهيبته أبوابه ومقاصره
٥٦	من تعمم بالقتير
٨٠	لله ما تصنع الخمور
٨٤	فان أنت لم تفعل فأبلغ أبا بكر
٨٦	يمج الندى جشائها وعرارها
٨٧	مطهرة الأثواب والعرض وافر
٩١	جناح غراب عنه قد نفخ القطرا
٨٧	ليجزيه عن صبره الغد قادر
٩٢	وأفضت بنات السر منى إلى الجهر
٩٤	و بنى الضعف والخور
٩٨	موجودة خير من الصبر
١٠٣	إلى حاجة حتى تكون له أخرى
٢١٨	فلم أر لى بأرض مستقرا
٢٠٤	وشاهدوه بأسماع وأبصار

- ٢٠٤ تكاد تأكله عيناى بالنظر
- ٢٣٢ يعلمهم أنه البشير
- ٢٣٦ عسى خبر يلقا كما طيب النشر
- ٢٣٧ وكل جمال فى الوجود بها يغرى
- ٢٤١ يخاطر بالروح الخطير فيظفر
- ٢٤٢ فقلت لها شيء لبيض العلا مهر
- ٢٤٣ وحيد لأصحاب القبور مجاور
- ٢٥٧ وبعضهم بوصف زهد فسرا
- ٢٥٨ بوصله المولى وفضله اشهر
- ٢٨٠ من فاته الخبر سره الخبر
- ٢٨٥ وإياك إياك تبدى استتارا
- ٢٩٩ بعدى ومن أضحى لأشجانى يرى
- ٣٠١ فوق فرش السقام شيئا يراه
- ٣٠٣ كنت المسىء فأنت أعدل جائر
- ٣١٧ فأين المعظم والمحقر
- ٣١٧ وبادوا جميعا وباد الخبر
- ٣٢٥ ودعوات ابن أبى مخذورة
- ٣٢٦ بعذراء زفت فى ملاحفها الخضر
- ٣٢٩ وكفى بذلك نعمة وسرورا
- ٣٣٦ فواصل شرب ليلك بالنهار
- ٣٣٦ لما انتظرت لشرب الراح إفطارا

حرف السين

٢٢	لمرَّ يهوى سريعاً نحوكم راسي
٥٩	ويا عارياً من كل فضل ومن كيس
٨٠	وعليه منها لا عليها يوسى
٨٥	إن تصدق الطير ته... ليسا
٩٧	دمية قس فتنت قسها
٢٥٢	أسسونا على أتم أساس
٢٨٧	وأبحت جسمي من أراد جلوسي
٣٢٦	لا التقيه قط غير معبس

حرف الطاء

٢٧١	في جميع الشؤون قبضاً وبسطاً
٢٧٢	لم توافي رهطاً وتهجر رهطاً

حرف العين

١٠٢	فمن احتاج إلى الناس ضرع
٢٤٥	إذا عودت في كل شيء تطاوعُ
٢٤٩	قوموا اتركوا الفرق عنكم واقبلوا للجمع
٢٤٩	ونتبع يا جماعة ما أتى في الشرع
٢٥١	ويرعى ودادي يا رعى الله من رعى
٢٥٢	على الحق زكته صفات بوارع
٢٦٤	وأنت بها الماء الذي هو نابع

- ٣٣٠ أشقى وغيرى بك يستمتع
٣٤٥ وعليه من نسيج المسيح مرقع

حرف الفاء

- ٥٦ فكأنما لبس الزمان الصوفا
٦٥ فيه وظنوه مشتقا من الصوف
٦٦ حتى ادعوا أنهم من طاعة صوفوا
٨٣ تميل بعقل ذى اللب العفيف
٢١٨ إلى شىء من الحيف
٢٤٠ لهم يبيض رايات العلا فى المواقف
٢٤٤ فقس رخما بالباز عند التناصف
٣٠١ ثوب السقام به ووجدى المتلف
٣٠٧ روحى فداك عرفت أم لم تعرف

حرف القاف

- ٩٣ وذو نسب فى الهالكين عريق
٩٨ أتحب الغداة عتبة حقا
١٠٢ وأقربها من كل خير صدوقها
٢١٦ يحبل العنبر بالمسك المفتح
٢٥٠ اسقنى من خمره الباقي
١٥٩ فى لفظة التصوف الشقاق
٣٢٥ يروى عظامى بعد موتى عروقا
٣١٨ بأبى من مت منه فرقا

حرف الكاف

٢٣	وإذراء عيني دمعها في زيا لك
٩٦	تملّسه المال الذي هو مالسه
١٧٤	أى قلب ملكوا
٢٣٣	قال لى أنت مالكى
٢٨٥	من سواك ملأته بهوا كا
٢٨٧	وحباً لأنك أهل لذا كا
٢٩٩	أنا وحدى بكل من فى حما كا
٣٠٢	وحنوّ وجدته فى جفا كا
٣٣٣	طمعت فى أن تر كا

حرف اللام

٢١	لو ابصره الواشى اقرت بلابله
٥٦	ونحن فى صخرة نزلز لها
٧٠	لكنت أظننى منى خيالاً
٨٠	كما علمت بعدّ وليس له قبل
٨٥	عرقوبها مثل شهر الصوم فى الطول
٨٦	تجوب بظلفها متون الخمائل
٩٢	وقد قصرت فى عملى
١٠١	ما لابن آدم إن قتشت معقول
١٠٣	وكلنا عنه باللذات مشغول
١٠٤	نمن ترى إلا قليلاً
١٠٥	عوضاً ولونال الغنى بسؤال

- ١٠٥ وأنت الدهر لا ترضى بحال
١١٠ ويحدث بعدى للخليل خليل
٢١٣ ولا زمان ولا خلق ولا جيل
٢١٦ تمزج الخمرة بالماء الزلال
٢٣٠ قد أطلوا البكا إذا الليل طالا
٢٣٤ فأصخ لقولى فهو أقوم قيلا
٢٣٨ إلى الصبر عنها والسلو سفيلا
٢٦١ بل فى شهود العارفين باطل
٢٩٠ وحرمة الصبر الجميل
٢٩٨ فلا أسعدت سعدى ولا أجملت جُمل
٢٩٩ فأهل الهوى جندى وحكمى على الكل
٣٠٠ وكيف ترى العواد من لا له ظل
٣٠٥ تخلوا وما بينى وبين الهوى خلوا
٣١٩ ورجال وصلوه
٣٣٢ كان منى لك يئذل

حرف الميم

- ٢٧ هم نسقى إذا انقطع الغمام
٢٩ خطب وجدناك فيه تشبه العدم
٥٣ فانكما أهل لذاك كلا كما
٦٤ فاعجب لما تأتى به الأيام
٨٠ صار اليقين من العيان توهما
٨٠ وخائنه قربك الأيام

٩١	ضامتك والأيام ليس تضام
٩٨	تكون مع الأقدار حتما من الحتم
١٠٧	وما زال المسيء هو الظلوم
١٤٣	وياضيعة الأعمار سوق السوائم
٢٧٦	فانما اتصلت من نوره به
٢٧٨	هذا المقام وهذا الركن والحرم
٢٩٧	تصحيفه أخرى بأرض العجم
٣٠٠	فيغدو بها معنى نحول نظامي
٣٠٢	فان أحاديث الجيب مداي
٣٠٣	حبا لذكرك فليليني اللوم
٣٠٧	وأطرب في المحراب وهي إمامي
٣٠٧	يلقنا الشوق من فرع إلى قدم
٣٠٨	أقامت به الأفراح وارتحل الهم

حرف النون

٨٠	بما شربت مشروبة الروح من ذهني
٨١	ولا زال عندك الاحسان
٨٢	كم ذا أراه ولا يراني
٩٢	وعود في يدي غان مغني
١٠٥	من منطق في غير حينه
١٧٢	تدل على أنه عينه
١٧٦	عللاني بذكرها عللاني
١٨٨	ولا تصدقنا ولا صلينا

١٨٩	لقل لى أنت ممن يعبد الوثنا
١٩٧	لما كان الذى كانا
٢٢٩	بمن تهتفين ومن تندبنا
٢٢٩	وأصبر عنه كيف ذاك يكون
٢٢٩	إن بين الضلوع داءاً دفينا
٢٣٨	له طيب رباها مشيراً لأشجانى
٢٤٢	لنا الملك فى الدارين والعز والغنى
٢٤٩	بين الحياة وبين الموت خيرنا
٢٧٣	هو الجوهر الغالى عن البحر خبرنا
٢٧٩	ترققن لا تضعقن بالشوق أشجانى
٣١٧	دارك بعفوك أرواح المحبين
٣١٨	على فنن بأفنان الشجون
٣٢٨	فى أكؤس من الجين
٣٣٤	ولا رقت للغواذى فىك أجفان

حرف الهاء

٩٣	ولا عذر فى المقام لسام
٣٠٢	سائلا ما وصلوه

حرف الياء

٢٩٦	صاده لحظ مهاة أو ظي
-----	---------------------

كشاف

حرف الالف

أبان بن عثمان ج ٢ ص ١٨٩

ابراهيم الخليل ج ١ ص ١٩٢ ج ٢ ص ١١، ٧، ٢٢، ٢٢٠، ٣٢٠،

١٣١، ٤٥، ٣٩

ابراهيم الدسوقي ج ١ ص ٢٧٣

ابراهيم بن سعد ج ٢ ص ٢٦٦

ابراهيم بن ميسرة ج ٢ ص ٣٤٢

الأثرم ج ١ ص ٥٢

ابن الأثير ج ٢ ص ٥٣

ابليس ج ٢ ص ٢٢

أحمد (عليه السلام) ج ٢ ص ٢٨

أحمد الصافي النجفي ج ١ ص ٣٩٠

أحمد بن سعيد ج ٢ ص ٣١٩

أحمد بن محمد الحلبي ج ١ ص ٣٢٦

أحمد بن يوسف المصري ج ١ ص ٣٧٩

ابن الأحنف ج ١ ص ٢٣، ٢٩٠، ٢٩٢

ادريس (عليه السلام) ج ١ ص ٢٧٨

آدم (عليه السلام) ج ١ ص ٩٣، ١١٤، ٢٠٦، ٢٢٣، ٢٦٢

٢٧١ ج ٢ ص ٤٤، ٤٥

آدم بن عبد العزيز ج ١ ص ٩٠

ابن أدهم (ابراهيم) ج ١ ص ٣٢ ، ٥٥ ، ٥٧ ، ١٤٥ ، ج ٢

ص ١٨٦ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ٢٠٨

ادوار روس (المستر) ج ٢ ص ٢٥

أدونيس بن أفروديت ج ١ ص ٣٨٦

أردشير ج ٢ ص ٨٦ ، ٨٧

أرسلان ج ١ ص ١٤١

ابن الأزرق ج ١ ص ١٩٣

ابن اسباط (محمد) ج ٢ ص ٢٤٢

ابن اسباط (يوسف) ج ٢ ص ٣٤٦

ابن اسحاق (محمد) ج ٢ ص ٦٣

اسحاق ابن المفضل الهاشمي ج ٢ ص ١١١

الاسلامبولي ج ١ ص ٦٦

أسلم ج ٢ ص ٢٢٦

الاسنوي ج ١ ص ١٩٥

الاسواري ج ٢ ص ٣٦١

الأسود بن طالوت ج ٢ ص ٢٤٢

الاشيلي ج ٢ ص ٢٢٩

ابن أشرس (ثمامة) ج ١ ص ٩٦

أشعب ج ١ ص ٨٧

الاصهباني (هاتف) ج ١ ص ٢١٤

الاصفهاني ج ١ ص ٧٨ ، ٥٥ ، ج ٢ ص ١٨٧

الاصمعي ج ١ ص ٣١٧ ، ٣٢٩

الاعشي ج ١ ص ٥٣

- أفضل الدين الشعراوي ج ۲ ص ۲۸۰
أفلاطون ج ۲ ص ۳۰۸ ، ۳۰۹
ابن أکثم ج ۱ ص ۵۹
الالوسی ج ۱ ص ۲۳۱ ، ۵۴
الآمدی ج ۱ ص ۸۹
الأمین (محمد) ج ۱ ص ۱۰۰ ، ۹۱
أم کلثوم ج ۲ ص ۳۵۲
أنس بن مالک ج ۲ ص ۳۵۴
الانطاکی ج ۲ ص ۲۳۲
أنطون الجمیل ج ۱ ص ۳۵۰
الأوزاعی ج ۲ ص ۱۰۲ ، ۱۲۰ ، ۱۲۱ ، ۱۲۲ ، ۱۲۳ ، ۱۹۵
أيوب (علیه السلام) ج ۱ ص ۲۲۳ ، ۲۲۴ . ج ۲ ص ۳ ، ۴
۴۰ ، ۷

حرف الباء

- البحتری ج ۱ ص ۲۶ ، ۲۷ ، ۳۷ ، ۱۰۸ ، ۳۰۱
البخاری ج ۱ ص ۱۹۳
بختنصر ج ۱ ص ۱۹۲
البدوی (السید أحمد) ج ۱ ص ۳۸۹
بدیع الزمان ج ۲ ص ۱۴۱
البراء بن عازب ج ۲ ص ۲۵۱ ، ۳۳۲ ، ۳۵۳
ابن یرمک (یحیی بن خالد) ج ۱ ص ۵۶

البستي ج ١ ص ٦٥
البسطامي (أبو يزيد) ج ١ ص ١٩٣
بشار ج ١ ص ١٠١
ابن بشار (أبو الحسن) ج ١ ص ٦٢
بشر بن الحارث الخافي ج ١ ص ١٢١ . ج ٢ ص ٩٦ ، ١٩٦ ،
٢١٠

بشر بن عبد الله ج ٢ ص ٣٤٠
ابن بشير ج ٢ ص ١١٩
البصري (وأنظر الحسن البصري فيما بعد) ج ٢ ص ٣ ، ١٢٤ ،
١٨٩ ، ١٩٥ ، ٢١٥ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٩٩
البغدادى ج ١ ص ٥٣ ، ٢١٥ . ج ٢ ص ٦٢
البغدادية ج ١ ص ٣٥٧
بقراط ج ١ ص ٣٢٧
أبو بكر (رضى الله عنه) ج ٢ ص ٩
أبو بكر الكسائي ج ٢ ص ٩٣
البكرى ج ١ ص ٢١٠ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٢ ، ٢٧١ ، ٢٧٤
بلاسيوس ج ١ ص ٢١٧
الباخي ج ١ ص ١٩٤
البلقيني ج ١ ص ١٩٠
بنان الجمال ج ٢ ص ١٠٢
البناني (ثابت) ج ٢ ص ١١
البهاء زهير ج ٢٢ ص ٢٣٢
بهاء الدين العاملي ج ١ ص ٦٢ ، ١٨١

البوصيري ج ١ ص ٢٦٩، ٢٧٦، ٣٨٨. ج ٢ ص ١٩١

البويطي ج ١ ص ٥٣، ١٩٣، ٣٧٩

بياتريس ج ١ ص ٢١٨

البيروني ج ١ ص ٦٦، ٦٧

حرف التاء

التبريزي (جمال الدين) ج ١ ص ٨٣

التبريزي (الحسين بن أحمد) ج ١ ص ٣١٠

التستري ج ١ ص ١٤٧، ١٩٤. ج ٢ ص ١٨٧

ابن التعاويذي ج ١ ص ٣٣٤

التفتازاني (محمد الغنيمي) ج ٢ ص ٢٩٧

التقي السبكي ج ١ ص ١٣٦

أبو تمام ج ١ ص ٥٦

تميم بن مر ج ١ ص ٥٢

التوحيدى ج ١ ص ٢٤، ٢٥، ٢٩. ج ٢ ص ٦٩، ٧٠، ٧٤

٧٧، ٧٦، ٧٥

حرف الشاء

الشعالي ج ١ ص ٥٩، ٧٨، ٧٩

ثعلب ج ١ ص ٢٤، ٥٧، ٩٤

الثقفي (أبو علي) ج ٢ ص ٢٤١

الثوري (وانظر أيضاً سفيان) ج ١ ص ٦٠، ٦٣، ١٢١. ج ٢

ص ١٨٩، ١٩٤، ١٩٥

حرف الجيم

ابن جابر ج ٢ ص ٢٢٩

الجاحظ ج ١ ص ٥٧، ٦٣، ٦٨، ٧٠، ٩٥، ١٠٨، ٣٣٠، ٣٧٩

ج ٢ ص ٧٠، ٧٧، ٢٠٨، ٢٦٥

جالوت ج ١ ص ١٩٢

جالينوس ج ١ ص ٣٢٧

جبريل (عليه السلام) ج ١ ص ١٠٧، ١١٨، ٢٧٧، ج ٢

ص ١٢٠

ابن جبير (سعيد) ج ٢ ص ٥٦

الجرجاني (صاحب التعريفات) ج ١ ص ٧٤، ٧٧، ٨٩، ج

٢ ص ١٤٢

ابن جريج ج ٢ ص ٢٥١

جرير بن عبد الله ج ٢ ص ٢٥٠

جميل (صاحب بشينة) ج ١ ص ٢١

الحارث بن همام ج ٢ ص ٣٣٠

الجنيد ج ١ ص ٥٨، ٨٠، ١٩٤، ٢٨٦، ج ٢ ص ٣٤، ٩٣، ٩٥

أبو جهل ج ١ ص ١٩٢

ابن الجهم ج ٢ ص ٢٩٦

ابن الجوزي ج ١ ص ٥١، ٥٢، ٥٧، ٦٠، ٦٢، ٨٣، ٣٣٦،

ج ٢ ص ٢٣٤، ٢٣٦، ٢٣٨، ٢٣٩، ٢٤٠، ٢٤٣، ٢٤٤، ٢٤٧،

الجيلاني (عبد الكريم الجيلبي) ج ١ ص ١٨٥، ٢١٤، ٢٢٠،

٢٢١، ٢٢٣، ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٦٤، ٣٩٧، ج ٢ ص ٣١

حرف الحاء

- ابن حارثة (الأوس) ج ٢ ص ٨٧
أبو حازم ج ١ ص ٦٩ . ج ٢ ص ١٠٢ ، ١٠٨ ، ١٢٤ ، ١٩٨ ،
١٣٩ ، ٢٣٠ ، ٢٢٩
الحاكم (الفاطمي) ج ١ ص ٥٨
حام ج ١ ص ١٩٢
الحامولي (عبده) ج ٢ ص ٢٧٠
حبيب الطالباني ج ١ ص ٢٩٨
ابن أبي حجلة ج ٢ ص ٢٣١
ابن أبي الحديد ج ١ ص ٩٤ . ج ٢ ص ٧٤ ، ٨٧
حديفة بن اليمان ج ٢ ص ١٠ ، ١٢
الحريري ج ١ ص ٣٨٨ . ج ٢ ص ١٤
حرملة بن كاهلة ج ٢ ص ٦٥
ابن حزم ج ١ ص ١٨٥ . ج ٢ ص ٢٣٢ ، ٢٤٠ ، ٣٤٥
الحسن البصري ج ١ ص ٤١ ، ٥٤ ، ٥٧ ، ٦٥ ، ٧٠ ، ١٢٥ ،
٣٩٥ . ج ٢ ص ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ٣٣ ، ٢٤ ، ٩٢ ، ١٣٨ ،
٣٣٢ ، ٣٤٦ ، ٣٤٨ ، ٣٥٤
حسن توفيق العدل ج ١ ص ١٥٦
حسن الحويحي ج ١ ص ٣١١ . ج ٢ ص ٢٦٨ ، ٢٦٩
حسن رضوان ج ١ ص ٤٦ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ،
٢٥٧ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٣٥٨
أبو الحسن الشاذلي ج ٢ ص ٧٨ ، ٧٩

الحسن بن علي ج ١ ص ٢٧٤
الحسين بن أحمد ج ٢ ص ١٨٩
الحسين بن علي ج ١ ص ٣١١ ، ٢٨٦
أبو الحسن النوري ج ٢ ص ١٤٦
حسين الجعفي ج ١ ص ٣٩٥
الحصري (أبو اسحاق صاحب زهر الآداب) ج ٢ ص ١٣ ،
٢٤١

حكيم بن مرة ج ٢ ص ٢١٤
الحلاج ج ١ ص ٤٨ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ٢٠٣ ، ٢١١ ، ٢١٤ ، ٢١٥
٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٣١ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ ،
٣٦٨ ، ٣٩٦

ابن حمدان (سيف الدولة) ج ١ ص ٥٦
أبو حمزة الصوفي ج ٢ ص ٣ ، ١٤ ، ٢٣٧
ابن حنبل (الامام أحمد) ج ١ ص ٩٤ ، ١٩٣ . ج ٢ ص ١٧ ،
٢١٠ ، ٣٩٣

حنظلة ابن أبي عفراء ج ١ ص ٥٣
أبو حنيفة (الامام) ج ١ ص ٥٣ ، ج ٢ ص ٢٦٦ ، ٣٦٨
حواء (زوج آدم) ج ١ ص ١١٤
أبو حيان ج ١ ص ٥٩
حيدر ج ١ ص ٣٢٤ ، ٣٢٥
ابن حيوس ج ٢ ص ٢٧١
ابن حيوة (رجاء) ج ٢ ص ١٠٥

حرف الخاء

- خالد (الشيخ خالد الأزهرى) ج ٢ ص ٢٧٧
خالد بن الوليد ج ٢ ص ٢٧٧
الخراثطى ج ٢ ص ٢٥١
الخراز ج ١ ص ١٩٤ ، ج ٢ ص ١٥٩ ، ١٥٩ ، ٢٢٥
ابن خلدون ج ٢ ص ١٥ ، ٣٣ ، ٣٥
ابن خلكان ج ١ ص ٣٣٣
نمارويه ج ٢ ص ١٠٢
الخوارزمى ج ١ ص ٢٧٩ ، ج ٢ ص ٦٩
الخواص ج ١ ص ٣٤٦ ، ج ٢ ص ٢٧٦ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٢٩٠ ،
٢٩١ ، ٢٩٣ ، ٣٠٢ ، ٣٠٨
ابن الخياط ج ١ ص ١٩١
ابن خيثم ج ١ ص ١٢٥
خيشمة ج ٢ ص ٢٢٥

حرف الدال

- الدارانى ج ١ ٦٢ ، ٣٢٢ ج ٢ ص ١٣٩ ، ١٩٢ ، ١٩٤
داتى الشاعر ج ١ ص ٢٠٦ ، ٢٠٨
داود (عليه السلام) ج ١ ص ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٦ ،
١١٧ ، ١١٩ ، ١٩٢ ، ٢٨٤ ج ٢ ص ٤٥ ، ٢٥١ ، ٢٦٤
ابن داود ج ٢ ص ٢٢٨ ، ٢٣٢ ، ٢٤٠
داود (الباشا) ج ٢ ص ٣٠٢

- داود الطائي ج ١ ص ٣٩، ٤٠، ٤١
الدجوى (الشيخ يوسف) ج ٢ ص ٢٨٤
أبو الدرداء ج ١ ص ٦٨، ١٩٢ ج ٢ ص ٢١٦، ٢١٧
الدريني ج ٢ ص ٩١
دعبل ج ١ ص ٣٣، ٥٨، ٣٠٣ ج ٢ ص ٣٤٥
الدقاق ج ٢ ص ١٥٨
ابن دقيق العيد ج ٢ ص ٨١
ابن الدمينه ج ١ ص ٢٢
دوزى ج ١ ص ٥٩
ابن دينار ج ٢ ص ١١، ٥٦، ١٣٩، ٢٠٦

حرف الذال

- الذبياني ج ٢ ص ١٩٢
أبو ذر ج ٢ ص ٢١٦، ٢٢٠
الذهبي ج ١ ص ٢٧٥

حرف الراء

- رابعة العدوية ج ١ ص ٢٨٧ ج ٢ ص ١٢٨، ١٦١
الراهب (شخصية معنوية) ج ١ ص ٦٤
الربيع (حاجب المنصور) ج ٢ ص ١١١، ١٢٠
الربيع بن خيثم ج ٢ ص ٣٣٢
الربيع بن سليمان ج ١ ص ١٩٣

الرشيد ج ۱ ص ۲۷، ۶۴، ۹۰، ۹۹، ۱۰۵، ۱۰۶، ۱۰۷، ج

۲ ص ۱۰۲، ۱۰۵، ۱۰۶، ۱۰۷، ۱۰۸، ۱۰۹، ۱۲۳،

۱۲۴، ۱۴۸

ابن رشيق ج ۱ ص ۸۶

الرضا (علي بن موسى) ج ۲ ص ۳۴

الرضي (وأنظر الشريف أيضاً) ج ۱ ص ۳۹۶

الروزباري (أبو علي) ج ۱ ص ۵۸، ۳۳۲

روسو (چان چاك) ج ۲ ص ۴

ابن رويم (عروة) ج ۲ ص ۱۲۰

أبو الريحان البيروني ج ۱ ص ۶۶، ۶۷

رينان ج ۱ ص ۲۱۲، ۲۷۷

حرف الزاي

ابن زائدة (معن) ج ۱ ص ۱۶۳

الزبيدي ج ۱ ص ۵۹

ابن الزبير ج ۱ ص ۵۲ ج ۲ ص ۲۳۵

الزبير بن بكال ج ۱ ص ۵۲

الزركلي (خير الدين) ج ۲ ص ۶۳

زكريا (عليه السلام) ج ۱ ص ۱۸۸ ج ۲ ص ۴۰

الزحشرى ج ۱ ص ۵۲، ۱۷۰

الزنجاني (أبو عبدالله) ج ۲ ص ۲۲۹

الزهري ج ۱ ص ۲۴

- زهير ج ٢ ص ١٤١ ، ٢٣٢
ابن الزيات ج ٢ ص ٢٧٩
ابن زياد ج ١ ص ٣٠
زيد بن ثابت ج ٢ ص ١٨٨
ابن زيدون ج ١ ص ٢٩٢
زين العابدين ج ٢ ص ٦٣ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨
زين الدين بن علي ج ١ ص ٢٣١
زينب (السيدة) ج ١ ص ٢٢٢

حرف السين

- ابن السائب الكلبي ج ١ ص ٥٢
ابن سالم ج ٢ ص ١٤٨
سالم بن عبدالله ج ١ ص ٨٧ ، ١٠٥
السبكي ج ١ ص ١٩٥
سينوزا ج ١ ص ١٨٣
السجستاني ج ١ ص ٢٤
السرخسي ج ٢ ص ٩٨
أبو سعد ج ١ ص ٥٨
سعد بن أبي وقاص ج ١ ص ١٩٣
سعدون الجنون ج ٢ ص ٥٨
ابن سعيد الانصاري (يحيى) ج ٢ ص ١٢٢
ابن سعيد الحافظ ج ١ ص ٥١
سعيد بن صدقة بن المهمل ج ١ ص ٣٩٣

- سعيد بن سليمان ج ٢ ص ١٠٧
سعيد بن المسيب ج ٢ ص ١٨٩ ، ٣١٩
سفيان الثوري ج ١ ص ٣٩ ، ٣٩٣ . ج ٢ ص ٥٦ ، ٢٩٢
سفيان بن محمد ج ٢ ص ٢٥٧
سلافة بنت يزدجرد ج ٢ ص ٦٣
السقطي (السري) ج ١ ص ١٢١ . ج ٢ ص ٢٧١
سلامة حجازي ج ٢ ص ٢٧٠
سلامة المغنية ج ١ ص ٦٤
سلطان علي ج ٢ ، ٣٦٦
ابن سلمة ج ١ ص ٨٦
أبو سلمة عبد الرحمن ج ٢ ص ١٩٨
أم سلمة ج ٢ ص ١٠
سليمان (عليه السلام) ج ١ ص ١١٥ ، ١٩٢
سليمان الأعمى ج ١ ص ٢٧
سليمان بن عبد الملك ج ٢ ص ١٠٢ ، ١٠٨ ، ١٢٤
السنجاري ج ١ ص ٨١
السموئل ج ٢ ص ١٦٣
ابن السماك ج ١ ص ٣٩ ، ٤١ ، ١٢٦ . ج ٢ ص ١٠٢ ، ١٠٨ ،
١٠٩ ، ١٢٤ ، ٣٥٠
ابن سمعون ج ١ ص ٥٨
سمنون المحب ج ١ ص ١٩٣ . ج ٢ ص ٢٣٠
سنجر بن ملك شاه ج ١ ، ٣٨٧
السنجي ج ٢ ص ١١
سهل ج ٢ ص ١٤٧ ، ١٦٦

سهل بن عبد الملك ج ٢ ص ٢٢٥

سهيل بن عبد الله ج ٢ ص ١٦٤

السهيلي ج ٢ ص ٧٨

السهروردى ج ٢ ص ١٥

سيار بن الحكم ج ٢ ص ١٣٦

ابن سيار القاضى ج ١ ص ٢٤

السيد بكري ج ١ ص ٢٣١

سيد درويش ج ٢ ص ٢٧٠

سيد دعاس مبارك ج ١ ص ٢٨٢

ابن سيرين ج ١ ص ٦٣ ، ٨٥ ، ٠ ج ٢ ص ٩٢ ، ١٢٤

السيوطى ج ٢ ص ١٩٥

حرف الشين

الشاذلى ج ١ ص ١٥١ ، ١٩٥ ، ٠ ج ٢ ص ٨٣ ، ٢٠٥

الشافعى ج ١ ص ٨٥ ، ١٩٣ ، ٠ ج ٢ ص ٢٠ ، ١٨٩ ، ٢٦٦

الشبلى ج ١ ص ٨٠ ، ١٢٦ ، ١٩٤ ، ٢٣١ ، ٠ ج ٢ ص ٤٨ ، ١٥٦

ابن شبة ج ١ ص ٥٢

ابن شداد (عبد الله) ج ١ ص ٥٧

ابن شداد (عنترة) ج ١ ص ٦٠

شرف الدين بن الموقع ج ١ ص ٣٤٩

الشريف الرضى ج ١ ص ٥٦ ، ٩٠ ، ١١١ ، ٢٩٠ ، ٢٩٩ ، ٠

٣٩٦ ، ٣٥٨ ، ٣٠٣

الشعبى ج ١ ص ٤٠ ، ٠ ج ٢ ص ١٨٩ ، ١٠٦ ، ١٢٤ ، ٢٣٠ ، ٠

الشعرانى ج ١ ص ٤٩ ، ٥٠ ، ١٦٠ ، ١٦٥ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٩١ ، ٠

١٩٥، ١٩٦، ٢٠٤، ٢٠٥، ٢٠٦، ٢٧٣، ٣٤٠، ٣٤١، ٣٤٣،
 ٣٤٤، ج ٢ ص ٢١١، ٢٧٦، ٢٧٧، ٢٧٨، ٢٨٠، ٢٨١،
 ٢٨٢، ٢٨٣، ٢٨٤، ٢٨٦، ٢٨٨، ٢٨٩، ٢٩٠، ٢٩٢، ٢٩٣،
 ٢٩٤، ٢٩٦، ٢٩٧، ٢٩٨، ٢٩٩، ٣٠٠، ٣٠١، ٣٠٢، ٣٠٣،
 ٣٠٤، ٣٠٥، ٣٦٠، ٣٦٨

شعيب بن حرب ج ٢ ص ١٠٢، ١٠٣، ١٠٤

الشلبغاني ج ٢ ص ٣٦٥

شمس الدين البكري ج ٢ ص ٢٣٢

شمس الدين المدني ج ١ ص ١٧٠

ابن شميل (النضر) ج ١ ص ٦١

الشناوي ج ٢ ص ٣٦٠

شنودة ج ١ ص ٢٢٨

ابن شهاب ج ١ ص ٨٤، ٨٥

الشهرستاني (هبة الدين) ج ١ ص ٣٨٥

الشوني ج ٢ ص ٢٨٢

الشيبياني (أبو المثنى) ج ٢ ص ٢٤٢

الشميرازي (صدر الدين) ج ٢ ص ٢٢٨، ٢٢٩، ٢٣٤، ٣٦٨

حرف الصاد

الصاحب بن عباد ج ١ ص ٨٠ ج ٣٦٢

صالح عبدالحى ج ٢ ص ٢٧٠

صالح بن عبد الجليل ج ٢ ص ١٠٢، ١٠٩، ١١٠

ابن الصباغ (أبو الحسن) ج ١ ص ٢٢٩

صخر (عدو بي الله سليمان) ج ١ ص ١٩٢

الصفدى ج ١ ص ٨٠، ٨٢

ابن أبي الصلت ج ١ ص ٦٣

الصواف ج ١ ص ٣١١ ج ٢ ص ٢١٤

ابن صيفي (أكثم) ج ٢ ص ٢١٤

حرف الضاد

ضمرة بن معبد ج ٣ ص ٦٥

أبو ضمضم ج ٢ ص ١٧٤

حرف الطاء

طاهر الصباغ ج ١ ص ٣٠١

الطبري ج ١ ص ٧٧

الطرطوشي ج ١ ص ٣٢١، ٣٢٢

الطغرائي ج ٢ ص ٢٧٩

الطماوي ج ١ ص ١٨

الطوسي ج ٢ ص ٣٤، ٣٥، ٩٦، ١٤٨، ١٦٤، ١٦٦، ٢٠٨

الطياوي ج ١ ص ٢٠٧، ٢٠٨

حرف العين

عائشة (رضي الله عنها) ج ١ ص ٣٢، ٦٠، ٢٧٥ ج ٢ ص

٢٥١، ٤٥، ٤٤

العاملی ج ١ ص ١٨٢ ، ١٨٦ . ج ٢ ص ٢٣١
ابن عباد ج ١ ص ٢٨ ج ٢ ص ٣٦٢
بن عباس . ج ١ ص ٨٥ ، ١٩٣ . ج ٢ ص ٥٤ ، ٢٥١ ، ٢٥٦ ،
٣٣٤ .

العباس (عم الرسول) ج ٢ ص ١٦
أبو العباس ج ١ ص ١٥٧
أبو العباس عیسی ج ١ ص ٦٤
عباس العزاوی ج ١ ص ٢٢٠
أبو العباس المرسی ج ١ ص ١٣٦
ابن عبد الأعلى ج ٢ ص ٢٠
ابن عبد البر ج ٢ ص ١٨٨
عبد الحفیظ خلیفة ج ١ ص ٢٠٩
ابن عبد الحق (محمد) ج ١ ص ٦١
عبد الحمید بن یحیی ج ٢ ص ٨٧
عبد الرازق ج ١ ص ٧٧
عبد الرحمن الشعرازی ج ٢ ص ٢٧٩
عبد الرحمن بن عوف ج ٢ ص ١٨٧
عبد الرحمن القس ج ١ ص ٦٤
ابن عبد السلام ج ٢ ص ١٨
عبد السلام مبارک ج ١ ص ١٧ ، ١٩٥
عبد العزیز محمد ج ١ ص ٢٠٩
عبد العزیز بن عمران ج ١ ص ٥٢
عبد الصمد البغدادی ج ١ ص ٣٣٠

- عبد العظيم القيايى ج ١ ص ٣٢٨
عبد القادر الجمال ج ١ ص ٣٨٨
عبد القادر الشعراوى ج ٢ ص ٢٧٨
عبد القادر الأرزىكى ج ١ ص ٣٦٠
عبد الله البصرى ج ٢ ص ٢١٥
أبو عبد الله الصوفى ج ٢ ص ٢٤١
عبد الله بن على ج ٢ ص ١٢١
عبد الله بن عثمان ج ١ ص ٨٤
عبد الله بن المبارك ج ١ ص ٣٩٥
عبد المسيح ج ١ ص ٥٣
عبد الملك بن مروان ج ٢ ص ١٨٩، ٦٥
عبد الوهاب عزام ج ١ ص ٢٧٥، ٢١٤
عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود ج ١ ص ٨٤
عبيد الله بن زياد ج ١ ص ٣٠ ج ٢ ص ٦٥
أبو عبيدة ج ١ ص ٥٢
أبو العتاهية ج ١ ص ٩٩، ٩٨، ٩٧، ٩٦، ٦٧، ٦٥، ٤٥، ٣٤
١٠٠، ١٠١، ١٠٢، ١٠٤، ١٠٥، ١٠٦، ١٠٧، ١٠٨، ١١٠
٣٩٦، ١١١
عثمان بن عفان ج ٢ ص ١٨٨، ١٠
عثمان الغريب ج ١ ص ٣٣١
المجلونى ج ١ ص ٢٧٥، ٢٧٤
ابن عجيبة ج ١ ص ٣٣٧، ١٤٣، ١٣٦، ٧٥
ابن عربى ج ١ ص ٨٢، ٨١، ٧٧، ٧٦، ٧٣، ٧١، ٤٨، ٤٦

١١٨ ، ١٤٢ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ،
١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٤ ،
١٨٠ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٦ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ،
٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١٢ ، ٢٢٠ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ،
٢٣٤ ، ٢٣٩ ، ٢٥١ ، ٢٥٣ ، ٢٦١ ، ٢٦٦ ، ٢٦٩ ، ٢٧٣ ، ٢٧٨ ،
٢٨١ ، ٢٩٧ ، ٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣١٧ ، ٣٣٨ ، ٣٩٧ ، ٢ ص ١٨ ،
٢٩ ، ١٠٠ ، ١٢٥ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٤ ، ٢٩٧ ، ٢٩٤ ، ٣٠٤

عدى بن حاتم ج ١ ص ١٦٠

عروة بن الزبير ج ١ ص ٦١

ابن العريف ج ١ ص ٢٠٨ ، ٢٦٨

عز الدين المظلوم ج ١ ص ٣٤٦

عزت صقر ج ١ ص ٢٩٩

عطاء ج ٢ ص ٢٢١

عطاء السلي ج ٢ ص ٥٨ .

ابن عطاء الله ج ١ ص ٣٧ ، ٤٥ ، ١٣٦ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٥ ،

١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ،

١٥٧ ، ١٥٨ ، ٣١٤ ج ٢ ص ١٥٩ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ،

عفيفي (أبو العلا) ج ١ ص ١٨١ ، ٢٠٨

عقبة بن عامر ج ٢ ص ٣٢٩

عكاف بن وداعة ج ٢ ص ٢٠٦ ، ٢٠٧

أبو عكرمة ج ١ ص ٩٩

أبو العلا المعري ج ١ ص ٣٨ ، ٦٦ ، ١٢٩

علقمة بن ليث ج ٢ ص ٨٥

- علي بن الحسين زين العابدين ج ٢ ص ٦٣ . ٦٤
علي بن الحسين ج ٢ ص ٣٥٤
علي الجرجاني ج ٢ ص ٩٦
أبو علي الروز باري ج ١ ص ٢٠
علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) ج ١ ص ١٣٠ ، ١١٣ ،
٢١٥ ، ٢٧٥ ، ٣٨٧ ، ٣٩٠ . ج ٢ ص ١٢ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٥٩ ،
٦٣ ، ٩٠ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٤٧ ، ٢٢٦ ، ٢٥١
علي عبد الحميد مبارك ج ١ ص ٢٠٩
علي عبد الرازق ج ١ ص ٣٥٩
علي بن الفضيل ج ١ ص ٣٢١
علي مبارك باشا ج ١ ص ٣٥٦ ، ٣٤٠ ، ٣٦٠ . ج ٢ ص ١٧٨
علي بن المحسن بن علي ج ٢ ص ٦٢
علي محمود ج ١ ص ٣١١
علي المرصفي ج ٢ ص ٢٩٠
علي بن مكي ج ١ ص ٣٢٦
علي بن مهدي ج ١ ص ١٠١
عمارة بن حمزة ج ٢ ص ١١١
ابن عمر ج ١ ص ١٩٢ . ج ٢ ص ١٨٨ ، ٣٣١
عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) ج ١ ص ٥٥ ، ٥٧ ، ٥٨ ،
٦٠ ، ١٢١ ، ١٩٣ ، ج ٢ ص ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ٣٤ ، ٦٠ ، ١٢٢ ،
٢٢٦ ، ٢٥٠
عمر بن ذر ج ١ ص ٧٠

عمر بن أبي ربيعة ج ٢ ص ٢٩٧

عمر بن سعد بن أبي وقاص ج ٢ ص ٣٤٢

أبو عمر الصوفي ج ٢ ص ٢٤٢

عمر بن عبد العزيز ج ١ ص ٨٤، ج ٢ ص ١٠٥، ١٠٦، ١٦٤،

٣٤٦

عمران ج ١ ص ٥٢

عمرو بن عبيد ج ١ ص ٩٩، ج ٢ ص ١٠٢، ١١٠، ١١١،

١١٢، ١١٤، ٣٦١

العمرى ج ٢ ص ١٢٠

ابن العميد ج ١ ص ٣٧٩

ابن عمير ج ٢ ص ٢٥٥، ٢٥٦

عيسى (عليه السلام) ج ١ ص ٣٢، ٥٤، ٦٣، ٦٤، ٦٥،

١٢٨، ١٣٠، ١٩٢، ٢٠٥، ٢٠٦، ٢١٣، ٢٧٧، ٣١٩، ج ٢

ص ٤٧، ٦٥، ٦٦

عيسى بن علي ج ١ ص ٣٠٩

عيسى بن هشام ج ٢ ص ٣٣١

حرف الغين

الغزالي ج ١ ص ١٨، ١٩، ٢٠، ٣٧، ٦٠، ٨٥، ١١٩، ١٢١،

١٢٢، ١٢٤، ١٤٣، ١٦٠، ١٦٩، ١٧٠، ١٨٠، ٢٠٩،

٣٣٩، ج ٢ ص ١٦، ١٧، ٢٣، ٤٣، ٤٥، ٤٦، ٤٨، ٥٣،

٥٤، ٦٦، ١٣٨، ١٣٩، ١٦٩، ١٧٦، ١٩٨، ٢٢٠، ٢٦٧،

٢٧٦، ٢٨٤، ٣٥٦، ٣٥٧، ٣٥٨، ٣٦٠، ٣٦٣، ٣٦٧

الغوث بن مر ج ١ ص ٥١، ٥٢

ابن غياث ج ٢ ص ٢٥٦

ابن غيلان ج ٢ ص ٨٨

حرف الفاء

فاتح بن عثمان التكروري ج ١ ص ٣١٢، ٣١٣، ٣١٤

ابن الفارض ج ١ ص ٢٥، ٣٤، ٤٦، ٨٠، ٨٢، ١٨١

٢٨٨، ٢٨٩، ٢٩٠، ٢٩١، ٢٩٢، ٢٩٣، ٢٩٤، ٢٩٥

٢٩٦، ٢٩٧، ٢٩٨، ٢٩٩، ٣٠٠، ٣٠١، ٣٠٣، ٣٠٤

٣٠٥، ٣٠٦، ٣٠٧، ٣٩٧ ج ٢ ص ٢٦٩

فاطمة أم عبد الرحمن زوجة الشعرائي ج ٢ ص ٢٧٩

فالح رفقى ج ١ ص ٣١

أبو الفتح الأعور ج ٢ ص ٢٣١

فخر الدولة ج ١ ص ٢٨

أبو فراس ج ١ ص ٥٦

الفرزدق ج ١ ص ٧٠

فرعون ج ١ ص ١٩٢، ١٩٣ ج ٢ ص ٣٠٢

فرغل ج ١ ص ٢٢٨

أبو الفضل بن أبي الوفا ج ١ ص ٣٤٥

الفضل بن الربيع ج ١ ص ٩٠، ١٠٧ ج ٢ ص ١٠٥، ١٠٦

الفضيل ج ١ ص ١٢٥، ١٤٥

الفضيل بن عياض ج ٢ ص ١٠٢، ١٠٤، ١٠٦

فوز ج ١ ص ٢٣

فون هامر ج ١ ص ٦٦

الفيروز ابادى ج ١ ص ٥٢ ، ١٤١

ابن العفيف ج ٢ ص ١٩

حرف القاف

القاشانى ج ١ ص ١٦٠ ، ١٩٧ ، ١٩٩ ، ٢٠١ ، ٢٠٥ ، ٢٧١

٢٧٧ ، ٢٧٨

أبو قتادة العدوى ج ٢ ص ١١

ابن قتيبة ج ١ ص ٣٩ ، ٦٢ ، ٧٠ ، ج ٢ ص ٦٦ ، ١١٤ ،

١٤١ ، ٣٤٠

القس (عبد الرحمن) ج ١ ص ٦٤

قس بن ساعدة ج ١ ص ١٦٣

القشيري ج ١ ص ٦٦ ، ج ٢ ص ٢٤٣

قطرى بن الفجاءة ج ٢ ص ١٣٦

القلانسي ج ٢ ص ٢٠٧

أبو قلابة ج ٢ ص ٢١٥

ابن القيم ج ١ ص ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣٢ ، ١٣٣

١٣٥ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ج ٢ ص ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢٨ ، ٢٣٢

٢٤٠ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٦٠ ، ٢٦٧

٢٧١ ،

حرف الكاف

- ابن السكاتب ج ٢ ص ١٨
الكتاني (محمد) ج ١ ص ٦١
كثير ج ١ ص ٤٠
الكرخي (معروف) ج ١ ص ٦٢ ج ٢ ص ٣٤، ١٩٦
ابن أخي الكرخي ج ١ ص ٦٢
كعب الاحبار ج ١ ص ١٩٢
الكميت ج ١ ص ٣٣ ج ٢ ص ٣٤٥
أبو الكميت الأندلسي ج ٢ ص ٢٣٦
كميل بن زياد ج ٢ ص ٣٣

حرف اللام

- الامرتين ج ١ ص ٢٢٤
ابن اللبابة ج ١ ص ٢٨، ٢٩
لسيد ج ٢ ص ١٤١
الطفي جمعة ج ١ ص ٦٦، ج ٢ ص ٢٦٩
أبو لهب ج ٢ ص ١٠٣
ليفي برول ج ٢ ص ٣٦٦
لميلي ج ١ ص ٤١

حرف الميم

- مؤرق العجلى ج ٢ ص ٣٣٤
المأمون ج ١ ص ٩٩
المؤيد ج ١ ص ٢٦
ماسينيون ج ١ ص ١٩ ، ٢١٩ ، ٣٣٨ ، ج ٢ ص ١٦٩ ، ٣٦٩
ماعز ج ٢ ص ٣٥٤
مالك (الامام) ج ١ ص ١٩٣ ، ج ٢ ص ١٨٩ ، ٢٦٦
مالك بن دينار ج ١ ص ٣١٧ ، ٣٢٢ ج ٢ ص ١٨٧
ابن المبارك ج ١ ص ٥٣ ، ٩٩ ، ١٢٥ ، ج ٢ ص ١١٩ ، ٢٠٨
أبو المبارك ج ٢ ص ٢٠٨
المتنبى ج ١ ص ٣٧ ، ٣٩ ، ٣٠١
المتوكل ج ١ ص ٢٦ ، ج ٢ ص ٩٨
المبرد ج ١ ص ٥٥ ، ج ٢ ص ٢٥٣
مجاهد ج ٢ ص ٣٣٤
محارب الصوفى ج ٢ ص ٢٣٦
المحاسبي ج ٢ ص ١٩ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٧٩
محمد (عليه السلام) ج ١ ص ٤٩ ، ٥٢ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٧ ، ٥٨ ،
٦٠ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٨٦ ، ٩٦ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٦٧ ،
١٧٠ ، ١٧٢ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٢ ، ٢٠٧ ، ٢١٣ ، ٢١٥ ،
٢٢٦ ، ٢٦٢ ، ٢٦٨ ، ٢٧١ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ،
٢٨١ . ج ٢ ص ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٩ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ،
٣٢ ، ٣٤ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٥٣ ، ٥٧ ، ٦٢ ، ١٠٣ ، ١٠٦ ،

١٠٩ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٣٠ ، ١٣٢ ، ١٤٥ ، ١٤٧ ، ١٥٧ ،
١٦٣ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٦ ، ٢٠٥ ، ٢٠٧ ، ٢١٥ ، ٢٣٩ ،
٢٥٠ ، ٢٥١ .

محمد بن أحمد بن موسى ج ١ ص ٦١

محمد بن أحمد النجار ج ٢ ص ٢٤١

محمد البكري ج ١ ص ٢٨٠

محمد بن حبيب الطوسي ج ٢ ص ٣٣٠

محمد الحسين آل كاشف الغطاء ج ١ ص ٢٩٩

محمد بن الحنفية ج ٢ ص ٢٧٨

محمد حلبى عيد (الدكتور) ج ٢ ص ٢٧٧

محمد داود ج ٢ ص ١٦٦ ، ١٦٧

محمد بن سعيد ج ١ ص ١٧

محمد بن سليمان ج ٢ ص ١٦٢

محمد شاكر (الشيخ) ج ١ ص ٢٠٩

محمد للشناوى ج ٢ ص ٢٩١

محمد بن صالح ج ١ ص ١٠٥

محمد عثمان ج ٢ ص ٢٧٠

محمد بن عراق ج ١ ص ٣٤٥

محمد على ج ١ ص ٢٢٦

محمد بن على الدمشقى ج ١ ص ٣٢٥

محمد بن على الصوفى ج ٢ ص ٢٤٢

محمد بن عبد الله ج ٢ ص ١١٣ ، ٢٥٠

محمد المرصفي ج ٢ ص ٢٨٣

- محمد ناصر ج ١ ص ٥١
محمود نسيم ج ٢ ص ٢٧٠
محي الدين بن عربي ج ١ ص ١٩٥
ابن مجالد ج ٢ ص ١١٢
مجاهد ج ١ ص ٥٣
مجنون ليلي ج ١ ص ١١٨، ٤١ ج ٢ ص ٢٧٥
مخارق ج ١ ص ١١١، ٩٨
المختار بن أبي عبيد ج ٢ ص ١٨٨
المنزومي (أبو الحسن) ج ١ ص ٣٤٥
ابن مدين ج ٢ ص ١٨
أبو مدين ج ١ ص ٣١٩، ١٩٥
مرداس ج ١ ص ٣٠
المرتضى ج ٢ ص ٣٤
مرجليوث ج ١ ص ٥٩، ٥٦
المرزباني ج ١ ص ٨٤
المرسي ج ١ ص ٣١٤ ج ٢ ص ١٦
مرسيه ج ١ ص ٣٨٤
المرصفي ج ٢ ص ٣٦٠
المروزي ج ١ ص ١٢٥
مريم (عليها السلام) ج ١ ص ٢١٤، ٢١٧
مسروق ج ٢ ص ٢٢٥
ابن مسعود ج ٢ ص ٢١٠، ٢٦٧، ٣٣١
مسلم الخواص ج ٢ ص ٢٤٢

مسلم بن الوليد ج ١ ص ٢٧٠ ج ٢ ص ٢٣٩
ابن المسيب ج ١ ص ٨٥٠ ج ٢ ص ١٣
المسيح (عليه السلام) ج ١ ص ٥١، ١٢٧، ٢١١، ٢١٢،
٢١٩، ٢٨١ ج ٢ ص ٢٦، ٢٨، ٣٠، ٤٦، ١٣١، ١٣٢،
١٧٥، ١٣٣

ابن مشيش ج ١ ص ٢٧٣، ٢٧٤
مصعب بن الزبير ج ٢ ص ٣٦١
مصطفى عبد الرازق ج ١ ص ٥١، ٢٥٦، ٢٨٧، ٢٥٠
مصطفى المراغي (محمد) ج ١ ص ٢٠٩
مصطفى كمال ج ١ ص ٣١

مصلح (الشيخ) ج ٢ ص ٢٦٩
مطرف بن عبد الله ج ٢ ص ١٥١، ١٦٤
مطرف ج ١ ص ٢٨

المطهر الأزدي ج ١ ص ٣٧٩
ابن المطلب ج ١ ص ٨٦

معاذ بن جبل ج ٢ ص ٣٣١
معاوية ج ٢ ص ١٨٨

ابن المعتزل ج ٢ ص ٢٣١
المعز ج ١ ص ٢٦

المعلى الصوفي ج ٢ ص ٢٤٢
ابن معين ج ١ ص ٨١

المغربى (أبو عثمان) ج ١ ص ١٩٤
المقرئ ج ١ ص ٨٢، ٨٣

- المقریزی ج ١ ص ٣٢٧، ٣٥٧
ابن المقفع ج ١ ص ١٥٩، ج ٢ ص ١١٨
مکحول ج ٢ ص ١١٩
المکی ج ١ ص ١٤٤، ج ٢ ص ١٠، ١٢، ٦٢، ١٥٠، ١٩٣،
١٩٤، ٢١٠، ٢٢٠
مکین الدین بن الاسمر ج ١ ص ٣٣٦
ابن الملوخ ج ١ ص ٢١
ابن ملیکة ج ٢ ص ٢٥١
المنتصر ج ١ ص ٢٦
ابن المنذری (ابراهیم) ج ١ ص ٥٢
المنصور ج ٢ ص ١٠، ١١٠، ١١١، ١١٢، ١١٣، ١١٤،
١١٥، ١١٧، ١١٨، ١١٩، ١٢٠
منصور فهمی ج ٢ ص ٣٠، ٢٢٤
المنیلاوی ج ٢ ص ٢٧٠
مهیار الدیلبی ج ٢ ص ٢٧٢
المهدی (الشیخ محمد) ج ١ ص ٢٩٣
المهدی (الخليفة) ج ٢ ص ١١٣
مهرجان ج ٢ ص ٢٣٧
المواهی الشاذلی ج ٢ ص ١٢٩
موسولینی ج ١ ص ٣٠
موسی علیه السلام ج ١ ص ٧٦، ١٩٢، ٢٧٨، ج ٢ ص ٤٠،
٣٥٤، ٥٥
الموصلی ج ٢ ص ٢٤١

حرف النون

النابلسي ج ١ ص ٤٦ ، ١٦٠ ، ١٧٤ ، ١٩١ ، ١٩٤ ، ٢٠٤ ، ٢٤٨ ،
٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٧٢ ، ٣٩٧ .

نابليون ج ١ ص ٢٢٦

ابن نباتة المصري ج ١ ص ٢٦٨

النخعي ج ٢ ص ١٨٩ ، ٢١٧ ، ٢٥٤

النسيمي ج ١ ص ١٩٥

ابو نصر التمار ج ٢ ص ٢١٠

النعمان ج ١ ص ٥٧

نعيان ج ٢ ص ٣٤٤

النمرود ج ١ ص ٦٠ ، ١٩٢

ابو نواس ج ١ ص ٣٤ ، ٤٢ ، ٥٩ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ ،

٩٥ ، ١١١ ، ٢٨٩ ، ٣٩٦

نوح (عليه السلام) ج ١ ص ٥٥ ، ١٩٢ . ج ٢ ص ٤٠ ، ٤١

النوري ج ٢ ص ١٦١

ذو النون المصري ج ١ ص ١٩٣ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٨٨ . ج ٢

ص ٩٦ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٦٠ ،

١٦٥ ، ٢٦٥

النويري ج ٢ ص ٥١ ، ٥٤

نيكلسون ج ١ ص ٢٠٧ ، ٢٢١ . ج ٢ ص ٣٦٩

حرف الهاء

ابو هاشم الصوفي ج ١ ص ٦٥

هارون ج ١ ص ٢٧٨٠، ٥٣

هارون الرشيد ج ٢ ص ١٠٤

هارون بن علي ج ١ ص ١٠١

ابن هبيرة ج ٢ ص ١٢٤

ابو هريرة ج ٢ ص ١٣٠، ٢٢

ابن هرمة ج ١ ص ١٠١

ابو هلال ج ١ ص ٨٩

هاتر ج ١ ص ٢٩

هيان بن بيان ج ٢ ص ٣٣٠

الهيثم بن جميل ج ٢ ص ٢٥٧

حرف الواو

الواسطي ج ١ ص ٣٣٩ ج ٢ ص ٢٤١، ٢٤٤

ابن واسع ج ١ ص ١١

وهب بن منبه ج ١ ص ٣٢١ ج ٢ ص ٢٥١

وهيب بن الورد ج ٢ ص ٣٤٦

حرف الياء

اليافعي ج ١ ص ٢٠، ٤٦، ٥٤، ٢٣٥، ٢٣٦، ٣٣٩، ٢٤٣،

٢٤٤، ٢٤٦، ٢٤٧، ١٥٢، ١٥٨، ٣٩٧

- ياقوت ج ١ ص ٥٣ ، ٥٩ ، ٢٨٧ ، ٣٩٣ . ج ٢ ص ٩٨
يحيى (عليه السلام) ج ١ ص ١١٣ ، ١١٧ ، ١١٨
يحيى بن خالد بن برمك ج ١ ص ٥٦
يحيى بن معاذ ج ١ ص ١٥٧ ، ج ٢ ص ٢٦٥
ابو يزيد ج ١ ص ١٩٠ ، ٢٧٨
يزيد بن الديان ج ١ ص ٥٣
يزيد بن معاوية ج ٢ ص ١٨٨ ، ٣٤٤ ، ٣٤٥
يسوع ج ١ ص ٢١٢
يعقوب بن الربيع ج ١ ص ٩٠
اليمانى ج ٢ ص ٣٤٥
يوسف (عليه السلام) ج ١ ص ٩٠ ، ١٦٧ ، ج ٢ ص ٤٦ ، ٢٥٣
ابو يوسف ج ٢ ص ١٨٩
يوسف بن الحسين ج ٢ ص ٩٢ ، ٢٣٩
يوسف بن يعقوب ج ٢ ص ١٨٩
يونس بن عبد الأعلى ج ١ ص ١٢٨
يونس بن متى ج ١ ص ٢٧٨
ابن اليمان ج ٢ ص ٣ ، ١١

لم يحو هذا الفهرس جميع أعلام الكتاب ، وانما ذكرت
فيه الأعلام التى يحتاج اليها المراجع فى بعض الأحيان

فهرس

صفحة		كيف نشأ التصوف في الأخلاق	٣
		الادعية والأوراد	٣٨
		آداب الدعاء	٥٢
		دعاء الاستسقاء	٥٦
		ادعية زين العابدين	٦٣
		أدعية التوحيدى	٦٩
		الاستغاثات والأحزاب	٧٨
		الوصايا والنصائح	٨٥
		وصايا ذى النون المصرى	٩٨
		الشجاعة الأدبية	١٠٢
		الدنيا فى أذهان الصوفية	١٢٦
		المقامات والأحوال	١٤١
		التجريد والأسباب	١٦٩
		آداب الطعام	١٨٦
		آداب الصيام	١٩٨
		آداب الزواج	٢٠٦
		آداب الأخوة	٢١٢
		الحب ، الحب . الحب	٢٢٨
		الموسيقا والغناء	٢٦٩
		الآداب الصوفية عند الشعرا فى	٢٧٦
		المهلكات والمنجيات	٣١٠
		خاتمة الكتاب	٣٦٤
		قوافى الجزء الأول	٣٧٦
		فهرس الأعلام	٣٨٧

عَبَقَاتُ الشَّيْرِ فِي الْمَرْصِي

يطلب من المكاتب الشهيرة
وثمان الجزأين خمسة وعشرون قرشاً

وَحْيُ بَغْدَادِ

صُورٌ وَجَدَانِيَّةٌ وَأَدَبِيَّةٌ وَاجْتِمَاعِيَّةٌ

يطلب من المكاتب الشهيرة في القاهرة
ومن المكتبة العصرية في بغداد وثمان النسخة عشرة قروش

لَيْلُ الْمَرْصِيَّةِ فِي الْعَرَفِ

تحليل دقيق لأسرار المجتمع وسرائر القلوب

يطلب من المكاتب الشهيرة وثمان النسخة عشرون قرشاً

The background of the entire image is a repeating geometric pattern. It consists of a grid of squares. Each square is divided into four quadrants by a diagonal line from the top-left to the bottom-right. The top-left and bottom-right quadrants are green, while the top-right and bottom-left quadrants are tan. Within each green quadrant, there are three thin, parallel, diagonal lines running from the top-left to the bottom-right. Within each tan quadrant, there is a small black dot near the top-left corner and three thin, parallel, diagonal lines running from the top-left to the bottom-right. The pattern is consistent across the entire surface.

COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES

on the date indicated below

and after the date

COLUMBIA UNIVERSITY



0026817373

893.791

M88

CALL NUMBER 7

Columbia University
in the City of N

10610081

Loc 1

JUL 23 1947

